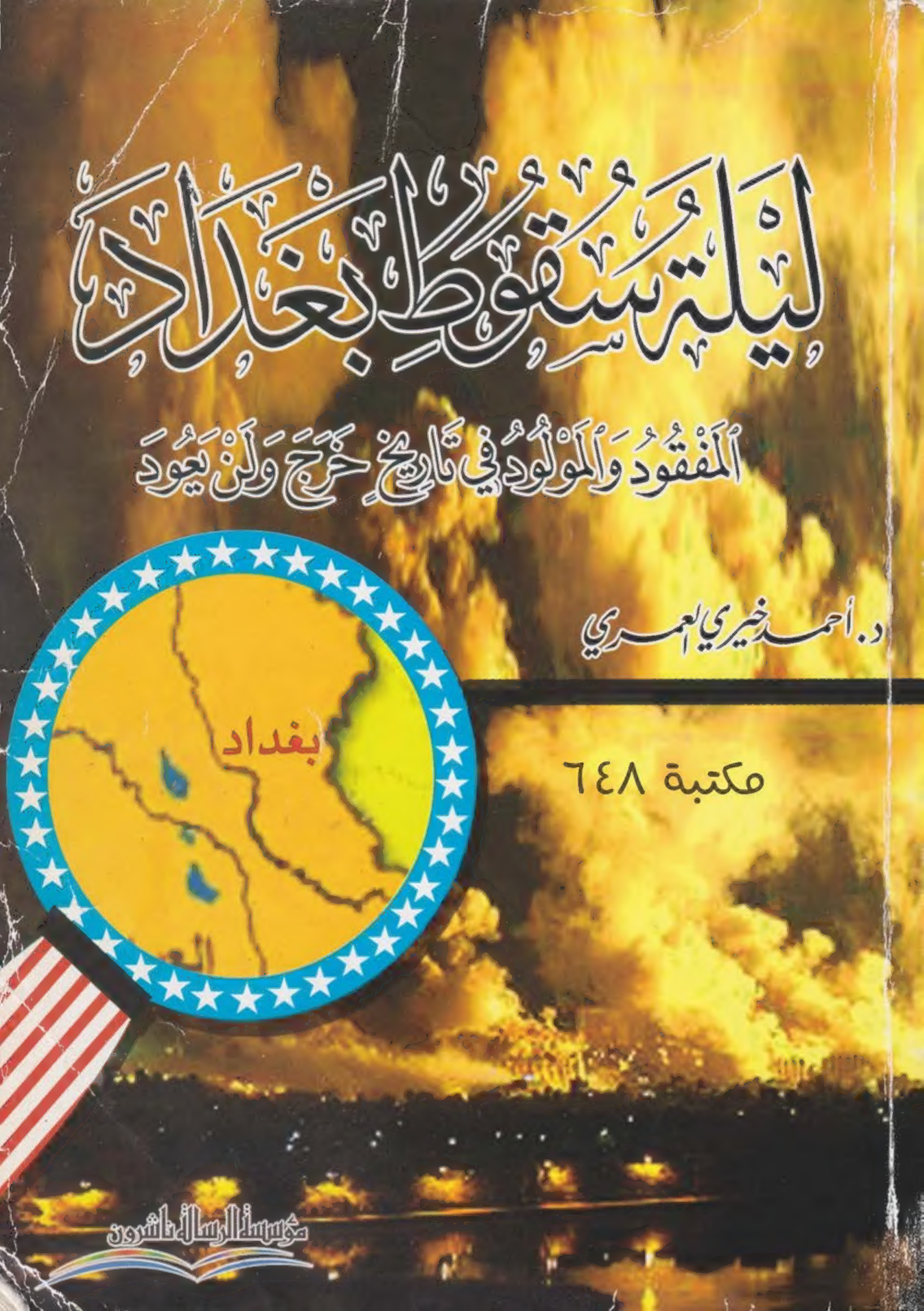


لَيْلَةَ سُقُوطِ بَغْدَادَ
ٱلْمَفْقُودُ وَٱلْمَوْلُودُ فِي تَارِيخٍ خَرَجَ وَلَنْ يَعُودَ
د. أحمد خيري العمري
بغداد
مكتبة ٦٤٨
مؤسسة الرسالة ناشرون

مكتبة | 648

ليلة سقوط بغداد

المَفْقُودُ وَالمَوْلُودُ في تَاريخٍ خَرَجَ وَلَنْ يَعُودَ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

غاية في كلمة



مؤسسة الرسالة ناشرون

منشورات
مروان رضوان دعبول

هاتف: ٥٤٦٧٢١ - ٥٤٦٧٢٠
فاكس: ٥٤٦٧٢٢ (٩٦١١)
ص.ب: ١١٧٤٦٠
بيروت - لبنان

Resalah
Publishers

Tel: 546720 - 546721
Fax: (9611) 546722
P.O.Box: 117460
Beirut - Lebanon

Email:
resalah@resalah.com
Web site:
Http://www.resalah.com

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م

ISBN 9953-32-100-0

لَيْلَةُ سُقُوطِ بَغْدَادَ

المَفْقُودُ وَالمَوْلُودُ فِي تَارِيخٍ خَرَجَ وَلَنْ يَعُودَ

مكتبة | 648

تأليف

د. أحمد خيري العمري

مؤسسة الرسالة ناشرون



كل الشخصيات الوارد ذكرها في هذا الكتاب حقيقية، وكل الحوادث المرتبطة بالشخصيات هي حوادث حقيقية..

أيُّ تشابهٍ، بين الشخصيات والأماكن الوارد ذكرها، مع شخصيات ووقائع وأماكن معروفة، هو تشابه مقصود حتماً، وطبعاً، وبالتأكيد.

ويتحمل المؤلف كافة التبعات المترتبة على ذلك .

استدراك بغدادي في لحظة الطبع ما قبل الأخيرة

إلى الراحل **ماهر عبد الله** الصديق الرقيق و المفكر

العميق الذي أقسر على التخفي خلف بزة المذيع الأنيق.

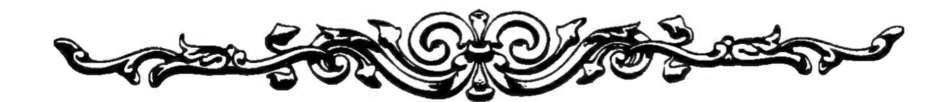
صبيحة السقوط التقينا لأول مرة. و في أمسيته تألقت و أنت تعلق على ذلك المشهد الفريد. كانت كلماتك رصاصات أصابت و جرحت و قتلت،أصابت رأس التمثال و أصابت الجموع و أصابت المفاهيم التي نصبت التمثال على كل تلك الرؤوس عندما تعرفت على رأسك أكثر،عرفت كم يحتوي على رصاص يمكن أن يطلق على مفاهيم تستحق الإعدام–و يقتلني الآن أن النجم الأنيق في النهاية انتصر على المفكر العميق... و ترك كل تلك الأفكار الملغمة خلف قناعه الهادئ المهذب... ويعزيني فقط أني اقتنصت بعض تلك الرصاصات، أطلقتها أنت يوم كان ما كان، و صببتها في أوراقي–المعدة الآن للنشر... و يؤسفني أنها قد تكون كل ما اقتنص من رصاصاتك سواء تلك التي أطلقتها أو التي أحجمت عن إطلاقها لك اليوم أهدي هذه الرصاصات، أطلقها على كل ما تمنينا زواله من مفاهيم، من أجل كل مفكر عميق ألزمه (شيء ما) على السكوت ...و على عدم الإنتاج.

محاولة إهداء

.. إليها - بغداد - الأم التي عقّها أولادُها، عسى أن يكون ضماداً لجرحها الأليم

وإليهم.. أيّا كانوا وكيفما كانوا

عسى أن تكون طعنة في الصميم..



مقـدمة

بعد السقوط

.. عندما دخلت عيادتي لأول مرّة بعد انتهاء الحرب، كان قد انقضى حوالي ثلاثة أسابيع على سقوط بغداد، وستة أسابيع منذ أن بدأت الحرب، **منذ أن كنت فيها لآخر مرة.**

كان كل شيء كما تركته فيها لآخر مرّة ـ **في تلك الليلة الحزينة التي سبقت الحرب..** بقايا الشاي في الكوب على المكتب، ودفتر المذكرات مفتوح على صفحة اليوم الذي سبق الحرب، وفيها دونت آخر الملاحظات، وفي الثلاجة، كان لايزال هناك ماء ـ **لم يكن بارداً طبعاً** ـ فالكهرباء غادرت منذ حوالي الشهر، لكنني كنت عطشاناً، فشربت .... كان مجرد ماء، مجرد ماء، ذرتان من الهيدروجين وذرة من الأوكسجين، أو هكذا كان يبدو، لكنه لسعني بقوة..

لم يكن مجرد ماء، لقد كان ماءً ملأته في القنينة قبل الحرب، إنه ماء نادر، ماء سيظل يتناقص ولن يعود بإمكاننا أن نستعيده مهما كان، لا تصدقوا تلك الدورة الغبية التي لقنوننا إياها في المدرسة، دورة الماء في الطبيعة. هذا الماء لن يدور، لن يعود، لقد خرج ولن يعود، كنقطة تجري في نهر يجري، كنقطة ماء في محض سراب .

إنه ماء يفنى، ولا يستحدث ـ **بغض النظر عن كل النظريات** ـ إنه ماء ما قبل الاحتلال.

.. وكل ماء سنشربه الآن، ونملأ به القناني والأقداح، ونبرده ونرتوي به، سيكون مختلفاً، سيكون مختلفاً حتى لو لم نشعر بهذا الاختلاف .

.. إنه ماء الاحتلال، ماء بلد فقد استقلاله، بلد محتل، لابد أن يكون مختلفاً، كما الهواء مختلف، والغبار مختلف، وكل شيء مختلف.

إذن كان الماء ـ **وقت الطاغية** ـ أفضل ؟

لا. لعله لم يكن كذلك، لكنه كان ماء تعودنا عليه، تدجنَّا عليه، تقولبنا على قوالبه وأساليبه، إلى أن صارت جزءاً من روتين حياتنا ـ **وتعودنا على المرِّ الذي فيه** .

أما الآن، فحتى الماء يبدو أشد مرارة في فمي، كما لو كانت قوات الاحتلال قد وضعت في المياه مادة معينة لتتسرب إلينا وتفتك بأجسادنا ! هل هو سم لن يظهر في التشريح ؟

هل هو السرطان سيظهر بعد عشر سنوات ؟ هل سيعقموننا ؟ يبيدوننا ؟ أم أنها مادة تجعلنا كالخراف المطيعة تتقبلهم كجزارين دون أدنى مقاومة ؟

لعلي أبالغ ! ربما ، أنا متوتر فعلاً ، وتوتري يدفعني إلى الوسوسة والشك بكل شيء .

أمامي بندول الساعة وهو يهتز بسرعة مستفزة ، بسرعة تزيد من توتري ، طالما قال لي مرضاي ذلك ، أن هذا البندول يهتز بسرعة غير طبيعية ، كانوا يقولون ذلك عندما يجلسون على كرسي الأسنان الذي تواجهه الساعة ، كنت أقول لهم : إن الساعة توقيتها مضبوط ، وأن بندولها سرعته طبيعية ، لكنهم متوترون بسبب خوفهم من الألم الذي يتوقعونه خلال عملي في أسنانهم.

اليوم يبدو البندول وكأنه حفار يغوص في رأسي ، يهتز بسرعة ساخرة ، التوقيت هو توقيت ماقبل الاحتلال ، والبندول يهتز بسرعة ، وسط السكون الذي يلف المكان ، يبدو البندول كما لو كان لساناً يخرج لي بهزء واستخفاف وسخرية.

أودُّ لو يقف ، أكاد أصرخ بالساعة ، أكاد أضربها ليقف هذا البندول عن الحفر في رأسي.

أذهب لأغسل يدي ، أتحاشى النظر في المرآة ، أخاف من انعكاس وجهي فيها ، بالضبط أخاف أن أجد فيها انعكاسي القديم ، لايزال جاثماً بانتظاري ، لعله سيلومني ، لعله سيبصق عليَّ ، لو رآني.

ستنظرون إلي بشك : **هل أنت على ما يرام ؟ أولاً الماء ، ثم البندول ، والآن المرآة ،** ربما ستقولون شيئاً مهذباً وتعتذرون وتنسحبون ، وتقولون مع أنفسكم : **لقد جُنَّ** ! لا **لم أجن**. إنني متوتر فقط ، فقد رأيت شيئاً مزعجاً عندما صعدت إلى عيادتي ، شيئاً ما كنت أتصور قط أني سأراه يوم تركت العيادة لآخر مرة قبل ستة أسابيع.

ما هو هذا ؟

حسناً. لقد رأيت رجلاً يأكل الآيس كريم عند مرطبات الرواد[1] على الناصية.

.. وماذا في الأمر ؟ رجل يأكل الآيس كريم في « **عزِّ الصيف** ». ما المشكلة التي جعلتك تتوتر ؟

---

(١) مرطبات الرواد في المنصور : واحدة من أشهر محلات بيع المثلجات في بغداد ، تقع على التقاطع الذي صار يسمى بأسمها ، و عندها تقريباً وقعت محاولة اغتيال عدي صدام حسين.

في الحقيقة، لم يكن رجلاً فحسب، كانوا مجموعة من الرجال، لكنهم ليسوا أي رجال، كانوا ثلاثة أو أربعة من جنود الاحتلال، يأكلون الآيس كريم وهم مدججون بكامل عدتهم العسكرية، مدججون بأدوات احتلالهم، أدوات إذلالنا، بحكمهم المسبق علينا، وبنظرتهم المسبقة وأفكارهم الثابتة.

عند ناصية الرواد ـ وقف جنود الاحتلال، يأكلون الآيس كريم .

أكلت أنا العلقم، تجرعته بمرارة.

أمر لن يفهمه إلا من شب وكبر ليصير ركن الرواد جزءاً من زوايا ذكرياته وأركان حياته ـ **كما أنا** ـ

ذلك اليوم : **آيس كريم لجنود الاحتلال. وعلقم مرير لي، قبل أن أصعد إلى العيادة.**



شق صوت الأذان سكون الصمت المحيط، بدا صوت الأذان غريباً، وحزيناً، ومألوفاً في الوقت نفسه.

كان نفس الصوت الذي تعودت أن اسمعه يرفع الأذان على مدى الأربع سنوات السابقة. لكنه كان منكسراً، ذليلاً، أسيراً هذهِ المرّة.

كان مخنوقاً متحشرجاً، كما لو كان على وشك الإجهاش بالبكاء. . . . .

لا بأس بقليل من الانكسار، في الصوت الذي يرفع الأذان، لكن عندما يكون للذي توجه له الصلاة.

أما هذا الصوت، فقد كان انكساره مختلفاً، كان مشوباً بذل يشبه ذلّ من أجبر على رؤية زوجته وهي تغتصب وينتهك عرضها. . .

.. كان ذلك مفهوماً تماماً .. العلقم أيضاً..



عندما دخلت حرم المسجد وجدته موحشاً مظلماً، كانت هناك بعض الوجوه المألوفة، لكن كان فيها شيءٌ غير مألوف..

فكرت أنهم ربما يفكرون بالشيء ذاته نحوي.

وعند الصلاة بكيت، تذكرت آخر مرّة صليت فيها قبل الحرب، صلاة العشاء، عشية الحرب ـ **العشاء الأخير** ! ـ.. وتذكرت دموعي وقتها.. أشفقت على نفسي، أبكي قبل الحرب، وأثناء الحرب، وبعد الحرب، ماذا ستكون النتيجة مع هذا البكاء غير هذا الاحتلال والإذلال، غير هذا العلقم الذي أجده على لساني أينما ذهبت ؟



وعندما خرجت من المسجد، انتبهت إلى صورة ملصقة على بابه، إنه إعلان عن فقدان شاب. من هو ؟ مجرد شاب آخر، اسمه من تلك الاسماء المألوفة الشائعة : **فراس عبد الجبار**. كان معي، في المدرسة، على الأقل ثلاثة أصدقاء بهذا الاسم، ولزوجتي أيضاً ابن عم يحمل الاسم ذاته.

قرأت التفاصيل، كان الإعلان يرجو من يمتلك معلومات عن هذا الشاب أن يدلي بها عند عنوان معين، « **وله الأجر والثواب** ».

.. كان الإعلان يقول أيضاً : إنه فقد في منطقة الدورة، بتاريخ معين.

تأملت التاريخ، ٨/ ٤/ ٢٠٠٣ .

إنها ليلة سقوط بغداد ..

كان الأمر واضحاً جداً، لكن ليس بالنسبة لمن ألصق الاعلان، كان من الواضح أن الشاب قد قتل، وأن واحداً من أولاد الحلال قد دفنه ـ **كما حصل للمئات** ـ وكان من الواضح أن أمه، التي ربما ابيضت عينها من البكاء عليه ـ **ترفض أن تصدق** ـ ولا تزال تقف قرب الباب تنتظر.

تأملت في صورته، كان يبدو أنه في أوائل العشرينات من عمره، وكان مبتسماً في الصورة، ربما كانت قد التقطت بمناسبة تخرجه.

.. كانت ابتسامته جميلة، ليست على شفتيه فقط، ولكن أيضاً في عينيه.

كان وسيماً، ليس كوسامة نجوم السينما والمشاهير، ولكن كوسامة أولاد الناس الطيبين. أقربائكم وأقربائي، أصدقائكم وأصدقائي، إنه يشبههم جميعاً ـ **بشكل غامض** ـ يشبهني أنا أيضاً ـ **قبل عشر سنوات** ـ عندما كنت في مثل سنه، وكنت نحيلاً مثله.

كان يشبهنا جميعاً ، ذلك الجيل المحبط المضلل المهزوم!

فجأة، وجدت الصورة وقد صارت بمثابة صورة جماعية اصطففنا كلنا لنلتقطها : **نحن المخدوعين. نحن المضللين. نحن الأسرى المهزومين .**

تأملت في ابتسامته على الصورة : **لمن كنت تبتسم يا فراس ؟ للكاميرا ! للمصور وتعليماته ؟**

للمستقبل الذي كنت تريده لنفسك ؟ للأحلام الوردية التي تناسب سنك ؟ للشعارات الزائفة ؟ للمنافقين الذين يرددونها ؟ لأولئك الذين **باعوك** وهربوا ؟ لأولئك الذين كانوا **أول من استفاد وانتفع و لكن أيضاً أول من هرب ؟**

هل كنت تبتسم لأمك ؟ لحنانها، لحضنها المضمون دائماً ..**لو أنك تراها الآن يا فراس .. لو أنك تراها** ! أم لعلك كنت تبتسم لفاعل خير مجهول، سيأتي ليواريك التراب، وانت ملقى هناك، ميت في العراء.

أم لعلك كنت أوعى مما نتصور، وكنت تبتسم لتلك الحقيقة، حقيقة أنك صرت شهيداً، هناك عند من لا يجوع عنده ولا يشقى !

فراس عبد الجبار، خرج ولم يعد. ليلة سقوط بغداد .

وهذه هي رحلة البحث عنه، وعنا، وعنكم أيضاً، بطريقة ما.





المحور الأول

الفصل الأول

إنها الحرب!

إنَّها الحرب!

عشرة أيام منها ..

لكن كلَّ شيء قبلها يبدو بعيداً ومغبشاً، كما لو كان في عمرٍ آخر وحياة أخرى لأشخاص آخرين.

بالكاد عشرةُ أيَّام !

لكننا جميعاً أصبحنا أناساً آخرين في هذهِ الأيام العشرة، صهرتنا الحرب وغيَّرت ملامحَنا، وذوَّبت كلَّ حياتنا السابقة، وفي عشَرَةِ أيام فقط ـ إنْ لم يكنْ قبلهَا ـ صارت حياتي السابقة وتفاصيلُها الكثيرة كلها بعيدةً، كما لو كانت حُلُماً لست متأكداً متى رأيته، بل إنني لست متأكداً حتى إن كنت قد رأيته حقاً.

كل شيء صار يبدو بعيداً بعيداً جداً، كما لو كان صورة عالقة في ذاكرة طفل يتيم لأمه الراحلة.

كلَّ شيء صار يبدو مختلطاً وغير واضح، مثل حبة سكر وقد ذابت في برميل كبير للقهوة.

كل شيء عن حياتي السابقة قبل بدء الحربْ صار يبدو كما لو كان لا علاقة لي به اليوم، عيادتي الخاصة وعلاقاتي وأعمالي وصداقاتي واهتماماتي.

كل شيء يبدو بعيداً عن آلاف الأميال، ويزداد بعداً ـ **كل يوم ـ ميلاً** بعد آخر.. بعد آخر.

كل شيء يبدو أنه كان يهم شخصاً آخر بعد عشرة أيام من الحرب، وعندما سألتني زوجتي وهي تهم بتفقد روضتها ـ **إذا كنت سأذهب لتفقد عيادتي؟** ـ ارتعبت كمن قالوا له: إنَّ على الباب شخصٌ يطلبه، وقد كان يتوهمه مات منذ عدة عقود، في أعماقي، وبشكل لاواعي ولا إرادي تماماً ـ يوجد شخص لم يعد متأكداً إلا من الحقائق الشاخصة أمامه، لم أعُد متأكداً من أنَّ عيادتي لاتزال واقفةً في مكانها الخطر ذاك، ولم أعد متأكداً من أنَّ أصدقائي ـ هيثم أو أثير أو آزر ـ لايزالون أصدقائي، لست متأكداً من أنني ذات الشخص الذي كنته..، والذي بذل ومنح وصدق وأحب وكره، فجأة تقلص عالمي، وخصوصاً بعد انقطاع الاتصالات، وجدت نفسي والأرض تضيق علي بما رحبت.. وجدت الحقائق في حياتي تقل عدداً وتتضخم حجماً.

فجأة غادرت عالمي التفاصيل، وما ـ كان ـ أكثرها في حياتي السابقة، ولم تعد هناك سوى حقائق قليلة متناثرة ـ ألملمُها من بعثرتها لأشكل صورة شاخصة أراها بوضوح وتمييز.

وفي كل مرة أُلَمْلِمُ الصورة من شتاتها، لا أرى سوى ذلك الصاروخ الحاد النصل يتهددني وأولادي...

لا. ليس يتهددني وأولادي فقط، ولكن يتهدد كل قيمي، وكل معتقداتي، وكل كياني، وكل أرضيتي، وكل ماضيَّ، وكل مستقبلي...

وفي كل مرّة أعيد لَمْلَمَةَ الحقائق، لعلّي أرى في الصورة تفصيلاً أخر يعلمني كيف أقاوم نصل الصاروخ الذي يتهددني وأولادي ومدينتي.

ولولاه، لولا يقيني أنه لن يخذلني، وأنه لن يتركني، وأنه لن يخونني، لولا يقيني أنه سيخرجني من بطن الحوت، لأنهرت مثل رصاصة طائشة سقطت على شاطئ نهر جاف.



اليوم العاشر :

والمقاومة ضارية، وشرسة، وغير متوقعة؛ أو أنهم يقولون: إنها لم تكن متوقعة، بالضبط كمن توقع من القطة أنْ تسترخي مخالبها وهي تراهم يسرقون صغارها.

نعم، المقاومة ضارية، وشرسة، والدماء الحمراء التي تسيل هناك في الجنوب بيضت وجوهنا.

ولكن، رغم ذلك، في شريعة الغاب السائدة منذ عصور ـ والمكرسة اليوم كما لم تكرس أبداً من قبل ـ منطق القوة يفوق منطق الشجاعة.

وسينضب دم أولئك الشجعان الذين ما أعطيناهم حقهم يوماً، وسيقترب الغزاة أكثر، فأكثر، فأكثر.

وبعد أيام، أو أسابيع، سيتمكنون من تطويق المدينة، وسيحاصرونها..

سيحاصرونها.سيحاصرونها..

❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂

إنَّه اليوم العاشر من الحرب فقط :

والعذاب هو أنْ تجلس في بيتك، وحولك صغارك لتنتظر الحصار الذي قد يدوم لأشهر، سنرى فيها من القصف والترويع والتجويع ما لايعلمه إلا الله وحدَه، والهول هو أنَّ العدو الذي يزحف ـ ببطء نعم، مثخناً بجراحه نعم ـ عليك لايمثل عدواً يريد امتلاك أرضك وثرواتك فحسب، ـ وبشكل عابر ـ بل هو عدو يريد تمريغ أنفك ـ وأنف قيمك وأنف معتقداتك وأنف دينك ـ في تراب موحل قام بتقذيره بنفسه.

الهول هو أنَّ العدو الذي يزحف ـ **هو عدو بشكل شخصي** ـ عدو حاربت قيمه وثقافته ومعتقداته طيلة حياتك، وفجأة ويا للمفارقة، جاء ليحاربك في باحة دارك، هذهِ المرّة حرباً حقيقية ـ **ليس بالغزو الثقافي** ـ ولا عبر القنوات الفضائية، **ولكن جاء مدججاً بأسلحته ودروعه وتقنياته، ليقصف وينهب ويقتل ويسلب و يدفع برجله باب دارك.**

والامتحان هو أنْ تصمد.

أن تصمد . أن تصمد.

وأنْ لا يتحول أسد القيم الهصور إلى فأر متخاذل مذعور.

وأنْ لا تسوِّد وجهَك برفع تلك الراية البيضاء المرهقة بالذل .

وأن تصمد، أن تصمد.



.. الصمود!

.. والصمود في مدينة تتعرض للقصف في كل ساعة، ـ حتى لا أقول كل دقيقة وتنتشر فيها سحب الدخان الأسود المحترق ـ مسألة فيها وجهة نظر.

الصمود..

والصمود في مدينة يهجرها أهلها باستمرار، وتلاحظ في كل يوم بيتاً جديداً في الحي قد أحكم بأقفال أبوابه الخارجية ـ كدليل على أن أهله قد تركوه، هو مسألة تستحق الوقوف والتأمل.

.. والصمود في مدينة مهددة بالحرق حيناً بعد آخر، وبالقصف المكثف بالقنابل العنقودية بيتاً بعد آخر، بل وحتى بالخنق بالغازات السامة نَفَساً بعد آخر.

.. وكحلٍّ أخير، لن يتورع عدوك أنْ يستخدم سلاحاً ذرياً، يقضي عليك ذرة بعد أخرى.

والصمود هو ، **أن تعرف ذلك كله، تسمعه كل يوم مئة مرة، وتعيه وتعي عواقبه، ورغم ذلك كله، تحتضن أولادك حولك، وتزم شفتيك، وتكز على أسنانك.. وتقرر أن تبقى.. وأن تصمد في مدينة رغم أنها مهددة بالحرق والفناء.**



والصمود، قبل كل شيء، ليس حياداً سلبياً، ليسَ أن لا تفعل شيئاً، فقط أنْ تنتظر وتحاول البقاء على قيد الحياة بانتظار ما ستؤول إليه الأمور .

الصمود مسألة معقدة.

الصمود قضية، الصمود عقيدة، الصمود حكاية طويلة قد يستغرق إعدادها حياتك بأكملها، ربما يجب أنْ تستمر كل حياتك لتمنحك (مؤونة) لصمود أسبوع أو اثنان أو عشرة أسابيع.

الصمود بعد نظر.

الصمود قصة بعيدة المدى .

الصمود، هو أنْ تبحث في أركان البيت عن مكان قد يحمي أولادك إذا سقطت عليه قذيفة، وأنْ تتأمل في السقف لتبحث في أحجاره عن واحدة تتخيلها أكثر حناناً على جباه أطفالك.

الصمود هو أنْ تحسب قناني الماء الموجود، وتنظر إلى خزاناتك، وتتأمل في البئر الذي حفرته في الحديقة ـ وأنت تعرف أنَّ ماءه غير صالح للشرب، وأنت تعرف أنَّ الصيف قادم ـ ولكن، مع ذلك، تزم على شفتيك .. وتقول: **سأبقى.**

الصمود هو أنْ تبقى، أنْ تحسم أنت أمرك بينما يحزم الآخرون حقائبهم، وبينما يذهبون ليأجروا غرفة صغيرة في أقصى الغرب أو أقصى الشمال، تذهب أنت إلى الطرف القصي من بيتك ويداك على أولادك، **وعيناك تتجهان صوب عين الله وشفتاك تتمسكان باسمه.**

الصمود هو ما تكتشف فجأة، أنك تستمده منه بالذات، وبشكل شخصي، ومن اسمه بالذات : الصمد..

الصمود، هو أنْ تبقى من أجل أولادك ـ وبينما يقول لك الآخرون معتذرين: إنهم يغادرون من أجل أولادهم، تبقى أنت من أجلهم، وتصمد أنت من أجلهم.

وفي شدة العاصفة، تتمسك أنت بجذع الشجرة، من أجلهم.

وتحت القصف، في عزِّ القصف، وعُنف القصف، تقف أنت تحت السقف، وهو ربما يهتز، لاتشك أنت لحظة في صواب قرارك، وتصمد .

.. من أجل أولادي أيضاً، بطريقة أو بأخرى، قمت بإحضار خالاتٍ لي، ليكونوا في أمان نسبي في منزلي، طيلةَ فترة الحرب.

في الحقيقة إنَّ كلمة إحضار غير دقيقة، فقد تطلب الأمر وقتاً غير قليل، ومحاولة إقناع عجائز في السبعين من أعمارهن بالخروج من منزلهن، هو بالذات حرب.. حتى لا أقول جهاد.

وبعد مناورات طويلة، استراتيجية وتكتيكية، وأخذ ورد، وعهود ومواثيق، بل وحتى تهديدات، توصلت إلى إقناعهن، وتظاهرن هنَّ، بأنهن اقتنعن فقط من أجلي، حتى لا أضطر للخروج يومياً للاطمئنان عليهنَّ في ظل ظروف الحرب.

وفي الأمسية التي سبقت الحرب، وقد كانت أمسية مفجعة بهدوئها وقاتلة باستسلامها ذهبت لإحضارهما، لكني أحضرت واحدة فقط ـ لأن سيارتي في الحقيقة لم تكفي لحاجياتهما معاً ـ فقد استنفرت خالاتي كل خبراتهن في الخزن والإخلاء والإمداد والتموين ـ وهي خبرات موروثة من عهود الحروب والأزمات السابقة ـ في الإعداد لحاجات وأمتعة ملأت السيارة ـ وأيضاً شقتي الصغيرة ـ **وتبين لنا** ـ حتى الآن، أنها غير ضرورية.

وبينما كنت أنقل الأمتعة، وكانت السيارة الأخرى التي ستقل خالتي الأخرى وأمتعتها قد وصلت، كانت واحدة من خالاتي تتذمر من عدة أشياء دفعة واحدة: مني، ومن عجلتي، ومن خالتي الأخرى، ومن الأمتعة المبعثرة في كل مكان، ومن خوفها على قطتها التي ستتركها وحدها.

.. وكانت تتذمر أيضاً ـ **حتى دون تقول** ـ من هذا الوضع الذي يدفعها إلى ترك منزلها ومنزل والدها.

في الطريق إلى المنزل، عددت خالتي عدد المرّات التي اضطرت فيها إلى ترك المنزل واللجوء إلى الأقارب بسبب الحروب، أو الأزمات السياسية التي مرَّ بها البلد في العقود السبعة الماضية.

كانت خمس أو ست مرّات ـ عدا هذهِ المرّة، تركت كل منها خطاً من التجاعيد على ذلك الوجه الذي كان نَضِراً يوماً ما ـ وربما إلى الآن رغم آثار الزمان ـ لكن التجاعيد التي تركتها الأزمات والحروب كانت مختلفة، تكاد تصيح : **ههنا أنا مختلفة ومتميزة** : مزيج من الصبر والتحدي والتحمل والمرارة والاستسلام الشجاع للقدر الذي لا مفر من الاستسلام له.

كان منزل جَدي ـ الذي تقطنه خالتاي وحيدتين منذ وفاته في أواخر السبعينات ـ يقع على ضفة النهر قرب محطة الإذاعة والتلفزيون، الأمر الذي جعله مستهدفاً دوماً في كل الانقلابات والأزمات والاضطرابات السياسية التي شهدتها البلاد، ناهيك عن الحروب.

كان منزلاً على الطراز القديم، وأعني بالطراز القديم ذلك الطراز الذي يستوجب وجود طاقم كامل من الخدم والحشم لإدامته وخدمته وخدمة سكانه، بوجود أكثر من ثماني عشرة غرفة في البيت ـ عدا أجنحة مستقلة ومنفصلة للخدم ـ وهو الأمر الذي كان متوفراً في وقت ما، كان والدهن ـ الذي هو جدي، ثرياً إلى حد كبير، وكان بالإضافة إلى ذلك سياسياً تقلَّد مناصب وزارية عديدة ولعدة مرات في العهد الملكي، وكان أيضاً صاحب مجلس أدبي وسياسي يؤمه علية القوم وأشباهُهم والمتملقون حولهم، وكان وجود عدد من الخدم والحشم جزءاً مكملاً لإكسسوارات الوجاهة على ما أظن، وفي وقت ما ـ غابر وبعيد ولا أذكر أي شيء عنه ـ كان هناك طباخان وسائقان، عدا الحرس وخدم التنظيف، لكن الزمن تغير طبعاً، والمجتمع الذي ضم إمكانية وجود إكسسوارات كهذه لم يعد موجوداً، طارت الوزارة، وطار علية القوم ـ وجاء بدلاً عنهم آخرون سيعيدون القصة ذاتها فيما بعد ـ وذهب المتملقون ليمارسوا نفاقهم ومراهنتهم في مجالس أخرى، وتآكلت الثروة طبعاً، ونشأ مجتمع لم يعد فيه هناك إمكانية لممارسة تشاوف كهذا بهذا العدد الكبير من الخدم كان ذلك لثلاثة عقود فقط، ثم عاد بأشد مما كان عليه، وبالتدريج تقلص عدد الخدم إلى ثلاثة أو أربعة **فقط** ! ـ مما كان يبدو ضرورياً جداً ولا غنى عنه حتى في السبعينات .

ولاتزال ذاكرتي تحتفظ بصورة : طباخ عجوز، وحارس متهالك، وسائق شاب يتبدل باستمرار بسبب مشاكل السيارة .

بعد وفاة جدي، تغير الأمر، وتغير المجتمع أكثر، لكن الأمر كان غير ذلك بالنسبة لخالاتي، يستطيع الخدم أن يولوا ظهورهم، ويستطيع المنافقون أن يكفُّوا عن المجيء، ويستطيع جدي أن يموت **إذا شاء** ! لكن شيئاً من ذلك لم يجعلهنَّ يتركنْ المنزل .

كان تمسكهن به عجيباً واستثنائياً ونادراً، مزيج من الوفاء والتحدي والتمسك بالزمن الذي راح، والعمر الذي راح والناس الذين راحوا، مزيج من التشبث بالماضي من أجل أن يستمر ويصير مضارعاً حاضراً في كل حين، إنه رهان خاسر طبعاً ومحاولة محكومة بالفشل، لكن ليس بالنسبة لهن، وفيما يتعلق بالبيت : إنَّا ههنا قاعدون.

.. ومع مرور الوقت، لم تعد المسألة مسألة طراز قديم أو حديث، بل صارت طبيعة المكان مختلفة، فمع توسع بغداد الشديد، ونشوء أحياء سكنية حديثة وراقية، فرغت الأحياء البغدادية القديمة من سكانها العتق، الذين فسحوا المجال لنوع جديد من السكان، وأدى ذلك إلى انحدار مستواها ـ **اجتماعياً** ـ أكثر .. فأكثر.. فأكثر.

لكن ذلك أيضاً لم يفتَّ في عضدهن وتصميمهن على البقاء، كما كُنَّ يتذمرن من الجيرة ومن سوئها، ومن القاذورات أمام الباب، ومن كل شيء ـ **لكن ذلك لم يكن معناه أبداً ولا حتى جدلاً** ـ التفكير في الخروج من المنزل، وكانت أي ملاحظة أو نصيحة أو حتى نقاش تبذل من أي من الأصدقاء والأقارب في هذا الصدد تواجه لا بالصد فحسب، بل بالعداء المستحكم أيضاً، بل بالتشكيك في نية الشخص صاحب النصيحة، وربما بالشطب الأبدي عليه إذا ألحَّ في الجدال .

وللإنصاف، فنصيحة كهذه كانت دوماً لها وجهة نظر، خصوصاً في العقد والنصف الأخير. حيث أدَّت التحولات الاجتماعية المصاحبة للحصار إلى زيادة حالات السرقة المسلحة وغير المسلحة، وكان وجود بيت معروف بالثراء القديم لأصحابه ـ **محاطاً ببيئة مختلفة وشبه معادية** ـ وتسكنه امرأتان وحيدتان، وله منافذ متعددة على شاطئ النهر، ومداخله كثيرة ومخابئه أكثر، كان لابد لكل ذلك أن يكون مغرياً للصوص، وقد أمسكت خالتي وحدها باثنين منهم في حادثتين منفصلتين مجلجلتين.

في الحادثة الاولى : اقتحم عليها اللص الذي كان يكثر من مشاهدة أفلام الحركة الأجنبية على ما يبدو، إذ كان مرتدياً لجورب نسائي في وجهه، دخل عليها غرفتها بينما كانت تقرأ القرآن، واقترب منها بهدوء ليكممها على ما يبدو، لكن رد فعلها لمشاهدته كان على غير ما يحدث في تلك الأفلام، فبدلاً من الإغماء المعتاد أو الاستسلام

المنشود، كان أنْ أنشبت أظافرها في العمق من رقبته، وكان ذلك مفاجئاً له ولخطته، فانطلق هارباً لايلوي على شيء، تاركاً جزءاً من جلده تحت أظافرها.

رد فعلها في الحادثة الثانية كان أقوى، ففي ذات ليلة كانت تعاني من الأرق، وذهبت لتشرب في الحمام، وهناك وكما يحدث في أفلام الرعب، وجدت في المرآة، بالاضافة إلى وجهها وجهاً آخراً، لشخص يختبئ خلف الباب، تسلل على ما يبدو خلال ساعات الليل الأولى، وأختبأ في الحمام منتظراً السكون ليسرق ما يستطيع سرقته.

وماذا كان رد فعلها ؟. لاشيء مما يحدث في أفلام الرعب، أمسكته من يده ـ **ما الذي جاء بك إلى هنا ؟** وأرشدته إلى الباب الخارجي وسط وابل من السباب والشتائم من العيار المتوسط مما لا يتنافى مع مستواها الاجتماعي .. لو أنكم ترونها. صغيرة الحجم دقيقة البنية. لاتكاد تقوى على الوقوف في الحالات الاعتيادية دون أن ترتجف بطولها. لكن قارن ذلك بردود أفعالها مع من تتصور أنه يعاديها، **إنَّها قطَّة** مستنفرة على الدوام، حادة الطبع صعبة المراس، علمتها رؤيتها للأشياء أن تكون مخالبها جاهزة دوماً ـ لكن للدفاع عن النفس.

تحت المخالب يوجد عطاء بلا حدود، عطاء أسطوري في عصر يصف الأقارب ـ عموماً ـ بأنهم عقارب، كانت خالتي تلك ـ **القطة المستنفرة** ـ خيمةً لنا في أوقات شدَّة عديدة وصعبة ـ **وخلف تلك الحِدَّة يوجد حنان قد لايلاحظ فوراً** ـ لكنه يتجاوز تفاصيل الحنان التقليدي وأساليبه السريعة الذوبان، ليحضر في العمق من تاريخ الشخصية.

في تلك الأمسية، بينما كانت خالتاي توزعان أمتعتهما ـ **كنت أحاول أن أفكر بهدوء** ـ والحرب تكاد تبدأ خلال ساعات، كنت أحاول أنْ أرتب أفكاري، **كنت أعي أنني أعيش لحظات فاصلة، وأنَّ الذي سيأتي لن يكون كالذي راح أبداً ـ وأنَّه منعطف حاد أشهده، بل تقاطع طرق لن يتكرر دوماً** .

كنت أعلم ـ **أنَّهاحرب فاصلة، وأنَّها ليست كالحروب السابقة، دون أنْ يبخس ذلك شيئاً من أي منها، معاذ الله** ..

لكنها حرب مختلفة : بعد أنْ يهدأ كل شيء، إذا هدأ ! ستكون الحرب أقوى، وستطال كل مالم يستطع القصف أنْ يطاله.

ستكون الحرب بعدها موجهة للبنية الشخصية، بعد أنْ طال القصف والطائرات البنية التحتية.

ستكون الحرب موجهة نحو كل القيم والعقائد التي جاؤوا أصلاً من أجلها، وبعد أنْ ينتهي القصف، ستبدأ الحرب الحقيقية ...

فكرت بذلك والحرب لم تبدأ بعد، وفكرت أيضاً إذا صمد السقف بوجه القصف، علينا نحن أنْ نصمد أيضاً بوجه الحرب على القيم والمبادئ، وفكرت أيضاً، وأولادي يتحلقون حول الخالات، إنَّهم يريدون ذلك أيضاً، يريدون هذه اللمة وهذا التماسك، يستهدفون بالذات هذا النسيج الاجتماعي الذي يجعل خالاتي يلتجئن عندي في ظروف كهذه، فالنموذج الذي يريدون ترويجه لايجعل ذلك ممكناً، بل يجعل مكان خالاتي في دار للمسنين حسب الطراز الغربي، ويجعل كل فرد منغلقاً على نفسه وعائلته الصغيرة و هو يصيح : نفسي نفسي.

إنَّهم يريدون عمق النسيج الاجتماعي، وقد كانوا دوماً يريدون ذلك، صحيح إنهم يريدون النفط وبعض الأمور الأخرى، لكنهم يستهدفون أيضاً ما هو أهم من ذلك، إنهم يريدون تلك البنية التي يمكن لها أن تستثمر ـ **يوماً ما** ـ النفط والأشياء الأخرى.

عشية الحرب، وأنا أفكر بملء آذان أطفالي بسدادات تقيهم أصوات الانفجارات المرتقبة، فكرت بصمود خالاتي في منزلهن عبر تعاقب الأزمات، فكرت بتمسكهن به، ورفضهن التخلي عنه بلا هوادة.. بلا جدال.. بلا نقاش.. عشية الحرب، ذكرت في المعنى من ذلك الذي يرتسم أمام عيني قبل ساعات من بداية القصف.

فكرت أننا ربما نحتاج أن نتعلم منهن ـ دون حذلقة خطابية وتصعيدات عاطفية- عن الصمود والتمسك.

بدا بيت جدي القديم ـ والآيل للسقوط في بعض أجزائه وغير الصالح للسكن حسب بعض المقاييس ـ بدا وكأنه رمز لكل ما ورثناه ولكل ما يريدوننا أن نتخلى عنه.

نعم، كما بيت جدي يحتاج إلى اصلاح، وربما إلى إعادة بناء في بعض أجزائه، فإنَّ موروثنا كذلك يحتاج إلى غربلة وإعادة نظر، بعض أجزائه آيلة للسقوط وتحتاج إلى إزالة، وبعض أجزائه تحتاج إلى ترميم، وبعض أجزائه تحتاج إلى نسف من الجذور، وبعض الأجزاء يجب أن تضاف إليه .

لكننا يجب أن نصمد، يجب أن نتمسك، ورغم وعينا بالعلل والمشاكل في موروثنا، يجب أن نتشبث .

وفي أدمغتنا، تحت قشرتها الرقيقة، يجب أن تنمو لنا تلك المخالب التي تدافع بها القطط عن صغارها إذا هاجمها أحد، قططاً مستنفرة يجب أن نصير، ندافع بأظافرنا عن وجودنا وقيمنا .. كينونتنا .. دونما خطابات، كانت خالتاي مثلاً حقيقياً عن إمكانية ذلك صحيح إنه مثل يحتاج الى تعديل وتصحيح .. لكنه مثل واقعي .

فكرت مع نفسي، بل تفلسفت قليلاً، عشية الحرب، وأنا أرى احتفال أطفالي واحتفائهم بخالتيَّ ..

وبعد بضعة ساعات، بدأ القصف.



بعد بضع سنوات من الآن، ستتسرب تقارير صحفية من واحدة من كبريات الصحف الغربية، لسبب أو لآخر، وستورد تفاصيل بعضها مأخوذ من كلمة من هنا وكلمة من هناك، وبعضها مدعوم بوثائق، وأرقام وحسابات أرصدة مصرحة، وبعضها اعترافات صريحة لأناس عرفوا وسكتوا وقرروا ـ **أن يتكلموا** ـ لسبب أو لآخر .

ربما لن تتضح الصورة من تقرير صحفي واحد، لكن تقريراً سيجر آخر، كل منهم سيضيف جزءاً من الصورة إليها، وستتكامل الصورة بالتدريج، لتفضح عن أصل ومنشأ ذلك الصاروخ الحاد الذي يتهددني وأولادي، وقيمي .

ستكون هناك شركة ضخمة للسلاح، يعاني مديرها من بعض المتاعب، ويحتاج إلى أنْ يروج لبضائعه بشكل فوري وحاسم، وماذا أفضل من حملة دعائية للأسلحة الحديثة غير تجريبها عبر حرب حقيقية ؟..

لذلك وجد هذا المدير أن رش الأموال يميناً ويساراً في بعض أروقة إدارة سياسية ما، سيكون أضمن ـ **وحتى أوفر** ـ من أجل التخلص من متاعبه..

وستكون هناك شركة نفط عملاقة **شيفرون أو شل أو كلاهما !** ـ حسبت الأمر بدقة ووضوح، و وجدت أن الأمر بدأ يتسرب من يدها، وأن البساط سينسحب من تحت أقدامها لصالح شركات نفط منافسة، فقررت أن الهجوم أفضل وسيلة للدفاع، وأن **فاز باللذات من كان جسوراً**، وبدلاً من المناورة والمساومة التقليديتين، قررت أن تقفز لتصحح الخطأ الجغرافي الذي جعل بحيرة النفط تقع عندنا لا عندهم، وعينت واحداً من

موظفيها في ذلك المركز الحساس، وأعطت عمولة ضخمة هنا، و وقعت على صك على بياض هناك، وأكرمت هذا، وأنفقت على ذاك، وهددت فلان بما لديها من الصور والوثائق، وأغرت علان بمنصب ما في الفترة القادمة .

ستكون هناك شبكة إعلامية ضخمة **فوكس نيوز أو سكاي نيوز** ، وقد جهزت نفسها لتتصدر المحطات الإخبارية واشترت حقوق التغطية الحصرية من البنتاغون، ودفعت من أجل ذلك مبالغ طائلة أملاً في الحصول على أعلى نسب المشاهدة، التي تعني، ضمن ما تعني، أعلى أجور في الإعلانات المدفوعة الثمن .

وسيكون هناك موظف ما في حملة إنتخابية قادمة، ذكي وطموح وأفكاره جرئية إلى أقصى حد، وجد أنَّ الأمور سيئة إلى الحد الذي لايمكن معه أن يعاد الانتخاب، إلا بمعجزة أو بفلم هوليوودي، فكتب تقريراً، أفكاره تستند إلى سيناريو خيالي، قامت بتمويله وإنتاجه شركات النفط والسلاح، وقام مخرج أرعن بتحويله إلى أرض الواقع .

وربما سوف يكون هناك، ما ندري جيداً ولانشك لحظة إنه موجود، لكن لأسباب عديدة لن يكون في التقارير، تلك النجمة السداسية، وذلك الشمعدان اليهودي الشهير، الذي يلم الأطراف، ويحيك الخيوط، **سيكون رئيس مجلس إدارة شركة السلاح يهودياً ، لن يقول ذلك أحد في الصحافة، وسيكون سبعة من أصل عشرة من أعضاء مجلس الإدارة يهوداً كذلك ، ولن يقول أحد هذا أيضاً.**

وستكون شركة النفط العملاقة يهودية بالمال والنسب والمصاهرة، لن يقول أحد أيضاً ، إنَّ الشبكة الإعلامية ستكون غاطسة تماماً ـ حتى أمِّ رأسها ـ في المال اليهودي والفكر اليهودي وحتى الدم اليهودي .

وسيكون مدير الحملة الانتخابية يهودياً ، ومستشار الرئيس يهودياً ، وسكرتير الرئيس يهودياً ، ومدير مكتبه كذلك ، ونائبه ومساعد نائبه.

وستكون عشيقته يهودية، وعشيق زوجته سيكون كذلك.

إن أحداً لن يقول ذلك.

لكننا نعرفه.

وبعد بضع سنوات من الآن سيكون ذلك على الصحف .

وستحدث ضجة كبيرة، وسيكون سبقاً صحفياً يحسب للصحيفة التي أوردته، وللصحفي الذي أعده.

وستتناقل الوكالات التقرير وتزيده وتعلق عليه، وسيحدث الأمر ضجة كبرى، وسيحدث تحقيقٌ ما، وسيستقيل واحد أو اثنان من الأسماء التي سترد في التحقيق ـ **ككبش فداء** ـ من أجل الحفاظ على ماء وجه الديمقراطية، سبحوا لمجدها .

ورغم أننا نعرفه من الآن، إلا أن الأمر سيكون مؤلماً جداً، ومحزناً جداً.

سوف يكون مؤلماً ـ ولو بعد سنين ـ أن تعرف بالتحديد اسم الشخص في شركة النفط أو شركة السلاح الذي دفع مالاً ليقتلك أو يقتل أولادك.

سوف يكون مؤلماً جداً أن ترى صورته وهو يبتسم على صفحات الجرائد وستذكر شفاهاً غادرتها الابتسامة إلى الأبد، وعيوناً سكنتها الدموع إلى الأبد، و وجوهاً ما عادت تبتسم أو تبكي، لأن أصحابها ببساطة، قد قتلوا تحت القصف.

إنك تعرف طبعاً أنه لابد أنْ يكون هناك أحد ما قد فعل ذلك، لكن أن تعرفَه تحديداً، وأن تعرف اسمه، وترى صورته، سوف يكون أمراً مختلفاً جداً، **سوف تذكر الأشلاء الممزقة، والوجوه المحترقة، وجثث الأطفال الملقاة في الشاحنة.**

وسوف تذكر جثث الآخرين الملقاة في الشوارع التي تحولت لتصير جبهات قتال وساحات معارك، وسوف تذكر كيف تركت في العراء؟ دون أن يأتي أحد ليخليها ويدفنها، وكيف أنها تفسخت وفاحت رائحتها؟ وكيف أن قلوب أمهات أولئك الشهداء ـ لابد ـ كانت تتفطر من شدة الترقب والانتظار ـ من أجل خبر من أولئك الراقدين في الشوارع ـ ..

سوف تذكر ذلك كله، وأنت تقرأ الخبر ـ **فتعجز عن الحياد** ـ وترى الحروف وهي ترمي عليك الرصاص وتطلق لذاكرتك العنان .

وعندما تعرف الرقم الذي دفعوه من أجل أن يتم ما تم، ستستقله وستسترخص نفسك، لقد باعوك وباعوا أولادك وأولاد أخيك وأولاد وطنك **بثمن بخس، دراهم معدودة ـ حتى لو بلغت عدة ملايين ـ** .

ستتأمل في الصورة أكثر، وفي الاسم أكثر، عندما قبض الثمن، هل فكر فيك وفي

أولادك ؟ هل لديه أولاد ؟ هل يحبهم ويقلق عليهم كما تفعل تجاه أولادك ؟. لعله فعل ذلك من أجلهم ؟ ومن أجل تأمين مستقبلهم ؟ - **هل أنبه ضميره** - وهو يشاهد آثار الدماء والقتلى الأطفال والأشلاء الممزقة، أم أنه أشاح بوجهه متقززاً واعتبر أنَّ الموضوع لايعنيه ولا يهمه .

ستمتلئ بحقد لا حدود له، حقد لا علاج له، حقد لا أمل في إخفائه، **وسيجد البعض الحل والعلاج لهذا الحقد بأن يكون وقوداً لعملية استشهادية .**

نعم، ستمتلئ حقداً وقهراً وأنت ترى الصورة وتقرأ القصة وتعرف الرقم، لكن لا تكن مغفلاً ، فلا تصدق أكثر من اللازم، إذا وجدوا للحكاية كبش فداء يلبسونه التهمة، فلا تكن خروفاً يصدق كل ما يقال له .

إنه صدام الحضارات يا صاح، السيناريو ثابت، لكن التفاصيل قد تتغير.

الاستراتيجية ثابتة، لكن التكتيك قد يتغير.

إن لم يكن هذا الاسم وهذهِ الصورة وهذا الرقم - **فسيكون آخر** - فقط التفاصيل ستتغير، صدام الحضارات سيظل هو هو.



صدام الحضارات إذن ؟ !

اعترف، عندما سمعت بالمصطلح للمرة الأولى - **قبل عدة سنوات** - وبدأت أقرأ عنه، وأتابعه، واصطفت الكتب الصادرة عن الموضوع في مكتبتي بين مؤيد ومعارض، ومصفق ومندد بالنظرية، لم أكن أتصور قط، أن الأمر سيخرج من الألواح الحجرية القادمة من مجلة الشؤون الخارجية - القريبة من مصادر صنع القرار في الولايات المتحدة، كما يقولون - لتصير واقعاً حياً أسمعه بوضوح، كما أسمع هدير الطائرات المعادية والمستفزة فوق بيتي الآن في هذهِ اللحظة بالذات.

كل المثقفين، عرباً ومسلمين وغير ذلك، سمعوا عن صِدام الحضارات، ربما جلسوا في المقاهي يتحدثون، وأدلى كل منهم بدلوه في الموضوع، فهذا أيد وجاء بشواهد، وذاك عارض وجاء بشواهد مناقضة، وربما كتب بعضهم مقالات في الموضوع، فالأمر هين، والدخول فيه لايمر بحقل ألغام، كما معظم المواضيع الأخرى، ثم إنه صرعة وموضة والكل يتحدث عنها الآن سلباً أو إيجاباً.

نعم كلهم سمعوا بصدام الحضارات

أما نحن، فقد سمعنا صدام الحضارات، سمعنا صدامها حرفياً، بآذاننا، سمعناها تصطدم فوق رؤوسنا، وتتناثر شظاياها على أسطح منازلنا، وأبواب بيوتنا، سمعناها تخترق حاجز الصوت لتخرق آذاننا، وتستفز كرامتنا، وسمعناها ترتطم ببعضها البعض وكان صوت اصطدامها عالياً يُسْمِعُ مَنْ به صمم، ووضعنا أصابعنا في آذاننا بعض الأحيان، وتراكضنا هاربين على السلم في أحيان أخرى، وجمدنا في سكون من هول بعض الأصوات، ولم تتحركْ سوى شفاهنا في دعاء بالنجاة والستر.

الكل سمع بصدام الحضارات، نحن سمعناها تصطدم، سمعناها فقط ! لا . بل رأيناها وهي تصطدم.

رأيناها، رأينا الرعب في عيون أطفالنا، ورأينا الذل المرهق في عيون الرجال، ورأينا الاستسلام في عيون النساء، ورأينا الصدى المفزع في عيون الموتى المجهولين، على أرصفة الشوارع .

رأينا السيارات المحترقة، والجثث المتفحمة .

وكل ذلك كان اسمه ـ بالمختصر ـ صدام الحضارات .



في الحقيقة ، لا أعتقد أنَّ أيّاً من خالاتي يعرفن صموئيل هنتنغتون ـ **المنظّر الأساسي لفكرة صدام الحضارات** ـ رغم أني أعتقد أنَّ الكبرى منهما قد سمعت به بشكل عابر، عبر تنقلها المستمر بين محطات الإذاعة التي تديم سماعها، حتى لو أن مسألة السماع لهذه لا يعول عليها مع خالتي، إذ إن سمعَها عموماً لا يعتمد عليه.

كانتا معاً تعيان وتدركان المغزى مما يحدث من هذهِ الحرب وهذا القصف، كانتا تعرفان ـ رغم النفط ورغم أسلحة الدمار الشامل المزعومة ورغم هدف تغيير النظام ـ أنَّ الهدف الأساسي من ذلك هو القيم، هو الحجاب الذي فوق رؤوسهن وفوق رأس زوجتي، هو كتاب الأدعية الذي لاتتركه واحدة منهما، هو صلاتهما، والحلال والحرام الراسخ في تفكيرهما.

كانتا تعيان ذلك ببساطة مذهلة، بفطرة أصيلة، دونما أيديولوجيات، دونما شعارات أو خطابات، دون أن يعرفن هنتنغتون أو يقرأن عنه أو يسمعن بالردود عليه .

دون تنظير فكري، أو ندوات، أو مظاهرات ضد العولمة، كانتا في الجوهر، في العمق، واعيتان إلى ما يدور حولهما وبهما ـ **ربما منذ عقود** ـ كان يقصد دينهما قبل كل شيء، وبعد كل شيء.

رغم أن سمعهما ـ **كعضو وكحاسة** ـ لم يكن كما يجب، لكن أذنيهما كانتا واعيتين للحقيقة إنَّ الأصوات التي كانت تنفجر فوق رؤوسنا، وأصوات الطائرات وهي تقصف، وأصوات الصواريخ وهي تنفلق وتنشر شظاياها على سطوح البيوت ـ كانت في الحقيقة أصوات صدام الحضارات.

صوت اصطدامها ببعضها البعض، صوت حضارة وهي تغتصب حضارة أخرى، صوت حضارة وهي تمتطي حضارة أخرى، بكل قيمها ومعتقداتها وموروثاتها، صوت اختراق الطائرات لحاجز الصوت في سمائنا كانتا تسمعانه كاختراق لغشاء العذرية في أفكارنا ورُؤانا.

واعيتين كانتا لذلك، ببساطة مذهلة، بتلقائية مدهشة، لم تكونا توَلْوِلَانِ تحت القصف بسب هذا الطاغية أو ذاك الرئيس من الأسماء التي تعودنا أنْ نعتبرها كشماعة نلقي عليها باللوم لما يحدث .

كان الأمر بالنسبة لهما ـ امرأتان في العقد الثامن من عمرهما- شديد الوضوح، شديد الشفافية .

لا أسماء هناك لنلقي باللوم عليهما، لا نفط، لا دمار شامل، لا صدام الحضارات، لا أيديولوجيات، لا هنتنغتون.. إنه صدام الحضارات .



رغم أنهما لم تسمعا بهنتنغتون، إلا أن ذلك لا يجب أنْ يعد كإشارة إلى كونهما بسيطتي التعليم .

فالكبرى منهما، تخرجت في أواخر الأربعينات من دار المعلمين العالية في بغداد، وهو ما يعادل بكالوريوس تربية في الوقت الحالي، وتخرجت الأخرى في أوائل الخمسينات من كلية الحقوق، وأن تحصل فتاتان في منتصف القرن الماضي على شهادة جامعية هو أمرٌ كان ولايزال يذكر .

أتأمل حياتهما، فأرى فيها انعكاساً لحقبة تحولات مهمة عصفت بالمجتمع العربي عامة، والعراقي خاصة .

كان انتماؤهما الطبقي يجعلهما تنتسبان للأرستقراطية الإقطاعية إذا جاز لنا أنْ نقبل بوجود تقسيم كهذا، لكن هذا الانتساب لم يجعلهن أسيرات لطبقتهن .

فرغم أنَّ والدهن كان وزيراً في العهد الملكي ـ **كما ذكرت** ـ ورغم أنَّه شمل بقانون الإصلاح الزراعي [وهو التعبيرالمخفف لحقيقة أنَّه كان إقطاعياً]، إلا أنَّ مشاعرهن كانت دوماً مختلفة عن وضعهن الطبقي .

ففي حركة رشيد عالي الكيلاني مثلاً، في مطلع الأربعينات، وعندما قام المذكور بحركة انقلابية على الحكم الملكي والاحتلال البريطاني، تأججت المشاعر الوطنية عندهن، ورغم أنَّ والدهن كان قد اعترض على المشاركة في الحركة عندما طلب إليه ذلك كوجه سياسي معروف، إلا أنَّ بناته كان لديهن رأي آخر، وقد أرسلت الكبرى منهن برقية تأييد إلى زعيم الحركة **الموت ولا الخضوع للعدو الغاشم** ، أذيعت في الإذاعة ضمن برقيات أخرى، وكان رشيد عالي يباهي والدهن بتلك البرقية، بينما كان جدي يرد عليه بأنّ عواقب المشي خلف آراء طالبات الصف الأول المتوسط ستكون وخيمة.

وقد كانت وخيمة فعلاً، فقد فشلت الحركة، وأعدم القادة العسكريين وبعض المدنيين وفرَّ رشيد عالي هارباً إلى إيران.

لكن المشاعر ظلت متأججة، وبعد بضع سنوات جاءت قضية فلسطين لتصب الزيت على نار المشاعر، كتبت خالتي نفسها بدلاً من البرقية مجموعة خواطر وربما بضع قصائد، وذهبت للتبرع بالدم وتسجل اسمها في قائمة المتطوعين؛ وكان ذلك نزولاً من البرج العاجي الذي يجعل الفتيات في سن خالتي آنذاك حبيسات شغل التريكو والتطريز وتصفح المجلات .

ثم جاءت الخمسينات، وجاء عبد الناصر ـ حلماً أخاذاً وخيالاً جذاباً : آمال وطموحات لا حدود لها، وطن واحد من المحيط إلى الخليج، إستعمار يخرج بالقوة، وقوة عظمى تنشأ من هذا الشتات، كان ذلك هو المد القومي الذي اعتلته خالاتي جميعاً تقريباً، ضاربات بعُرض الحائط بحقيقة أنَّ الحكومات طيلة الوقت تقريباً كانت ضد هذا المد القومي، وأيضاً بحقيقة أخرى هي أنَّ هذا المد القومي كان مصاحباً ـ **إلى حد كبير** ـ بأفكار اشتراكية كان لابد أنْ تأتي ـ **إذا أتت** ـ بتغيرات وتأميمات ستطال أموال والدهن .

لكن ـ **الذي جاء** ـ بدلاً عن المد القومي، كانت الأفكار الاشتراكية وحدها دون حلم الوحدة والدولة الكبرى، عبر انقلاب عسكري سيطر عليه الشيوعيون وأشباههم

وجاؤوا بقوانين التأميم والاصلاح الزراعي المتلاحقة التي أكلت من أراضي والدهن الجزء الأكبر.

رغم ذلك، ورغم الاضطرابات السياسية المتلاحقة، ورغم السحل والإرهاب، والسلب والنهب، والاستفزاز الذي تعرضن له باعتبار أنَّ والدهن كان من وزراء العهد المباد ـ والذي وصل إلى حد رمي حبال السحل أمام السيارة التي تقلهن كنوع من التهديد والوعيد ـ رغم كل ذلك، فقد ظللن وفيات للحلم القومي .

لكن الحلم القومي لم يكن وفياً لهن، ولا للملايين الذين آمنوا به، فبدلاً من الوحدة كان التفتت، وبدلاً من الحرية كان الاستبداد، وبدلاً من الطبقة الفاسدة التي أزيحت جاءت طبقة أخرى أكثر فساداً وشراهة .

وعلى صخرة الهزيمة المنكرة وضياع قبة الصخرة انتهى الحلم تماماً وبدأت مرحلة جديدة، كفرن بذاك الرجل الذي كهرب احلامهن في الخمسينات، والذي لاتزال خالتي تحتفظ بكل تسجيلات خطاباته، وبدلاً من الولع والإيمان صار هناك السب والشتم له، رغم أنَّهن يعترفن أنهن أجهشن بالبكاء بعد ثلاث سنوات عند موته المفاجئ.

وكما حدث مع المجتمع بأسره، حدث معهن، فبرز التدين أكثر فأكثر، ببطء ربما، لكن برسوخ، بثبات.

ولم تبدأ الثمانينات حتى كان التدين قد صار العلامة الأكثر بروزاً، والسمة الأكثر حضوراً في حياتهن اليومية .

هل سيقول أحد: إنَّه التقدم في السن هو الذي حتَّم هذا التغيير ؟

ربما، لكنه كان تغييراً مصاحباً لتغييرات المجتمع، وأستطيع أنْ أقول بالاستعاضة: إنَّ المجتمع أيضاً تقدم في السن، نضج أكثر وبعد أن مرَّ بكل تلك المراحل، الصعود والهبوط، الأحلام والانكسارات، وجد نفسَه في العودة للدين.

أتأمل حياتهن، بل وحتى حياة والدهن، فأجد فيها قصة هذا المجتمع بأسره .

كان والدهن ليبرالياً إلى حد كبير ـ انتمى إلى جمعية الاتحاد والترقي في بواكير شبابه، ثم هجرها عندما توضحت له أهدافُها الحقيقية أو هكذا قيل لي، لكنه ظل وفياً لحلم الدولة على النموذج الغربي والدستور الغربي .

لم يكن جدي متديناً، هذا صحيح، لكن خالاتي يضفن دوماً، أنَّه لم يكن ضد

التدين، يعتذرن له بهذا، ويقلن: إنَّ الوقت كان مختلفاً.

أعتقد أنَّه في أعماقه كان ممزقاً ـ وأعتقد أنَّ وصف خالاتي له كان صحيحاً إلى حد كبير لم يكن متديناً ـ لكنه لم يكن ضد التدين، كان ممزقاً، كما قلت، وكان ذلك يعني أنَّه لم يحسم الأمر : بين عدم التدين، وعدم الوقوف ضد الدين، كان هناك خيط رفيع جداً، ـ ظل جدي يتأرجح عليه، وأعتقد أنَّ جيلاً بأكمله من مثقفي الحقبة العثمانية المتأخرة كان يتأرجح عليه : لا حسم ولا حزم في هذا الامر، لقد فهموا العلمانية بأنها هذا التردد بين الأمرين، فلاهم استطاعوا أنْ يحسموا أمرهم ويعلنوا رفض الدين، ولا هم أقدموا على التدين، لقد كانوا في ريبهم يترددون، ولا أريد أنْ أصدر أحكاماً، لكني أعتقد أنَّ ريبَهم هذا، وترددهم هذا، سيرديهم فيما لا يشتهون.

أذكر أنَّ والدتي مرة، قالت لي: إنَّ والدها، بعد الانقلاب الذي اطاح بالعهد الملكي، وجاء بالعهد الجمهوري، كان قلقاً جداً من أنْ يُعلن الدستور الجديد الدولة العلمانية ـ **على النمط التركي** ـ كان حقوقياً وقانونياً من الطراز العتيق، وكان الدستور يشكل صلب اهتمامه، وعندما أعلن الدستور، وكان جدي قلقاً ينصت باهتمام إلى المذياع، وأعلن أنَّ دين الدولة الرسمي هو الاسلام، صاح جدي من الفرح : **برافو!**

يبدو الأمر الآن كنكتة، أو كمفارقة، فحسب المفاهيم الحالية نتوقع من رجل كان قلقاً من أجل الدستور، أن يصيح الله أكبر، أو لا إله إلا الله، في حالة فرحه بإعلان كون الإسلام ديناً رسمياً للدولة، أو أنْ يصيح: إنا لله وإنا إليه راجعون، في حالة إعلان الدولة بلا دين.

أما أنْ تفلت منه صيحة: برافو، فذلك ما لا نفهمه الآن، رغم أنه كان جزءاً من طبيعة الأشياء في وقتها، جزءاً من الموزاييك المتداخل الذي حدد طبيعة الشخصية في ذاك الوقت، والذي أقر أنَّه لا يزال موجوداً إلى حد كبير في داخل كل منا.

برافو ! قال جدي يومها، لعله لم يعتقد أبداً أنَّ جيلاً آخَر سيأتي من بعده، من عمر أحفاده، ولن يرضى أبداً بالعبارة التي أعجبته، لا لأنه ضدها، **بل لأنه يجدها غيرَ كافية، ولن يرضى بأقل من التطبيق الكامل لأحكام الشريعة**، وأي شيء دون ذلك سيعد كفراً وخروجاً عن الملة، لو قال له أحد ذلك، لقال برافو أيضاً على النكتة، كان كل شيء يسير عكس هذا، كان كل شيء يبدو أنه يأخذ بالدين إلى المُتحف ليصير تراثاً نحبُّه ونُجلّه ـ **لكن من بعيد** ـ عبر الزجاج الفاصل بيننا وبينه.

هل أقول: أنَّ السحرَ انقلب على الساحر ؟ أم: إنَّ الفصول تغيَّرت ؟ أم إنَّه المكرُ الإلهي؟ أم كل ذلك دفعة واحدة ؟

لست أدري، لكني أعرف أنَّ هذهِ الفسيفساء موجودة في تاريخ عائلتي بأكثر مما يتصور المرء للوهلة الأولى، وأعرف أنَّ هذهِ الفسيفساء موجودة في بغداد بأكثر مما يتخيل المرء للوهلة الأولى ـ وأنَّ في أعماق كُلٍّ منا توجد هذهِ الفسيفساء المتداخلة، حتى دون أنْ نعيَ ذلك، أحياناً تكون متناقضة منفرة، وأحياناً تكون منسجمة متسقة، ربما يكون هذا منَ مشاكلنا وأسباب ضعفنا، وربما يكون هذا أيضاً من أسباب قوتنا وتفردنا.

في العمق يوجد هذا الفسيفساء، وكلما تأملت وجدت زوايا أخرى : كانت والدتهن ـ جدتي ـ تعزف على البيانو ولديها اشتراك في أحدث مجلات الأزياء الفرنسية، لكنها ما كانت تخرج من المنزل دون أن ترتدي الخمار.

وكن هن أيضاً نموذجاً لهذا الفسيفساء، كن سافرات ـ أكملن تعليمهن كله وهنَّ سافرات ـ ، لكنهن كن يستعرن العباءة السوداء التقليدية من الجيران، للخروج في مظاهرة ضد الاستعمار أو ضد العدوان الثلاثي على مصر .

واليوم ؟ .. إنهن ينتقدن حتى المذيعات على تبرجهن !

إنه الفسيفساء، كما ذكرت، أعرف أنَّ بعضَ تفاصيله قد تكون معكوسة في بعض زوايا المجتمع، وأنَّ هناك من أقران جدي من كان متديناً إلى أقصى حد، متمسكاً بأهداب الدين وشعائره، لكن الأمر صار معكوساً مع بناته وأحفاده .

نعم . إنَّه الفسيفساء، مرّة نقطة ضعف، ومرّة مركز قوة، مرّة تحليق ومرّة سقوط. مرّة انهيار ومرّة بناء.

أتأمل في ذلك، في خالاتي وحياتهن الشخصية ـ إنَّهن تاريخ مجتمع ـ تاريخ معاصر لأمة قد تكون قيد التكوين أو قيد الاحتضار، لكنهن يمثلن الشهادة الحية على ذلك.

أتأمل، فجأة يصير التجاء خالاتي عندي في شقتي الصغيرة، له أكثر من معنى ـ يمتد كل منها أفقياً وعمودياً وشاقولياً .

فجأة يصير التاريخ لاجئاً عندي! تحت القصف، تحت دوي المدافع، تحت أزيز الطائرات، عند صدام الحضارات .

وعندما يكون التاريخ لاجئاً في بيتك ـ من صدام الحضارات ـ فإنك لا يمكنك إلا أنْ

تنظر للمستقبل، لأولادك وهم يتقافزون ويلعبون، ويبدؤون في تعلم القراءة والكتابة .

عندما تكون حياتك نقطة تتقاطع فيها الطرق، وبيتك مفترِقاً لالتقاء التاريخ بالمستقبل، وسطح بيتك ساحة لتصادم الحضارات.

عندما يكون ذلك، فإنك يجب أنْ تنظر بتفحص وتأمل لكل ما يتقاطع في حياتك، لكل ذلك الماضي وكل ذلك التاريخ، وكل تلك القيم والمعطيات التي تشكل ذلك الفسيفساء الذي يغطي حياتك .

من أجل المستقبل، عليك أنْ تنظرَ للماضي، على الأقل حتى لايتكرر الحاضر .



قصف . قصف . قصف

قصف مدوي مسعور، قصف مجنون مثل بركان انفجر من كل فوهة في السماء.

قصف . قصف . قصف

قصف ينزف عليك من كل فتق في السماء، كل جهة تولي وجهك إليها تجد باب جهنم وقد فتح واندلعت منه ألسنة النيران والموت والعذاب .

قصف . قصف . قصف

وتجد نفسك وقد دخلت فجأة في كابوس لانهاية له، تريد أن ينتهي وتستيقظ وتقول: إنَّه مجرد كابوس.. لكن لا ، هاهي الطائرات مرة أخرى، هاهي الصواريخ تنقض مجدداً، ها أنت تسمع صوتها وهي تمر من فوق رأسك، تكاد تخفض من رأسك قليلاً بشكل لا إرادي حتى يمر الصاروخ ها هو يمر .. وها هو ينفجر بعيداً عن مرمى بيتك .

قصف . قصف . قصف

وفي كل مرّة تتنفس الصعداء، وتحمد الله لأنَّ الصاروخ لم ينفجر فوق بيتك ويقتل أطفالك، تعرف أنَّه قطعاً انفجر في مكان آخر، فوق بيت آخر، وقتل أطفالاً آخرين، ربما كانوا أقرباءك، وربما كانوا أصدقاءك، وربما ستبكيهم بحرقة عندما تعرف أنهم قضوا في الصاروخ الذي أخطأك وأصابهم .

وربما كنت لاتعرفهم، ولم ترهم يوماً ولم تصادفهم في الشارع ولم تسمع بأسمائهم، لكن ذاك لن يخفف من شيء، ولن يغير من شيء، إنَّهم بشر أيضاً ولهم كل

ما ستأسف عليه وتخاف عليه وتستقتل من أجل الحفاظ عليه، هناك أطفال و هناك نساء وهناك آباء وهناك مشاعر وهناك ذكريات.

قصف . قصف . قصف

ولن يهون عليك قط، أنَّ الصاروخ قد سقط على هدف عسكري، هذا التمييز بين المدني والعسكري في مجتمع مستهدف بأكمله لا يعني لك شيئاً، كما لايعني شيئاً لأولئك الأمهات القابعات في بيوتهن، بينما قلوبهن تتفطر من أجل أولادهن في المواقع العسكرية .

قصف . قصف . قصف

وأنت فأر مذعور ـ وكنت قد اتفقت مع نفسك أنْ تكون أسداً هصوراً- أو قطة مستفزة، لكن تحت القصف، وأمام الأمر الواقع، لست سوى فأر مذعور يحتضن صغاره وهو يرتجف، بينما العالم كله من حوله يرتجف .

قصف . قصف . قصف

ورغم أنَّ السماء تصب عليك ناراً وسوط عذاب، إلا أنك لا تزال تتوجه إليها، بل إليه، عيناك في عينه وشفتاك ترددان اسمه، القصف لم يقطع تلك الحبال التي تربط بينك وبينه .

رغم القصف : يوجد أمل.



وماذا لديك ـ **تحت القصف** ـ سوى أنْ تكون فأراً مذعوراً .

ماذا لديك سوى أنْ تكون ما أنت عليه، ترتجف كما تفعل وتحتضن صغارك كما تفعل، ماذا لديك وعدوك يضربك من كل مكان، من قارة أخرى، من فوق البحار البعيدة، وحتى من أعماقها السحيقة، من الأعالي الشاهقة، ومن الارتفاعات المنخفضة، من الأقمار الاصطناعية وربما حتى من الطبيعية .

ماذا لديك لتفعله ولاتوجد حتى إمكانية للمقارنة ـ **بين عدتك وعدتهم** ـ ماذا لديك لتفعله والحرب محسومة النتائج سلفاً، ونتائجها محض أرقام، أرقام لإعادة الإعمار، أرقام لبراميل النفط، أرقام لأسعار النفط، أرقام للاحتياطي المتوقع وغير المتوقع.

وأيضاً أرقام للضحايا .

وماذا لديك سوى أنْ تدعو الله أنْ لاتكون من بين هذهِ الأرقام، وماذا لديك وأنت وأسلحتك من مخلفات عصر آخر، وأسلحتهم تنتمي لعصر آخر أيضاً ولكن في المستقبل إلكترونية ومبرمجة بالحاسوب، وقنابلهم الذكية تسيطر عليها أيدي غبية وأدمغة حقودة، حتى أقمارهم الاصطناعية التي تلتقط لبيتك وبيت جدك صوراً، تبدو ممتلئة حقداً عليك وعلى آبائك بشكل شخصي.

ماذا لديك لتفعله، وأنت الأعزل ابن الأعزل، المنتمي لأمة عزلاء ومعزولة، انفرد بها قاطعوا الطرق في ليلة ظلماء، واغتصبوها عنوة، ونهبوا عفّتها و متاعها وحتى ذاكرتها، وتركوها عارية على قارعة الطريق .

ماذا لديك لتفعله ـ **أيها الأعزل ـ أمام كل ذلك الجبروت والصلف والطغيان، وأنت مرمي على قارعة الطريق ؟؟**



لكنك لست أعزلاً أبداً . إذا كانت عندك قيمك

لست أعزلاً أبداً ـ حتى لو جردوك من سلاحك، حتى لو كنت بلا سلاح أصلاً ـ إذا ظلت معك قيمك .

لست أعزلاً أبداً ـ **لاتقلها ولا تفكر بها** ـ لو أنهم لم يتمكنوا من اغتصاب قيمك، ومن انتهاب قيمك، ومن استبدال قيمك.

كل تلك الجيوش الجرارة، مشاة البحرية، وسلاح الطيران، قوات التدخل السريع، وفرق الصيانة، كلها **مجتمعة ومتعددة** لن تصمد أمامك، لو كانت عندك قيمك .

سيهزم الجمع ويولُّون الدبر، لو أنك استمسكت بقيمك، سيصبرون على البقاء، سنة أو اثنتين، أو عشرة، لكنهم سيسأمون ويملون إذا وجدوك صامداً مستمسكاً بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، لو تكسر صلفهم على صخرة قيمك وأنت تنقلها لأولادك، وأولادك يعتبرونها الحجر الأساس لحياتهم، لو استطعت ذلك، لهزموا، ولرحلوا .

في صدام الحضارات، النتائج لا تحسب بتقدم القطعات العسكرية إلى هذه المنطقة، واحتلالها لتلك، في صدام الحضارات النتائج لا تحسب بالكم الجغرافي:

ألف كيلو متر مربع أو عشرة آلاف ميل مربع، ولاتحسب حتى بالنوع الجغرافي تلك التلة الاستراتيجية هناك، وذلك السهل الذي يحتوي على آبار النفط هناك .

في صدام الحضارات، الأمر مرتبط بالقيم .

ولو أنَّ مجنزراتهم فشلت في فرض قيمهم، ولو أنك استمسكت واستعصمت بقيمك، ولو أنك لم تهزم من الداخل، وظلوا يحاصرون بيتك دون أن يحتلوه ـ **وحتى لو اقتحموه** ـ فإنهم لم يقتحموا عقلك.

لو أنك صمدت أمام معسول وعودهم، وقاومت مناهج تعليمهم، وسددت أذنيك بوجه سمومهم، لو أن أبواب عقلك وقلبك ظلت موصدة بوجودهم، وظل الحاجز يحول بينك وبينهم.

سواء رفسوا بابك ليفتحوه، أو حطموه فاقتحموه، أو طرقوه وفتحت فدخلوه، سواء حدث هذا وذاك، فالمهم أنْ لا يقتحموك .

والمهم أنْ ترفض الدسم الذي يقدموه ـ **لأنك متيقن** ـ أنهم دسوا فيه السم الذي عبروا المحيطات والقارات ليجعلوك تتجرعه .

لا ، لست أعزلاً أبداً، لو كانت معك قيمك.

ولا تهن ولا تحزن، فالأمر لم يحسم بعد.

والحسم عند القيم، الحسم عند القيم، الحسم عند القيم.

لن يغلبوك أبداً ـ لو أنَّ قيمهم لم تغلب قيمك..

لا ، لست أعزلاً أبداً ـ **لا تقل ذلك** ـ لو أنك كنت مدججاً بقيمك .



طيلة الأشهر السابقة للحرب، كانت الحرب قد بدأت فعلاً، دون أنْ يعلم أحد.

ودون أنْ نعلم، كنا جميعاً ضحايا تلك الحرب الصامتة لكن الشرسة، الصاخبة لكن الخفية، القاتلة لكن بدون قتل .

ولأشهر عديدة، سبقت الحرب، كانت حرباً أخرى تمهد للقوات العسكرية تزيح الألغام، تليِّن الدفاعات، تهدم طرق المواصلات، تشل العقول وترمي بالسم في الهواء.

قبل أن تبدأ الحرب، ربما بخمسة أو ستة شهور بدأ ذلك القصف الذي لم تتصدر أخباره نشرات الأنباء، ولم تنقله بشكل مباشر القنوات الفضائية ـ **كما فعلت مع الحرب الأخرى** ـ ربما فعلت لأنها كانت هي السلاح هذهِ المرّة .

نعم. كانت الحرب قد بدأت قبل الحرب، عبر القنوات الفضائية والأرضية، عبر الإعلام المرئي والمسموع، عبر الديجيتال والصحن اللاقط بدأت الحرب .

أقول ذلك، وسيأتي يوماً ما، مؤرخ عسكري أو محلل سياسي ما، ليثبت ذلك ويوثقه، ويؤكد أنَّ حربنا هذهِ كانت أول حرب تبدأ قبل أنْ تبدأ، وتنشب قبل أن تنشب.. وربما تحسم الأمر كله قبل حتى أنْ تطلق الرصاصة الأولى .

كانت تلك هي الحرب الإعلامية، غزت الرؤوس والعقول، وأرهبت النفوس وأرعبت الأدمغة، وذلك كله كان مقدمة لشل الأطراف التي تحمل السلاح **كما سيتبين الآن.**

قبل أنْ تبدأ الحرب، ربما بخمسة أشهر، أكثر قليلاً أو أقل قليلاً، بدأت تلك الغارات المنظمة التي لم نفهمها كما يجب .

بالنسبة لي، قبل رمضان بحوالي شهر أو اثنان، ومع تسرب أنباء عن تحرك حاملة الطائرات الفلانية من المحيط إلى الخليج، وأنباء أخرى عن تحرك البارجة الفلانية التي على متنها كذا وكذا من الصواريخ والأسلحة بدأت سلسلة من الأخبار تتركز ـ **وبشكل شديد الفاعلية** ـ على نوعية السيناريوهات المعدة في البنتاغون، سيناريو أكثر إرعاباً من الآخر، كانت في البداية محض تقارير صحفية، كان المتفائلون من الناس ـ **وكنتُ أحَدهم** ـ يقولون: إنَّه كلام جرائد، ويشيحون بوجوههم ويسدون آذانهم.

لكن التقارير كثرت شيئاً فشيئاً، وصارت تحمل تصريحات لأسماء مهمة في البنتاغون والخارجية الأمريكية، وكانت السيناريوهات المطروحة أكثر ترويعاً وإرهاباً من سابقاتها، وكانت تحمل تفصيلات عن أنواع الأسلحة التي سوف توظف في السيناريوهات المطروحة، لكن المتفائلون **وكنت منهم** قالوا: إنها انتخابات نصف الفترة الرئاسية .

وشيئاً فشيئاً، زادت التحشدات العسكرية، وزادت الأنباء، وبدلاً من أنْ تكون مجرد تقارير صحفية، صارت أخباراً رسمية، وبدلاً من أنْ تكون مجرد تسريبات، صارت تصريحات، وبدلاً من أنْ تظل شفهية، صرنا نراها صوتاً وصورة .

لكن المتفائلون **وكنت منهم** قالوا: إنها السياسة، ويظل هذا محض ضغط على الحكومة.

وروجت التقارير والأخبار، تلك التي تتعلق بتفاصيل الأسلحة التي سينوون استخدامها، وتكفلت بترويجها بعض القنوات الفضائية **لن أذكرها حتى لا أروج لها ـ وكانت هناك برامج كاملة** ـ ينبغي أن تصنف كمادة لا تجوز مشاهدتها من قبل صغار السن، لأنها كانت مرعبة أكثر من أشد أفلام الرعب الرائجة، كانت هناك قنبلة **(تشفط)** الأوكسجين بكل ما يعني ذلك من اختناق ورعب، وكانت هناك قنبلة أخرى تقتل الناس دون أنْ تدمر المباني، وكانت هناك قنبلة أطلقوا عليها **«أم القنابل»** بكل ما يعني ذلك من معاني، وكانت هناك قنبلة تعطل كل الأجهزة الكهربائية، مرّة جاءت الأنباء بأنها ستكتفي بتعطيل فقط تلك الموصولة بالتيار، ومرّة جاءت بأن الأمر سيّان، ومرّة قالت بأن مداها سيكون ثلاثة كيلومترات، ومرّة قيل بأنها لن تتعدى مئات الأمتار .

ووصل الأمر حد التلويح باستخدام السلاح النووي ـ **بكل صلف وعنجهية** ـ وكانوا يبشروننا بأنها ستكون قنابل نووية صغيرة تسلط على منطقة محددة .

كان ذلك مرعباً، لكنَّ المتفائلين ـ **وكنت منهم** ـ كانوا يقولون إنها حملة دعائية لسلاحهم، يروجون له، وفي الوقت نفسه يمارسون الضغط والتخويف .

وكانت الصحون اللاقطة تستقبل ذلك كله، و تروج لذلك كله .

ورغم أنَّ القوانين تمنع امتلاك الصحون اللاقطة، إلا أنَّ هناك سطوحاً كثيرة وجدت زاوية ما، ركناً ما ، لتخفي صحناً ما، متوجهاً نحو هذا القمر أو ذاك.

كان ذاك المنع غباءً منقطع النظير، كما هو حال سلوكيات عديدة لا مجال لتعدادها، فقد كان البث الذي يقوم به أصحاب الصحون اللاقطة (المهددون قانوناً بالغرامة أو الحبس أو كلاهما..) لأصحابهم من أخبار تنتقل من واحد لآخر ـ وكالعادة التي تتبع في تناقل الأخبار ـ كانت الأخبار تزيد وتتضخم إلى درجة مضاعفة بحيث يبدو الخبر الأصلي شديد التخفيف.

كان الصحن اللاقط ـ **الممنوع** ـ شديد الفاعلية في تلك الحرب، فقد أثبت القمع أنه مزدوج الاستعمال، وأنَّ الاستعمال عند القمع لديه آثار شديدة السلبية، أكثر بكثير من الاستعمال بحرية .

لقد نشر الصحن اللاقط الممنوع الخوف بأكثر مما لو كان مسموحاً به! وأستطيع أن أشهد على ذلك، إن آلية التناقل والمشافهة التي كان الناس يمارسونها ـ **بلا وعي غالباً** ـ كانت تثير الرعب والإحباط أكثر بكثير من الخبر الأصلي عارياً عن إضافاته، وفي ثلاث أو أربع حالات، كنا في البيت نكون قد سمعنا الخبر مباشراً عن القنوات الفضائية، ثم يأتينا نفس الخبر في اليوم التالي وقد ركب له أنياباً وارتدى قناعاً لوحش كاسر، ووضع إكليلاً من العظام والجماجم فوق رأسه كيف ؟

إنها بيئة القمع والخوف ـ البيئة الأكثر مناسبة لأدغال الكذب والزيف والتهويل والمبالغة.

والشيء الذي كان يلفت نظري، بل يثير أعصابي، أنَّ الخبر الراجع مزهواً بتضخمه كان يجد آذاناً صاغية من أولئك الذين سمعوه بشكل مباشر من ذلك الصحن اللاقط، المخفي في زاوية من زوايا السطح فوق بيتي .

والصحن اللاقط المزدوج الوظيفة، وبيئة القمع والخوف، كلها تضافرت لكي ينتشر الإحباط والرعب والخوف لكي تبدأ الحرب قبل أن تبدأ .

كانت تلك الأخبار ـ **والأخبار الأصلية ونسخها المتضخمة** ـ تعمل على دق الجدار، مرة طرقة هنا ومرّة صدمة هناك، مرّة ثقب هنا ومرّة صدع هناك، كان السور العالي يتعرض للانهيار، وكان خط الدفاع النفسي يتعرض للتليين .

وكان المتفائلون ـ **وكنت لا أزال منهم** ـ لا يزالون يصرون أنَّ شيئاً ما آخر سيحدث غير الذي تتناقله الوكالات، صفقة ما أو سيناريو سيكشف في الساعة الأخيرة، كانوا يقولون.

ثم في الربع ساعة الأخير، أصبحوا يقولون

ثم الخمس دقائق.

ثم أصبح اسمه : سيناريو اللحظة الأخيرة .

وحتى قبل الحرب بيومين، بعدما بدا واضحاً أنْ لا مفر من الحرب، خاصة بعد ذلك الإنذار بالمغادرة خلال ٤٨ ساعة، كان المتفائلون ـ **ولم أعد منهم** لايزالون يقولون: سيكون هناك شيء ما، سيكون هناك مساومة ما .

الآن أفكر أنه كان تفاؤلاً سلبياً وهشاً، ومنذ البداية .

لقد كان تفاؤل التهرب والاستنتاج والتحليل، كان تفاؤلاً يلغي احتمالية الحرب باعتبار أنهم **(لن يفعلوها)** و **(لن يجترؤوا عليها)** و **(ما داموا يريدون النفط فلماذا يشنون**

حرباً ما داموا سيحصلون عليه؟) .. إلخ.

كان تفاؤلاً يجنح للحُلْم بينما كانوا هم يجنحون للحرب .

لم يكن أبداً تفاؤل العمل والمواجهة، إنما تفاؤل الأمل الفارغ والتمنيات الكاذبة .

كان تفاؤلاً هشاً، يكفيه طلقة واحدة، ليصير إحباطاً مريراً وعجزاً لا حدود له .

وعندما بدأ القصف، فهمنا أنَّ الحرب كانت قد بدأت قبله بفترة طويلة .



أسوا ما في البلايا انتظارها

وكان انتظار الحرب ـ **من الناحية النفسية** ـ أكثر إرهاقاً من خوضها.

قبل بدء الحرب، قضينا أسابيع ونحن ننتظرها [كان ذلك جزءاً من الحرب كما أفهم الآن، وأستطيع أن أضيف أنه الجزءُ الأكثر إرهاقاً..] .

قضينا الأسابيع نأكل همومَنا ونسمع الأخبار، الحرب بعد أسبوعين، الحرب بعد أسبوع، الحرب بعد ثلاثة أيام، لا ، الحرب لم يقرر موعدها بعد، سيجتمعون بعد أسبوعين، سيجتمعون بعد أسبوع، فلان يعارض، وفلان هدد بالفيتو، فلان سيساوم وفلان في النهاية سيرضخ، ونحن نأكل همومنا، ونسمع الأخبار، ونشاهد القنوات، ونبالغ ونحن نتناقل ما نشاهده، ونسمع التحليلات ونهضمها ونحلل نحن أيضاً وقد ننسب تحليلنا لقناة أخبارية ما، من أجل منحه المصداقية وسرعة الانتشار .

ونأكل همنا ، وهمنا يأكلنا، ونقضم أظافرنا ونحن نتابع جلسات مجلس الأمن، فجأة صار وزراء الخارجية نجوماً معروفين بأسمائهم الكاملة في بيوتنا ، وصدقنا اللعبة، ثم تمادينا في التصديق ، صفقنا لهذا، وهللنا وكبرّنا لذاك، شمتنا بهذا، وصفرّنا مستهزئين لذاك.

(.. وهناك وزيرة ـ **امرأة** ـ حصلت خصوصاً على كم هائل من السب والشتائم النابية من العيار إياه، مما لا يمكن كتابته أصلاً ولا يمكن ان تكون قد تخيلت أنها ستحصل عليه يوم خطت أولى الخطوات في السلك الدبلوماسي..).

صدقنا أنَّ تلك الألاعيب ستنتصر على تلك الشركات، التي كانت قد دفعت ووقعت العقود ووضعت الخطط وانتهى الأمر .

وصدقنا ـ ويا للأسف ـ أنَّ الدبلوماسية بإمكانها أن تلغي صدام الحضارات .

نعم صدقنا، ثم تمادينا في التصديق.

وترقبنا... وأرهقنا ترقبنا .

الحرب ستقع في منتصف الشهر، لا ! بل في أوائل الشهر القادم، أو ربما منتصفه، الحرب متوقعة في نهاية الأسبوع، الحرب قد لا تقع، وأيضاً قد تقع، الحرب ستكون خاطفة ، كما الموت المفاجئ السريع، لا ، الحرب قد تكون طويلة، كما صراع مرير مع سرطان مزمن .

سنصحو ذات يوم نجد الغزاة وهم ينظمون السير، **لا ، ذات يوم لن نصحو أبداً.. لن نصحو أبداً** ...!!!

كل سيناريو له سيناريو مضاد، كل تصور له تصور مضاد، كل خبر له خبر مضاد .

كانت عقولنا هي الساحة التي تزاحمت فيها المضادات، وكانت أيامنا ساحة لذلك الترقب المرهق المذل .

وكان أسوأ ما في الحرب انتظارها ـ **وكان ذلك جزءاً من خطة الحرب** ـ كما أرى الآن.

فقد أوصل الترقب المرهق البعض منا إلى أنه صار يريد أنْ تقوم الحرب بأسرع وقت فقط ليخلص من عذاب انتظارها .

صار البعض منا يريدها سريعة وخاطفة، مهما كان الثمن، فقط ليخلص ـ فقط ليرتاح، من إرهاق الترقب، حتى لو كان قضى هو وصغاره تحت القصف .

صار البعض منا مثل محكوم بالإعدام ينتظر تنفيذ الإعدام به، تمر عليه الإيام والساعات والدقائق وحتى الثواني بأقسى مما يمكن أن تخترقه رصاصات الإعدام، في كل لحظة تهوي على رقبته مقصلة الترقب والانتظار، في كل ساعة يموت ألف مرة، لكنه.. لايموت! والحل أنْ ينفذ الحكم به، أنْ يعدم فعلياً .

بعضنا وصل لهذِهِ المرحلة، بعضنا كان يريد لساعة الصفر أنْ تحين بأسرع وقت ممكن، مهما كان الثمن.

وكان ذلك جزءاً مهماً من الخطة، كما أفهمها الآن.

۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞

قيل لنا ـ ضمن ما قيل ـ إن اليوم الأول من الحرب سيشهد إلقاء ثلاثة آلاف قنبلة في الدقيقة الواحدة.

وقيل لنا مرّة أخرى، إنه سيشهد خمسة آلاف قنبلة في الدقيقة الواحدة، وفي قول آخر، قيل إنَّ هذا الرقم سيكون بالصواريخ، ولكنه سيكون في الساعة الواحدة، لا في الدقيقة الواحدة.

وقيل أشياء أخرى، واختلط القول بالمقال ، واختلطت الأكاذيب بالحقائق، والتهويل بالتصديق، الخبر الأصلي اختلط تماماً بالمبالغات والتشويش.

فجأة لم نعد نذكر من قال ذلك بالضبط، هل كانت تلك القناة التي نتهمها بالعمالة، أم الأخرى التي نتهمها بالكذب فقط ؟ هل كان ذلك في نّشرة الأخبار أم أنه كان في أقوال الصحف ؟ وهل كان في تلك الصحيفة الصهيونية أم أنه كان في صحيفة تدعي الحياد .. ؟

وذاك الرقم، هل قاله لك جارك بينما هو يلقي عليك تحية الصباح ؟ أم أسرَّه لك زميلك في روتين ثرثرة العمل ؟ أم نقلته لك زوجتك نقلاً عن صديقتها التي لديها مذياع يأتي بأخبار لا تشبه كل الأخبار التي تسمعها وتراها أنت .

لم تعد تذكر من قال لك ذلك، لكن هناك، في مكان ما مِنْ لا وعيك، هناك الوصف المروع المرعب لليوم الأول من الحرب.

وهناك ـ **في أعماق وعيك** ـ وفي الظاهر من عقلك، كان هناك الترقب المرهق لذلك اليوم الأول الرهيب من الحرب.

وكان ذلك كله أيضاً، جزءاً من الخطة، كما فهمناها فيما بعد.



لكن ذات الشيء الذي ساهم في بناء الترقب والخوف، جاء وقت وانقلبت المائدة، وساهم في كسر الحاجز الذي ساهم في بنائه .

إنه ذلك الصحن اللاقط الموضوع في زاوية من زوايا السطح، بعيداً عن الأنظار، والذي كنت قد غامرتُ بشرائه قبل بضعة أشهر من الحرب، معرضاً نفسي لعدة مخاطر تصل إلى الحبس لستة أشهر، دون أن يكون ذلك تنفيذاً لقانون رسمي ومعلن، محض تعليمات أمنية تقوم الأجهزة الأمنية بتنفيذها لحماية أمن النظام.

وعندما يكون أمن النظام مهدداً من قبل صحن لاقط قد لا يتجاوز قطره الـ ٦٥ سنتمتراً.. فتستطيع أن تقرأ على النظام السلام .. (أو أنْ تعلم أنك ستفعل ذلك بعد الحرب..).

كان ذلك السلوك ليس قمعياً فقط، لكنه كان يَنِمُّ عن غباء منقطع النظير، ولو كنت من أتباع نظرية المؤامرة، لقلت أن أناساً مدسوسين على النظام كانوا يروجون لتلك التعليمات من أجل تقويضه من الداخل، لكنني أعتقد أن الأمر كان أبسط من ذلك، محض غباءٍ، وقصر شديد في النظر، وتسطح هائل في الرؤية.

كان ذلك يعني، ضمن ما يعني، **أنهم عاجزون عن رؤية أن مساوئ الحرية كانت دوماً أقل من مساوئ القمع** .

وكان ذلك يعني، ضمن ما يعني، أنهم يتصورون أن **الحقيقة مخيفة، وأنه ينبغي محاربتها، وإخفاؤها بشتى الوسائل.**

وكان ذلك يعني، ضمن ما يعني، أنَّ ثقتهم بك معدومة، وأنك متهمٌ بالانحياز للغرب والتصديق به لمجرد حيازتك على صحن لاقط .

بل إنَّ ذلك يعني، ضمن ما يعني، أنَّ **ثقتهم بأنفسهم معدومة**، وأن **أسس بنيانهم كانت هشة وركيكة.**

أذكر الآن، في أوقات تشتد فيها حملات مكافحة الصحون اللاقطة، كنا نتوجس الشر من أي جرس يدق على الباب، ومن أي سيارة غريبة تجوب الحي، ونتفق على تبادل تحذيرات هاتفية مشفرة عند الشك بأن **الغارة قادمة** .

أذكر، أننا في الأيام السابقة للحرب، الضاجة بالأخبار والمليئة بالتأزم، كنا نتبادل الأخبار وتفاصيلها أنا وصديق لي في المنطقة بطريقة لا تدع مجالاً للشك أننا نملك ـ **ذلك الشيء على السطح** ـ وكنا نتفق أنا وصديقي قائلين : **إذا نجا النظام، فلن ننجو نحن** !.

وأذكر كذلك بين الضحك والبكاء، مرّة علمت فيها وأنا في دوامي الحكومي الصباحي أن الماء سيقطع عن بغداد لمدة ٢٤ ساعة لأغراض الصيانة أو لأغراض تجريبية فاتصلت بالأهل والأقرباء المقربين ليأخذوا احتياطاتهم بملئ خزانات الماء، واتصلت بصديق مقرب لي يعيش وحده بعد سفر كل أهله منذ سنوات، وقلت له، وقد أيقظه هاتفي من نومه، ما بدا له أنه شفرة واضحة الحل : قلت له بالحرف :خزن ما

تحتاج من ماء **لأنه سيقطع خلال ساعات..** . هرول المسكين إلى السطح ليخفي الصحن وينقله ـ متصوراً أنني أحذره من غارة متوقعة فوراً على منطقته .

وأذكر أيضاً ـ بين قهقة الضحك والإجهاش بالبكاء ـ مرّة مع نفس الصديق، مررت عليه قبل العيادة وكنا متفقين على موعد، ولم يكن موجوداً، ولم تكن تلك عادته، واتصلت به من العيادة، ولم يكن قد جاء بعد، ولم تكن عادته أن يتأخر، وانتظرت أن يتصل هو، ولم يفعل، ولم تكن تلك عادته، وشيئاً فشيئاً ولأن الأمر كله كان خلاف العادة، ولأن الوقت كان وقت اشتداد **(الحملة)**، فقد بدأ الشك يتسرب إلى قلبي، وعقلي، وحتى إلى يدي التي لم تعد تجيد العمل.. لابد أنهم أخذوه.. كان الوسواس الخناس يصرخ في أذني ..**لابد أنهم أخذوه..** ليلاً بعد العيادة، قدت سيارتي إلى منزله والأسئلة تحاصرني، أين يا ترى يعتقلون أصحاب تهم كهذهِ ؟ . وماذا سأخبر أهله في الخارج وكيف سيكون وقع الخبر عليهم ؟ . وماذا سيحل بمعاملة إصدار جواز السفر التي كان قد شرع فيها ؟ بل ماذا سيحل بالبيت إذا ترك لستة أشهر هكذا ؟ .. كانت أسئلة بلا أجوبة غير أنها كانت تزيد من قلقي وحيرتي، وعندما وصلت لأتفحص مكان الغارة ، وجدت أن الأنوار مطفئة في المنزل، مما يعني أن وقت مغادرته كان قبل أن يبدأ الظلام بالحلول، ـ **وهو الوقت المعتاد للغارات** ـ اقتحمت الحديقة وجعلت أتلصص من النوافذ بحثاً عن دليل أو أثر، كنت أريد أنْ أعرف هل سلَّم نفسه طوعاً أم قاوم قبل التسليم؟.

وفي ضحك كالبكاء أتذكر أنه كان يتندر ويقول **إني دخلت بحثاً عن آثار السحل !.**

كل ذلك لمجرد أنه تأخر بضع ساعات !

مسكونين بهاجس القمع والخوف كنا، ـ **ولا نزال** ـ متهمين دونما تهمة، ومدانين دونما دليل .

أذكر أننا كنا ننهي رواية مشاهداتنا في الدش بتلك اللازمة التقليدية التي يقولها الجميع ولا يصدقها أحد : **شاهدت ذلك في الدش .. عند صديق لي.**

كان كل من يملك صحناً لاقطاً يرمي بخطيئته وعبء امتلاكه على عاتق صديق مجهول يفتح بيته أغلب ساعات الليل والنهار لتدخله وتستلقي أمام التلفاز وأنت تقلب بين القنوات كيفما تشاء.

كان كل من يملك صحناً لاقطاً يملك معه ـ ولابد وكجزء من عملية نصب الجهاز ـ صديقاً مجهولاً يلعب دور الجندي المجهول في حياته ـ يجب أن تتقي من خلاله وعبره

نظرات الاتهام والشك والفضول التي تحاصرك عندما تروي ما شاهدت، لن تجرؤ على أنْ تنكر «**الدش**» ـ لكنك ستلقي تهمة حيازته، والتي قد تغري البعض بالإفشاء عليك ما دام لهم مكافأة على ذلك، سترميها على ذلك الصديق المجهول ـ مجهول الاسم ومجهول العنوان .

وكان صديقي إياه، ينهي رواية أخباره بلازمة أخرى أكثر جرأة، وربما كان البعض يصدقه.. كان يقول، شاهدت ذلك في الدش .. عند بيت خالتي ـ وكنت أقول له دوماً : انهدم بيت خالتك ! ـ كان يستغل كثرة عدد خالاته، وعدم معرفة عناوينهن لمعظم أصدقائه، وكانت الخالة الوحيدة التي عندها صحن لاقط تسكن في شقة بحيث يصعب على المرء تصور امتلاكها لصحن ـ واعتقد أيضاً أن صديقي لم يكن يستلطف زوج خالته تلك.

كل ذلك من أجل صحن لاقط لا يتجاوز قطره المتر أو أقل.. مسكونين كنا بهواجس القمع والخوف.

وعندما بدأ القصف، ساهم ذلك الصحن اللاقط، الذي كان قد ساهم في بناء حاجز الترقب المرهق، ساهم في كسر الحاجز وتنقيته .

على الأقل، جزء من شعور الأطفال بالأمان، كان مرتبطاً بما يبثه الصحن اللاقط من صور دمار وأصوات قصف، كانت بالنسبة لهم كجزء من فلم حربي يبدو سيئاً لكثرة مبالغاته.

وعلى الأقل، جزءاً من شعورنا نحن بالأمان، أو ما يبدو أنه كذلك، وعدا عن التعود والصبر وخبرة الحروب المتتالية، كان مرتبطاً بدرجة كبيرة بأننا ـ عبر ذلك الصحن اللاقط ـ **كنا نعرف ما يدور.** في الحروب السابقة، كنا نقصف في الظلمة، ونتراكض ونتعثر، في السلم في الظلمة، ونرتعش في الظلمة، و نتوقع أنْ ينهار البيت و ندفن تحت أنقاضه في الظلمة .

الآن لا ، صرنا نعرف ما يدور، في الضوء والنور صار القصف والدمار، أعيننا صارت مفتوحة على اتساعها ، وصار الصحن اللاقط لاصقاً بعيوننا ، صار مثل عدسة لاصقة تفتح أذهاننا وبصائرنا نحو آفاق واسعة، حتى لو كانت تشمل موتنا وقصفنا ، لن يكون الموت واحداً في الحالتين، فرق كبير بين أنْ تموت في الظلمة و أنت لا ترى شيئاً، و بين أنْ تموت و أنت في قمة وعيك، مهما كان الظلام دامساً في الخارج، **فأنك** ترى و تبصر .

تعددت الأسباب و الموت واحد؟ أبداً. الموت ليس واحداً، موت عن موت يفرق، فرق كبير أنْ تموت وأنت تعلم ماذا يدور حولك ومن أجلك، وبين أنْ تموت في الظلام خلسة .

فرق كبير بين أنْ تموت مثل خروف مستسلم ، و بين أنْ تموت كجواد بري استعصى على الصيادين .

فرق كبير، بين أنْ تموت وأنت تعتقد أنك وحدك ضحية، وبين أنْ تعلم أنهم يفعلون ذلك بالعشرات، لا بل بالمئات غيرك .

فرق كبير، كما تعلمون، بين أولئك الذين يعلمون، وأولئك الذين لا يعلمون.

وينطبق ذلك، ربما بالأخص، على الذين هم مثلنا : تحت القصف..

وعلى حافة من حافات الفرق بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون يقف ذلك الصحن اللاقط ـ ليضيف للبصر (**إذا كانت هناك بصيرة..**).

.. ويضيف للسماع (**إذا كانت هناك أذن واعية..**) .

لذلك أقول، أينما كنت، في أي بلد، إذا تعرضت لحرب ما، من تلك التي تندرج تحت بند صدام الحضارات، فليكن ضمن استعدادك لها، أن يكون عندك ـ **في السطح** ـ ذلك الصحن اللاقط .

وارفع صوت التلفاز على أقصاه، سيشعر ذلك أطفالك بقليل من الأمان .



ليس بين يدي الآن أي إحصائية تفيد بعدد مشاهدي الجزيرة و غيرها من القنوات الإخبارية المتخصصة، في العالم كله، لكنني أعتقد أنهم لايقلون عن عدة عشرات من الملايين، إنْ لم يكن أكثر، لا أدري بالضبط .

من هؤلاء من كان يراقب ما يحدث بحياد تام، يتناول إفطاره وينظر إلى التلفاز ليشاهد مدينتي وهي تقصف وتحترق كما لو كان ينظر إلى فلم حربي ـ مثير ـ لا أشعر بأي حقد تجاه هذا الشخص وأمثاله، لقد فعلناها سابقاً مع آخرين، وهاهم الآخرون يفعلونها بنا .

وهناك، من هؤلاء، ملايين عديدة، من سيتأثر على ما يشاهد، لسبب أو لآخر. ربما لسبب ديني، أو قومي، أو انساني.. أو هكذا ـ **بلا سبب** ـ .

هناك من سيبكي من التأثر، وهناك من سيصلي من أجلنا، وهناك من سيرسل رسائل على الإنترنت، وهناك من سيخرج في مظاهرة .

وهناك أيضاً، من سيتأثر بالمشاهد لدرجة أنه سيغير القناة، ليضبطها على قنوات أخرى أكثر ترفيهاً.

كل ذلك متوقع، ومحتمل جداً.



لكن هناك، بضعة ملايين ـ معظمهم من عراقيي الشتات، وقليل جداً، بضع عشرات من الألوف من عراقيي الداخل ـ كان الأمر مختلفاً جداً بالنسبة لهم .

هؤلاء كانوا يتفرجون على شيء آخر، يقصف ويضرب ويحترق، غير تلك المباني والمنشآت التي كانت تقصف وتضرب على رؤوس الأشهاد، هؤلاء كانوا يرون ما لايراه الآخرون، ويبصرون ما لا يبصره الآخرون، لقد كانت حياتهم هي التي تقصف. كان جزءٌ منهم هو الذي يحترق ، كانت النار تنشب في قلوبهم، وكان الدمع ـ **رغم غزارته** ـ أعجز من أنْ يطفئها ، صدقوني، ليس مسلياً أبداً أن تشاهد ـ **على التلفاز** ـ مدينتك الأم وهي تحترق.

شعوب من أصول وجنسيات قليلة يعرفون عمَّ أتكلم، الفلسطينيون ربما ، واللبنانيون أكثر، والآن نحن، العراقيون، وأخشى أنْ أقول أنَّ القائمة ستتزايد لتضم جنسيات أخرى، حسب الخطة شبه المعلنة .

نعم، ليس مسلياً أبداً أن تشاهد مدينتك التي نشأت فيها ، وترعرعت وهي تحترق ـ **وسواء كنت في الداخل أو في الخارج** ـ فإنك ستحترق معها.. ستحترق معها .. ستحترق معها .

ذلك المبنى الذي دمروه تماماً وصار أنقاضاً ، كنت تمر به يومياً في الطريق إلى المدرسة، عندما كان أبوك يوصلك إليها ، وكان لا يزال .

وذلك المستشفى الذي نقلوا منه صور الضحايا ، وكوم الأطراف المقطعة، وتناثر زجاجهُ بفعل قصف قريب، لقحت فيه ابنك للمرة الأولى عندما ولد، وحررت شهادة ولادته، وربما أصدرت منه شهادة وفاة والدك .

و سوف تنظر إلى المتحف، و أنت لا تصدق، أنهم ضربوه، سوف يفتحون هم تحقيقاً بالموضوع و يعتذرون عن الخطأ غير المقصود، لكنك لن تقضي عمرك في تصديق أكاذيبهم.

سوف تتأمل المتحف و قد أصابت القذائف واجهته المهيبة، و سوف تشعر أنهم لم يكونوا قط بهذة الدقة كما كانوا هذه المرة، سوف تشعر أنهم أصابوك، أنت و تاريخك وذاكرتك بالصميم، سوف تذهب للمرآة وتنظر ، تتحسس، ستجد أثراً في جبينك .

و هنا مررتم ذات يوم أنت وأصحابك وكنتم تضحكون وتعطلت السيارة، وهنا مررتم مسرعين خائفين من أن تتعطل أمام هذا المبنى بالذات، لكن الله ستر ولم تتعطل السيارة .

وفي هذا الجامع الذي قصفوا منارته، وحطموا ساعته، وأسقطوا ـ ربما عامدين ـ لفظ الجلالة من واجهته، صليت جماعة ذات مرة للمرة الأولى، ولاتزال تذكر ارتباكك و لعلك لا تزال مبللاً بعرقك ـ و لا تزال تذكر خشوعك فيها ودعاءك، نسيت ماذا دعوت وقتها ، لكنك متأكد من أنه قد استجاب دعاءك .

وإلى هنا قادوك وأصحابك في المدرسة في مسيرة تأييد (عفوية) ظلوا يعدون لها أسبوعاً، ومن هذا الشارع الفرعي هربتم متسللين وتسلقتم السياج وسقطت نظارتك وقتها وتحطمت .

وهنا، في هذهِ الجامعة التي قصفوا حرمها، وتهدمت قاعات مدرجاتها، خفق قلبك للمرّة الأولى ـ **أو توهمت على الأقل أنه فعل ذلك** ـ ضاعت منك بعض التفاصيل وتساقطت مع الوقت وكنت تعتقد وقتها أنَّ مشاعرك هذهِ ستكون أبدية، وكنت تقول لنفسك: إنك لايمكن أن ترتبط بأخرى ..**وماذا تقول الآن** ؟ وكنت تعتقد أيضاً أنْ لا أحدَ يعلم بذلك ـ والحقيقة هي أنَّ الكل كانوا يتحدثون و يتندرون على ذلك ـ لا ، ليس صديقك الثرثار هو الذي أفشى السر، بل أنت وأذناك واحمرارهما كلَّما مرَّت أمامك ـ **ولو على بعد عشرة أمتار** ـ فتاتك .

وفي تلك الساحة، التي سقط فيها صاروخ وأحدث حفرةً هائلة، تحطم قلبك نفسه ذات يوم، وتناثرت أشلاؤه، دست على نفسك بكبرياء، وتماسكت وانحنيت لتلملم أجزاءه، بعض الأجزاء لم تلحظها، وظلت طوال تلك السنين هناك، في ساحة الجامعة، أظنها تحطَّمت تماماً الآن بأثر هذا الصاروخ .

على هذا الحائط، كتبت أنت وأصحابك يوم التخرج أسماءكم وبعض الذكريات، وبعد سنة أعادوا طلاء الحائط، وجاء غيرك ليكتب وأصحابه أسماءهم وبعض الذكريات، كم دفعة تخرجت منذ أن تخرجت أنت؟ أحسب معي وسيهولك الرقم. كم مرّة أعادوا طلاء الحائط، لكنه يحتفظ بالأسماء في ذاكرته السرية، وهاهي النيران تشب فيه، وفي الأسماء التي لا تنسى، وفي القلوب التي رسمت عليه ذات يوم، رغم أنَّ المشاعر ليست أبدية.

وإلى هذا المبنى ذات يوم استدعوك!!! وذهبت!!! فأذلوك!!! وكنت لا تزال غضاً وبريئاً، وحديث عهد بالإذلال، فدعوت عليهم بحرقة وبحرارة، وقبل النوم طلبت منه أن يقلب عليهم عاليها سافلها. والآن، ها أنت ترى أن دعاءك قد استجيب، لكن لا شماتة، فقط حزن عميق مرتين. مرّة لأنهم أذلوك، ومرّة لأن الذي فعل بهم ذلك، لم يقصد سوى إذلالك.

من هذا السوق الذي سقط فيه العشرات تسوقت أنت ذات يوم، وعدت للبيت فرحاً لتفرح أمك لأنك تسوقت دون أن تطلب هي منك ذلك لكنها أنبتك وعنفتك **حتى لا أقول: إنَّها أهانتك** ـ فاللحم لا يبدو طازجاً، والفواكه أغلى يجب، والخضراوات ذابلة ـ كانت ستقول ذلك في كل الأحوال لأن مزاجها كان سيئاً، لكنك أخذت كلامَها كحجة لعدم التسوق.

وفي هذا المطعم الذي عومل كهدف عسكري، كانت لك أجمل الذكريات وأعذبها، لقد ظل بالنسبة لك وللآلاف غيرك المطعم المفضل عبر أكثر من عقد من السنين، ظلت المطاعم الحديثة تفتح وتذهب إليها مرّة واثنتين بدافع الفضول، لكنك كنت دوماً تعود إليه.

سوف تذكر الساعة[1] وأنت تراه وقد تهدم بالقصف، سوف تذكر يوم دخلته للمرة الأولى وقد همسوا في أذنك باسم من يعتقد أنه يمتلكه من أبناء كبار المسؤولين، تقطب جبينك، إنك تكره الاسم حد الموت، لكن ستعترف مع نفسك: لم تستطع أن تكره المكان.. بالتدريج ستعترف لنفسك أنك أحببته.

وستذكر أصحابك ولمتكم، وستتأمل الآن فيهم وفي تفرقكم، سوف تتذكر أحاديث دارت هناك، وتفاصيل حدثت هناك، ومشاعر مازالت هناك.

و ستذكر مثلي آخر مرة زرت المطعم فيها ـ فقط أسابيع قبل الحرب ـ و معي صديق سافر قبل الحرب بأيام، و كنا خارجين للتو من صلاة الجمعة و وقفنا لنأخذ من الساعة

(١) مطعم الساعة الشهير في تقاطع ١٤ رمضان ـ المنصور.

غذاء «سفريًا» و لا أطيب ـ و لم تكن تدري عندما ودعت صديقك أنك لن تفتقد صديقك و طيبته فحسب، كما تخيلت أول الأمر ـ و لكن ستفتقد، عندما يقصف الساعة، حتى ذلك الغذاء «السفري» الطيب في تلك الجمعة اللامنسية، كما ستفتقد كل تلك الأماكن التي أضاءت بصداقتكما .

سوف تذكر كيف شهد المكان جزءاً من دورة حياتك، كنت تذهب والشباب أصحابك كعزاب، ثم أصبحت تذهب ـ **عندما تزوجت** ـ مع من تزوج منهم في نفس الوقت، وفي العيد الذي تلاه، ذهبتم جميعاً وقد زاد العدد اثنان: طفلٌ لك ، وطفل لصديقك.

وزاد العدد، وعيدٌ بعد آخر يزداد العدد، ويظل المكان مليئاً ببصماتك وبصمات الأصدقاء. يسافرون يغادرون أو يهاجرون أو فقط يكفون عن المجيء، لكن البصمات تظل تملأ المكان، وعندما تراه ـ **على الشاشة** ـ وقد تهدم تحت القصف، تملأ الدموع عينيك، والنيران ذاكرتك، والأشواك قلبك .

ويمتلئ فمك بطعم طبقك المفضل الذي كنت تأكله فيه، وكنت تتحمل الانتظار والطابور الطويل من أجل تفضيلك إياه، ستلاحظ الطعم في فمك الآن، وستلاحظ أنه مالح قليلاً هذهِ المرّة. لكن لا . **الملح من دموعك** .

وتتمنى لو أنك تستطيع أن تغير المحطة، لكنك لاتقوى على ذلك، فبغداد التي تحترق، بعد كل شيء هي بغدادك ، شيء يسري في عروقك، ويستوطن أحشاءك، هي مولدك وموتك وأيضاً كل حياتك، هي إمكانية سعادتك وحقيقة عذابك، بغداد التي تحترق ليست بغداد ـ الجغرافيا ، ولكنها بغداد الملتصقة بأهدابك، بغداد جواز سفرك، و لكن أيضاً تذكرة إيابك.

إنها سترك وعافيتك وعافية أولادك، إنَّها الأمل في عيونهم والفرح الذي تنتظر، منذ دهور، أنْ يدق ذات يوم على بابك .

بغداد التي تراها على الشاشة، ليست تلك التي يرون ـ **ويقصفون** ـ ويحرقون، إنها بغدادك، شيءٌ خاص يسكن أعمق أعماقك، ويحترق الآن في أعمق أعماقك .

على الشاشة تراهم وهم يحاولون إطفاء الحرائق.

قل لي : هل سيطفئ الدمع نيرانك ؟

وبغداد، بالنسبة لخالاتي، كانت بغدادهن، بغداد خاصتهن، بغداد التي توارثنها أباً عن جَدٍّ عبر مئات السنين، والتي كانت مسجلة باسم واحد من اجدادهن في دوائر الطابو في العهد العباسي .

أقول الصدق !. لقد تعاملن مع بغداد دوماً على هذا الاساس، على اساس أنها ملكٌ اجدادهن، قسم من هذا الملك بيع، وقسم صودر، وقسم آخر نسي جدهن ـ **غفر الله له** ـ أنْ يسجله بأسمه.

كانت بغداد هي من ضمن الثوابت القليلة والنادرة في حياة كل منهن، كانت بغداد هي الانتماء الأعرق، والأقوى ـ والأوضح ـ بين انتماءات زائلة وطارئة وسريعة الذوبان .

عبر العقود المتلاحقة، كانت التغييرات السياسية والإدارية تعصف بهنَّ، حكومات وانقلابات واضطرابات وأعمال عنف، وأنظمة تسقط وأنظمة تقوم، وقوانين تسن لتنسف بعد حين، ومملكة تتحول إلى جمهورية، وجمهورية برسم التحول إلى ملك وراثي، وأشياء أخرى من هذا القبيل، رغم ذلك، ظلت بغداد في عقولهن بمنأى عن كل التغيرات، ظلت بغداد هي بيت العائلة، ربما كان في بعض أجزائه قد تهدم، وربما كان في بعض الأجزاء يحتاج إلى ترميم، ربما بعض أجزاءه قد استولي عليها، لكن بيت العائلة يظل بيت العائلة، الأشجار في حديقته كلها نسخ مكررة عن أشجار العائلة، تفاصيل تاريخ بغداد بالنسبة لهن هي حكاية عائلية، كل الخلافات والاضطرابات كانت أولاً وآخراً محض خلافات عائلية.

كان انتماؤهن لبغداد، هو المطلق الوحيد في حياة غلب عليها النسبي والعابر، أتأمل الآن، فأجد أن إخلاصهن للبقاء في بيت والدهن لم يكن إخلاصاً له ولذكراه بقدر ما كان ربما إخلاصاً لبغداد القديمة التي هي والدتهن وبيتهن وكل ذكرياتهن .

كانت بغداد هي كل ما يعرفن عن أصل نسبهن، لم يكنَّ حتى متأكدات من أنَّ العائلة كانت عربية الأصل، و رغم أنهن آمنَّ بالقومية العربية أيام مدّها ومجدها، كما ذكرت فإن النسب العربي ـ وأقصد بالنسب هنا العرق ـ لم يكن حقيقة مؤكدة عندما يتعلق الأمر بأصل العائلة .

كان هناك كلام كثير حول هذا الموضوع، فقد كانت حقيقة الارتباط الوظيفي للعائلة بالإدارة العثمانية للبلاد يلقي بظلاله حول الموضوع، كانت العائلة قد احتكرت وظائف إدارية معينة لأكثر من قرن من الزمن، فعبر ستة أجيال، ومنذ أواخر القرن الثامن عشر ـ

وحتى العقد الثاني من القرن العشرين عند انهيار الحكم العثماني، احتكر رجال العائلة وظائف إدارية معينة قريبة من السلطة العثمانية ـ **بل إن لقب العائلة نفسه اشتق من وظيفة تسلمها أحد رجالاتها لفترة من الزمن** ـ وتراوحت الوظائف البقية بين سكرتارية الوالي، ورئاسة البلدية التي احتكرت تماماً لأربعة أجيال متتالية، وكان لابد لقرب كهذا من السلطة الإدارية العثمانية، أنْ يفسر بأسباب عرقية بأن تكون العائلة من أصول تركية ـ ساعد على ذلك، كما أراه الآن، ذلك البياض المشرب بالحمرة، وذلك الأنف المختلف التكوين عما هو سائد بين العرب .

ومهما يكن، فلا أظن أن الأمر كان تهمة وقتها، كما أنه ليس تهمة الآن، لا أعتقد أن النسب سوى شيء وهمي ـ **كما قال ابن خلدون** ـ فبعد كل شيء، أليست بغداد بالذات هي التي ضمت ما ضمت من الأعراق والأجناس عبر تاريخها الطويل؟! ألم ينصهر العرب والترك والكرد والعجم في بوتقة بغداد ليكونوا ذلك الموزاييك البغدادي الذي تكمن نقطة ضعفه وقوته في تنوعه واختلافه ؟ .

أليست بغداد ـ **ومنذ بداية نشوئها** ـ هي حكاية ذلك الانصهار والذوبان والتلاحم الأصيل العميق بين مختلف الأعراق والقوميات في علاقة النسب والمصاهرة التي شكلت الخلفية للأحداث في التاريخ العراقي ككل .

ألم يكن الأخوال والأعمام هم الأقطاب الرئيسية لكافة الصراعات في تاريخ بغداد؟ مرّة يكون أخوال الخليفة من الترك، فيقربهم ويعليهم ويبني لهم ـ **كما يبنون له** ـ ويستوطنون ويكثرون، ومرّة يكون أخواله من العجم، فيزيدون ويتقربون، ويؤلفون ويكتبون، ويبرزون ويظهرون، مرّة ينتصر الأعمام، ومرّة ينتصر الأخوال، ومرّة أخرى لاينتصر أحد ـ فالكل مهزوم .

واستمر شد الحبل بين الأخوال والأعمام قروناً، إلى درجة أنه صار ميزة أساسية من ميزات الشخصية البغدادية، ولا أعلم بغدادياً ينكر أنه مرَّ في حياته وبواكير طفولته ونعومة وعيه بذلك التنافس بين أخواله وأعمامه في تجاذبه، والتأثير عليه، ولا أعلم بغدادياً ينكر أنه قد درب في طفولته على السير على حبل يشده أخواله وأعمامه .

وعندما يترجم ذلك ليصير حكاية مدينة، يكف النسب عن أنْ يكون حقيقة، ليصير محض وهم في نسج التناغم والتنافس الذي يبطن المدينة ويغلفها في آن واحد .

أتأمل في الأصل الضائع للنسب العتيق لعائلة والدتي، فلا أجد سوى قصة المدينة

بأسرها، ضاع نسبها بين الحقيقة والخيال، والشد والجذب بين الأعمام والأخوال والأصهار والأنساب.

بل أتأمل في قصة من القصص المروية عن أصل تسمية بغداد، فلا أجد سوى قدر المدينة بأسرها مكثفاً ومركزاً في قصة اسمها، حيث يقال: إن اسم بغداد قد نشأ من إدماج كلمتي باغ داد والتي تعني بالفارسية مزرعة داد، وهو رجل كان يملك بستاناً أُنشئت في أرضها ـ **فيما بعد** ـ مدينة بغداد، أتأمل في هذهِ الفرضية فتبدو لي أسطورة من أساطير الأولين، لكنها مثل كل أساطيرهم تشبه الواقع إلى حد الاستنساخ.

أحاول التأمل في داد ـ هذا الرجل الأعجمي الذي كان يملك ذلك البستان الذي صار تلك المدينة والتي صارت عاصمة للدنيا لفترة من الوقت، ـ وأتساءل، ترى أخواله كانوا عرباً، أم أنه صار هو خالاً للعرب؟. وهل كان فلاحوه عرباً، أم أنهم كانوا عجماً، أم أنهم كانوا جزءاً من ذلك الخليط الذي هو جزءاً من هذا وذاك ؟.

أتساءل أكثر : هل صار واحد من أولاده ـ **أو ربما أحفاده** ـ عالماً من العلماء المعروفين في الفقه والتفسير أو حتى النحو واللغة ؟ ..

لقد جرت الأمور على هذا النحو في بغداد، وربما في غيرها من عواصم الخلافة العتيدة : دمشق والقاهرة وغيرهما ـ الأخوال والأعمام يتعاقبون والغزاة أنفسهم يذوبون ـ والنتيجة : النسب أمرٌ وهمي، والانتساب الحقيقي للسكان العتاق لهذه المدن هو المدينة نفسها، بغض النظر عن التفاصيل، أتحسس هذه الحقيقة أكثر عندما أتذكر ما تردده خالاتي ووالدتي من أن والدهن كان يقول لهن: إنَّ العائلة جاءت في أوائل القرن السابع عشر مع السلطان مراد من ديار بكر الواقعة حالياً بين العراق وسوريا وتركيا، والتي ضمت كل ألوان الطيف العرقي الساكن حالياً في هذه المنطقة.. عرب وكرد وأتراك.

أتساءل : تراهم كانوا عرباً من ديار بكر، جاؤوا مع السلطان مراد الذي دخل بغداد دخول الفاتحين في ١٦٣٠ ميلادية، وسكتوا عن حقيقة أصلهم العربي وتركوا الناس يتحدثون عن كونهم أتراكاً من أجل حبك المزيد من التقرب للسلطة؟ أو من أجل كسب المزيد من الهيبة في عيون الناس المحليين.

يبدو كل ذلك محتملاً، ولا أشعر بأي حرج منه، فالنسب أمرٌ وهمي، وبغداد تجب ما قبلها، وتمسح كل الآثار السابقة، تلغي التاريخ لتبدأ تاريخاً آخر أشد عراقة وأكثر أصالة.

وخلال حوالي قرن ونيف، عندما عين واحد من رجالات العائلة حاكماً في ماردين، استقبل هناك بأنه «**خليل أفندي البغدادي**..» ـ هكذا كان الانتساب إلى بغداد، وخلال فترة بسيطة يلغي كل التاريخ المختلف فيه ـ السابق.. لقد كان أفراد العائلة الأوائل يعرفون الحقيقة حتماً، لكن حقائق أهم وأعم سيطرت على حقيقة بادت كالوهم.

هذه هي الحقيقة التي هي فوق الأيديولوجيات، المدن العريقة لأنسب محدد لها، إنها تحتضن الأنساب و الأعراق وتصهرها معاً، وتضيف عليها من عبق تاريخها ـ **وتحملها أيضاً جزءاً من عبء تاريخها** ـ بغداد هي الحاضنة التي حوت واحتوت على الأقوام والأعراق والأنساب، هل سمع أحدكم بطفل ينسب إلى حاضنته ؟ لا. لم يسمع أحد، لكن بغداد ـ الحاضنة التاريخية تفعل ذلك مع من تحتضنهم، وكذلك تفعل كل المدن العريقة، تصير هي النسب، تصير هي الهوية وهي الانتساب.

النسب أمر وهمي، والفكر القومي مبالغة، لا أقول ذلك لأن الثور الذي يسقط تكثر السكاكين عليه، بل لأنها الحقيقة عندما يتعلق الأمر بالمدن الأم، أسجل ذلك وأسجل في الوقت نفسه احترامي للفكر القومي ـ **لأساطينه و مفكريه ورواده** ـ و الذين أذكر بأنَّ معظمهم كانوا ينتمون لنسب آخر غير الذي أصَّلُوا له.



والبغداديون العُتق يعتزون ببغداد كما لو كانت ملكاً شخصياً لهم، كلهم مثل خالاتي، يعتبرون أنَّ بغداد كانت ملكاً لواحد من الأجداد الذي نسي ـ **غفر الله له** ـ أنْ يسجلها باسمه، فضاعت وصارت ملكاً مشاعاً ـ لكنها تظل له .

كلهم يغار على بغداد ـ **أولئك البغداديون الأصلاء** ـ كلهم، ويتحسرون على أيام زمان عندما كانت بغداد خالية من الدخلاء ـ الطريف أنَّ مفهومي التبغدد و (**الدُّخلاء**) شديدا النسبية، و الشخص الذي يعتبر دخيلاً من قبل البعض، كان يعتبر نفسه بغدادياً عريقاً، ويعتبر آخرين هم الدخلاء ويتذمر منهم .

كانت بغداد تحتضن الجميع، وتقبل الجميع، وتتوسع مساحتها باستمرار من أجل أنْ تتسع للجميع، كانت تتسامح مع الجميع ـ **وهي صفة لم يتعلمها منها الجميع** ـ كانَ كل من يسكن بغداد، وتحتضنه بغداد، يصير بغدادياً بعد فترة وجيزة ـ يتكلم باللهجة البغدادية، ويفكر بالطريقة البغدادية، وتطبخ والدته الأكلات البغدادية، ويحب ويجادل ويكره بالطريقة البغدادية.

معظم البغداديين قد جاؤوا من مكانٍ ما في فترة ما إلى بغداد، لكنهم انصهروا تماماً في بغداد، واصطبغوا تماماً ببغداد، وتبغددوا تماماً في بغداد.

لكن رغم ذلك، يظل أولئك البغداديين الأصلاء السكان العتاق لعشرة أو أكثر بقليل من (المحاليل) البغدادية العتيقة ـ يظل أولئك يعتبرون أنفسهم هم الأصحاب الأصليون للمدينة التي زاحمهم فيها الدخلاء ـ يعبرون أحياناً عن تكبر أو ترفع أو أنفة من هذا الذي يجري حولهم رغم أنَّ بغداد، كما ذكرت، ظلت تقول : هل من مزيد ؟.

لست أنسى أبداً مشهداً من مشاهد التكبر والأنفة قامت به والدتي ما غيرها، كانت والدتي ـ بشكل أو بآخر ـ هي القائدة بين شقيقاتها الأربعة، ورغم أنها الثالثة في ترتيب العمر، إلا أنَّ شخصيتها القيادية أولاً، وعملها كمحامية دخلت معترك الحياة العملية ثانياً ـ جعلاها مؤهلة لتكون المسيطرة بينهن ـ فضلاً عن كونها وكيلتهن رسمياً ، ومديرة أعمالهن بطريقة أو بأخرى.

كان لكل واحدة من خالاتي ووالدتي قطعة أرض منفصلة ومجاورة كل واحدة للأخرى، بني عليها منذ عقود بيوت على طراز واحد ـ ولأننا وحدنا سكنَّا المنطقة، ولأن والدتي كانت وكيلة عن خالاتي، فإن الناس كانوا يتصورونها مالكة البيوت الأربعة، وكانت هي مسؤولة عن إيجار تلك البيوت، وتحرير العقود وحتى استلام مبالغ الإيجار، وخلافه.

وكنا قد تعودنا على تقاطر الناس على بيتنا كلما فرغ بيت من بيوت خالاتي المجاورة، أو انتهى عقد دون أن يجدد، وكانت لوالدتي طريقة خاصة في اختبار الراغبين في الإيجار، وهي طريقة سهلة في الحقيقة، ولكن قلما ينجو بها أحد، كانت والدتي تعتمد على فراستها ـ ومن النظرة الأولى ـ وكان ذلك يعني أنَّ معظم الأشخاص لن يتسنى لهم حتى فرصة طرح أي سؤال، حتى تردهم والدتي على أعقابهم خائبين .

أذكر بالذات شخصاً حاول أن يكون لطيفاً وتباسط في الحديث، لكن محاولته تلك جاءت مع الشخص الخطأ وفي الوقت الخطأ، فقد سأل والدتي، وهو بعد على الباب، من أين أنتم ـ يقصد أصل العائلة من أين ؟ وكان يقصد بسؤاله هذا أن يمد جسور الحديث، لعل وعسى يكون هناك رابط مشترك يسهل الأمور التي حدس صائباً أنها ستكون صعبة.

«من بغداد» أجابته والدتي ببرود .**«كلنا من بغداد يا حاجة، أقصد قبل بغداد أين كنتم؟»** رد وكرر وقد بدء يعرف أنه سيلقي ما لا يحب أن يلقى.

«من بغداد. نحن من بغداد» كررت والدتي ببرود حاد.

« لكن لابد أنكم كنتم قبلها في مكان ما». تعليق منطقي جداً، لكن ليس بالنسبة للوالدة.

« نعم . لكن ليس قبل خمسمئة سنة، نحن في بغداد منذ أكثر منذ خمسمئة سنة» .. وأغلقت الباب!



ما الذي أفعله بالضبط ؟

هل أؤرخ للمدينة ؟ أم أؤرخ لعائلتي ؟ . أم أنني أرصد التداخل بين تاريخ العائلة وتاريخ المدينة ؟. أم أنَّ الأمر أصلاً متداخل ولا سبيل لوضع حدود فاصلة بين المدينة والناس لأن المدينة هي الناس، والناس هم المدينة ..

ما الذي أفعله بالضبط ؟.

هل أكتب النَّعي، أم أكتب دعوة الشهادة ؟

هل أحرر شهادة وفاة ؟ أم أكتب شهادة ولادة ؟

هل أرصد الاحتضار؟ أم أراقب صرخات المخاض والولادة ؟

هل أرسم الديناصور الذي برسم الانقراض؟ أم أبشر بالعنقاء التي ستقوم من تحت رماده؟

ما الذي أفعله بالضبط ؟ ـ والحدود بين المدينة والعائلة غير واضحة ؟ حدود البلد محترقة، والسماء ملتهبة، وبغداد تحترق أمام عيني و في الشاشة، والقصف يزعق ساخراً من كل شيء .

ما الذي أفعله بالضبط ؟.. وكل ما أفعله يبدو بلا جدوى، بلا معنى وبلا هدف.

وما الذي أستطيع أنْ أفعله؟. سوى أنْ أتمسك بما أفعله ـ **وأتشبث بما أفعله** ـ وأنظر لما أفعله، ثم أعتبر أنه كل ما يجب عليَّ أن أفعله..

.. وما الذي أفعله بالضبط؟ وقد اختلطت أوراق، واحترقت أوراق، وضاعت أوراق، وزيفت أوراق.. !

ما الذي أفعله بالضبط؟ وكل ما أستطيع فعله هو أن أضيف أوراقاً على الأوراق، وأسطر أوراقاً على الأوراق، واقنع نفسي بأنها لن تكون كبقية الأوراق.



قال لي صديقي وهو يبرر قراره بالمغادرة إلى عانة ـ أقصى الغرب قرب الحدود السورية : «**نفر من قدر الله إلى قدر الله..**» .

لو لم أكن أعرف صدقه، ولو لم أكن قد خبرت إخلاصه، لقلت: إنَّ في خزينة الأدلة والأحاديث والحوادث ما يتسع لتفصيل أي فتوى حسب الطلب وبأي حجم كان .

سكتُّ، لم أقل له، إنَّ القدر في النهاية، ليس سوى مجموعة خيارات نتخذها في مفترق طرق.

لم أقل له: إنَّ هناك قدر زكام، وقدر جذام، وقدر سرطان.. وإنَّ القصف وهوله قد لايبدو بعد عشر سنوات من الآن، سوى حالة زكام شديد وربما التهاب رئوي.

لكن قدر الخروج ـ **الذي يبدو اليوم اختياراً آمناً** ـ قد يبدو بعد عشر سنوات أنَّه كان قدراً قد جلب مرضاً خبيثاً يتقدم ببطء ـ ولكنه يقتل بشكل أكيد، لم أقل له ذلك، فقد كنت أعرف الضغوط عليه .

«**نفر من قدر الله إلى قدر الله ؟**» لا ، بل أتمسك بقدر الله، وبقدرة الله ـ وبرحمته وبحكمته .

لا أفر من قدر الله، بل أتمسك به، وأعضُّ عليه بأسناني، وأتشبث بأظافري، وأتعلق به كما يتعلق غريق بخشبة، وكما يتأمل غريق بخشبة.

لا ، لا أفر من قدر الله، بل أتخندق بقدر الله، وأتحصن بقدر الله، وأتسوَّر داخل قدر الله لأحتمي بقدر الله .

لا ، لا أفر من قدر الله ـ إذا كان الفرار يعني أنْ تفرَّ من بغداد .

فبغداد كانت ولازالت جزءاً من قدر الله ـ **ومن قدرة الله** ـ ومن حكمة الله، ومن عزَّة الله.

بغداد، التي يفرون منها كما يفرون من مريض بالجذام، أتمسك بها وتتمسك بي، أحتمي بها وتحتمي بي، أهرب منها إليها، وأفر من قدر الهروب إلى قدر الصمود، ومن قدر الفناء إلى قدر البقاء .

وبغداد، أحملها في حقيبتي، في جعبتي، أودعها قبضةَ يدي، وأضعها في صدري في عيون أطفالي الأغلى من عيوني ـ ولا أقول أبداً أني أفر من قدر الله إلى قدر الله..فلا أحد يستطيع الفرار من يده، أو من صدره أو من عيون أطفاله ـ الذين هم أغلى من عيونه.



بين الحين والآخر، يجب على المرء أن يدفع ضريبة ما، ليثبت أنه يستحق جدارة ما يمتلك.

وبين الحين والآخر، يجبُ على المرء أنْ يدفع تكلفة ما، ليجدد تملكه لما يملك .

نستطيع أن نقول: إنها ضريبة أو حتى زكاة، وقد يسميها البعض إتاوة، قد يدفعها البعض عن طيب خاطر، ويضيق البعض الآخر متبرماً منها، ويتحايل الآخرون في التهرب من الدفع.

لكن بين الحين والآخر، وربما دون أن نعي ذلك، يحدث أن ندفع دائماً ما يجدد ملكيتنا لما نملكه.

تعودنا أن يحدث ذلك وبشكل واضح مع ممتلكاتنا المادية، بالضريبة أو بالزكاة، أو حتى بالأقساط التي نسددها تباعاً.

لكننا، ودون أنْ ندري ـ **ندفع ضريبة أخرى ـ أو زكاة من نوع آخر** ـ على ممتلكات أخرى غير مادية، لنثبت ملكيتها لنا، ونجدد امتلاكنا لها.

الأمهات مثلاً، يمتلكن شعور الأمومة والذي هو ـ **كما يدعين** ـ ربما أعظم وأجمل شعور يمكن للإنسان أن يمتلكه، لكنهن يدفعن مقابل ذلك ثمناً باهظاً، إنهن مثلاً يدفعن القسط الأكبر من الثمن عبر مخاض الولادة، لكن الأمر لا ينتهي هناك في صالة الولادة، بل تبدأ عملية تقسيط «**غير مريحة بتاتاً** لتستمر العمر كله، وبين الحين والآخر، قد ترتفع قيمة قسط ما، عند مرض أو شدة، من أجل أن تثبت الأم امتلاكها لما تمتلك .

لا يكون الشعور متشابها عندما تكون الولادة بلا ألم، يتم تسليم الأطفال بعدها إلى

مربيات **«مستوردات أو محليات»**. كما يحدث في مجتمعات عدة، وطبقات عدة.

حتى الشعور بالأبوة له ضريبة، لا يمكنك أن تنفذ منه، لا يمكنك أن تتمتع بهم وهم يتقافزون فوقك، دون أن تدفع مقابلاً لذلك من وقتك وأعصابك، والدم الذي يسري في قلبك.

كل الروابط الحقيقية التي تتجاوز الدم والبيولوجيا تحتاج إلى أن تبرهن على استمراريتها ـ **بل على وجودها أصلاً** ـ بدفع من نوع ما .

حتى الأفكار و العقائد، نتحدث عنها ونتشدق بها، و نتوارثها، لكن بين الحين والآخر، تختبرنا، بينما نتصور أننا نختبرها، ونتخلى عنها، بينما نتهمها أنها هي التي تخلت عنا، ونتهمها أنها قد هربت، بينما نكون قد هربنا ـ بل تهربنا .

بين الحين والآخر، على كل امرئ أن يدفع ثمن ما يؤمن به، ويملكه ويفتخر بامتلاكه.

بين الحين والآخر، على المرء أن يدفع ضريبة ما، ليبرهن ـ **لنفسه على الأقل** ـ أنَّه جدير بامتلاك ما يمتلكه .

وكلما كان الشيء موضع التساؤل غالياً وقيماً، كلما زادت قيمة الضريبة التي ينبغي دفعها لاستحقاق الشيء .

وبين الحين والآخر، وفي معظم الأحيان، عندما تتراكم الضرائب والمستحقات دون دفع، يفقد المرء حق التملك، ويسقط حتى حق الحيازة .

وبطريقة أو أخرى، وربما دون أنْ يشعر البعض، كانت الأملاك ـ الأفكار والعقائد والانتماءات تصادر وتستملك، وبعد فترة كان هذا البعض ينتبه، ويفتقد، ويبحث .. ويسب ويلعن.. غير مدرك أنه قد فقد حقوقه كلها، يوم كف عن دفع ضرائبه .



أتحدث عن بغداد بالذات

فأنْ تمتلك ولو بقدر شبر من التاريخ والتراب، في مدينة كانت عاصمة التاريخ وكان ترابها أغلى تراب، ليس أمراً هيناً ولا يمكن أن يمر دون دفع ضريبة ما.

أن تنتمي لمدينة عمقها أكثر من ألف سنة، وطولها أكثر من ألف سنة، وعرضها أكثر من ألف سنة، ليس أمراً عابراً ـ ولا يمكن أن يمر دون تحمل عبء ما .

وأن تسكن في مدينة سكنها قبلك تاريخ، واستوطن فيها تاريخ، واستمر فيها تاريخ،

وتناسل فيها تاريخ، أمرٌ استثنائي ولايمكن أن يحدث كل يوم .

وأن ترث، في قيمة ميراثك ـ **مدينة كانت ـ حصرياً ـ عاصمة الخلافة ـ أيام كانت الخلافة خلافة ـ تمتد من ذلك المكان البعيد في أوربا إلى ذلك المكان البعيد في آسيا، وكان العزُّ و المجد، و كان الانفتاح و الصد، و كان الطوفان والسد، وكان الجواب والرد، وكان العالم أجمع أعجز من أن يكون ند .**

نعم. قد تجد مدينة شوارعها أنظف و هواؤها ألطف، زحامها أقل ومستوى دخلها أفضل، لكن من الصعب جداً أن تجد مدينة يلعب التاريخ الكرة في شوارعها مع الأطفال، ويتسامر مع متقاعديها في المقاهي، ويكتب ذكرياته على الجدران في الشوارع العامة .

تذهب لتزور مدينة أجنبية ما، فيخبرك قائد الفوج السياحي أنه سيأخذكم إلى مكان أثري مهم، فتتأهب لعدة آلاف من السنين، كما هي الحال عندنا، ولكن تفاجأ ببيت عادي عمره أكثر قليلاً من قرن واحد فقط، وأنت بيت جدك عمره يتجاوز القرن والنصف، ستنظر لزملائك في الفوج من الأجانب الذين صادقتهم في الرحلة فتفاجأ أكثر بذهولهم وإعجابهم بالآثار، والتقاطهم الصور التذكارية في المكان، وتحاول أن تجاريهم فلا تستطيع، لقد كنت دوماً تمر بأزقة عمرها بضعة مئات من السنين دون أن تلتفت أصلاً، فضلاً عن أن تقف لتأخذ الصور .

نعم، أنه شيء استثنائي وخاص وحصري، أنْ تلد وأنْ تولد في مدينة استثنائية وخاصة وحصرية كبغداد، وأن تتنفس هواءَها الذي يعاد ويكرر منذ أكثر من ألف من السنين، وأن تموت فيها وتدفن فيها فلا تكون وحيداً في قبرك، لأن ترابه تكون من رفات المئات الذين ماتوا قبلك عبر مئات السنين.

ولو تسنت لك الفرصة أن تتعرف عليهم وأنت في القبر، لتعجبت من تعدد أعراقهم وتنوع أجناسهم، ستجد عرباً من الجزيرة، واحد منهم استشهد في المدائن عند فتح العراق، وآخر استشهد في النهروان، وآخر مات عندما سقطت بغداد .

وستجد رجلاً جاء من طشقند ـ **في أذربيجان اليوم** ـ جاء ليطلب العلم في بغداد، وستجد آخر جاء من الصين، وآخر من إسبانيا اليوم ـ كلٌ جاء من حضارة مختلفة، ومجتمع مختلف، وقارة مختلفة، ووحدتهم تلك الحضارة العظيمة التي كانت ذات يوم، وبرزت ذات يوم، واستوعبت العالم ذات يوم، وجعلت التراب الذي يدفن فيه، يتكون من ترابٍ دفن فيه كل هؤلاء من قبل.

وسترى أيضاً، رغم ظلمة القبر، زنجياً مات في واحدة من الثورات في التاريخ، وسيجاوره في القبر أمير من الأمراء قتل لأنه كان معتزلي الفكر في عصر انقلبت فيه أمور المعتزلة، وفوقهم جميعاً سيكون هناك عبد رومي، خطف وبيع مرات عديدة في سوق النخاسة، وأسلم وحسن إسلامه، بل إنه ـ قد يكون ـ صار أتقى وأورع من سيده .

وسيكون هناك تاجر جاء من أصفهان ليتسوق في بغداد، فطاب له السوق وعاش في بغداد ومات فيها.

وسيكون هناك رجل جاء من مدينة رسول الله ﷺ ليطلب حديثه عليه الصلاة والسلام في بغداد، فبقي فيها ليدرس ويدرس ويفحص ويمحص في الأحاديث.

وسيكون هناك بقايا من رفات العشرات ـ **مجهولون** ـ ولكن الله يعلمهم : فيهم الشهداء وفيهم المنافقون، وفيهم المخلصون، وفيهم المتزلفون، فيهم المجاهدون، وفيهم النخاسون، وفيهم علماء عاملون، وفيهم علماء عاطلون عن العمل، وفيهم أمراء عظماء سيدخلون جهنم، وبسطاء سيدخلون الجنة.

معدودة جداً هي المدن التي تستطيع أن تدفنك في تراب يختزل إرثاً كهذا.

ومعدودة جداً ونادرة جداً في العالم هي المدن التي تستطيع أن تستوعب ناساً من كل العالم، وتصهرهم معاً ـ **وتذيبهم معاً** ـ تحييهم معاً، ثم تميتهم معاً، ليكونوا معاً نسيجاً حضارياً قد يحييك وقد يميتك ـ لكنه نسجك في كل الأحوال.

معدودة جداً ـ **في العالم** ـ هي المدن التي استطاعت أن تكون عاصمةً للعالم، ومركزاً للعالم ـ **ومنارة للعالم** ـ نعم، ربما ذهب ذلك كله فيما بعد، لكن مدينة كهذهِ تظل تختزن في ذاكرتها بعض الكبرياء، وبعض الضوء، وبعض الاستعلاء، ولو أنك كنت ابناً باراً ودفعت ضرائبك، فإنها ستمنحك بعض الضوء وبعض الكبرياء.

ترابٌ كهذا، لكي تستحق أن تملكه، وتستحق أن تدفن فيه، لابد أن تدفع ضريبة ما بين الحين والآخر.

لا أتحدث عن بغداد الـ « كان ياما كان » ولكني أتحدث عن بغداد التي يمكن أن تكون.. والتي نتمنى أن تكون.. بل التي يجب أن تكون.

لا أتحدث عن بغداد ـ **التاريخ الزائل** ـ بل عن بغداد التاريخ الذي يحتاجه المستقبل

ويطلبه المستقبل، ـ **بغداد نحتاجها أكثر مما تحتاجنا، نحن الذين نحتاجها** ـ حتى لا نشعر على الأقل بأننا لقطاء في عتمة تاريخ مجهول.

نحتاج بغداد لكي نشعر بأننا لم نولد أمس ـ **إننا لن نموت اليوم** ـ وإننا لن نجهض، وإن أطفالنا قد تكون لهم فرصة.

تحتاجنا بغداد ؟ .. لا. بل نحن نحتاجها، من أجل أن يكون عندنا أمل، من أجل أن نتذكر أن هناك عمقاً فيما دار وفيما يدور.

نحتاج بغداد من أجل أن نواصل السير، وأن نواصل الحياة.. ونواصل الأمل.

ربما، من بعيد، بغداد تبدو كسائر المدن ـ **بل ربما اليوم** ـ هي أسوء بكثير من باقي المدن، تستطيع أن نفتتح ملفاً لا ينتهي من شكاوى المواطنين في نواحي كثيرة.

لكن من قريب، ومن العمق، لن توجد أبداً مدينة مثل بغداد .. أبداً ..

فمع كل الاحترام لشقيقاتها الشبيهات ـ **دمشق والقاهرة خصوصاً** ـ فإن بغداد هي الأبرز والأعمق والأحق بدور البطولة ..**رغم أنها أيضاً الأسوأ حظاً بينهن .. كحال أجمل الشقيقات دوماً** !.

كل ما نؤمن به من قيم مطلقة، ومُثل عليا، ومبادئ مجردة ـ كان يمكن أنْ يظلَّ كذلك ـ مجرد قصور ـ **مشيدة في الهواء الطلق** ـ لولا أن جاءت بغداد لتجعله حقيقة.

لا. لا أقول: إنها كانت المدينة الفاضلة، أبداً، بل ربما أروع ما فيها أنها لم تحاول أن تكون كذلك، لقد كانت بغداد أذكى من أنْ تلج مطباً ساذجاً كهذا.

بغداد كانت مدينة الواقع المرير، والجهد الشديد، والصراع الطويل.

بغداد كانت مدينة الألف سنة حرب والألف سنة سلم ـ والألف سنة الأصعب : لا سلم ولا حرب .

بغداد كانت مدينة الأسوار العالية، والسراديب الهشة، والخلفاء الظالمين، والخلفاء الأقل ظلماً، الذين سموا خطأ بالعادلين.

بغداد كانت محاولة التعايش مع الواقع، ومحاولة فرض الأمر، الواقع على الواقع، بعد ذلك محاولة تغيير الواقع.

بغداد كانت البوتقة التي استوعبت شعوباً وحضارات، وانصهرت فيها شعوب

وحضارات، وذابت فيها أجناس وأعراق، وعادات لشعوب ولحضارات.

هل أخذت منهم أم أنَّها أعطتهم ؟ لا أحَد يدري بالضبط، فمع بغداد الحساب مختلف، لقد أخذت منهم تنوعهم وتمايزهم، أفضل ما في خبراتهم وأجود ما في أعراقهم، أخذت تنافسهم فيما بينهم، والعطاء المتدافع من كل منهم، والخبرات المتراكمة التي تشكل ذاكرة العالم بأسره، أخذت كل ذلك منهم، ومنحتهم إمكانية التفوق والإبداع والعطاء.

أعطتهم إمكانية التعايش فيما بينهم، وأعطت كل واحد خبرةَ الآخرين بعد أنْ صهرتها في كيان جديد.

منحتهم القيم الأعلى، والمُثل الأعلى، والمبادئ الأعلى، وجعلت كل موروثاتهم الحضارية السابقة تتوهج في هذا الإطار.

لا. لم تبدء بغداد من الصفر، بل بدأت من القمة، لأنها فهمت معنى أن تكون في القمة : أن لا تلغي ما قبلك، بل تعيد بناءه، وهضمه واستيعابه.

بغداد هي كل ذلك أكثر وأهم من كل ذلك هي: إمكانية أن يتجدد ذلك.

نعم، بغداد هي كل ذلك، لو فهمناها حقاً ـ ولو وعيناها حقاً.

لذلك بين الحين والآخر، على المرء أن يدفع ضريبة ما، ليجدد امتلاكه لما يملك.

وعندما تمتلك شيئاً خارقاً عظيماً مثل بغداد، فإنك لاتتوقع أن تكون الضريبة هينة أو سهلة.

ولا تتوقع أن يكون التهرب من دفعها بلا عواقب.



بدأ الموضوع الذي من أجله كتبت ما سبق بشجار مع زوجتي، عندما انتقدت أقاربَ لها تركوا بغداد تواجه مصيرها، وذهبوا إلى مكان قصي لحماية أطفالهم.

أقول الآن، البقاء في بغداد من أجل الأطفال، بالذات.

البقاء في بغداد، من أجلهم تحديداً، وقبل كل شيء ـ وقبل كل أحد، عليهم أن يستحقوا بغداد، عليهم أن يتحملوا دفع تكاليف الاستحقاق، عليهم أن يتملكوها، وأن يدفعوا ضريبتها.

نعم، فليخافوا قليلاً تحت القصف، سأحتضنهم وأنا أتمتم بالدعاء، فليرتعبوا قليلاً إذا مرَّت الطائرات على ارتفاع منخفض.

و لا بأس إذا ارتعشوا، أو سالت دموعهم، أو صرخوا فزعين في نومهم، أو لم يناموا أساساً.

لا بأس في ذلك، فبين الحين والآخر، على أحد ما أن يدفع تكاليف ما يملك.

وبين الحين والآخر، عندما يتعلق الأمر بمدينة مثل بغداد، على جيل ما أن يدفع فاتورة حيازتها وامتلاكها.

جيلنا لم يفهم الأمر كما يجب.

إنه إما تهرَّبَ من الدفع، أو تحايل في الدفع، أو أنَّه دفع صابراً مرغماً مسيراً، دون أن يفهم حقاً لماذا يدفع.

جيلنا لم يفهم أنه يدفع من أجل بغداد : الإرث الذي لايقسم، والقيم التي لا تساوم، والتراب المتنوع الذي تراكم.

لاتزال هناك فرصة لجيل الأطفال أن يدفعوا ما ورثوا، لعلَّهم حين يدفعون، وحين يتحملون، يستحقون ما سيرثون وما سيمتلكون.

نعم، ربما جيلهم سيتمكن من التغيير، بل ربما سيبدأ التغيير بالذات من هذا البقاء، من طفل بقيَ أهله في بغداد، وتحمل القصف، ووعى الصدام، وفهم التحدي.

واستجاب لكل ذلك، بأنْ نَمَت في داخله الرغبة في التحدي، والوعي بالتحدي .

نعم، بعض أهم الأشياء تبدأ من أصغرها.

لذلك أقول: من أجل أننا نحب أطفالنا،و نريد لهمعالماً أفضل من ذلك الذي عشنا فيه، علينا أن نجعلهم يدفعون قليلاً، نعم. نبقى في بغداد بسببهم، لا بالرغم منهم.

و نتحمل من أجل مستقبلهم، لا من أجل حاضر مزيف كاذب الأمان.

لأني أحب أطفالي، وأريد لهم بغداد أفضل، أبقى في بغداد.

❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂

تستمع إلى الأخبار، ثم تهرع إلى الخريطة. تتابع أسماء الأماكن التي سمعتها في النشرة، ثم تنظر بعدها إلى بغداد.

تكاد تمسك بالمسطرة مثل طالب ابتدائية ساذج، لتحسب بعد هذا الموقع أو ذاك عن بغداد، كما لو كان الغزاة يسيرون على صراط مستقيم يمر بمسطرتك.

إنهم لايزالون في الناصرية. ولكن أيضاً في الشامية، وهناك في بحر النجف، ويقولون أيضاً في المسيب، تبدو لك الأسماء مثل نقاط مضيئة على شاشة مظلمة، تتفاوت درجة الإضاءة بشدة المقاومة، تتذكر أنك مررت ببعض هذه الأماكن، ويأكلك الندم أنك لم تقف فيها طويلاً لتشم ترابها وتتعرف على ناسها، ثم تلاحظ أن هذه الأماكن لا رابط بينها، وتتعجب كيف وصلوا المسيب إذا كانوا لم يصلوا إلى كربلاء ؟ وهو أمر مستحيل حسب الخريطة الممدودة أمامك.

تنهال عليك التحليلات، إنزال، التفاف، شيء من هذا وشيء من ذاك، الأمر كله كذب، إنها حرب إعلامية.

يشتعل قلبك فرحاً بالتحليل الأخير، إنهم يكذبون إذن.

وتمسك بالمسطرة لتؤكد لنفسك إنهم يكذبون، ولتقطع الشك باليقين، لقد قالوا مثلاً: إنهم على بعد ٩٠ كيلو متراً من بغداد ـ لكن مسطرتك تقول إنهم لو كانوا فعلاً في المكان الذي هم فيه ـ لكان ذلك يعني أنهم على بعد ١٢٠ كيلو متراً لا ٩٠ .

تقول نظرية المسطرة والزوايا القائمة إنهم إذا كذبوا في هذه فسيكذبون في كل شيء!

يفرح قلبك للنظرية، يطمئن بها. تسأله إذا كان مطمئناً حقاً فيكذب عليك هو الآخر .

إنك تعلم أنهم يتقدمون، بل، إنهم يتقافزون مثل الضفادع مرّة هنا ـ ومرّة هناك، فجأة تقاومهم هنا، وفجأة تجدهم هناك.

إنك تعلم أنهم يتقدمون باتجاهك، وفي واحدة من هذه القفزات سيفتحون ثغرة باتجاه بغداد.

بل إنك تعلم ما لا يعلموه وما لن يفهموه **إنهم إذا استطاعوا فتح تلك الثغرة باتجاه بغداد ـ ولو ثغرة واحدة ـ فإن كل شيء سينهار، وكل شيء سيتساقط : المعنويات والمقاومة والخطط .. وكل شيء .. أعلم أنا ذلك. ويعلمه أهل بغداد دون أن يقولوه ـ رغماً عن كل الخطط العسكرية المعدة ـ أسوار بغداد بعيدة عنها ـ على بعد ما لا يقل عن ٥٠-٦٠**

كيلومتراً ـ والوصول إلى قرب كهذا سيصدم أهل بغداد ـ سيحبطهم وسيجردهم عن أهم أسلحتهم .. آمالهم ..

تنظر إلى الخريطة ، إلى تلك النقاط التي يتقافز فيها الضفدع التئين..، وعينك تشخص إلى بغداد وتعلم أن تلك المدن والقرى إنما تقاتل نيابةً عن بغداد، ووكالة عن بغداد ودفاعاً عن بغداد، وأن بغداد إنما تقاتل هناك، بينما هي متوترة ومتوثبة هنا.

هاهي نشرة أخبار ثانية، تترك الخريطة وتستمع من جديد، ثم تعود إلى الخريطة والمسطرة، تزداد كآبة وإحباطاً .. وتقل درجة الإضاءة في وجهك وفي تلك النقاط.

تشيح بوجهك عن الخريطة، لكن عينك تظل على بغداد.



لكل منا بغدادهُ

لكل منا بغداد خاصة به، هي مسقط رأسه ومحط أحلامه وآماله، وهي مختلفة عن بغداد التي في رؤوس الآخرين .

وبينما ينظر الجميع إلى بغداد على الخارطة، فإن بغداد كان تتشظى وتنشطر إلى ملايين الـ «**بغدادات**».. لكل منها كيان خاص مستقل، كل منها عاصمة شخص واحد، ومركز لعالم هو عالم شخص واحد.

بغداد التي في رأسي هي أطفالي، واللافتة الضوئية لعيادتي ومكتبتي في البيت، وكوب الشاي خاصتي، ودفتر الهاتف، وأصدقائي الذين سافر معظمهم، بغداد هي أوراقي ومشاريعي، وحفنة من الطموحات المعلقة ـ **كما كل شيء** .. ـ وأشياء أخرى.

وبغداد التي في رأس زوجتي، هي أطفالها، والروضة التي تديرها، والتي تطمح بأن تكون أكثر من مجرد روضة، وصولاً إلى رؤوس الصغار وقلوبهم، بغداد هي حلمها بأن تستطيع أن تحول روضة الصغار إلى مجمع تدريسي يكبر معهم.

وبغداد في رأس والدي هي: البوم الصور القديمة الذي لا يفارقه، وحياته المهنية التي لم يتمها بسبب المرض، ومقالات كتبها ورفضت نشرها الصحف بسبب الخوف، ومشاريع كتابية أقعده المرض عنها.

وبغداد بالنسبة لوالدتي هي: ذلك الصبر الطويل على عمر لم تعشه حقاً، وعلى حياة

قضتها كممرضة لوالدي المشلول أكثر مما قضتها كزوجة له، وهي الضحكة في عيون أحفادها تعوضها في لحظة واحدة عن ذلك الصبر كله.

وبغداد بالنسبة لخالاتي هي: شبكة التفاصيل التي تحيط بحياة كل منها، وبتلك الفوضى التي تعج بها حياتهم «وهي فوضى يدعين أنها منتهى التنظيم!» هي: كل كلمة قالها والدهن المتوفى قبل ثلاثة عقود ـ وكل حركة قامت بها والدتهن المتوفاة قبل خمسة عقود، بغداد هي ذلك العهد الغابر الذي لايغيب عن بالهن، وذلك العهد البائد الذي لم يباد بالنسبة لهن، بغداد هي ذلك النهر الذي لم ينقطع يوماً عن المرور أمام بيتهن، وهي شاي الصباح الذي يحتسينه على شطه.

بغداد هي كل تلك التفاصيل اليومية الصغيرة بالنسبة للملايين الذين يسكنونها، صغيرة نعم لكن بالنسبة لأصحابها كبيرة، قد تكون بغداد بالنسبة لأحدهم صلاة فجر في جامع عمره ألف سنة، وقد تكون قدحاً من الشاي على الفحم بعد شيش كباب لايمكن أن تأكله في أي مكان آخر في العالم، وقد تكون بغداد هي لمة عائلية على إفطار صباحي مكون من الكاهي والقيمر، جاءَ به أحد الأقارب دون سابق إنذار، بغداد هي أن يدق بابك فجأة أحباب وأصحاب، بلا موعد، بلا إخطار، فتفرش لهم عيونك، قبل أن تفرش لهم باحة الدار.

وبغداد، قد تكون سريراً في مستشفى، وعلاجاً شهرياً باهظ التكاليف، لطفل هو نور عيون والديه، لكنه مصاب بالسرطان.

وبغداد قد تكون إيجار الشهر القادم، يأتي المؤجر ليستلمه أول كل شهر، لايقنع أبداً، ويظل يطالب بالمزيد.

وبغداد قد تكون صورة معلقة في الدار لأب شهيد، لم يرَ أطفاله يكبرون، لم يرَهم يضيعون أو يرشدون، لم يرَهم ينضجون، ولا يعودون أطفالاً، ويتزوجون، ويرون أطفالهم وهم يكبرون.

وقد تكون ذكرى دامية لعريس فقيد، لم يكن قد مضى على زواجه أسابيع، عندما دق الباب **زوار الفجر**، واقتادوه إلى مكان بعيد، ثم اتصلوا وقالوا سيخرج ليلة العيد ـ **لعبوا بأعصابهم** ـ وأعطوهم جثة هامدة ليلة العيد، وأكثر من هذا قالوا: توفي بسكتة قلبية، فتح أهله التابوت ورأوا آثار التعذيب.. سكتة قلبية!! ربما بسبب التعذيب...!!

لم يدر ذاك الذي مات تحت التعذيب أن أسابيع عرسه قد تركت جنيناً في أحشاء

زوجته ـ **سيكبر ليواجه عالماً قاسياً من حديد** ـ أخذ منه أباه الذي لم يعرف حتى أن له ابناً في الطريق.

بغداد هي تلك الذكرى الدامية، في عيون تلك العروس التي ترملت منذ زمان بعيد، كبرَّها الزمن، وكبرت معه، ومبكراً لبست ثياب الحزن والسواد، ومبكراً أكلت الهم واقتاتت بالصبر، وطيلة سنين ـ **كبّرت ابنها** ـ الذي لم يعرف والده أنه في الطريق، ووحدها، عينها عليه، **وقلبها عليه** ، وعقلها لا يعمل إلا عليه، تخاف عليه من كل دقة باب، من زوار فجر محتملين، من أصدقاء السوء ومن أصدقاء الخير على حدٍّ سواء، تخاف عليه من حوادث الطريق، ومن الحسد ومن عيون البنات ـ فهو شاب وسيم ـ ستخاف عليه أساساً من حظها العاثر، الذي بدأ يوم بدأ من دقة باب.. ذات فجر حزين.

وستعترف مع نفسها ـ أنها لم تعد تذكر ملامح عريسها الفقيد، وستواجه نفسها ذات ليلة لتحاول أن تتخيله، فإذا بملامحه قد ذابت مع الزمن، وحلت محلها ملامح ابنها الذي كان في الطريق.

وستعترف مع نفسها أنه لو حدثت معجزة ما ـ واتضح أنه كان هناك خطأ ما .. ودق الباب الآن زائر فجر آخر هو بالذات عريسها الفقيد ـ لو حدث ذلك لما تصرفت إلا كما تتصرف مع غريب، ولهرعت ترتدي حجابها أمامه، كما ينبغي وحسب الأصول، لقد غربتها عنه السنون، وعاشت عمرها أرملة، ولم يكن العرس سوى أسابيع.

وعندما سيثمر صبرها خيراً، ويتخرج ابنها طبيباً أو مهندساً، ستجهش هي بالبكاء ـ **كما لم تفعل حتى يوم كان ما كان** ـ ستبكي بحرقة : هل أشرفَ عملها كان الانتهاء ؟ وستبكي بألم : لأنه لم يرَ ابنه اليوم ـ لأنه لم يعرف حتى أن له ابناً في الطريق، وستبكي بندم، لو أنها أخبرته انها حامل، كانت صغيرة وخجولة وتريد أن تتأكد فلم تخبره، الآن تبكي بندم وتسأل نفسها : لو أنها أخبرته ، هل كان سيفيد ؟

تداري دموعها ولا يجدي شيئاً، لا تريد أن تفسد عليه فرحته، لكن الأمر كان بالنسبة له أعمق من الدموع، والآن هاهي الدموع تسيل من عينيه، ومن عيون من حوله، فجأة تسود الدموع، ودون أن يقول أحد شيئاً، سيكون الجميع يفكرون بالشيء ذاته.

أنهم يفهمون .. كما تفهمون

بغداد هي آلاف القصص من هذه النوعية، هي التفاصيل المختلفة لقصة الفجر الحزين هذه .. بغداد هي المرور بذلك، والسكوت على ذلك، والصبر على ذلك.

بغداد هي استمرارية الحياة، رغم كل ذلك، بغداد هي الجرح يحمل في ذاته قابلية التئامه، هي الناس يواصلون السير في الطريق، رغم تكرار مصابهم وآلامهم.

بغداد هي عجلة الزمن ـ **لا شيء يوقفها حقاً** ـ لا شيء حتى يجعلها تتباطأ قليلاً ـ **تظل تدور وتدور** ـ تدوس على البعض، وترفع البعض، وتخفض البعض، وتحنو على بعض وتقسو على البعض، لكنها تظل تدور وتدور.

بغداد هي الملحمة الكبيرة للتفاصيل الصغيرة، هي حيناً « **لا**» وحيناً « **نعم** »، هي حيناً توحيد خالص وحيناً خضوع لصنم، هي الألم حيناً، لكنها أيضاً مغالبة الألم.

بغداد هي المطر الذي انحبس، والكسر الذي ما انجبس، هي الحقيقة تضيع بين الشك واللبس.

بغداد هي عرس جماعي، وإعدام جماعي، ومقبرة جماعية، وصورة جماعية لحفلة تخرّج جماعية ـ ستبقى ذكرى لتجمّع ستفرقه الظروف شذر مذر.

بغداد هي لعبة في الشارع يلعبها الأطفال : واحد منهم سيموت، و واحد سيهاجر، وتنقطع أخباره، و واحد لن يهاجر ـ لكن ستنقطع أخباره، ويظل أطفالٌ آخرون يلعبون نفس اللعبة في نفس الشارع.

بغداد هي العَودُ على بَدءٍ ، والبَدء ثم البدء.

بغداد هي النهوض من جديد، والطرق على الحديد، وحرز عتيق تضعه أم لابنها المريض بالسرطان.. لعله يفيد.

بغداد هي التناقضات التي نكره، والتناقضات التي نعشق، والتناقضات التي علينا أن نتعايش معها.



لكل بغداده ..

فبغداد ـ بالنسبة للملايين الخمسة الذين يقطنونها، والذين تقطنهم هي أمر شديد النسبية، مثل حقائق أخرى كبيرة.

من بين الحقائق الأخرى الكبيرة، هناك حقائق ـ **قليلة ـ تتجاوز الوضع النسبي** ـ وتذهب باتجاه المطلق.

هناك حقائق مكانها هناك، لايمكن أن تكون إلا في المطلق، ولا يمكن أن تتخيلها وقد نزلت إلى النسبي.

وهناك حقائق، تسكن المطلق أحياناً، وتتنزل عنه في بعض الأحيان ـ **حسب المتطلبات ، وحسب الظروف** ـ .

وهناك حقائق تقترب من تخوم المطلق حتى تكاد تمسه، وتجاوره.. العمر كله..

في مكان ما هناك توجد بغداد : **جارة المطلق !.**

نعم، هناك بغداد أخرى غير تلك التي انشطرت إلى ملايين الكيانات في رؤوس سكانها.

هناك بغداد ـ **الحقيقة المطلقة** ـ أو على الأقل : جارة المطلق .

هناك بغداد التي هي فوق النسبي، وفوق العادي .

وكما مع كل الحقائق الكبيرة فإن الناس تتجاوز المطلق وتنشغل عنه بالنسبي والعادي والمكرر.

كذلك بغداد ـ **لكل منا بغداده التي تشكل مركز عالمه وهمومه وتفاصيل اهتماماته** ـ لكن بغداد الأصل ـ **بغداد** ـ جارة المطلق لم تكن في قائمة اهتماماتنا.

نعم، مقصرون نحن في فهمها وفي التفاهم معها غارقون في نرجسيتنا، وفي رسم عوالمنا التي لا تتجاوز حدود جماجمنا.

نعم، بغداد جارة المطلق بعيدة عن محل سكنانا، إذ نحن نسكن داخل الحدود الدنيا لاهتمامات دنيا.

لكل بغداده، لكنني قررت أن أترك بغداد خاصتي ـ بغداد بيتي و عيادتي وأوراقي وأكوام كتبي ومقبرتي ـ **لأبحث عن بغداد** ـ جارة المطلق.

وأطلب منكم كذلك، أن تنزعوا رؤوسكم، وتتركوا بغدادكم، وترحلوا إلى بغداد أخرى ـ **تعرفكم ولا تعرفونها** ـ قريبة منكم ولكنكم بعيدون عنها.

بغداد أخرى، تسكن قرب المطلق.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

عندما صُرِّح لنا، دونما سبب محدد، وببرود ولا مبالاة، ومن قبل مسؤول كبير في وزارة الدفاع، أن بغداد ستحاصر وستطوق خلال خمسة إلى عشرة أيام، هبطنا من شاهق، ووضعنا التصريحُ أمام واقع مرير، كنا نحاول أن ندفن رأسَنا في الرمال لنتجنبه.

في الحقيقة ـ لم تكن الأوضاع سيئة لهذه الدرجة، كانت المقاومة لاتزال عنيفة، وكان الغزاة يتخبطون في الصحراء بل ويطلبون الإمدادات.

سمعنا التصريح، وأحبط معنوياتنا، وتعالت التحليلات والصيحات، إنَّها مؤامرة. مؤامرة، والمسؤول أعدم بعد التصريح.

إنها خطة لاستدراج الغزاة، إنَّها جزءٌ من تكتيك مسبق.

وبين نظرية الإعداد المسبق و نظرية المؤامرة ـ **الجاهزة على الدوام** ـ كان لابد للتصريح أن يفعل فعلته، وأن يضعَنا ومعنوياتنا على المحك : حسناً، ماذا كنتم تتوقعون ؟.. هل كنتم تتوقعون أننا سنصل إلى واشنطن ؟. هل كان يمكن لنصر كهذا أن يقع ؟ ..

لا طبعاً، كانت طموحاتنا أقل بكثير، كنا نراهن على المزيد من الوقت الذي سيؤدي إلى المزيد من التخبط، وعندها توقعنا أن تكون هناك مبادرة سياسية ما، من طرف ثالث، من أجل هدنة ما، أو وقف لإطلاق النار، أو فلنقلها بصراحة : صفقة ما.

كنا نريد ورطة للغزاة مثل ورطة فيتنام، نتمكن بعدها من فرض شروط ما للخروج نحو السلام.

لكن فروقاً أساسية كانت تبعدنا عن مثل هذه الورطة، أولها : أن حرب فيتنام حصلت في عالم آخر كان فيه الاتحاد السوفياتي يقف سياسياً ومادياً ومعنوياً بثقله خلف الفيتناميين، أما نحن فقد كنا معزولين تماماً، محاصرين تماماً خلف حائط أجوف وهشٍّ.

ثاني : هذه الفروق أن الغزاة في فيتنام تورطوا في أدغال وأحراش ومستنقعات مكنت أهل البلاد من قيادة حرب عصابات شديدة التأثير، هذه الميزة الجغرافية لم تتوفر في حربنا حيث كانت هناك صحراء منبسطة ممتدة أمام الغزاة دون رادع أو حاجز جغرافي.

أما ثالثها وأهمها : وأكتبها و أنا خَجِل من نفسي ومن أولادي ومنكم ومن أجيال قادمة ـ أننا كنا نريد ورطة مثل ورطة فيتنام ـ شريطة أن لا نضطر أن نكون كالفيتناميين.

نعم، القلم في يدي الآن مصدوم من هذه الحقيقة كما لو أنه لم يكن يعرفها ـ فقد تعودت الأقلام عندنا على كتاب الأيديولوجيات أن يصعدوا الحماسة، ويثيروا

المشاعر، ويروجوا للاستشهاد والمثل وقصة أصحاب الأُخدود وشهداء أحد ـ ثم يكونوا أول من يولون الأدبار أو يقفلون أبواب بيوتهم.

نعم، لنكن صرحاء : لم نكن مستعدين بما فيه الكفاية لخوض التجربة إلا بالكلام والجعجعة كنا أساتذة في ذلك.

وكانت تصوراتنا في الأسبوعين الأولين مطابقة للواقع، **كما ذكرت** فقد كان تخبط الغزاة واضحاً وعثراتهم بينة، بل إنَّهم تبادلوا التهم فيما بينهم بخصوص من وضع الخطة الهجومية، والتي تبرأت كل الأطراف من تبعتها ـ فوزير الدفاع يرميها على رئيس الأركان وذاك يردها له ولمستشاريه.

لأيام، بدا أن الورطة للغزاة مقبلة ولابد.

وكان السؤال الذي يلح في عيون الناس المرهقة، وأذهانها المتعبة : **هل سيبقى الطاغية بعد كل شيء ؟**

كانت المناطق التي تقاوم وبشراسة مذهلة، هي بالذات التي كانت ترزح تحت نير جلاوزة الطاغية أكثر من غيرها، ذلك الجنوب الحزين الفقير والذي قمع بقوة وبوحشية في الحرب الأولى، والذي كان الغزاة قد بنوا جزءاً من خطتهم على أنَّ دخولهم اليه سيكون أسهل من دخول السكين الساخن في الزبدة، ذلك الجنوب الجائع المقموع المكبوت، نهض رغم هزاله وإحباطه يمسك بسلاح شبه بدائي ويقاوم أعتى قوة في العالم الجديد!!. كان ذلك مفاجئاً للجميع، للغزاة وخطتهم، وللنظام واستعداداته، ولنا نحن أيضاً ـ **فلنعترف** ـ لم نكن نتوقع منهم شيئاً كهذا.

قالت لي واحدة من مريضاتي، وهي سيدة محترمة ومثقفة وتعود بأصولها إلى ذلك الجنوب الحزين ـ **الناصرية تحديداً** ـ قالت لي، عن أهل الناصرية الذين كانوا يقاومون بضراوة في ذات اليوم الذي اتصلت بي بحثاً عن علاج طارئ لمشكلة في أسنانها، قالت لي : لو أنك تراهم ! من يعد ثرياً هناك، بالكاد يملك نعلَ حذائه .

وكنت قد رأيتهم فعلاً صباح اليوم ذاته ـ **على الجزيرة** ـ رأيت طائرات الأباتشي تقصف بيوتاً على النهر، ورأيت جنود المارينز يقتحمون بيتاً فقيراً، وكاميرات الإعلام معهم تصور دقائق الاقتحام السينمائي، كما لو كان أهم مهام العميل السري جيمس بوند، تدخل فرقة المارينز إلى غرفة عارية من الأثاث، من الواضح أنها غرفة نوم ومعيشة واستقبال وربما مطبخ في آن واحد، في طرف الغرفة الفقيرة كان هناك لحاف فقير من

الواضح أن هناك «**شيء**» ما ينام أو يختبئ تحته، تصوب الرشاشات كلها نحو اللحاف، والكاميرات أيضاً بانتظار تسجيل الحدث الجلل ـ من تحت اللحاف المهترئ يظهر بارتباك وخوف وجه امرأة عجوز أنهضتها الجلبة من نومها ـ لثوان تنظر وهي غير واعية لما يدور، تمد يدها لتضع نظارتها الطبية على عينيها ـ لتتأكد حقاً مما يدور، حدث ذلك في الناصرية. ونظرة تلك العجوز لأولئك المارينز الذين اقتحموا عليها الدار ـ **كانت نظرة مميزة، ونقلتها الكاميرا** ـ وشاهدتها على الجزيرة في ذلك الصباح. كانت نظرة تلخص نظريات، وتلغي نظريات، وتقيم نظريات. كانت نظرة تمزج بين الرعب والكره وعدم التصديق واستطاعت تلك الكاميرا أن تلتقطها جميعاً، بدلاً عن قائد إرهابي موهوم.

ورأيت أيضاً في ذات الصباح، المارينز وهم يرفسون بأقدامهم باباً متهالكاً لمنزلٍ متداعي، ينفتح الباب على عائلة تتراكض نسوتها وهن حاسرات الرأس، ويقتاد الشباب بذل وخضوع، ورؤوسهم ليست حاسرة بل مغطاة باكياس نايلون لأسباب لا أعتقدها أمنية بقدر ما أتصورها نفسية ـ **للإذلال المحض** ـ كانوا يرتدون ملابس رياضية بسيطة، من تلك التي تراها عندما تذهب للسوق أو لأي مكان عام ـ كانت نوعية رائجة جداً ولون رائج أيضاً وأستطيع أن أعدد عدة أشخاص كانوا يمتلكون نفس النوع ونفس اللون، وعندما تراهم وهم يقتادون بتلك الطريقة، أولئك الشباب الذين لا أظنهم تجاوزوا العشرين، وهم يرتدون ثياباً تعودت أن تراها، يراودك شعور غامض وغير مريح بأنك تعرف هؤلاء الشباب، سبق أن رأيتهم من قبل.

سيطر عليَّ هذا الشعور، ومع الطريقة التي اقتادوهم بها، كان الأمر غير مريحٍ البتة. لكن أين رأيتهم من قبلُ ؟ وأنا لم أصل يوماً للناصرية ! .

وفجأة تذكرت، نعم لقد رأيتهم، وأيضاً في الناصرية.

فقبل أكثر من عشر سنوات، راج شريط عن تلك الانتفاضة التي حصلت في الجنوب ـ أو ما سمي وقتها بأحداث الغوغاء ـ كان الشريط يصور الطرق الوحشية التي قمعت بها الانتفاضة، ولم أشك للحظة واحدة أن الذي روج للشريط كان جهازاً من أجهزة السلطة القمعية ذاتها، دون أي اعتبار لدواعي الاستتار، وكانت الرسالة الواضحة المقصودة في الترويج لشريط الرعب في الناصرية واضحة تماماً : اعتبروا يا أولي الألباب .

من بين مشاهد الرعب المتعددة كان هناك مشهد لَنْ أنساه أبداً، شابان في العشرينات من العمر، ربما كانا في عمري آنذاك ـ يقتادهما الجلاوزة بإذلال، برفسات،

وسباب بذيء، إلى أين كانوا يأخذونهما ؟

لا أدري، لم تهتم الكاميرا، وربما لا أحد يدري، ربما إلى هذه اللحظة لا أحد يدري، وربما أهلهما إلى الآن ينتظرون خبراً، أو رسالة، أو دقة أليفة على الباب.

وربما سيظلون ينتظرون.

وكانا يرتديان ملابس رياضية أيضاً.

طبعاً لا يعقل أن يكونا ذاتهما، لايعقل أن تكون عجلة الزمن قد وقفت بهما طوال تلك الفترة، قلت لنفسي ذلك وأنا أحاول أن أطرد الخاطر العجيب.

لكن لو دققنا أكثر ـ **لوجدنا أنهما نفس الشخصين!**. إنهما نفس نفس الشخصين، أو نسخة طبق الأصل مع بعض التحويرات هنا أو هناك، إنهما نفس الشخص لأن الإذلال كان نفسه، والاستعباد كان نفسه، والاقتياد كان نفسه، والخضوع كان نفسه، لم يتبدل في المشهد سوى أشياء ثانوية غير مهمة، لكن الشيء الذي ظل ثابتاً لم يتغير هو الشيء الجوهري والأساسي في المشهد المتكرر : **إنه الاستعداد للإذلال، إنه القابلية المتوارثة والمتأصلة لأن تمكنهم من نفسك. مرة جلاوزة الطاغية، ومرّة الغزاة، ومرّة جلاوزة الطاغية الذي يليه**.. وهكذا، تتكرر المشاهد ذاتها عبر العقود **حتى لا أقول : القرون** والثابت في المشهد هو العامل الاساس في المعادلة : ليس السفاح وجلاوزته، ولا الغازي وأسلحته، ولكنه الفرد السلبي الذي كان مهزوماً من الداخل، مجوفاً من الداخل، هشاً ومعرضاً إلى الكسر من الداخل. عبر عقود ـ بل سأقولها هذه المرّة : عبر قرون، تأصل ذلك، وتأسس ذلك، وبُني على ذلك كلُّ ما يمكن أن ينتج عن ذلك.

ذلك التشابه الصارخ بين المشهدين في الناصرية، آثار في داخلي تلك الأفكار كلها، وعندما كانت في النشرة أخبار أخرى عن المقاومة في نفس الناصرية الحزينة، بل وعن عملية استشهادية بالذات في الناصرية، **بدا في ذهني أن الأمر بدأ بالتغير، وأن المشهد المتكرر لم يعد مكرراً جداً بعد كل شيء، وأن المعادلة قد تشهد عنصراً جديداً يعكس تفاعل القهر والإذلال.**

لم أقل كل ذلك لتلك السيدة التي تعود أصولها إلى الناصرية، لكنني قلت شيئاً مشابها، كانت محترمة ومثقفة كما ذكرت، ومناضلة قديمة أيضاً، وكانت عقلانية جداً في طرحها للموضوع رغم أن النظام كان قد أعدم شقيقها منذ فترة ليست بعيدة جداً وهو أستاذ أكاديمي معروف ومحترم أيضاً.

قالت لي، **بعد أن سمعت بتفاصيل المقاومة في الناصرية، هل يعقل أن يبقى النظام بعد كل شيء ؟ هل يعقل أن نصمد أمام الغزو ليبقى الطاغية يتحكم فينا من بعد ؟**

كان ذلك سؤالاً مطروحاً جداً في تلك الأيام، وكانت المقاومة وشراستها هي التي تجعله وارداً.

قلت لها : إن الشعب الذي قاوم الغزاة سيكتشف ما لم يكن يتصور أنه موجود في داخله، سيكتشف أنه بامكانه الرفض، وبإمكانه التَّحدي ، وبإمكانه الصمود، وبإمكانه المقاومة.

سيكتشف تلك الكلمة التي كان يتصورها مفقودة في قاموسه : **لا.**

وذلك سيغير الصورة كلها، مشهد الخضوع والإذلال لن يتكرر، المعادلة التي عكست مع الغزاة لايمكن أن تعود أدراجَها لتعكس باتجاه القهر مع الطاغية، لقد دخل عنصر جديد للتفاعل كله ولايمكن أن يحذف بسهولة.

هذا العنصر سيغير الإنسان، وسيكون تغيير الإنسان هو المقدمة الحتمية لتغيير النظام.

بدت مقتنعة، أو بدت كما لو أنها تريد أن تكون مقتنعة، كان تاريخها النضالي ومبادئها ـ التي أجزمُ أنها كانت لاتزال ثابتة ـ كان يمنعها من أن تتمنى إزالة النظام القمعي بغزو واحتلال مساوئه ربما أكبر، كانت حرقتها الشخصية بإعدام أخيها واضحة جداً

ـ لكنها لم تخرجها عن موضوعيتها ـ وهو أمر احترمته كثيراً.

قالت لي، قبل أن تذهب، معلقةً على ما قلت : «**نحتاج بختاً**».

في الأحوال الاعتيادية، كنت أعرف أن الأمور تحتاج أشياء أخرى كثيرة قبل البخت.

ولكن اليوم، وفي ظل تلك الظروف، بدا لي حقاً أننا نحتاج إلى الكثير من البخت، البخت الجيد طبعاً.

فقد كانت المعادلة تحتاج إلى عناصر أخرى لكي تتحرك وتنفعل.

عناصر كانت ضرورية تماماً لأجل أن نصل إلى مرحلة ما، تزدحم فيها المقاومة بالصمود بالورطة بالمبادرة السياسية.

لكن ذلك كان يحتاج إلى الكثير من البخت الجيد، كما قالت تلك السيدة.

والمبادرة السياسية ـ التي كان يفترض أن يقوم بها أحد ما، دولة ما، بطريقة ما لم تأت.

خبر بعد آخر، نشرة بعد أخرى، كان بعضنا ينتظر أن يسمع تلميحاً عن مبادرة عن صفقة ما تحت السطح أو فوق السطح.

لكن العالم كان ساكناً يتفرج علينا، ونحن نقصف ونذبح ونحترق، لم تكن هناك أي بادرة ـ **أي لمحة** ـ أي شيء عن أي صفقة.

في لحظة صعبة بدا أن الصمود سيكون بلا جدوى، ما دام لن يجد منفذاً سياسياً ليحوله إلى مرحلة استراتيجية أعلى .

في لحظة صعبة بدا أن تلك الدماء كانت تروي أرضاً سبخة لا فائدة من الاستمرار في ريها.

في لحظةٍ صعبة بدا أن الكابوس سيصير واقعاً مريراً لا فكاك عنه ولا مهرب منه، وأن الغزاة سيصلون لا محالة .



و بغداد تكاد تسقط أحسست ، بالإضافة للحب، بالتقصير تجاهها .

فبينما كان هناك ناس يتزاحمون قوافلاً للخروج من المدينة، كان هناك في داخلي زحام من المشاعر المتضاربة والمتدافعة والمضطربة والمضطرمة.

عدا الحب، كان ذلك الشعور بالتقصير مؤلماً ومعذِّباً مثل شعور غامض بذنب لست مسؤولاً عنه بشكل مباشر.

كان الشعور بالتقصير تجاه بغداد مثل شعور حفيد تجاه جده المحتضر على فراشه العتيق، قلما يزوره أحد، وقلما يكلمه أحد.

وقلما يسمعه أحد .

وفجأة، عندما تحين الساعة، إياها، ويقولون لك إنه يموت، تشعر بذنب غامض وندم غريب لأنك لم تسمعه جيداً ـ **وكنت تظنه يخرف** ـ وستندم لأنك لم تسأله ـ **وكنت تظنه لايسمع** ـ وستندم لأنك لم تقض كل لحظة معه وكنت تتصور البقاء معه مضيعة للوقت، ومجاملته واجب ثقيل.

أحسست بشعور مشابه، عندما بدا لي بوضوح أنَّ بغداد ستسقط لا محالة.

أحسست أني لم أعرفها كما يجب، وأني لم أتعرف عليها كما يجب، لقد عرفت بغداداً أخرى غير بغداد الحقيقية ـ عرفت بغداد شخصية وذاتية إلى حد بعيد، وفاتني التعرف على بغداد ـ **جارة المطلق** .

أحسست أن الوقت يفوت، وأن الزمن مقبل على انعطافة قد تطيح بجارة المطلق، وقد لا تترك فيها حجراً على حجر.

كان الناس يجمعون أغراضهم يتزاحمون ويتدافعون بسياراتهم ليبتعدوا عن بغداد، وكنت أستجمع حواسي ومدركاتي كلها لأقترب من بغداد ـ **المركز** ـ أعني المركز الحقيقي لا الجغرافي وسط المدينة.

كانت بغداد تدور في منعطفها ذاك، وكان دورانها على ما يبدو يولد قوة طرد وإبعاد للآخرين عن مركزها..

لكنه كان يولد قوة جذب بالنسبة لي باتجاه المركز.

كنت أريد أن التصق ببغداد أكثر، أتماهى معها أكثر، كنت أريد أنْ أحتضنها في لحظتها تلك، حتى لا أندم لأني لم أفعل ذلك، بعد تلك اللحظة.



أؤمن أنَّ الحقيقة لا تسكن في الكتب.

لكني أؤمن أيضاً، أننا لكي نصل إلى الحقيقة يجب أن نمر بالكتب.

بعض الكتب سنمر بها لكي نحرقها، وبعضها لكي نمزقها، وبعضها لكي لا نقرأها، وبعضها لكي نؤمن بعكسها. وبعضها لكي نقرأ ما بين سطورها.

والقليل منها ـ **القليل جداً** ـ لكي نقرأها.

نعم. الحقيقة لا تسكن الكتب، لكنك لكي تصل إليها عليك أن تقرأ الكثير وتمزق الكثير، وترفض الكثير.

الحقيقة لا تسكن الكتب، إنها تسكن الآفاق، وتسكن الهوامش الصغيرة بين السطور، تسكن **ما لم يجرؤ الكاتب على كتابته، وما لم يجرؤ الناشر على نشره**، الحقيقة تسكن أحياناً في تفاصيل صغيرة تبدو ثانوية غير مهمة، تسكن الهموم والتنهدات،

والمخاوف والآهات، تسكن الهواء الطلق، والفضاء الرحب، كما تسكن الصدور، وأحياناً القبور.

المشكلة أنك لكي تتمكن من اقتناص الحقيقة في عناوينها الحقيقية، عليك أن تتمرس مع الكتب، من بين بضع مئات سيكون هناك كتاب واحد يوجد بين سطر من أسطره مفتاح ما، ومن بين بضع مئات سيكون هناك كتاب في حواشيه هناك إشارة إلى الطريق الصحيح، ومن بين بضع مئات من الكتب سيكون هناك كتاب واحد يغمز لك باتجاه علامة هنا أو هناك.

الأمر أشبه بلعبة الكنز، أو برواية لأجاثا كريستي، عليك أن تقرأ الكثير، وتمر بالكثير، وتحذف الكثير، لكي تصل إلى خيط صغير، قد يؤدي إلى خيط أكبر منه قليلاً.

قد يستغرق الأمر بعض الوقت .(**وربما العمر بأكمله** ..) من أجل الوصول اليها، لكني للأسف لا أعرف طريقاً آخر.



تعمق شعوري بالذنب والتقصير عندما ذهبت لأبحث عن بغداد ـ الحقيقة في مكتبتي الخاصة، وتمثل أمام عيني الجد المحتضر الذي لم يكتشف حفيده أهميته إلا عند فوات الأوان.

كانت هناك كتب من كل نوع ولون وحجم، يمكن جداً أن تنضم تحت أي تصنيف معمول به.

كانت هناك كتب عن البنيوية والحداثة، وعن ما بعد الحداثة، وعن الرأسمالية، وما بعد الرأسمة والعولمة والخوصصة، وعن الثورة الجينية، والثورة الزراعية، والثورة الصناعية، والثورة الثقافية، وكانت هناك أيضاً كتب عن علم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة وعلم الفلك، وكانت هناك كتب تدعي الصلة بالفكر الإسلامي ـ كتب قديمة مذهلة لتجددها الدائم، وكتب حديثة مقرفة بتخلفها المذهل.

وكان هناك كتب شعر تتحدى الزوال، وكتب هذيان تدعي أنها شعر، وكانت هناك روايات وقصص وأساطير، وأشياء أخرى لا تندرج تحت كل هذا.

كان هناك شيء عن «**المدينة الفاضلة**» و عن مدن غير فاضلة.

لكن كان الأقل من القليل عن بغداد.

نزلت إلى مكتبة والدي، أضافت عنواناً أو اثنين لا أكثر، رغم أنها مكتبة عامرة جداً، لكن ليس بما يتعلق ببغداد، ذهبت إلى بعض الأقارب، نفس الظاهرة تكررت، كتب من كل لون ونوع وصنف وجنس، لكن بغداد : كتابان لا أكثر.

لاحظت ذلك في أربع أو خمس مكتبات شخصية عامرة استطعت زيارة أصحابها في تلك الظروف.

ولاحظت أيضاً ردة فعلهم تجاه بحثي، نظرة كئيبة وتساؤل حزين عن السبب، وشرود حتى قبل الجواب.

كانوا يعون السبب بلا وعي مسبق، وكان بحثي عن الكتب يفجر لا وعيهم المكبوت ويظهره على سطح مشاعرهم وانفعالاتهم.

كنت أنشر الشعور بالذنب والتقصير ـ فقط عبر سؤالي عن كتب عن بغداد.



بغداد. كومة من الكتب بلا ترتيب ولا تنظيم، حوالي عشرة كتب، وقرص مضغوط واحد، يضم الآف الكتب.

أتأمل الكتب، مجلدة وغير مجلدة، طبعات فاخرة وأخرى شعبية، كتب أوراقها صفراء ومهترئة، وأخرى لم تفتح قط.

وأتأمل القرص المضغوط، قرص صقيل وناعم وصلب في آن واحد، تخاف أن تلمسه، تخاف أن تخدشه، تخاف عليه حتى من نسمة هواء عابرة، لوهلة أولى سيبدو الكتاب عملياً أكثر، تستطيع أن تأخذه معك للسرير، ويستطيع أن يتحمل إهمالك وتجاوزاتك : بقعة من المرق هنا، ونقطة من الشاي هناك، لكن عندما تفكر بالحيز المكاني والزماني الذي يوفره القرص، لا تستطيع إلا أن تعيد النظر في فكرتك، قرص واحد لا تتجاوز مساحته ٢٥ سنتمتراً مربعاً، يحتوي على آلاف الكتب المجلدة التي لابد أن تحتل مكتبة (عامرة) بخزائنها المتعددة وبدلاً من مئات الساعات التي تقضيها في البحث في فهارس تحتاج إلى فهرسة، نقرة واحدة على (الفأر) وتصل إلى ما تريد.

لا فائدة من المقارنة، الموازنة لن تكون في صالح الكتاب.

تستطيع مشاعرك أن تنحاز للكتاب، ربما لأنك تعودته، وربما لأنه ملائم أكثر لوضعية الاستلقاء التي تقرأ بها، وربما لأن الرفوف الفارغة في مكتبتك معدة لتُملأ بالكتب لا بالأقراص، وربما لأن الناس سيعلمون كم أنت مثقف لو سرت في أي مكان ومعك كتاب، وربما لأنك لم تتعود القراءة من شاشة الحاسوب، وربما لأن وضعية الجلوس أمامه تؤذي ظهرك .

وربما ـ لكن هذه لن تكون واعياً بها ـ لأن أجدادك أسهموا فعلاً في صنع الكتاب، في مكان ما، هنا أو هناك حول بغداد وجنب بغداد ـ **فوقها أو تحتها** ـ ولد أول حرف في العالم كان مسقط رأسه هنا، قرب مسقط رأسي أنا، وقرب مسقط رأس بغداد.

أقدم الأبجديات في التاريخ شهدت المخاض في مكان ما قرب المكان الذي أكتب منه الآن، ولدتها الحاجة، وشهد ولادتها الإبداع، عانت عقول مبدعة الأم المخاض، وأجاءهم المخاض إلى ما سيصير ملكاً للإنسانية جمعاء.

في مكان ما، قرب هذا المكان، وجدت الأبجدية وعاءً يحتويها ويحفظها، تفاعلت مع الطين فأخذت من خصوبته ومنحته من خصوبتها، وتفاعلت مع الصخر فأخذت من صلابته ومنحته من شفافيتها ومرونتها، ولانَ الصخرُ فصار طيناً، و لانَ الطينُ فصار ورقاً.

هنا، في مكان ما قريب من هنا، سطرت أول قصيدة حب، كما سطر أول تشريع سماوي. هنا حفر على الصخر أول دستور في العالم، وهنا سطر أول بيان تحريضي، و حرر أول بيان رسمي، هنا كتبت أول شكوى في العالم، وأول أمر بالقمع، وأول همسة ثورية، هنا أصدر أول حكم عادل، ونفذ أول أمر جائر.

هنا طارت أول فراشة في حقول الإبداع، وهنا تراكض خلفها أحدهم ليقتنصها ويحولها إلى كلمة خالدة تتحدى الزوال.

هنا صارت الدمعة حرفاً، و تسامى الألم فتشكل حروفاً ممزوجة بعرق التجربة وألوان الإبداع .

نعم، لن يمكنك أن تنسى أنَّ أجدادك ساهموا في صنع هذا الكتاب، سيكون إرثك بشكل أو بآخر، لذلك لن تحس معه بالغربة.

وعندما تحول عينك لتنظر إلى القرص الصلب، ستشعر بالبرد، لم تساهم في

إبداعه، لم تساهم في صنعه ـ **للأسف** ـ لم تساهم في تطوير تقنيته، لم تكن سوى ذلك البدوي الذي يستقبل بضائع الآخرين ويستهلكها، لم تكن سوى المستهلك المستلب الذي يستورد البضائع ويجترها مبهوراً سلبياً لا علاقة له حقاً بما يدور.

نعم، مع القرص الصلب ستشعر بالغربة، وربما بالاغتراب، لكنك تعلم أن الموازنة غير ممكنة، والمواجهة بين الكتاب والقرص ـ على الصعيد العملي على الأقل ـ محسومة النتائج. ستحاول ربما أن تفكر بطريقة أكثر عملية، وستقول: إنَّ الأمر مرتبط أيضاً بطريقة ما، وأن الأبجدية التي ولدت في مكان هنا أو هناك ـ **قريباً جداً من هنا** ـ أوقدت تلك الشعلة التي أضاءت الطريق الطويل وصولاً إلى هذا القرص الصلب الذي ضغطت فيه آلاف الكتب من تلك التي سطرها أجدادي.

سترشي نفسك بهذهِ الطريقة، ستقول: إن شيئاً أدى إلى الآخر، وأنك ساهمت بطريقة أو بأخرى في صنع هذا القرص الصلب الماثل أمامك، إنها رشوة بائسة كما تعلم، ومحاولة فاشلة لتستطيع أن تواصل لعب دور المستهلك السلبي بضمير مرتاح..

كومة الكتب أمامي، تحتل حيزاً لا بأس به وسط الغرفة.

والقرص الصلب أمامي أيضاً، شيء أكبر قليلاً من قبضة اليد.

بلا عواطف وانحيازات، كنت أعلم أن بحثاً عن مادتي الأولية، سأحتاج إلى القرص الصلب أكثر.



لا أشعر أني قد ابتعدت عن الموضوع، بل أشعر أني قد اقتربت أكثر.

فبغداد التي لعبت دوراً ما في إبداع الأبجدية وترسيخها، لم تصل إلى ما وصلت إليه يومها ـ إلا عبر دورها ذاك.

والآن، والسقوط على الأبواب، أستطيع أن أقول: إنَّها لم تهبط إلى المستوى الذي هبطت له، إلا لأنها لم تنتج القرص الصلب، ولم تساهم في إنتاجه، ولم تكن سوى المستهلك السلبي المبهور، بين أوَّلِ أبجدية أُبدعت والقرص المضغوط درب طويل، طويل جداً، وأكثر من محطة من محطات البداية كانت في الجوار من بغداد، لكن الدرب بدأ من هنا، ولم يمر بعدها هنا أبداً، وللأسف الشديد ها نحن ندفع ثمن ذلك: ثمن التاريخ الذي قضيناه في أي شيء سوى الإبداع والإنتاج.

أتأمل القرص المضغوط، بلا غربة ولا اغتراب، ربما عيناي لم تتعودا القراءة عبر الشاشة، سأعودهما، ربَّما ظهري سيؤلمني من طريقة الجلوس أمام الحاسوب، سآخذ المسكنات. ربما القرص لا يناسب طريقتي في القراءة باسترخاء، أعتقد أن وقت الاسترخاء قد انتهى.

مع القرص المضغوط عليَّ أن أتكيَّف، عليَّ أنْ أضغط على نفسي، عليَّ أن أدخل داخله، وأفهم دواخله. ربما لأن هناك خطوات أخرى في الدرب ربما نتمكن أن نخطوها، وهناك محطات أخرى قد نستطيع أن نجعلها تكون في الجوار.

للمرة الأولى أجد رابطاً بين كوم الكتب، وبين القرص المضغوط، وأشعر أني اقتربت من بغداد الحقيقية، بغداد جارة المطلق، حتى قبل بدء البحث .



أتأمل العناوين أمامي، وأبحث في الفهارس، أقلب الصفحات، وأتصفح في المعاجم، مئات العناوين قد تغني البحث، عشرات المؤلفين شبه المجهولين قد يشاركون معي، ربما المغمور سيكون أكثر فائدة من المشهور، وربما صاحب المؤلف اليتيم أفضل من شخص سطر مئات المجلدات، عندما تبحث عن الحقيقية، فإنك لن تعرف قط أين تقع «حبة البركة» .

أتأمل العناوين، وأسماء المؤلفين، بعضهم معروف جداً، وبعضهم غني عن التعريف، وبعضهم مجهول تماماً ولم تسمع به وربما لم يسمع به إلا الأكاديميون من أصحاب التخصص الضيق، لا أشعر بالانبهار تجاه الأسماء المعروفة، ولا بالتعالي تجاه الأسماء المجهولة، ولا أعتقد أن الظروف وقتها كانت مختلفة عن الآن، بعض الأسماء المعروفة جداً لا تملك أي موهبة حقيقية غير موهبة التزلف والتملق والتمسح بالآخرين، وبعض الموهوبين جداً يسقطون صرعى كرامتهم وتحسسهم وكرههم أن يتقربوا للمهمين.

لن تقدس التاريخ لدرجة أن تفترض أن الأمور كانت مختلفة، ولن تحابي المؤلف المجهول لمجرد أنه كذلك.

ستقرأ، وستقرأ ما بين السطور، وستحاول أن تصل إلى الحقيقة، إلى العمق، إلى ما لم يُقَلْ، وما لم يكتب.

ستذكر ملايين الكتب التي أحرقها التتار عندما دخلوا بغداد، ربما احترقت الأوراق، لكن الكلمات ولا بد أفلتت وطارت، ولا بد، إنها لا تزال تهيم على وجهها في الهواء وتنتظر من يقتنصها، ويقرؤها، ويعيدها إلى عالم الورق، ستقف على الشرفة لتستنشق الهواء جيداً.

ستذكر أنهم رمَوا الآلاف المؤلفة من الكتب في مكتبات بغداد في دجلة، لدرجة أنَّ النهر اسوَّد لونه من الحبر الذي ساح، ستلاحظ أن النهر الأسود لم يزل يجري لكنك لست متأكداً أين بالضبط، وستقول لنفسك أن الكلمات التي ساح حبرها التحمت مع جزيئات الماء، وإن الكلمات التي ذهبت لتصب في البحر مع مياه النهر، بقيت تدور مع دورة المياه في الطبيعة، ولو فتحت الآن صنبور الماء ـ وحدثت المعجزة وكان فيه ماء! لربما وجدت كلمة طافيةً في قطرة الماء، ذبحت مع سقوط بغداد ،ولكنها وجدت طريقاً للبقاء.

وستذكر كلمات لم تسطر، وكتباً لم تكتب، جالت في أذهان مؤلفيها بإلحاح

لكن التمعت في عيونهم سيوف الجلادين ـ **وكان سيف الجلاّد ـ للأسف** ـ أقوى من فراشة الإبداع، وكان سيف الجلاد هو الذي كتب الخاتمة في قصة الإبداع.

وستذكر كتباً كتبت، فكان أن تدحرجت رؤوس، وطارت رؤوس، ونقلت عبر البلدان رؤوس.

وستذكر أن التتار عندما ألقوا الكتب في نهر دجلة استطاعوا العبور عليها ـ **من كثرة عددها** ـ كجسر بين الكرخ والرصافة، وستعجبك الفكرة، نعم، تريد أيضاً أن تعبر على الكتب، ليس باتجاه الكرخ أو الرصافة الجغرافيتين، ولكن باتجاه ضفتي الحقيقة، أوجهها المتعددة اللانهائية.

نعم ! تريد أن تعبر على الكتب، مرة ستدخل بين السطور، ومرة ستحلق عالياً مع الطيور، ومرّة ستستوقفك عبارة فتتدخل لتعرف ما في الصدور .

ستتجمع الكتب أمامك، والقرص المملوء بآلاف الكتب أمامك. وفي الأفق هناك ملايين الكلمات التي لم تقل والكتب التي لم تسطر.

وكلها أمامك !

۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞

الفصل الثاني

الإبحار في ذاكرة مدينة، بينما هي على وشك السقوط

بسم الله تبدأ

سيقولون لنا، وسيعيدون ويكررون، عن بغداد، أول ما يقولون، أول ما يكررون : **بناها المنصور .**

حسناً، إنها معلومة أولية جداً، ومكررة جداً، وتقليدية جداً، وتستطيع أن تكون سؤالاً عابراً في برنامج مسابقات تقليدي.

لكننا اتفقنا أن نمحص، وأن نقرأ ما بين السطور، وأن نبحر بحثاً عن ذلك النهر الأسود الذي يصب في بحر المطلق.

ترفض أن تبدأ بداية تقليدية، بل ترفض أن يفرضوا عليك البداية كما يريدون هم

أولئك الكهنة الذين يتوهمون أنهم احتكروا الحقيقة .

لا ، سترفض بضاعتهم، ستردها إليهم، لفتة تمردية بسيطة منذ البداية كي لا يتمكنوا منك.

بناها المنصور !! لا. لم يبنها المنصور، ستقول بحزم و تأكيد، لم يبنها المنصور، إنه خطأ تاريخي شائع، وقد آن أوان تصحيحه، بنى بغداد أولئك البسطاء الكادحون الذين لا يذكرهم أحد، ولا يعرفهم ولا يفكر بهم أحد .

بنى بغداد أولئك المرهقون، العاملون بقوت يومهم، الراكضون خلف لقمة بالكاد تكفي أودَهم وأود عيالهم.

بنى بغداد أولئك المجهولون، السواعد لونتها الشمس، والظهور أضناها العمل، الوجوه تشبه الوجوه، والملامح تشبه الملامح، والجوع هو الجوع.

ربما ضاعت أسماؤهم، وربما لم يكن هناك من يعرفها حتى في ذلك الوقت، ربما نسب الفضل والمجد لسواهم، وربما طمسوا تماماً كأنهم لم يكونوا أصلاً.

لكنهم هم الذين بنوا بغداد ..**حتى لو كتب غير ذلك ...!!!**

وهل تعتقد أنك لم ترهم ؟ بلى. لقد رأيتهم، إنهم لا يزالون هناك ولا يزالون

مجهولين، ولا يزالون قيد النسيان، تضيع أسماؤهم، وتهدر حقوقهم، ويبنون وتنحني ظهورهم ـ وينسب الفضل إلى غيرهم.

في كل عاصمة من عواصمنا، بل كل مدينة من مدننا، في ركن من أركانها، على الرصيف يقفون بالطوابير، من الفجر يصطفون وينتظرون سماسرة الرزق ومحتكري العمل. ربما لم ترهم وأنت تقود سيارتك وربما أشحت وجهك عنهم ودست على كابح البنزين أكثر، وعندما كنت تضطر لاستخدامهم كنت تتعامل معهم بحذر، وربما عبر وسيط هو سمسارهم المحتكر إياه، كنت لا تأمن لهم وتعتبرهم دوماً مشاريع مجرمين دائمين، بل إنك لم تكن تستلطفهم وتتحاشى أن يمس أحدُهم ملابسك، وعندما كنت تضطر أن تقلهم بسيارتك كنت تتأفف وتقول لنفسك إنهم سيتلفون المقاعد، هؤلاء الأجراء البسطاء، هؤلاء العمال الفقراء، يعرقون لتستمر، ثم تطمس أسماؤهم، ويأتي من يقول : **بناها المنصور.**

كم مرّة جاء وأشرف على البناء بنفسه ؟ نعم، ربما مرة أو اثنتين، جاء وجلس في الخيمة وأطل برأسه على مواقع البناء، وزّع أموالاً هنا وهناك، وهزَّ برأسه موافقاً، وربما دار هنا أو هناك أعطى بعض الأوامر والملاحظات، ستشعر أنك رأيت المشهد من قبل، ربما بصيغة معاصرة، رأيتهم يقصون الشريط، ويضعون حجر الأساس، ويلتفتون للكاميرات ليتأكدوا أنهم دخلوا التاريخ، ثم يلتفتون ليركبوا سياراتهم المكيفة، بدلاً عن خيم الحرير وريش النعام.

وسيقال، فيما بعد، بناها فلان، كما قيل عن بغداد، بناها المنصور، لا شيء عندك ضد المنصور بشكل شخصي ـ **حتى الآن على الأقل** ـ لكن لا يمكن لك أن تحذف من ذهنك صور أولئك المسؤولين وهم يمتصون المجد والمال والشهرة وعرق الناس الكادحين.

ولا يمكن لك أن تحذف صور أولئك العمال المساكين الذين طمست هوياتهم ونسيت أسماؤهم في غياهب التاريخ، أولئك الأجراء المجهولين الحقيقيين، ربما كانوا أكثر شرفاً وأمانة وصدقاً من الأمراء والخلفاء الذين جلسوا في الخيام ، أو قصوا الشريط بين أضواء الكاميرات.

بناها المنصور ؟ ترفض الأمر الواقع، وتقترب من الحقيقة، لست شيوعياً كما تعلمون ولست منحازاً للشغيلة بشكل خاص .. **لكن انحيازي هو للحقيقة ..**

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

حسناً، لم يبنها المنصور، بناها أولئك البسطاء في عهد المنصور.

إنه تعديل مناسب وأكثر قرباً للحقيقة من الأمر الواقع.

تقلب الصفحات، إذا كان في عهده فيجب أن تتعرف عليه أكثر، وبنفس الطريقة.

تمسك هويته الشخصية لتقرأها، تقرر مسبقاً أن لديك مشكلة مزمنة مع الحكام والرؤساء وأمثالهم بسبب التجارب التاريخية المعاصرة التي جعلت سوء ظنك مبرراً تماماً.

وتقرر في الوقت نفسه أن تاريخك عودك على احترام الخلفاء أولي الأمر إلى حد التبجيل والقداسة، وفي كل عصر من عصور الخلافة المتعاقبة تبرز عدة أسماء لتستقر في سجل المحرّمات التي لا يجوز انتقادها. ـ **ومن ضمن هذه الأسماء في العصر العباسي : المنصور** ـ .

وهذا لا يعني إمكانية انتقاد الأسماء الأخرى بلا حدود أو سقوف لا يجوز تجاوزها، فالخلافة منحت الشرعية والحصانة لعشرات بل مئات الأسماء من الخلفاء الذين عوملوا باعتبارهم ظل الله على الأرض، وكان مجرد سكوت ـ **أو رضا** ـ علماء الدين عن هؤلاء الخلفاء ـ كفيلاً بمنحهم هذه الحصانة المتعاظمة تدريجياً.. ستمسك الهوية وستقرر أن الأمر لا يعنيك، ستترك حسن الظن الذي ورطك التاريخ به، وسوء الظن الذي جرّك الواقع إليه.. وتقرر أنك ستقرأ في هويته بلا أحكام مسبقة، لا سلباً ولا إيجاباً.

تقلب الصفحة

تقرأ بعين جديدة..



«هو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي الهاشمي العباسي المنصور وأمه سلّامة البربرية».

أمه بربرية ؟ تبدو لك هذه المعلومة جديدة، لماذا لم يخبرك بها أحد من قبل؟ لا شيء عندك ضد البربر بالذات، فهم شعب آخر كأي شعب من شعوب الأرض، وما لصق بهم من صفات كان ظلماً و تعميماً لا يقبله عقل ولا منطق، مع ذلك، تحس أنك كان يجب أن تعلم أن الأخوال كانوا برابرة.

«ضرب في الآفاق ورأى البلاد وطلب العلم قبل وكان في صباه يلقب بمدرك التراب»

تشعر أنه كلام إنشائي لن يقدم ولن يؤخر خطوة واحدة في الدرب إلى الحقيقة.

«وكان أسمر طويلاً نحيفاً مهيباً خفيف العارضين معرق الوجه رحب الجبهة كأن عينيه لسانان ناطقان» لن تهمك التفاصيل رغم إنها قد تلهب خيالك، لكن العبارة التالية ستستوقفك طويلاً طويلاً **«تخالطه أبهة الملوك بزي النساك، تقبله القلوب وتتبعه العيون»** .

قلبك لا يرتاح لهذا المدح والثناء، لقد ضاق صدرك بمدح الحكام، تشعر بطريقة ما أنه يساعدهم على التمادي في أخطائهم و كوارثهم، بل تشعر بطريقة أوضح أن المدح والثناء هو الذي أوصلهم إلى أخطائهم وكوارثهم، فهذا المدح يجعلهم غير متقبلين للنقد وضيقي الصدر بأي ملاحظة توجه لهم..

«وكان فحل ابن العباس هيبة وشجاعة ورأياً وحزماً ودهاء وجبروتاً» .

كل كلمة من هذه تحتاج إلى أن تضع خطاً تحتها وتؤشر عليها لتسبر أغوارها وتفهمها.

كل كلمة تقود إلى الأخرى، وتلتقي مع الأخرى، وتجتمع مع الأخرى لتشكل نسيجاً من المدح قد يفيد الذم، أو ذم بصيغة المدح، فحل ابن العباس ؟ حسناً ، ليكن، لكن كيف ؟

سيجيبك : هيبة وشجاعة وحزماً ودهاء وجبروتاً.

إنها كلمات مطاطة كما تعلمون، وتسع كل شيء، منتهى الظلم كما منتهى العدل.

«وكان جماعاً للمال حريصاً» ـ هو أيضاً ؟ الصورة المرسومة تذكرك بأشخاص سمعت بهم ورأيت صورهم وربما عانيت منهم .

جماعاً للمال !!!... تعرف أناساً كهذا، وربما كنت أنت واحداً منهم، تركض ليل نهار من أجل قوتك أو قوت أولادك، أو ربما من أجل حياة أفضل، أو من أجل أن تعلمهم أحسن تعليم وتكسوهم أحسن ملابس، لا تشعر أن ثمة مشكلة في ذلك، بل لقد فصلت طريقة حياتك لتنسجم مع ذلك، درست وتعبت وكافحت لتنال عملك، حتى لو كنت غنياً، ومكتفياً، و وارثاً إرثاً يكفيك ـ **فمن العيب** ـ حسب قوانين المجتمع ـ أن لا تعيل عيالك.

لكنك تعلم، أن جمع المال، لايكون عبر الكدح الشريف فقط، ولا عبر الدراسة والسهر وإعالة العيال، وهناك أشخاص **«معلومون ومفهومون ومهمون»** جماعون للمال.

وبطرق مختلفة تماماً، هناك السرقة، هناك التزوير، هناك المصادرة، وهناك الاستملاك.

كان المنصور جماعاً للمال ؟ بأي طريقة يا ترى ؟ بطريقتك وطريقتي وطريقة الناس الشرفاء؟ أم بطريقة أولئك الذين خلفوه بطريقة أو بأخرى على سدة الحكم؟

«أباد جماعة كباراً حتى توطد له الملك » .

نعم. هذه الآن أكثر وضوحاً، وربما نستطيع أن نقرأ العبارات السابقة بأثر رجعي بضوء هذه الفقرة.

«أباد جماعة كباراً حتى توطد له الملك» . **نعم، في** تاريخك الشخصي توجد ذاكرة لحوادث كهذهِ : حوادث إبادة وإعدام من أجل توطيد حكم، هل تريد أن نعدد أم أن التعداد سيتحول إلى تعديد ؟ حوادث كثيرة و حمامات دم كثيرة تزخر بها ذاكرة الشعوب، التي هي ذاكرتك.

ستضم المنصور إلى القائمة ؟ ربما. رغماً عن حصانته، رغماً عن خلافته.

« ودانت له الأمم على ظلم فيه» .

ستشعر أن العبارة فيها خلل، تريد أن تمد يدَك لتخترق التاريخ و تصلح هذا الخلل.

على ظلم فيه ؟ لا. بسبب ظلم فيه، ليس بالرغم من ظلم فيه، بل بسبب هذا الظلم. بسبب الاستبداد، بسبب الإبادة، بسبب الخوف من القتل والسحل وسمل العيون ـ نعم، لقد دانت له الأمم بهذا الأسلوب.

«لكنه يرجع إلى صحة إسلام وتدين في الجملة وتصون وصلاة وخير» .

تسكت، تصدم، تصدمك هذهِ العبارة التي يلقيها الذهبي كما لو كانت جملة اعتيادية: صحة إسلام ؟

كيف ينسجم الإسلام الصحيح مع الظلم، ومع الإبادة ؟

كيف يمكن لإسلام صحيح أن يكون في شخص يقتل ويذبح ويظلم ويبيد ؟

ثم هذه العبارة : وتدين في الجملة ؟ .. ماذا تعني بالضبط ؟ ـ **تدين في الجملة** ـ ربما يقصد أن هناك بعض التفاصيل ـ **في التدين** ـ غير موجودة، حسناً، الكمال لله وحده، ولابد، لكل متدين أن يعترف أن في تدينه تفاصيلاً منقوصة، لكن هل تتساوى التفاصيل حقاً ؟ هل يتوازن تفصيل السهو والخطأ غير المتعمد مثلاً، مع تفصيل الظلم والإبادة ؟

تكمل بصعوبة وأنت تكاد تنفجر «**تدين في الجملة وتصون وصلاة وخير**» .

يخيل إليك أنك سمعت بشيء مثل هذا من قبل، لا تدري أين، لكنك سمعته، ربما في خطبة الجمعة، وربما في برنامج تلفازي، لم تعد تذكر، بل ربما أنك رأيته أيضاً ولم تسمعه فقط. ربما رأيت صوراً لزعيم أو قائد ما ـ وهو يسجد أو وهو يصلي لله أمام الكاميرات، تستطيع أن تعد لثلاثة أو أربعة مستبدين شاهدت صورهم وهم يصلون ـ ربما كانت واحدة من الصور للمنصور شخصياً ؟ لكن لا. لايمكن أن يكون ذلك ولا داعي أصلاً لذلك، فالمهم هو المضمون المتكرر لحاكم يظلم ويقتل ويبيد ـ **بل يبني أسس حكمه على ذلك** ـ ثم يأتي من الوعاظ والفقهاء والمؤرخين من يقول : صحة إسلام وتدين في الجملة وتصون وصلاة .. وخير.. وسوف تستعرض في ذاكرتك صور الزعماء والقادة والملوك وهم يستعرضون في خطاباتهم وأحاديثهم حرصهم على الدين والتدين أو مفاهيمه، وسوف تذكر كيف أنهم تلكؤوا وهم يستشهدون بآيات وأحاديث عامة وجعلوها دليلاً على ما لا دليل عليه من شنائعهم وفظائعهم.

وسوف تسرح قليلاً وأنت تذكر أن لا أحد من الناس الذين تعرفهم وربما الذين لا تعرفهم يأخذ أقوال الحكام على محمل الجد، لا أحد يخدع بهم وباستشهاداتهم واستدلالاتهم المفضوحة، لا أحد غبي وساذج لهذه الدرجة، لكنك ستتذكر أن طبقة من منافقي الخطباء ووعاظ السلاطين من صاعدي المنابر يكررون هذه الاستشهادات ويروجون بواسطتها لاستبداد الحكام ويمنحون عبرها شرعية لظلمهم وطغيانهم.

وستفكر : هل يا ترى كان الأمر آنذاك كما هو الآن ؟ وكان لا أحد يصدق بصلاة الخلفاء وبإسلامهم «**الصحيح**» وتدينهم الذي على «**الجملة**» أي إنه ـ **بلا تفاصيل** ـ ؟ هل كان كلامهم وخطبهم واستشهاداتهم كلها ترويجاً لسلعة كاسدة لا يأخذها أحد على محمل الجِد.

وسيذهب بك التفكير بعيداً، إلى حدود محرمة نوعاً ما، ستقرر مع نفسك أنه كانت هناك ولابد نفس الطبقة من المنافقين والمداهنين والمرائين من رجال الدين ـ يروجون لنفس البضاعة المزجاة ويشرعون لسلطة الاستبداد، وستقرر أنهم ـ كتحصيل حاصل كانوا مقربين من السلطة، يستندون إلى قوتها وجبروتها وهم يمرون منتفخي الأوداج يوزعون بركاتهم وفتاويهم على الناس.

ستذهب خطوة أبعد : هل كان حجة الإسلام فلان الفلاني أو شيخ الإسلام علان

العلاني الذين تعودنا احترامهم من هذه الطبقة المنافقة القريبة من السلطان ؟

ستتأمل قوائم أسماء العلماء الأجلاء، ستستبعد بعضهم ـ **لا لأنهم من المحرمين جداً ـ** فالقائمة برمتها محرمة ومقدسة ومحاطة بحقل ألغام، ولكن لأنك تعلم عن تاريخهم الشخصي ما يبعدهم عن حبال التزلف والتملق.

تتأمل الأسماء الأخرى، وتقول لنفسك : من يدري قد يكون من هؤلاء من تسعر بهم نار جهنم أول ما تسعر.

تكاد تشعر بالنار وهي تستعر وتلتهم القائمة، تبعد وجهك من حرارتها، وتسمع صوت زمجرة قريبة منك.

وتسمع صياحاً وأصواتاً تحذرك من التمادي في أفكارك ..



لعل التاريخ هو الذي يزمجر، ويكشر عن أنيابه .

لا ، التاريخ لا ، لكن كهنته ربما ، قديسوه ورهبانه وسجانوه وزبانيته وتجاره، المعتاشون عليه والمتوظفون في المؤسسات المعتاشة على أمجاده، محتكروه مروضوه ومعذبوه وجلاوزته وسيّافوه، والناطقون الوحيدون والرسميون باسمه.

هؤلاء سيزمجرون بوجهك، ويكشرون عن أنيابهم، سيحركون سياطهم، ويلوحون بهراواتهم، وسيتلون عليك قائمة الاتهامات التي يمكن أن يوجهوها لك، فيما لو تماديت أكثر.

سيقولون لك : هؤلاء هم العلماء، والعلماء ورثة الأنبياء، إنهم ذخر الأمة، وحملة الراية، إنهم السلف الصالح، والصوت الصادح، إنهم السيف البتار بوجه الكفار.

سيزيدون ويعظمون، من أجل أن يشعروك بالخطر من الاقتراب والتلصص، ربما سيصل بهم الأمر إلى تكفيرك، أو على الأقل التلويح لك بأن وضعك يقترب من مرحلة كهذه.

لكن للأسف لم تعد تشعر بخوف من تهديداتهم، لم يعد التكفير سلاحاً يكفي لردعك ـ هاهي مدينتك تكاد تسقط بيد الغزاة ـ وليست أي مدينة، وليس أي غزاة .. إنها بغداد.. بغداد.. وإنهم ...

لا تخوفك التهديدات، ستمضي في البحث غير آبه بسياط الجلد ومزاعم الاحتكار مدينتك تسقط، عصر سيولي وعصر سيأتي ليفرض نفسه عليك، وفي منعطف الطريق ذاك، عليك أن تقف لتعرف كل ما كان وكل ما أدى إلى كل ما كان.

تقلب الصفحة



«وكان يبذل الأموال في الكوائن المخوفة الخارجة عليه لاسيما لما خرج عليه محمد بن عبد الله بن حسن بالمدينة وأخوه إبراهيم» .

كان يشتري الولاءات إذن، يبذل الأموال يميناً ويساراً من أجل جذب الناس إليه ـ **أو من أجل إبعادهم عن معاداته ؟** ـ تتذكر ما قرأته قبل قليل من إبادته لأعدائه، فتتأكد أنه استعمل سلاحي الترهيب والترغيب في توطيد دعائم حكمه.

تكاد تشعر بالغثيان، تحس أن القصة قديمة جداً ومع ذلك فهي معاصرة جداً ومتكررة جداً لدرجة أنها موجودة في حياتك اليومية.

تتذكر أن أولى فصول القصة بدأت في عصر محرم تماماً ولا يجوز انتقاده، في العصر الذي تلا عصر الخلافة الراشدة تحديداً، وستذكر العطايا التي أجزلت والهبات التي منحت، وستفهم كيف أن بعض الصحابة استطاعوا النجاة من شرك العطايا عبر الرفض الصريح تارة وعبر توزيعها العلني والمباشر على الفقراء تارة أخرى.

وسوف تذكر أنك رأيت بعض الفصول الحالية من القصة المستمرة منذ أكثر من ألف سنة، رأيت كيف تشترى الولاءات بالمناصب وقطع الأراضي والسيارات الحديثة والامتيازات، رأيت كيف يستدرج بعض الشرفاء بالتدريج، في البدء بمجرد وظيفة في مركز مرموق، ثم بالمحافظة عليها التي تتطلب بعض التساهل، ثم بالمزيد من التساهل وربما الكثير من التملق. ورويداً رويداً.. يسقط الضحية في فخٍ سار فيه بنفسه.

وسوف تفهم، أكثر وأكثر، وبغداد تكاد تسقط، أن ثنائية الترغيب والترهيب التي استخدمها الحكام لتوطيد حكمهم كانت فاشلة على المدى البعيد، فالترهيب ولد عداءً مزمناً تحت الرماد، والترغيب بنى ولاءً مزيفاً يمكن له أن يباع لمن يدفع أكثر .

وبغداد تكاد تسقط، تعرف أن ثنائية الترهيب والترغيب التي استخدمت وبضراوة ستنقلب هذه المرّة على مستخدمها كما انقلبت دائماً وأبداً، بل أنك تكاد تشعر أن ذلك

سيكون من ضمن آليات السقوط نفسه، **فالناس الذين أبيد أهلوهم وأُعدم أقرباؤهم وأصدقاؤهم أرهبوا فعلاً وألجمَهم الخوفُ عن ممارسة أي شيء ضد السلطة، لكن كان هناك الحقد المزمن والرغبة المتحينة للثأر، والسكين الذي يتصيد الثور بعد سقوطه.**

والناس الذين عودتهم آلية الترغيب على بيع ذممهم واحترفوا التعود على التملق والتزلف واصطياد الامتيازات؛ أولئك سيكون ولاؤهم معروضاً للبيع في أول فرصة، ستتصور أنهم سيخجلون ويقبعون في بيوتهم عندما تتغير الأحوال ؟ أبداً. ربما أنت سيقتلك غمك وتقبع في البيت، أما هؤلاء، فستحركهم خبرتهم في التملق والنفاق نحو المزيد من البيع.

تشعر بالغثيان . وتنقلب معدتك..

وتقلب الصفحة



«ثبتت في الدواوين أنه أعطى في يوم واحد كل واحد من عمومته عشرة آلاف ألف» .

تشعر بالدوار، هذا التكرار لايمكن أن يكون مصادفة، لايمكن أن يكون مجرد حدث يشبه حدثاً آخر.

ستذكر أقرباء الرئيس وعشيرته الأقربين، طبقة كاملة متسيدة على كافة الطبقات داخل المجتمع، وستذكر رعبَك منهم، وحتى من الاقتراب من شيء قريب منهم، ناهيك عن الاحتكاك بهم، أي خطأ ولو غير مقصود قد يتحول إلى كارثة تكلفك كرامتك وربما حياتك، ستذكر أنك كنت دوماً تسير جنب الحائط الأكثر بعداً عن أي شيء متعلق بهم، لتتقي شرورهم ـ وكل ما فيهم لا يذكرك إلا بالشر.. ستذكر تعاليهم وتعجرفهم ـ ومعاملتهم المتكبرة على الناس من حولهم، وستذكر ترفهم وبطَرهم وثراءهم الفاحش الذي كثيراً ما استفز الناس بصمت ولكن بألم كبير، ستذكر قصورهم المترفة، الفارغة دوماً لأنك لا تعرف أين يسكنون حقاً، والناس حيارى من أجل سقف يستطيعون دفع إيجاره، وستذكر ما سمعته من أنهم يأكلون لحم الغزال كوجبة روتينية على موائدهم، وتذكر أن الناس يركضون من أجل الخبز الحاف حيناً والمغمس بمرق العرق حيناً آخر، وتذكر أولئك الذين يبيتون أحياناً بلا عشاء، والآخرين الذين يؤخرون تناولَ غذائهم للتحايل على موعد العشاء، وآخرين تكيفت حياتهم مع حمية دائمة .

وستذكر كيف دمع قلبك بلا دموع، عندما ذكرت لك أمٌ ما، أن صغارها يبيتون أحياناً بلا عشاء.

وستذكر أولئك المترفين البَطرين، التافهين الفارغين، الأغبياء الأغنياء لن تكون ذاكرتك الشخصية هي التي تتذكر، ولكن ذاكرتك التاريخية، سيكون تاريخ ما قبل ولادتك بقرون شاخصاً في ذاكرتك، ويستعرض ذات الشواهد التي خبرتها، ذات المضمون الذي تألمته، سيتكرر عبر العصور.

ستحقد حقداً لا حدود له على كل أولئك، لن يهمك إنْ كانوا ينتسبون إلى النسب المكرم الفلاني، أو العشيرة المعظمة الفلانية.

ستحقد على القرابة بأسرها، ما دامت تسلب وتنهب وتتمتع والناس عرايا .. وجياع.

وتريد أن تقلب الورقة ؟ وهو كذلك!

أسهل من أن تعمل انقلاب !.



«.. وقيل: إنه خلف يوم موته في بيوت الأموال تسع مئة ألف ألف درهم» .

ستفرح لموته، ثم ستسأل ، من أين ؟

تعرف طبعاً من أين، منك ومني، ومنهم أجمعين، حقي وحقك، كدحي وكدحك، عرقي وعرقك أيضاً ومن عرقهم أجمعين.

من الثروات، من الزكاة، من المكس، من الجزية، من الضرائب، من بيت مال المسلمين الذي عومل كما لو كان بيت أبيهم أجمعين.

من الاختلاسات، من المصادرات، من العمولات، من الرشاوي ومن الصفقات، من الخزينة التي يسمونها عامة ويعدونها خاصة، من ميزانية الدولة التي كانت كفتاها دوماً ملكاً لهم.

ستفرح لموته، ولن تسأل ـ **عن تركته** ـ من أين ؟

فأنت تعرف !

مات إذن. فهل انتهينا ؟

لا ، للأسف. مات، وما انتهينا.

فدوماً تتكرر نفس القصة، أحياناً نفس التفاصيل، يموت خليفة ويعيش خليفة، يموت سلطان يأتي آخر، يموت ملك، ويعيش دوماً ملك.

دوماً هناك نفس المضمون، وأحياناً نفس التفاصيل، شدة وإبادة وقتل للخصوم من أجل الوصول للحكم، ترغيب ـ **بذل للأموال ومناصب وعطايا ـ وترهيب** ـ قتل وسحل وسمل للعيون ورؤوس مقطوعة ترسل عبر الأمصار.

وتقريب للقرابة، وبذل للقرابة، وتوطيد للقرابة .

والملك ملكهم، والمال مالهم، والفيء دوماً فيئهم، تستطيع أن تستحضر أسماء معاصرة تشبه المنصور في خطوط عريضة، ربما هناك بعض الاختلافات التي لا تشكل فروقاً عامة عن السياق، ربما الترغيب هنا أكثر أو الترهيب هناك أكثر، لكن الخطوط العامة للصورة ستظل متشابهة إلى حد التطابق.

بين الخطوط سيكون وجود الفقهاء المنافقين في الصورتين واضحاً، ستعزي نفسك بأنهم أضحوا بلا فاعلية اليوم، لا أحد يصدقهم لأنه لا أحد يسمعهم أصلاً ـ « **أم إن الأمر ليس كذلك حقاً.. وأن هناك من يسمعهم ويصدقهم ـ ويتحجج بفتاويهم**» .

لكن عزاءَك هذا ـ **بأنهم بلا فاعلية وبلا أهمية** ـ سينبهك إلى أن أسلافهم الأوائل في درب النفاق والتزييف كان لهم فاعلية لا حدود لها ، أهمية تخطت الأبعاد المحدودة لعصرهم، **فقد أنتجوا فكراً وفتاوي لا يزال يمارس تسلطه علينا ، أنتجوا آليات فكر وطريقة في التفكير لا تزال موجودة، ولا تزال تمارس تسيدها وتجبرنا على أن نفكر بطريقتها.. نفس الفتاوي التي أفتوا بها اليوم لا تزال موجودة، نفس الدعوة للسلطان؛ نفس التكريس لطاعة أولي الأمر.**

لم يموتوا ، ظلوا موجودين، ومنحهم تقادم العهد قداسة إضافية وحصانة تضخمت مع الوقت.

لم يموتوا ، كانوا أفراداً متناثرين وظاهرة فردية وأصحاب فتاوي هنا أو هناك، لكنهم بالتدريج صاروا مؤسسة، صاروا طاقماً كاملاً لفكر بكافة تجهيزاته، لقد صاروا فكراً يجول في رؤوس الناس مزوداً ومتقوياً بتفسيرات معينة لأدلة معينة، ومكرساً لنمط تفكير سلبي واستسلامي.

خط أحمر !!. وصافرة إنذار!!!...

والكهنة يزمجرون ويلوحون بالتهديدات إياها.

بغداد تكاد تسقط، فلتسقط الخطوط الحمراء إذن، فلتسقط المخاوف التقليدية، فليسقط رعبنا من مواجهة أنفسنا وتاريخنا ـ بغداد تكاد تسقط، وخلف الكواليس، وبين السطور، خلف القضبان هناك حيثيات القضية، هناك ربما الأسباب الكامنة التي أدت وأدت إليه حتى الآن ـ وممكن أن تؤدي إلى أكثر : **السقوط**.



ماتوا أيضاً، ولم ننته..

كما مات زعماء وقادة وحكام وسلاطين.. ولم ننته..

ستتأمل في التأريخ ـ المعاصر القريب والغابر «**القريب أيضاً بطريقة أو بأخرى**» وستسأل نفسك سؤالاً وجيهاً جداً ـ وقد بان لك الشبه بين حكام الأمس وحكام اليوم ـ ستتعجب كيف لم تسأل من قبل : لماذا تكررت الصورة ؟ لماذا جاءت النسخ المتكررة لتحكمنا ؟ لماذا تبدلت أسماء وأشكال وتكرر المضمون ؟ لماذا حكم العسكر كما السلاطين، وأباد العلمانيون كما فعل المتأسلمون، ونهب الأرستقراطيون كما سلب الاشتراكيون ؟

ستسأل، ومن حقك أن تسأل، عن السر في القضية ـ لماذا تبدلت الأسماء ونظم الحكم والشعارات والأهداف، وبقي عامل مشترك واحد ووحيد بمنأى عن التغييرات ـ وبمعزل عن التأثيرات : هذا العامل هو الاستبداد. الاستبداد. الاستبداد..

من حقك أن تسأل عن السر، بل من حقك أن تتعجب كيف لم يَدُرْ في بالك من قبل وستقول ربما لأنهم عودوك على أن تعتبر تاريخك كله مضيئاً جميلاً ومثالاً يجب أن يحتذى ..

ستسأل لماذا انغمس الماضي والحاضر في الاستبداد والاستفراد ؟ ولماذا اتفق الجميع على نقطة واحدة من بين مئات النقاط التي اختلفوا فيها ؟

لماذا أنفقوا على سلبنا ونهبنا، قمعنا وكبتنا، قتلنا وتكميمنا، وإرهابنا وترهيبنا، واختلفوا على ما عدا ذلك؟

أهو شيء فيهم ؟

أم هوَ شيء فينا ؟

أم شيء فينا ـ مكن ذلك الشيء فيهم من التمكن منا ؟

أم هو مزيج من هذا وذاك ـ شيء فيهم وشيء فينا ؟



تقلب الصفحة ؟

لا. تريد أن تمزقها أولاً، تستأصلها تماماً، تحذفها وتحذف إرهاصاتها ونتائجها.

تقلب الصفحة ؟

لا. بل تواجهها، تقتحمها، تتصارع معها و ـ **ربما** ـ تصارحها.

لا، لن تقلب الصفحة، فلا فائدة من قلبها. بل ستفردها، ستقرؤها مراراً، ستهضمها. وتتفاهم معها : ما ستحاول أن تعيد كتابتها ـ

تريد أن تقلب الصفحة ؟ لا .**بل تريد أن تقلب نفسك، و واقعك وتاريخك** .



بينما تبحث في الكتب والوثائق، ستجد شهادة أخرى مغايرة لتلك التي قرأتها ممجدةً وباذلة المدح والثناء لخليفة تناغم فيه (حسب الشهادة) **الظلم وحسن الدين.**

ستجد شهادة أخرى تقول بعكس التيار، و تسير بعكس التيار، وتصرخ بعكس التيار.

«أسمر طويل نحيف قبيح الوجه دميم الصورة ذميم الخلق أشح خلق الله وأشده حباً للدينار والدراهم سفاكاً للدماء كفاراً بالعهود غداراً بالمواثيق كفوراً بالنعم قليل الرحمة.. وكان جالَ في الأرض وتعرَّض للناس وكبت الحديث وأحدث في المساجد وتصرف في الأعمال الدنيئة والحرف الشائنة ..

في الجملة والتفصيل كان دنيئاً وخسيساً كريهاً شريراً وأمر بعدِّ دور أهل الكوفة خمس دراهم، فلما عرف عددهم جباهم أربعين درهم أربعين درهم» .

ستخاف قليلاً، لم تتعود هذه الصراحة والجرأة في الحديث، ستتخيل أن الكلام

موجهٌ إلى حاكم بلادك، وتلتفت يميناً ويساراً خوفاً من أن تكون تحت المراقبة.

إنها مجرد شهادة أخرى، من معارض حاقد ربما، لماذا تصدقها أكثر من سابقتها؟ ربما لأنها تنطبق مع واقعك أكثر، ربما لأنها تنسجم مع الصورة التي تسود على سدة الزعامة أكثر، ربما لأنك قرأت بين السطور رغم المدح والثناء والتمجيد إشارات إلى هذه الصورة.

لن تهمك الإشارة إلى قبح الوجه ودمامته، فلقد كنت تعاني من دمامة الأخلاق أكثر مما عانيت من دمامة الوجه، بل إنك تعتقد أن دمامة الأخلاق هي التي أثرت على شكل الوجه، فبعض من اضطهدوك وسلبوك وظلموك كان لهم وسامة مميزة من الناحية الشكلية، لكنهم صاروا رمزاً للقبح والشر وللشيطان في أذهان الملايين من أمثالك.

ستتأمل في اسم المؤلف .«**الطاهر بن المطهر القاسمي**». مجهول بالنسبة لك، ليس مثل الاسم الشهير جداً الذي قدم شهادة المدح والثناء. تتساءل : هل كانت صراحته هذه هي التي جعلته مغموراً، وكيف انتهت حياته يا ترى ؟ هل دفعها ثمناً لهذه الشهادة أو سواها ؟..

ستتأمل في سنة وفاته، بنو العباس كانوا لا يزالون في الحكم، هل احتملوا هذا الكلام في واحد من أهم مؤسسي دولتهم ؟ أم أنه كتب في حماية توازنات معينة ضمن صراع الأخوال والأعمام إياه ؟

ستتأمل شهادته دونما أحكام مسبقة، وستفرح لأن أحدهم تجرأ وكتب، وستفرح لأن الكتاب نجا من الحرق، ومن الغرق.

رغم أنه لم يضف لك إلا ما كنت تعرف، مسبقاً.



« فيها ابتدأ المنصور في بناء بغداد .. وسبب ذلك أنه كان قد ابتنى الهاشمية بنواحي الكوفة، فلما ثارت الراوندية فيها كره سكناها لذلك، ولجوار أهل الكوفة أيضاً، فأنه كان لا يأمن من أهلها على نفسه، وكانوا قد أفسدوا جنده فخرج بنفسه يرتاد له موضعاً يسكنه هو وجنده» .

تتأمل في هذه الحقيقة بحياد، كان خائفاً ويتنقل من مكان لآخر، كان مرعوباً رغم جبروته وشدته وإبادته وظلمه، بالرغم من جبروته ؟ لا. تحتاج إلى تصحيح العبارة، كان

مرعوباً بسبب ظلمه، كان خائفاً لأنه أباد خلقاً كثيرين، ثم تفكر مرّة أخرى: عجيب أمرهم، إنَّهم يظلمون ويبيدون ويتجبرون من أجل توطيد حكمهم، لكن ذلك لا يمنحهم الأمان، **بل يسكنهم بالخوف المزمن الذي يجعلهم يتهيبون حتى من ظلالهم، ويقضون حياتهم وهم يتنقلون خوفاً من مؤامرة موهومة.**

ستذكر **«عدلت فأمنت فنمت»** ـ رغم أنه اغتيل غدراً فيما بعد.

وستذكر الحراس الشخصيين لزعماء بلادك وفرق الحراسة الخاصة المكلفة بحمايتهم وحماية عوائلهم، وأسلحتهم ومدرعاتهم وكلابهم ـ يكادون يكونون جيشاً آخر مستقلاً عن جيش بلادك ـ ولن تشك للحظة أن الميزانية المخصصة لهم والامتيازات التي يتمتعون بها ـ تفوق ما يتمتع به جيش بلادك.

وستذكر قصورهم التي يتصورونها منيعة، وأسوارها المكهربة العالية، ونقاط الحراسة المستنفرة قبلها بكيلو مترات بعيدة، وإشارات ممنوع التصوير، وممنوع الاقتراب، وممنوع استنشاق الهواء.

وستذكر ما سمعته أنهم يبيتون كل ليلة في مكان مختلف من قصورهم المختلفة، حتى لا يكونون صيداً سهلاً لمؤامرة ليلية، وستذكر أيضاً ما سمعته من أن كل القصور تكون مهيأة لاستقبال الزعيم كل ليلة، بما في ذلك إعداد قائمة الطعام الموحدة في كل القصور.

وربما ستذكر ما لم تصدقه كثيراً ـ واعتبرته وقتها مجرد مبالغات بوليسية : عن وجود شبيه، نسخة طبق الأصل من الزعيم، تكون عوضاً عنه في بعض المناسبات والظروف الخاصة.

ستسأل : كل ذلك الجنون لماذا ؟

سيكون الجواب سهلاً، لأن المعادلة إياها فشلت : عدلت فأمنت فنمت. ظلموا، فخافوا، ففارقتهم الطمأنينة وهجرهم النوم.

هل تصدق أنهم كانوا ينامون أصلاً ـ رغم الخطط والتحوطات والأسوار العالية المكهربة وأجهزة الإنذار المتطورة والقوات المسلحة المكرسة للحراسة، هل تصدق أنهم كانوا ينامون، وهم يشكون بحراسهم، وبطباخيهم، وبسائقيهم، وبأبناء عمومتهم و بالذات **بأبنائهم** ؟

لا. لا نوم.. وكل ذلك فعلوه من أجل أن يأمنوا إلى حكمهم، لكنه لم يمنحهم الأمان، لم يمنحهم حتى النوم.

ستتأمل في الأسباب التي دعت إلى بناء مدينة بغداد، وسوف ترى فيها قصة الطغاة مع شعوبهم، كيف يظلمون ليأمنوا، فيفشلون، ويهربون، ويظلون يتنقلون بحثاً عن الأمان.

ستتخيل المنصور وهو يهيم على وجهه وينتقل من مكان إلى آخر ـ **معه جنده وحراسه ووزراؤه** ، لكنه لا يشعر بالأمان، من الكوفة إلى الهاشمية، ومن الهاشمية إلى جرجراية، كان المنصور يبحث عن أمان لا يجده. الناس ثاروا عليه هنا. الناس جعلوا الجند يثورون عليه هناك. الناس تمردوا هنا وتمردوا هناك..

هنا ستتأمل في قصة بناء بغداد، فتجد فيها قصة كل المدن العريقة، يأمر الحكام بناءَها من أجل أن يحصلوا على الأمان، يتوهمون لفترة أنهم يحصلون على ما يبغون، لكن المدن تمكر بهم، بمنحهم الوعد بالأمان، ثم تغدر بهم، وتسلبهم الأمان، والراحة.. والنوم.

تتخيل المنصور وهو يبحث بين الموصل وواسط عن مكان ليبني فيه أمانه وملجأه، فتحترم عبقرية المكان التي استدرجت المنصور إلى البناء فيها ـ **المدن العريقة تكون موجودة قبل أن تكون** ـ المدن العريقة ليست بنياناً وأسواراً وطرقاً ومخازنَ، إنها روح تسري في المكان، إنها عبقرية تسكن المكان، تتحين الفرص للانبثاق، للتجسد، تتصيد الوقت السانح لتخرج من القمقم، وتتحول إلى مارد هائل يسد الآفاق.

إنها روح وعبقرية المكان ـ هي التي تشجع هؤلاء الذين يقررون ـ **في لحظة خارقة** ـ أن يختاروا هذا المكان تحديداً ـ **دون ذاك** ـ لوضع الحجر الأساس لمدينة.

إنهم يسقطون في الفخ، يسقطون في الشرك المنصوب بإتقان الذي تحيكه المدن العريقة الموجودة قبل أن توجد.

تقرأ القصة فتحب المكر الذي مكرته بغداد ـ **قبل أن تكون** ـ من أجل أن تكون، وتقرأ التفاصيل والأسباب التي دعته إلى «**النزول في ذلك الموضع**» فلا تقول سوى إنها مشيئة الله أرادت لبغداد ـ **أخيراً** ـ أن تكون.

صعد وهبط. حلَّ وارتحل إلى الموصل صعوداً، وإلى النهروان نزولاً، مرة يريد الجبل، ومرة يقرر السهل، ولا يستقر حقاً على شيء.

ثم فجأة، وبسبب رمد في عينيه تخلف أحد قواد جنده عنه، فبقي في المدائن «**فسأله الطبيب الذي يعالجه عن سبب حركة المنصور فأخبره، فقال إنا نجد في كتاب عندنا: إن رجلاً يدعى مقلاصاً يبني مدينة بين دجلة والصراة اسمها الزوراء فإذا أسسها وبنى بعضها، أتاه فتق من الحجاز، فقطع بناءَها وأصلح ذلك الفتق، ثم أتاه فتق من البصرة أعظم منه، فلم يلبث الفتقان أن يلتئما ثم يعود إلى بنائها، فيتمه ثم يعمر عمراً طويلاً، ويبقى الملك في عقبه.. فقدم ذلك الجندي إلى عسكر المنصور وهو بنواحي الجبل فأخبره الخبر فرجع وقال: إني أنا كنت أُدعى مقلاصاً وأنا صبي.. ثم زال عني..**» .

كان الطبيب حاذقاً، فقد لعب على تلك الأوتار التي كان لابد أن تؤثر على من هو مثل المنصور، هؤلاء الحكام مهووسون بفكرة أن يد القدر هي التي تختارهم وتسيرهم، وأن الإرادة الإلهية قد انتقتهم من بين ملايين البشر لينفذوا غاية إلهية عليا، ربما لأن هذه الفكرة وهذا الهوس سيخففان عليه عبء ما اقترفت يداه من جرائم وذنوب.

لذلك قال الطبيب، الذي كان ـ **نصرانياً على الأغلب** ـ: إن هناك في كتبهم كذا وكذا، ليداعب في المنصور تلك الرغبة الأكيدة، الرغبة في التمدد عبر الزمن والقدر، وهاهيَ ذا تتحقق لديه الفرصة أن يكون ذكره قد ورد في كتاب سماوي، قبل الإسلام، لم يكن بإمكانه أن يلوي عنق نص شرعي قرآني إلى هذه الدرجة، فالأسهل إذن أن يلقي بالعبء على كتب النصارى **ومن سيتحقق أصلاً من وجود نص كهذا عندهم** .

وهذا الاسم : مقلاص ؟

العقل البارد لن يعطي سوى احتمالين لا ثالث لهما، الأول: أن المنصور كان فعلاً يسمى كذلك في صباه، وأن الطبيب عرف ذلك من المقربين في الحاشية، فدس الاسم كُطعم لابد من التقاطه.

أو أنَّ الطبيب الذي كان حاذقاً في فهم نفسية المنصور وأمثاله، كان مدركاً تماماً أن المنصور كان سيقول عن أي اسم أنه كان يدعى به في صباه.

فليكن مقلاصاً إذن ـ **ولعل الطبيب ضحك في سره من الاسم** ـ .

حسناً. لماذا فعل الطبيب ذلك ؟ ليتودد، ليتزلف، ليتقرب من الخليفة، أو بلا سبب محدد أي كما يفعل الكثيرون في زماننا مع سلاطين زمانهم.

ربما الأمر أكبر قليلاً ؟

ربما كان الأمر متعلقاً بطائفة كانت تريد أن تبرز أكثر في عهد خليفة جديد كانت له طموحات جديدة وجريئة.

وربما كان الأمر أقل من ذلك، ربما كان متعلقاً بأرض دير من أديرة النصارى متاخم لتلك المنطقة التي أشار إليها الطبيب، وربما كان أصحاب الدير يطمعون بتعويض، أو يتأملون بحظوة، أو يخططون للإفادة من الموقع بعد أن يصير جزءاً من عاصمة الدولة، كما في الصفقات المريبة والمقاولات الفاسدة التي تحدث اليوم ـ وحدثت دوماً كل يوم.

وربما كان هذا كله، النيات الطيبة والنيات السيئة ممتزجة معاً، في تلك النصيحة التي وجهت المنصور إلى بغداد..

كلها كانت محض أسباب عابرة، كان الأصيل والباقي في الموضوع هو إرادة الله التي كانت تريد لبغداد أن تكون، كانت تريد لعبقرية المكان، لروح المكان، أن تتحقق، أن تتجسد، أن تتجسم في البناء.

وبين الأسباب والمكر تأتي الإشارات في مقولة الطبيب الحاذق، التي تبين ما تبين وتوضح دون أن توضح **فتق من الحجاز، وفتق من البصرة** .

إنها الاضطرابات المستمرة في الدولة الناتجة أساساً عن الظلم والإبادة التي استخدمها المنصور لتوطيد حكمه ـ فتوق ؟ لفظ مخفف للتمزقات التي انتجها الظلم والاستبداد والتي عانى منها رداء الدولة الواسعة.

ثم يعمر عمراً طويلاً مداعبة أخرى لخيار ورغبات الحكام. كل منهم يريد أن يخلد في العمر، أن يبقى في الحكم، وفي النهاية : سيكون له في القصاص حياة.

ويبقى الملك في عقبه كانوا دوماً يتهربون من حقيقة أن الموت آتيهم ولابد، بالتعويض **عن ذلك كانوا يحرصون على تسليمه لأبنائهم وأحفادهم كما لو أنهم يستمرون ـ بطريقة أو بأخرى ـ عبرَهم** .

كان الطبيب حاذقاً. وكان الفخ محكماً.

وكانت بغداد تتربص بالمكان.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

ونقرأ في تفصيلات المقاولة أسراراً صارت جزءاً من شخصية المدينة ربما دون أن نعي ذلك ـ **نحن** ـ سكانها وأبناءها ـ بوضوح «**فكان أول ما ابتدأ به منها أنه أمر بخطها بالرماد..، ثم أمر أن يجعل على الرماد حب القطن، ويشعل بالنار ففعلوا، فنظر إليها وهي تشتعل ففهمها وعرف رسمها**» .

هل فهمها حقاً ؟..

هل قرأ أنها ستظل بين الرماد والنار، وأن ثنائية الرماد والنار ستلازمها كالقدر، وأنها ستظل تجر خمود الرماد، ومكر الرماد، وخبث الرماد، وصمت الرماد ـ مع لسعة النار، لذعة النار، وقوة النار وجبروت النار ؟

هل فهم أن بغداد ستظل هناك بين النار والرماد، مرة ستغرق في الرماد، ومرة ستحترق بالنار، مرّة ستنهض من بين الرماد، ومرة ستضيئها النار، مرة ستصير هي الرماد، ومرّة ستطهرها النار، مرّة لن يبقى منها سوى رماد وسيظن الجميع أنها النهاية، وفجأة ستنبثق منها النار.

وبين النار والرماد، ستخط بغداد واحدة من أعظم ملاحم الإنسانية، مرة ستتوهج كالشمس بالنار، ومرّة ستخبو كالرماد، مرّة ستضج حيوية ودفئاً وعشقاً كالنار، ومرّة ستنطفئ مثل جثة كئيبة كالرماد.

وبين النار والرماد ـ ثنائية الحياة المتلازمة، كانت هناك حبات القطن : أزاهير القطن وأشواكه، وجه آخر من أوجه الثنائية نفسها : الزهور والشوك ـ **اللذان يؤديان إلى الثمرة** ـ .

لا أظن المنصور فهم شيئاً من هذا ، **لم يدر أنه كان يشاهد موجزاً عن بغداد في ومضة واحدة.**

لكنه هزَّ رأسه بوقار يليق بمقامه.

لم تكن يده هي التي خطت بالرماد.

لكنه القدر **.قدر بغداد.**



«فاستشاره (خالد بن برمك) في نقض المدائن، وإيوان كسرى ونقل نقضها إلى بغداد، فقال : لا أرى ذلك لأنه علم من أعلام الإسلام يستدل به الناظر على أنه لم يكن ليزال مثل أصحابه عنه بأمر الدنيا، وإنما هو على أمر دين، ومع هذا ففيه مصلى علي بن أبى طالب، قال

المنصور: أبيت يا خالد إلا بالميل إلى أصحابك العجم ! أمر بنقض القصر الأبيض فنقضت ناحية منه وحمَل نقضه فنظر مكان مقدار ما يلزمهم له أكثر من ثمن الجديد، فدعا خالد بن برمك فأعلمه ذلك فقال يا أمير المؤمنين قد كنت أرى أنْ لا تفعل، فأما إذا فعلت فإني أرى أن تهدم لئلا يقال: إنَّك عجزت عن هدم ما بناه غيرك» .

كان ذلك جزءاً من ميلادها ، ومن هويتها الشخصية، إنها تعلمت هذا الدرس مبكراً ، لايمكن لك أن تلغي الآخر، لمجرد أنك انتصرت عليه مرحلياً ، لايمكن لك أن تمحوه وتمحو إنجازاته.

تعلمت بغداد الدرس، **أم إنها هي التي علمته الآخرين** ؟ لايمكن لك أن تلغي حضارة أخرى لمجرد أنها قد خسرت الحرب معك ـ أو لمجرد أن حضارتك قد استطاعت أنْ تُحرز انتصارات عليها.

كان فشل المنصور في نقض قصر كسرى وإيوانه علامة على ذلك الدرس المهم، لا تلغ الآخر، بل استوعبه، افهمه، تفاهم معه، وافهم نقاط قوته، من يدري ؟ قد يفكر هذا الآخر بأن يتوحد معك ـ بهذه الطريقة.. ومن يدري ؟ قد تذوب خصوصياته في إطارك، وقد تنصهر مميزاته في مميزاتك لتتفاعل تفاعلاً منجزاً يثريك ويثريه ؟

فشل المنصور في نقل الإيوان إلى المدينة الجديدة، يذكرنا بحقيقة أخرى كانت جزءاً من شخصية بغداد منذ ولادتها : **إنك لا تستطيع أن تحوز مجد كسرى بمجرد أن تنقل قصره إلى عاصمتك.**

بعبارة أخرى ـ أكثر معاصرة : **لايمكن لك حقاً أن تستورد حضارة .. الحضارة غير قابلة للاستيراد أو للتصدير.. إنها تبدع فقط.. وتصنع فقط، وتولد فقط .**

أي محاولة لاستيراد الحضارة ـ أو التوهم بأن استيراد منتجاتها سيجلبها هي أيضاً ـ سيكون محاولة محكومة مسبقاً بالفشل .

بغداد كانت تفهم الدرس جيداً آنذاك، كان جزءاً من كينونتها ، من شخصيتها ، أقول الآن: تحت القصف، والقنابل العنقودية والحرارية تتساقط ، وبغداد تكاد تسقط، أقول: بغداد فهمت الدرس آنذاك.

ليتنا فعلنا !!

۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞

« ونقل أبواب مدينة واسط فجعلها على بغداد، وباباً جيء به من الشام، وباباً آخر جيء به من الكوفة..» «ونقل المنصور أبوابها من واسط وهي أبواب الحجاج وكان الحجاج أخذها من مدينة بإزاء واسط تعرف بزندورد يزعمون أنها من بناء سليمان بن داود عليه السلام وأقام على باب خراسان باباً جيء به من الشام من عمل الفراعنة وعلى باب الكوفة جيء به من الكوفة من عمل خالد القسري.. وعمل هو باباً للشام..» [معجم البلدان / ح١/ ص ٤٦٠] .

تتأمل في حكاية الأبواب هذه، فتدخل من خلالها إلى عوالم أخرى من الرموز والدلالات.

تتأمل في الأبواب، واحد منها تعبر به إلى عصر النبوات، وواحد تعبر به إلى عصر الفراعنة، وواحد تعبر به إلى عصر الفتوحات.

تتأمل في بغداد ـ لن تدخلها إلا إذا دخلت هذه العصور الثلاثة مجتمعة : النبوات، والفتوحات، والحضارات القديمة.

وتتأمل أكثر، لن تخرج من بغداد، إلا إذا مررت أيضاً بهذه العصور، كما لو أنَّ المدينة قد احتوت هذه العصور، قد ضمت بين أسوارها هذه العصور واحتوتها جميعاً، هضمتها واستوعبتها.

ستتأمل في الأبواب، فلا تصبح مجرد أبواب للدخول أو الخروج من المدينة، ولكنها ستكون بواباتٍ للتفاعل مع العالم، ضوابط وقيم ثابتة للانفتاح على العالم.

ليست أبواباً فحسب، بل ضوابط للانفتاح على العالم، على الآخر، كل ما سيدخل بغداد سيمر عبر هذه القيم والثوابت، وكل ما سيخرج منها سيمر عبر نفس القيم والثوابت.

إنها الصمامات التي تتحكم بالتفاعل مع العالم القديم، من أجل أن يولد عالم جديد.

بغداد انفتحت على العالم ضمن شروطها هي، ضمن ضوابطها هي، ضمن ثوابتها هي : النبوة. الحضارة. والفتح ـ فكان أن كانت وصار أن صارت.

بغداد فهمت هذا الدرس جيداً، وكان جزءاً منها كما كانت جزءاً منه ـ أقول : وبغداد تحت القصف، والسماء تمطر قنابل عنقودية وصواريخ موجهة، ليتنا فهمنا !

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

« وجعل المدينة مدورة لئلا يكون بعض الناس أقرب إلى السلطان من بعض» .

«ولم نعرف غيرها بين المدن مدورة» .

تتأمل هذه الإشارة، تتجاهل تعليله الذي له يصدقه إلا من كان مفرطاً في الغباء أو في حسن النية.

ستفهم من إشارته شيئاً واحداً : إن قصره كان في المركز.

يبدو ذلك واضحاً جداً ليس للسبب المذكور **(لئلا يكون بعض الناس أقرب.. إلخ).**

ولكن هؤلاء كانوا لا يفهمون إلا بأن يكونوا هم المركز، وكل الناس حولهم تدور وتسبح. كانت النظرة العلمية القديمة تقول: إن الأرض مركز الكون، وكان هؤلاء يحسبون أنفسهم مركز الكون، ويتصرفون كما لو أنهم فعلاً كذلك ـ **وكان على الكون ـ وما فيه، ومن فيه** ـ أن يتأقلم مع مركز جديد كل بضع سنوات، وأن يتكيف مع أمزجة وأوامر وطبائع حكام يتصورون أنهم، **فعلاً وحقاً** مركز هذا الكون، وأن العالم كله سيسقط في فراغ رهيب ومطلق لو رفعوا أيديهم عنه.

لن تقنعك تلك التبريرات بأن لا يكون بعض الناس أقرب من بعض إلى السلطان، وستجد في بعض الوثائق التالية ما يبرر عدم اقتناعك، لكنك ستقول في نفسك: إنه كان على حق ـ **بعد كل شيء** ـ في اختيار بغداد مدورة، حتى لو كانت بغداد أولى المدن المعروفة مدورة، فكل المدن العريقة مدورة في الحقيقة بغض النظر عن تخطيطها الهندسي ومنظرها من الجو، كل المدن العريقة مدورة، تدور فيها الدوائر، ويدور فيها الزمن، ترتفع فيها طواحين، وتهبط طواحين، يعز ناس، ويذل ناس، وترتفع طبقات، وتسحق طبقات، نعم، كل المدن العريقة مدورة، ربما لأن الحياة بطبيعتها مدورة ـ وليس فيها خط مستقيم ودائم الاستقامة، وربما لأن المنحنى هو المستقيم الثابت الوحيد، ولان الدوران هو المحور الوحيد، ولأن الثبات هو التبدل الوحيد ـ أو التبدل هو الثبات الوحيد.

كل المدن العريقة مدورة، ما دام يسكن فيها التاريخ، فهي مدورة، تأخذ من الزمن دورانه، ومن التاريخ دورته، ومن عجلة القيادة استدارتها، تدور في المدن العريقة الدوائر، وتجتمع فيها الدوائر، وتحاك فيها الدوائر، وتتحد فيها الدوائر، تصير دائرة واحدة... لتكون دائرة المدينة العريقة ـ المدورة حتى لو لم تكن مدورة .

والحاكم؟ خليفة أو سلطان أو زعيم أو رئيس، نعم. إنه يتصور نفسه مركز الدائرة.

وهو على حق ـ بطريقة أو بأخرى. فهو مركز الدوائر كلها ـ عندما تدور عليه الدوائر، وتنقلب عليه الدوائر، وتتمركز عليه الدوائر.

دائرة في دائرة داخل دائرة. يكون الحاكم مركز الدائرة الأصغر ـ الهدف ـ المركز، **عندما تصوب عليه الأسلحة... وتطلق عليه الرصاصة القاضية... كل المدن العريقة تفعل ذلك بأولئك الذين يتخيلون أنفسهم مركزا لها ... كل المدن العريقة تمكر بهم، وتترك لهم الخيال ليسرحوا به، ثم تغدر بهم... وتدور عليهم.**

كلها مدورة.

بغداد كانت التجسيد الهندسي الأول لهذه الحقيقة ـ البديهة... وبغداد كانت تفهم هذه البديهة منذ ولادتها الأولى...

أقول الآن، والدوائر تدور علينا، **وبغداد تكاد تسقط في دائرة الاحتلال**... ليتنا فقهنا!



بالمناسبة لم يكن المنصور واعياً بما يدور، لم يكن مدركاً أن الأبواب التي أتى بها من هذا المكان أو ذاك سيكون لها هذا المغزى العميق، ولم يكن يفهم معنى أن تكون المدينة مدورة.

كان على الأغلب، يتصرف مثل محدث نعمة يخبره مهندسه ومصمم ديكوره عن التحفة الفلانية التي ستزين الركن المعين أو الشكل الفلاني الذي ستكون عليه الواجهة الأمامية...

لم يكن يعي المعنى في الاختيار، لم يكن معنياً أصلاً بما يدور، ولم يكن له القدرة على الاستشراف والاستقراء فيما يدور...



«وكان القصر غير مستقيم على القبلة، ... ، وكان الحجاج بن أرطأة هو الذي خط المسجد، وقبلته غير مستقيمة يحتاج المصلي إلى أن ينحرف إلى البصرة لأنه وضع بعد القصر» .

بعض الحقائق تكاد تصعق في دلالاتها، لو أنى أردتُ فبركةَ وقائع تاريخية لأبني عليها هجوماً وانتقاداً، لما جمح خيالي إلى الابتكار لهذه الدرجة...

لكن ها هي الوقائع تخرج عن صمتها، ظلت مسطورة لعشرات القرون في الكتب، لكنها كانت مكممة، مغيبة، محكومة بالصمت المؤبد مع الشغل والنفاذ.

لكن فجأة ـ ولأن بغداد تكاد تسقط ـ لابد للكمامات أن تزاح، وللقيود أن تحطم.

وفجأة، تخرج الوقائع المسطورة عن صمتها، وتنتظم مع بعضها البعض لتلتحم وتشكل حقيقة أخرى، ويخرج مارد الحقيقة من قمقم التفاصيل.

وهاهي ذي الحقيقة : كان القصر غير مستقيم على القبلة !

القصر غير مستقيم على القبلة ؟!. أي دلالة ، أي رمز، أي شهادة..

وتتراءى في عينيك الانحرافات، والاعوجاجات، والميلان، بعضها عشتها أو عاصرتها وعانيت منها، والبعض الآخر سمعتها وعانى منها آباؤك، والبعض منها قديمة جداً ـ لكنها مستمرة، وكلها من مصدر واحد : ذلك الانحراف القديم عن القبلة .

ليس مجرد مصادفة، إنه حجر الأساس نفسه قد وضع بالاتجاه الخطأ، إنه العقد بين الراعي والرعية كان على أسس خاطئة ـ ومخطوءة.

كل شيء كان منذ البدء جداً، مبنياً على بدايات خاطئة، على غير القبلة، منحرفاً عن الصراط المستقيم لتلك القيم والمعاني المحتواة في تلك الشريعة ـ القبلة .

كان التوجه خاطئاً ـ في القصر : العلاقة بين الحكام والمحكومين ـ وتراكمت الأخطاء بعدها، بسبب ذلك الخطأ الأول.

بسبب أن «**القصر كان غير مستقيم على القبلة** » .

ماذا يريدون أكثر من هذه الحقيقة ؟ أيُ إدانة أكثر من هذا الدليل ؟

هاهي الوقائع تخرج من الكتب والأقراص لتصرخ، وتتهم، وتشير بأصابع الاتهام.

«**القصر كان غير مستقيم على القبلة**» . رغم أنهم كانوا يسمونها «**خلافة إسلامية**»، ورغم أن من يسمونه الخليفة كان عنده «**تدين في الجملة**».. ورغم أن بعض الحدود كانت تطبق .

إلا أن القصر كان غير مستقيم على القبلة، النظام كله كان منحرفاً عن القبلة.

أسجل هذا، **وبغداد تكاد تسقط، لست متأكداً، إن كانت بغداد قد فهمت المسألة، لكن الأكيد أننا لم نفهم.**

وهانحن نكاد نسقط.



من بين الأوراق والوثائق، والكتب والأقراص، يطل علينا المنصور بخطبة تكاد تقسم أنك سمعتها من قبل.

لست متأكداً متى، ولا أين، لكنك تعرف أنك سمعتها، ربما كانت مغروسة في لاوعيك وفي تلافيف دماغك وذاكرتك، لكنها هناك، قد تكون بعض تفاصيلها مختلفة، وقد تكون سمعتها بلهجة مختلفة ـ وربما بلغة ركيكة ومتخلفة.

لكن هاهو المنصور يطل عليك، **ليلقيها بالنيابة عنهم جميعاً، ليقولها بصراحة ربما لم يمتلكوها، ليعبر شفاهاً ما سيطبقونه عملياً.**

سيطل المنصور، ليقول بالكلمات ما سيكرره الآخرون بالأفعال، لا يفهم من هذا إنه قصر بالأفعال طبعاً، أبداً كان رائداً فيها أيضاً، لكن لعل الآخرين لم يمتلكوا جرأته في الكلام، قال المنصور، موجهاً خطبته لنا نحن ـ عبر القرون، عبر الحدود، لا لرعاياه المباشرين، بل لجميع أولئك المتضررين من كون «**القصر غير مستقيم على القبلة**».

سيقول المنصور لنا، ما سمعناه دوماً بشكل أو بآخر إنما ليس بهذه الصراحة، وما علمناه دوماً إنما ليس بهذا الوضوح ـ وما شاهدناه دوماً، إنما دون أيديولوجية ـ كنا نظن أنَّ الأمر محض «**سوء في التطبيق**».

أبداً، لقد كان الأمر دوماً أحسن تطبيق لأسوأ أيديولوجية، هذه الأيديولوجية التي سيحدثنا عنها المنصور في خطبة عرفة، في يوم عرفة ..«**أيها الناس : إنما أنا سلطان الله في أرضه. أسوسكم بتوفيقه ورشده، وخازنه على ماله، أقسمه بإرادته أعطيه بإذنه، وقد جعلني الله عليه قفلاً فإن شاء أنْ يفتحني لأعطياتكم، وقسم أرزاقكم فتحني، وإذا شاء أنْ يقفلَني قفلني، فارغبوا أيها الناس إلى الله وسلوه في هذا اليوم الشريف أنْ يوفقني للصواب ويسددني للرشاد ويلهمني الرأفة بكم والإحسان عليكم ويفتحني لأعطياتكم.. وقسم أرزاقكم بالعدل**».

أظن سمعناها، بطريقة أو بأخرى، الخطبة مألوفة، ربما الكلمات صريحة أكثر من المعتاد لكن المعاني مألوفة جداً.

لكن، لابد أن تكون المعاني مألوفة، بعد كل شيء، فالذي بيننا وبينها عشرة ليست بالقليلة. عشرة أعمار كاملة، عشرة أجيال كاملة، عشرة قرون متطاولة، وبغداد تكاد تسقط، ونحن نكاد نسقط، لابد أن نعترف أن الخطبة كانت لسان حال معظم من تعاقب علينا من حكام.

وأن ما مررنا به كان أحسن تطبيق لأسوأ أيديولوجية.



في العقود الأخيرة، كان البعض من المراقبين والمحللين المهتمين لسبب أو لآخر بالانقلابات العسكرية في بلداننا، ينتظرون ـ **بصبر فارغ** ـ أن تمر مدة الثلاثين عاماً التي تشترطها وكالات المخابرات المركزية العالمية للإفراج عن وثائقها السرية.

البعض ينتظر من أجل الفضيحة، والبعض من أجل الحقيقة.

والبعض سيفضل الموت قبل انقضاء المدَّة ؟

نحن نعرف أن بعضَ الحقائق تكون سرية لدرجة أنها لا تسطر على الوثائق، حتى لا يأتي وقت ويفرج عنها، لكن بطريقة أو بأخرى ـ عدم تسطيرها على الورق يجعلها طليقة، يجعلها حرّة، وذات يوم ستداعب مخيلة أحدهم وتجعله يربط ما بين الوثائق الأقل سرية والتي سيفرج عنها بعد تلك المدة، ويربط ما بين الحقائق المتناثرة هنا أو هناك، وينسج ذلك الجسر الذي يوصل إلى تلك الحقيقة الطليقة التي أرادوا لها أن تكون سرية لدرجة الشفاهة.. لدرجة الكتمان.

لكن لا شيء ـ **مهما كان** ـ يظل سراً إلى الأبد.



وفي بعض الأحيان تكون الوثائق منشورة، والحقائق مسطورة، لكن لا أحد يحلل، لا أحد يجرؤ على القراءة المختلفة، لا أحد يجرؤ على اختراق أسوار الحصانة والقداسة التاريخيتين..

« وكانت الأسواق في المدينة فجاءَ رسول لملك الروم، فأمر الربيع فطاف به في المدينة، فقال كيف رأيت ؟ قال رأيت بناءً حسناً إلا أني رأيت أعداءك معك وهم السوقة. فلما عاد الرسول عنه أمر بإخراجهم إلى ناحية الكرخ».

من أقبية المخابرات تخرج هذه الوثيقة ؟

لا. بل من بطون أمهات الكتب من المجلدات التي اعتدنا تقديسها وتقديمها واعتبارها المرجع الوحيد للمعرفة.

الخليفة، الحاكم، الزعيم ـ التسميات غير مهمة حقاً فالمسمى واحد ـ يراسل الأعداء التاريخيين ليمنحوه المشورة.

الروم تحديداً ـ مع كل الإسقاطات المعاصرة المحتواة ..

والروم لا يبخلون في المشورة، في تبادل خبرة القمع مع الخليفة.

فينبهوه إلى أنَّ الأعداء قريبون جداً من القصر.

الأعداء ؟ من هم الأعداء الذين ينبهه عليهم الروم ؟ أعداء أكثر من الروم أنفسهم؟ من هم هؤلاء الأعداء الذين خطرهم على الخليفة أكبر من خطر الروم ؟

آه . نعم . إنهم السوقة: أهل السوق، الناس: الناس الذين يسيرون في الأسواق ويأكلون الطعام .. العامة.

هؤلاء هم الأعداء الحقيقيون للخليفة ـ أو سمِّهِ ما شئت.

ستتأمل قليلاً وقد أذهلتك الحقيقة، ستزفر زفرة طويلة تخرجها من أعماق صدرك.

ستذهلك الزفرة نفسها، ستجدها عميقة جداً، وعريضة جداً، وطويلة جداً، ستجد أن آخرين قد زفروها معك، وشاركوك فيها، وأنها خرجت من صدورهم أيضاً، وأنهم خرجوا أيضاً مع تلك الزفرة، ستراهم جميعاً وزفرتك ـ زفرتهم تخرج من صدرك.. ستراهم مثلك، قوافلَ من أمثالك : مهمومين محزومين مصدومين ومحبطين **..كأن مدينتهم تكاد تسقط، مثل مدينتك.**

ستتأمل في تلك الحقيقة وأنت بين الغضب والذهول : الروم ؟ والخليفة ؟

أنت من شعب تعوَّد المغفرةَ لحكامه في أي شيء يفعلوه ـ **إلا الخيانة. إلا الخيانة .**

تتأمل في هذه الحقيقة فتحسها طعنة في ظهرك ـ وظهور الآلاف غيرك، عبر القرون المتطاولة، تتحسس ظهرك، فتجد الندبة لاتزال هناك وتجد بعض أثر من دمٍ لا يزال ينزف.

لن يهدأ غضبك، أبداً، حكامك **(المعاصرون)** الذين طعنوك بالظهر كانوا عملاء **«صغاراً أو كباراً»** للروم أو لنسخهم المعاصرة.

أما أنت، يا خليفة، يا صاحب دولة الخلافة التي تمتد من الأندلس إلى الصين، فما عذرك في الطعنة التي في ظهري؟

لماذا، يا خليفة، أدخلت الروم بينك وبين أناسك ـ واعتبرتهم أعداءك.

لماذا يا خليفة، أخرجت من قربك، الناس، وسمعت مشورة أعدائك ـ وأنت أصلاً لا تسمع مشورة أحد.

وتقرأ ما بين السطور ما لم يكتب، لكنك تعرف أنه حدث لأنه حدث على وقتك وزمانك، لابد أن الروم دسوا بين الناس، السوقة، العامة، ما يثيرهم ضد الخليفة، ويروج بينهم التساؤلات حول نقلهم بعيداً عنه.

تزفر مرّة أخرى، لقد كنت هنا من قبل، لقد شاهدت هذا من قبل. هذا (الفلم) كنت فيه، وعشت فيه، وعانيت منه طويلاً حتى صار التنهد شهيقك، والحسرة زفيرك.

كنت هنا من قبل، واليوم، وبغداد تكاد تسقط، تعرف أنهم الروم مرة أخرى، على الأبواب، وتكاد تعرف أنهم بطريقة أو بأخرى كانوا دوماً على الأبواب.

وأن سبباً من أسباب كونهم على الأبواب وأسباب دخولهم سيكون أن الخليفة اعتبر ـ **بمشورة الروم** ـ أن الناس أعداؤه، و أبعدهم عنه..

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

من بين الوثائق ستجد وثيقة أخرى ستحرجك فيما لو كنت لا تزال ميالاً إلى الأخذ بصيغة «**الإسلام على الجملة**» للمنصور وأقرانه..

فالفارق الأساسي ـ في نظر الكثيرين من إسلاميين وغيرهم ـ بين المنصور و الخلفاء، وبين الحكام المعاصرين هو أن المنصور ـ على استبداده، كان مسلماً «**على الجملة**» ـ أي بلا تدقيق في التفاصيل، وقد يذهب البعض إلى حد قول إنه «**اجتهد فأخطأ**» فله أجر واحد وهي المقولة التي تعني حسب هؤلاء: أن **هؤلاء الخلفاء مأجورين على ارتكابهم الفظائع والشنائع باعتبارهم اجتهدوا فأخطؤوا** .

أما الحكام المعاصرون ـ **برأي هؤلاء** ـ فهم كفار كفراً صريحاً لا تجدي معه عمليات التزويق والتجميل، فهم ـ والرأي لا يزال لهؤلاء الإسلاميين كما لغيرهم ـ منطلقون من أيديولوجية كافرة مضادة أصلاً للإسلام ومنطلقاته..

أتحفظ على الرأي كله، كما أتحفظ على مسألة التكفير الآن، وأتركها إلى الذي يعلم ما في الصدور.

أتأمل في الأفعال ـ المحك الحقيقي لمصداقية الإيمان وزيفه.

الأفعال، وأضَعُ خطاً تحتها، الأفعال، لا التبريرات التي تساق من أجل تبرئة فلان أو علان.

الأفعال. مجردة عن النيات، التي لا يعلمها إلا الله الذي يعلم ما في الصدور.



لو قيض لمعارضة إسلامية ما، في دولة معينة، بغض النظر عن طبيعتها، أن تتأكد ـ عبر وثائق وتسجيلات واعترافات ـ أن الحاكم الذي تعارضه، يعتمد، وبشكل مباشر ودائمي ـ على المنجمين في اتخاذ قراراته وتحديد مواعيد تنفيذها، فإن خبراً كهذا سيكون صيداً سميناً وثميناً لأي معارضة، فعدا عن جانب الإثارة في الموضوع، والجانب الغرائبي الذي يثير الفضول، والجانب التشهيري الذي لا يمكن تجاوزه، هناك، بالنسبة للإسلاميين خاصة، جانب تكفيري في الموضوع، سيتوقفون عنده طويلاً.

سيتوقفون ؟ بل سيتحركون، وسيخرجون ألسنتهم ويشهرونها سيوفاً حادة ومسمومة إن شاؤوا، وسيخرجون الأدلة اللازمة للعملية من الجعبة، وسيكررون، ويستنتجون، ويعيدون ويقيسون ويفتون..

سيخرجون بالأدلة من أحاديث وآيات لتكفير الحاكم، وهل يأتي المنجم إلا الكافر؟ وهل يستشير المنجم إلا كافر ؟ وهل يصدق المنجم إلا كافر ؟

ماذا تريدون أكثر من هذا ؟ وماذا بعد الكفر إلا الضلال ؟، إنه ليس كافراً فحسب. بل هو متخلف أيضاً، يؤمن بالشعوذة والدجل، ويطبقها أيضاً، وخلف كل شعاراته وأيديولوجياته لا يوجد سوى عقلية جاهلية تؤمن بالسخافات.

صيداً ثميناً طبعاً.

لكن للأسف ليس عندي شيء من هذا.

فالوثيقة التي بين يدي لا تخص هؤلاء المسلمين. بل تخص المنصور **(المسلم على الجملة)** والذي سقطت منه تفاصيل مهمة على ما يبدو، وحسب الوثائق.

«وضع (المنصور) أساسها (بغداد) في وقت اختاره له (نوبخت) المنجم».

«ثم ذكر بعض المنجمين: قال لي المنصور لما فرغ من بناء بغداد: ما الطالع لها؟ فنظرت في طالعها، وكان المشتري في القوس فأخبرته بما تدل عليه النجوم من طول زمانها وكثرة عمارتها وانصباب الدنيا إليها و فقر الناس إلى ما فيها، قال: ثم قلت له: أبشرك يا أمير المؤمنين: أنه لا يموت فيها أحد من الخلفاء قال فرأيته تبسم. ثم قال الحمد لله» . البداية والنهاية ١٠/ ٩٨.

« وقد اتفق سجن المنصور في أيام بني أمية فاجتمع به (نوبخت) المنجم وتوسَّم فيه الرياسة فقال له ممن تكون؟ فقال: من بني العباس فلما عرفَ نسبه وكنيته، قال له: أنت الخليفة الذي تلي الأرض..، فضع لي خطك في هذه الرقعة أن تعطيني شيئاً إذا وُليت، فكتب له فلما ولِّي المنصور أعطاه ثم كان من أخصِّ أصحاب المنصور» البداية والنهاية ١٠/ ١٢٢.

المنجم كان من أخص أصحابه !.

درب طويل جداً، ووعر جداً، ولا يستقيم أبداً، بين أنْ يكون الشخص مسلماً، ـ على الجملة وأيضاً بالتفاصيل ـ وبين أن يكون من أخص أصحابه ـ منجم. درب طويل ـ **ولا يصل أبداً** ـ بين تلك المعاني العالية، والقيم السامية، التي ترفض الخضوع إلا لله، والاستسلام إلا لله، والانقياد إلا لله ـ وبين أن تحتار فتلجأ لمنجم. وترتبك فتأخذ المشورة من منجم، وتستشير فتستشير منجماً .

أقول : درب طويل، وقد لا يصل أبداً بين تلك المعاني وهذا الحضيض، ولا أخوض في مسألة التكفير.

وكان المنجم حاذقاً أيضاً، مثل الطبيب قبله **«أو بعده ؟»**. كان يعرف ما يقول، وكيف يقول، وكيف يجعل ما يقول مؤثراً، كيف تتوغل كلماته في الأعماق. ترسم الآمال، وتشيد الممالك، وتبني القصور..

قال له : **ستملك الدنيا !** ـ وهل يملك السجين الثائر الطموح الذي تتوسم فيه الرياسة إلا أن يتشبث بهذه النبوءة ؟

«فإذا وليت فأعطني شيئاً» ـ قالها وطلبها من كذا شخص ربما في السجن ذاته، ربما في الزنزانة نفسها، توسم فيهم أيضاً الرياسة، وقال لهم، وهو يركز نظراته الثاقبة في عيونهم: **ستملك الدنيا.**

خابت كذا مرّة، وصابت مع المنصور، ثم كان من أخص أصحابه.

وأخبره، عن بغداد، وهو يستعد للبدء ببنائها، أخبره عن طول زمانها، وكثرة عمارتها، وانصباب الدنيا إليها، وفقر الناس إلى ما فيها، ثم قال له بشارته التي ينتظر، والتي كوفئ عليها حتماً فيما بعد : أبشرك أنه لا يموت فيها أحد من الخلفاء أبداً.

فتبسم الخليفة المنصور.

ثم قال: الحمد لله.

« **يا حاجب : أعطه مئة ألف دينار**» .

وربما قال المنجم : الحمد لله.



كل تلك التفاصيل التي قالها المنجم عن بغداد من الواضح أنها لم تكن تهم المنصور بقدر البشارة.

بقدر ذلك الحلم المستحيل الذي يداعب كل أولئك الحكام المهووسين بفكرة الخلود..

«**لا يموت فيها من الخلفاء أحد**» .

هل يصدق أحد أنه صدقها ؟ ـ تلك الكذبة المفضوحة ـ ذلك الدجل الذي لا يتكلف حتى أن يغطى بغطاء الواقعية..

هل يُصَدق أنه كان بهِذه السذاجة ؟

ربما نعم، وربما لا ، لكنه ذلك التمسك بالأمل الزائف ـ **بالخلود المستحيل** ـ حتى لو كان بحبال مهترئة.

وسيموتون فيها طبعاً، وبكافة أشكال الموت وتعدداته.

سيموتون طعناً ، وسماً، وخنقاً.

وسيموت آخرهم آخر بني العباس أقصد ـ **ركلاً** ـ أمام أولاده.

لن تحميهم بغداد ولن ترحمهم بغداد. بل ربما ولن تكترث بهم عندما يموتون..

الأكثر من هذا. أنهم عندما يموتون.. كان البعض من الناس يتسمون.

ويقولون : الحمد الله.



تتأمل ما قاله المنجم عن بغداد، وهي تكاد تسقط، فتشعر أنه كان يتكلم عن مدينة أخرى غير مدينتك التي تحترق وتقصف وتكاد تسقط والتي أمضت عقداً طويلاً مريراً في حصار ظالم، وكانت قبلها قد أمضت عقداً طويلاً مريراً آخر في حرب ظالمة.

لا. ليست هذه بغداد التي تعرفها، يتكلم عنها هذا المنجم، إنه يتكلم عن وجه واحد من بغداد التي تملك أوجهاً متعددة، الوجه الذي عرفه ورأى أن يزينه وهو يقدمه للخليفة..

لكن، للحظة، ستذكر أنك رأيت هذا الوجه أيضاً، وأنك في حياتك رأيت أكثر من وجه لبغداد.

وأن الزمن دار أكثر من مرّة ببغداد، وأنت فيها..

ستذكر، وأنت طفل، لا حرب ولا حصار، والناس في بحبوحة إلى حد كبير، والهموم التي تحملها يومياً وتركض بها من أجل أطفالك ـ لم يحملها والدك بالضبط، لأن حياته كانت أسهل، وهمومه أقل.

نعم. لقد دارت بغداد ـ **التي بنيت مدورة** ـ وتنقلت أنت، خلال ثلاثة عقود من عمرك بين أكثر من وجه : وجه الرخاء، وجه الحرب، وجه الحصار، والآن وجه القصف وربما وجه السقوط.

بين هذه الوجوه المتقلبة، المتسلسلة، كان هناك وجه مهيمن ظل موجوداً في الرخاء كما في الحرب كما تحت القصف، وربما كما عند السقوط.. أنه الوجه الذي ظل مهيمناً على كل الوجوه : وجه الظلم والاستبداد. كان دوماً هناك..

وبغداد تكاد تسقط، أقول: الآن، ربما كان الظلم ـ **منذ البداية** ـ هو الذي سيؤدي إلى هذه النهاية .

لم يخبره المنجم عن الوجوه الأخرى..

أخبره عن العز والرخاء، وانصباب الدنيا إليها، وفقر الناس إلى ما فيها.

لكنه لم يخبره عن الفقر الذي سيصيب الناس، والجوع الذي سيعم الناس، والموت الذي سيحصد الناس.

لم يخبره عن قوافل الشهداء، عدة ملايين ، يموتون ـ أحياناً ـ دونما سبب، دونما قضية، دونما هدف .

لم يخبره عنهم، وحتى لو أخبره، فماذا كان سيهمه منهم، هم الذين اختطفتهم الحرب ـ **وهم في عز شبابهم** ـ من أجل إرضاء نوازع **شخص مثله، لا يهمه شيء مثله، ولا يهتم لأحد مثله ـ باستثناء الكرسي ـ مثله.**

لم يخبره عنهم، مليون أو اثنان، ماتوا في زهرة شبابهم، في عز شبابهم، قسم تفحموا، وقسم تمزقوا، وقسم تفرقت أشلاءهم..

لم يخبره عن أحلام تحطمت، وحكايات ما انتهت، وأسئلة، عبثاً طرحت .. ولم تجد جواباً.

لم يخبره عن مشاعر عادت محمولة بالتوابيت، وذكريات لفت بالسواد، و أسماء علت لافتات النعي.

ولم يخبره عن الأمهات، الأمهات : تمر العقود، وتمضي العقود ـ وهن لا ينسين الدموع قريبة، وبعد عشرين عاماً تظل قريبة، ويكفي أقل من القليل لتظهر على السطح، على الوجه، وتنساب بصمت. أحياناً بصوت.

لم يخبره عن الأمهات، ينتهزن الفرصة لدخول أي عزاء، للبكاء بصوت عال، حتى بعد عشرين عاماً.

ولم يخبره عن الأرامل، والهم، والصبر، والوحشة والوحدة والعزلة في مشوار عمر لم يَكُنَّ يتخيلنه كذلك.

ولم يخبره عن اليتامى، جيل كامل سينشأ محروماً من الأب ـ لا أقول من حنانه، بل من الأب كيفما كان ولو كان محض خيال مآتة..

لم يخبره عن «**المسفرين**» [1] أولئك الذين سينتزعون من بيوتهم ـ بكل تفصيلاتها، أدق الدقيق من دقيق تفصيلاتها ـ دونما سبب وجيه، فقط، لأن واحداً من أجدادهم ـ **ربما الرابع والخامس أو حتى الأبعد** ـ كان قد قرر ـ **لسبب أو لآخر** ـ وربما بلا سبب على الإطلاق، أن يسجل نفسه في تبعية دولة دون أخرى .. وكل العراقيين ـ كلهم ـ كان عليهم أن يكون تبعاً لدولة دون أخرى، لأن العراق لم يكن قد صار دولة بعد .

كانوا أيضاً بغداديين منذ قرون، وانتزعوا ذات يوم دونما شفقة، دونما أي اعتبار لأي اعتبار، كما ينتزع رضيع من صدر أمه، وقد ظلوا بغادلة حتى بعد أن انتزعوا، أسقطت جنسياتهم، لكن لم يمنحوا جنسية البلد الذي سفروا له، وظلوا في منزلة بين المنزلتين، لا إلى هؤلاء، ولا إلى أولئك.

لم يخبرهم عنهم ـ **لأنه لم يعرف قط** ـ وقلوبهم كل يوم كانت تهدر بالشوق و الحنين مثل محرك طائرة ألجمتها الحدود، وتريد أن تطير وتحلق لتعود.

لم يخبره عنهم، وكل شوق لكل صغير وكبير في تلك البيوت التي تركوها دون أن يتركون **لصنبور الماء الذي لا يغلق جيداً، وللشق القديم في جدار الواجهة، للحائط الذي عليه الصور، وللصور، ولزمان الصور.**

سيظلون يشتاقون لتلك البلاطة غير المستقرة عند باب المطبخ، ولباب الثلاجة الذي يحدث صريراً عند الفتح والإغلاق، ولطعم الماء البارد المختلط برائحة الثلاجة ـ وحده يروي ـ في ليلة صيف بغدادية قائظة..

سيشتاقون لرائحة التراب المرشوش بالماء، المشبع بالرطوبة، في أمسية صيف لا منسية ضمَّتهم وأحباب وأصحاب في تلك الحديقة الخلفية (اللامنسية أيضاً)..

سيشتاقون لصياح الأطفال وهم يلعبون في الجوار، ولصوت أمهاتهم يناديهم، سيشتاقون حتى لنهيق الحمار المزعج، وصوت سائسه بائع النفط ـ الأكثر إزعاجاً.

سيشتاقون لنخلة الجار، ولعتبة الدار، ولطير السعد، الذي حط ـ للحظة ـ ثم إلى الأبد طار..

سيمضون حياتهم وهم يفكرون ببغداد. أمنيتهم، ليست حفنة من تراب بغداد، بل

---

(١) المسفرين: التسمية التي أطلقت على عشرات الألوف من العوائل العراقية التي هجرها النظام وأسقط عنها الجنسية بدعوى وجود أصل إيراني لها ـ قبل تكون الدولة العراقية الحديثة..

أقل من ذلك، مجرد حيز من هواء بغداد، يستنشقونه ـ **مرة واحدة إلى الأبد** ـ ثم لا يزفرونه أبداً.. حتى لو ماتوا اختناقاً.. المهم أن لا يخرجوا هواء بغداد من صدورهم.

لم يخبره عنه، لم يعرف، أنه الظلم الذي بدأ ذات مرّة في عمق التاريخ ربما قريباً من عصر المنجم، هو الذي أخرج هؤلاء من ديارهم، ذات فجر، أو ذات صباح مشمس، أو ذات أمسية كانت تبدو إنها ستكون لطيفة، ثم حدث ما غيرها، وتغيرت حياتهم بعدهما إلى الأبد.

لم يخبره عن السجون المظلمة، وعن زنزانات لا يدخلها الضوء، وأنفاق تحت الأرض تضم أحياء كالأموات فقدوا الإحساس بالزمن، فقدوا تعاقب الليل والنهار عليهم، لم يعد سوى الليل هناك، في الركن، عند الزاوية، وفي السقف، عند تلك الفتحة، لا شيء سوى الليل في ذلك الكون الذي مساحته متر مربع واحد.

لم يخبره عن مقابر جماعية، وأولئك الذين قتلوا و أبيدوا وضاعت أسماؤهم، ولم يبق ما يدل عليهم ـ **بين الهياكل العظمية** ـ غير علامات فارقة قاومت الدود : نظارة طبية، أو عكاز طبي، أو ملابس سميكة ارتدوها قبل أن يخرجوا في رحلة اللاعودة.

لم يخبره عن التفنن في التعذيب، والتمتع بمشاهدة التعذيب، والتلذذ بتصوير التعذيب.

لم يخبره عن القصف، وأبواب جهنم تندلق على البيوت، والناس فئران مذعورة تحتضن صغارها، وألسنة النار من فم تنين جهنمي يسكن فوق رؤوسهم ويطاردهم من مكان لآخر.

لم يخبره عن بغداد ـ **الأخرى** ـ الكرب والبلاء، والقحط والشقاء، والمرض والعناء.

لم يخبره عن السقوط قبل السقوط، والهزيمة قبل الهزيمة، والاحتلال قبل الاحتلال.. قال له شيئاً أسعده، فتبسم وقال : **الحمد لله** .



أنظرُ إلى بغداد ـ الحقيقية التي لم يعرفها المنجم ولم يتحدث عنها ـ أنظر من نافذتي إلى سحب الدخان المنتشرة والممتدة على طول وعرض وعمق الأفق.

أنظر إلى بغداد، أحاول أن أبتسم، أفشل في ذلك، تكاد دمعة تفلت من عيني.

و لكني أقول : **الحمد لله** .



أتأمل في الأوراق وأقلب الحقائق، يموت الخليفة، ويعيش بعده الخليفة .. ثم ماذا؟

لا أجد في موته استثناءً، لكن في قصة موته يوجد رمز صغير، يطلب من خادم أن يقرأ له شيئاً من القرآن وهو على الفراش يُحْتَضَر .

فيقرأ له الخادم شيئاً ذا دلالة ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

فيغضب . ويطرده.

ثم يموت. وينقلب مع الذين ظلموا والذين نعلم جيداً أي منقلب سينقلبون.



على كوم الأوراق والحقائق، التي استخرجها من بطون الكتب والأقراص، أجد نفسي أحفر نفقاً، أمرُّ عبره إلى بغداد الحقيقية، بغداد جارة المطلق.

أعترف، عندما بدأت البحث لم أكن مدركاً تماماً أنى سأجد في بغداد ـ الماضي ـ بغداد التاريخ، كل هذه الإرهاصات عن بغداد الحاضر، وبغداد المستقبل.

لم أكن أعلم أن صورة بغداد الماضي، ستضم ملامحَ كثيرةً ـ **إلى هذه الدرجة** ـ من بغداد الحاضر.

ولم أكن أعلم، أن بغداد المستقبل تكمن ملامحها في مكان ما من الصورة نفسها، نشكلها نحن، بالاتجاه الذي نريده، إن بالشكل الذي ساد وانتشر.

مرآتان متقابلتان في غابة من المرايا، تلك هي وجوه بغداد المتعددة.. متشابهة، ومتداخلة، ومن الصعب حقاً الدخول فيما بينها.

لم أكن أدري أنَّ العوامل المشتركة ستكون غالبة لهذه الدرجة، وأنَّ المادة الأولية لبحثي عن المطلق المستمر في بغداد ستكون متوافرة لهذه الدرجة.

لكن، هاهي الصورة تتضح، وهاهي الوثائق تنطق، والأسطر تتصارع لتمزق أكمامها، والأوراق تصرخ، والمجلدات تكف عن خرسها.

هاهي الحقيقة تخرج عن الأمر الواقع ـ **عن التفاصيل** ـ عن الدقائق.

هاهي الحقيقة النائمة مثل تنين داخل أسطورة عتيقة، تصحو وتريد لتخرج من قدر السبات المخيم عليها منذ قرون.

هاهي العنقاء تقوم من قدر الرماد، وتتمرد على سجن الرمال الذي سجنت فيه منذ عقود متطاولة.

هاهي الحقيقة تصرخ، وتشير إلى عوامل الخلل، فتكتشف أنها ليست مستحدثة، وأنها كانت هناك منذ البدء، منذ وضع حجر الأساس بالاتجاه الخطأ، منذ أنْ كان العقد بين الراعي والرعية قد حرر بلغة مغلوطة، وبني على أساس خطأ.

إنه الاستبداد والظلم والطغيان.. من قبل الرأس.

والقابلية الكامنة على ذلك، الاستعداد على ذلك من قبل المرؤوسين.

كان ذلك .. منذ قرون، واستمر لقرون، ولقرون أدى إلى ما أدى إليه،.. وتراكم القرون ـ **اليوم** ـ أوصلنا إلى أن تصير بغداد ركاماً، على وشك السقوط بيد الغزاة.



وليس المنصور سوى رمز بسيط للدلالة **على أن التاريخ لا يزال مستمراً**، لن أقول شيئاً تقليدياً مثل **«ما أشبه الليلة بالبارحة»** أو أن التاريخ يكرر نفسه.

بل أقول : التاريخ لايزال مستمراً.

لايزال مستمراً، لم ينقطع، لم ينته، لم يستدر.

إنه يناور، إنه يساوم، لكنه دوماً مستمر، بطريقة أو بأخرى : لا يتوقف أبداً.

كنت متأكداً من ذلك، والآن صار تأكدي يقيناً، فبعد الحقائق التي وجدتها في كتب التاريخ، والتي استمرت وتجذرت في واقعنا اليومي برغم التاريخ، برغم الزمن، برغم العصور التي تعاقبت والحقب التي توالت، كانت هناك دوماً عناصر أكثر خبثاً ومكراً وعلى الرغم من تعاقب الدهور، ظلت مستمرة، وظلت تمارس دوراً تسلطياً علينا.

التاريخ لم يخرج منا، نحن خرجنا عنه، أما هو فقد اختبأ في داخلنا، في جيناتنا، في عظامنا في النخاع منه.

ورغم أن كتابنا ودينناـ **هما الكتاب والدين الوحيدان** ـ اللذين أسسا العقيدة على إستراتيجية «**فك الارتباط**» بالأشخاص والحوادث التاريخية، إلا أن كل شيء عندنا بني على أساس الارتباط بالأشخاص والحوادث التاريخية، (**حتى لو حاولنا أن نقول شيئاً غير ذلك**).

أتأمل في الكتب والأقراص والمجلدات والوثائق، أتأمل في أوراقي وتحليلاتي واستنتاجاتي.

أتأمل في الارتباط، وفي فك الارتباط.

أجد أن المسافة بينهما بين قصة الارتباط، وبين الأساس في فكه، هي ذات المسافة الفاصلة بين الحقيقة، وبين الأمر الواقع.

وهي نفس المسافة الفاصلة بين ما يجب أن يكون، وما هو كائن.

وهي ذات المسافة بين بغداد المطلق، وبغداد التي في ذهن كل واحد منا، أغرق في هذه الحقيقة، ولكن يرجعني قصف شديد إلى أرض الواقع.



كان هذا هو أقرب قصف، وأشد قصف مررنا به إلى حينها..

كانت ثمانية صواريخ مرت فوق رؤوسنا وسمعنا صوتها ـ **وهي متتالية** ـ وهي تمر فوقنا وصفيرها يكاد يصك آذاننا قبل أن ترتطم بشيء ما فتهز الأرض تحتنا والجدران من حولنا و السقوف من فوقنا، ناهيك عن زجاج النوافذ الذي لولا لطف الله واللاصق المتعاكس الذي وضعناه على الزجاج ليلة الحرب، لكان تناثرَ علينا وحولنا إلى أشلاء متناثرة.

كان الارتطام أيضاً من أقوى الارتطامات التي مرت بنا عبر الحروب المتعاقبة، لا أستطيع أن أصفه بأكثر من أنه يشبه ارتطام سفينة عملاقة بجبل جليدي ضخم في المحيط، أقول هذا رغم أني لم أجرب ذلك، أعني أني لم أكن مرّة في سفينة في المحيط أثناء ارتطامها بجبل جليدي، لكني أعتقد أن الأمر مشابه.

حدث الارتطام الأول، ثم جاء الصفير الثاني، قريباً جداً وعالياً جداً، شعرنا بالصاروخ يمر فوق رؤوسنا بالذات، وبحركة لا شعورية، وجدنا أنفسنا ـ **جميعاً تقريباً** ـ نخفض رؤوسنا قليلاً كي نتفادى الصاروخ، كما لو كان جذع شجرة تمر تحته ونحن على الدراجة، في طفولة غابرة تبدو بعيدة جداً عن لحظات القصف هذه.

حدث الارتطام الثاني، بدا لنا أقوى من الأول بكثير، اهتزت اللوحات المعلقة وكادت تسقط، وركضت ابنتي إلى حضن أمها والتصقت بها، والتصقت بها أكثر كما لو كانت تريد أن تعود إلى بطنها، لم أرَ الخوف في عينيها، إنما شيء آخر : شيء يشبه اللوم ـ **كانت توجهه إلى أمها** ـ لأنها أصلاً أخرجتها من رحمها إلى هذا العالم المروع الغريب.

مرّ الصاروخ الثالث، مع مروره مرَّ في ذهني تذكرت ما كنت قد تعلمناه سابقاً من خبرات الحروب السابقة من أن الصاروخ الذي تسمع صفيره ستنجو منه ـ وأن الناس الذين ارتطم ببيوتهم وبحياتهم، إنما فعل ذلك دون أن ينذرهم بالصفير الذي سمعناه.

كان ذلك من بعض ما تعلمناه في الحرب الإيرانية، لذلك عندما سمعت صفير الصاروخ الثالث قلت لنفسي : نجونا ! وعدت وتذكرت أن الأمر قد يكون اختلف مع التقنيات الأمريكية الأكثر حداثة وتدميراً التي لا شك أنهم يخصوننا بها هذه المرة، ربما يكون أولئك الذين يرتطم بهم الصاروخ الحديث يسمعون صفيره قبل أن يأخذهم وبيوتهم وأحلامهم وأطفالهم.

لم يكن من الممكن الاستفسار منهم عن ذلك للأسف.

قبل أن أنهي تأملاتي حدث الارتطام الثالث، معه صار واضحاً أن الأمر لم يعد ممكناً السكوت عليه !.

وللأسف : لم يكن هناك غير السكوت.

بدا لنا مع الارتطام الأخير أن الصاروخ قد سقط في المنزل المجاور، أو على الأبعد الشارع الخلفي، كان من المؤكد أنه لم يسقط علينا ما دمنا لم نمت.

مع الصفير الرابع، صار واضحاً أن الأمر سيتكرر، مادام أنه يبدو أقرب في كل مرّة، فسيكون أقرب، وأقرب، هذهِ المرّة..

كان في المرّة السابقة قد بدا أنه في المنزل المجاور، هذه المرّة قد يبدو أنه ـ **عندنا في المنزل** ـ أو في الحديقة، أو في غرفة النوم.

مع حصول الارتطام الرابع، كنا نتراكض جميعاً على السلم للهبوط إلى الطابق الأرضي، فقد تعلمنا أيضاً من خبرات الحروب السابقة، أن الصواريخ عندما تسقط على الجوار، فإن البيوت المجاورة عندما تتضرر، فإن الطوابق العلوية هي التي تتضرر أكثر ـ بمعنى أنها قد تطير تماماً بمن فيها، ربما ليس الأمر نفسه مع الصواريخ الحديثة التي قد

تجعل كل الطوابق، علويها وأرضيها في أسفل سافلين.

مهما يكن، فقد طبقنا الخبرات السابقة، وتراكضنا جميعاً، أحمل ابنتي ومعي ابني وزوجتي وخالتي، على السلم وصولاً إلى الطابق الأرضي، أثبت هذا التطبيق العملي فشله الذريع فيما لو كانت الصواريخ تسقط في الجوار فعلاً، ففي خلال الثواني العشرين التي استغرقت هبوطنا على السلم، سقطت أربعة صواريخ أخرى، سمعنا صفيرها وهي تمر فوق رؤوسنا، اهتززنا لدوي ارتطامها بشدة، كانت الصواريخ الأربعة الأخيرة أقوى بكثير من سابقاتها، أقوى بحيث أن كوننا قد هبطنا إلى الطابق الأرضي لم يخفف من وطأتها، بل على العكس بدا لنا أن الطابق العلوي أكثر أماناً.

مرت بعدها ثوان لم نسمع فيها صوت صفير الصاروخ التاسع.

أرهفنا السمع، ثوان أخرى، لا شيء.

بعد دقائق، تنفس الكون الصعداء، على الأقل الكون المحيط بنا تنفس الصعداء، وكان يبدو أنه سيختنق قبلها بقليل.

أسرعت إلى السطح لأمارس هواية عراقية محببة في الصعود فور انتهاء الغارة ـ أو حتى قبل انتهائها في بعض الأحيان ـ الغرض المعلن من هذه الغارة كان ـ عادة الاستطلاع وإرضاء الفضول، كان هناك دوماً غرض آخر خفي، كنت ألمحه في العيون وفي الإصرار على الصعود والتباهي به! إنه إظهار الرفض، إظهار التحدي، إظهار اللامبالاة، إظهار الرفض لأن تتحول بيوتنا إلى جحور فئران نخبئ خلفها ذلنا ورعبنا.

كانت دوافعي مزيجاً من هذا كله، وإن غلب الاستطلاع، أعترف عندما تسللت إلى السطح متجاهلاً تحذيرات خالتي ـ التي كانت توسوس بصوت عال ـ وتوسلات ابني الذي اعتبر الصعود مغامرة أين منها الصعود إلى القمر.

كان الليل ساكناً ما زال ـ **ربما من الهول** ـ هول الصدمات المتتالية التي تلقاها.. وكانت هناك رائحة مميزة وغريبة تلف هذا السكون وتبطنه. أظنها رائحة البارود.

البارود ؟ هل لا زالوا يستعملونه أصلاً، أم أن معلوماتي من مخلفات الحرب العالمية الأولى .

لست متأكداً من شيء، لكن هذه الرائحة، هي بالتأكيد رائحة المادة المتفجرة التي ملؤوا بها الصواريخ التي انفجرت بالقرب من هنا، لها رائحة تشبه رائحة الموت، وتذكر

بتراب المقابر المهجورة التي لايزورها أحد.

كان هناك صوت أيضاً، صوت منخفض لا يشق السكون بل يتكامل معه، ربما كان صوت هسيس النيران المشتعلة، أو أنين المباني التي تحطمت.

وكان هناك عمود هائل من الدخان ينبعث من مكان ما خلف المنزل، يحجب مكان انبعاثه عني حائط مبنى الشركة الروسية المجاور لمنزلي، حاولت تحديد الإحداثيات بقدر الإمكان، وقدرت أن المكان الأكثر احتمالاً هو ملعب الشعب الدولي والمباني الرياضية الملحقة به.

قبل أن استرسل في تأملاتي وذكرياتي عن الملعب ـ وهي قليلة بكل الأحوال لأني لم أكن يوماً من هواة الرياضة ـ سمعت صفيراً حاداً ومتقطعاً يشق سكون الليل، كان صوتاً عالياً وقبيحاً يشبه صوت فأر مزعج سقط في مصيدة، أو ربما صوت صرير باب يفتح عنوة عند منتصف الليل .

قبل أن أفهم شيئاً، كان هناك وميض غطى العالم، بالضبط خيل إلي للحظة أنه البرق.

لحظة أخرى وتأكدت أنه لم يكن البرق، فقد حدث انفجار هائل زلزل السماء قبل الأرض، بالضبط الزلزال هي الكلمة التي أتصورها معبرة عما حصل، خيل لي أن قواعد البيت وأساساته قد اقتلعت من مكانها ثم، أرجعت بقوة لترتطم مرة أخرى بالأرض .

قبل أن أفيق من الزلزال كان هناك الوميض مرة أخرى، والزلزال مرّة أخرى، ست مرّات تعاقب الضوء والزلزال على السطح وأنا أحاول التشبث بالهواء الذي استنشقه.

عرفت هناك ـ **على السطح** ـ معنى أن يكون الضوء مرادفاً للظلمة.

عرفت معنى أن تظلم السماء ـ **عدا ظلمة الليل** ـ بضوء بارد وقبيح وباهت ومستفز لعله يشبه الأضواء الساطعة التي توجه على المعتقلين السياسيين أثناء تعذيبهم.

لا مجاز في ذلك، كان وميض الصاروخ شيئاً مشابهاً لهذا.

كان اتجاه الصواريخ مختلفاً هذه المرّة، كنت أعرف بالضبط أين سقطت الصواريخ.

في المكان الذي كنت أنتظر فيه باص المدرسة، لمدة ست سنوات صباحاً، قبل ما لايقلُّ عن عقدين من السنين تبدو الآن كما لو كانت آلاف السنين الضوئية.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

كما تمزق الحرب أغشية التعود، فإنها تحطم القوالب التي تقسرنا مهننا وأوضاعنا الاجتماعية على ولوجها والتنمط بها طيلة الوقت.

وبالنسبة لي، كطبيب أسنان، فقد وجدت نفسي بلا وظيفة تقريباً طيلة فترة الحرب، إلا وظيفة الموظف التقليدي الذي تعود أن يذهب إلى مكان عمله دون أن يستطيع أن يؤدي أي خدمة حقيقية لأي مواطن، فقط يذهب لكي يثبت لنفسه ولزوجته ولأطفاله أنه لا يزال له مكان و فائدة في هذا العالم الذي تجاوز الأفراد المهمشين من أمثاله، وكان عدم أداء أي خدمة حقيقية نابعاً أصلاً من الموقع الجغرافي للمركز الواقع في قلب منطقة صناعية في قلب بغداد، وهي منطقة اقفرت تماماً وأغلقت كافة محلاتها ومعاملها منذ بدء الحرب.

لكن، وكما قلت، أجبرتنا الحرب أحياناً على الخروج من أنماطنا التقليدية التي تلبسنا إياها مهننا وأوضاعنا الاجتماعية اللصيقة بها، وإذا كان طبيب الأسنان قد وجد نفسه مركونا على الرف بلا فائدة حقيقية، فإن شخصاً آخَر، مفيداً جداً، وعملياً جداً، قد نبت مكان طبيب الأسنان الأجرد..



أمام بيتنا، وبالذات أمام شرفتي، توجد حديقة عامة واسعة، كانت لها أيام عزٍّ لا أفطن لها شخصياً، وكانت هناك عبر العقود الماضية فترات اهتمام عابرة بالحديقة، وما تلبث أن تهمل من جديد، لتعود، كما كانت، ساحة واسعة يلعب بها صبيان المنطقة كرة القدم.

منذ بدء الحرب، وانقطاع الخدمات، وبالذات عدم مجيء سيارات البلدية التي تحمل القمامة من البيوت، بدأ الأهالي برمي القمامة في الحديقة.

كما في كل الأخطاء، يبدأ الأمر بشخص واحد فقط، **يتسلل ربما تحت جنح الظلام ليرمي بقمامته ويخلص منزله منها .**

وعندما يصحو الناس في اليوم التالي، ويجدون أن أحدهم قد تخلص من مشكلته بتحويلها إلى الحديقة العامة ـ **أي التي لا تخص أحداً بعينه، في رأيهم** ـ فإن واحداً آخرَ أو ربما اثنين **سيتسللان** تحت جنح الظلام أيضاً، ليلقوا بالقمامة في ذات المكان.

وفي اليوم الثالث، سيشارك الجميع في تلك المهمة بحماس، ويتخلص كل بيت من مشكلة القمامة الخاصة، بتحويلها إلى مشكلة عامة.

وبعد ثلاثة أيام، فاحت رائحة المشكلة العامة التي تخلص كل بيت منها على حدة.

وبعد ثلاثة أيام أخرى، صرت أرى سيارات من الشوارع المجاورة تأتي لتفرغ قمامتها في الحديقة العامة.

ولم يمض أسبوع حتى كانت الشرفة التي اضطررت أن ألجأ إليها للكتابة ـ لأنه لم يعد لي مكان آخر في البيت بعد أن تم احتلاله بالكامل من قبل خالاتي ـ أقول، لم يمض أسبوع إلا وكانت الشرفة تطل على المزبلة العامة التي تم إنشاؤها عفوياً من قبل أهالي المنطقة.

أكثر من كل ذلك، إن القمامة بدأت تتعدى حدودها عند حافة الحديقة، لتحتل مساحة من الشارع بحيث إنها بدأت تضيق الطريق على السيارات، وكان تفسير ذلك واضحاً جداً، فالناس حتى لم تعد تتكلف عناء رمي قمامتها في العمق من المزبلة، ربما لأن ذلك سيجعلهم يضطرون للخوض فيها وهو أمر سيتجنبونه بالتأكيد.

هل تظنون أنني خرجت عن الموضوع ؟.

أبداً. إنني الأن ربما في صلبه أكثر من أي وقت مضى.

هذا المشهد يلخص، في لقطة واحدة، **كل ما مضى، وكل ما سيأتي، وكل ما يمكن أن يأتي هذا المشهد يوجز في لقطة واحدة مكثفة جداً، ودقيقة جداً، أسباب الانهيار، وأسباب الانحلال وُأسباب السقوط .**

إنه مشهد مكرر جداً، وعادي جداً، وروتيني جداً في الظروف الاستثنائية جداً التي مررنا بها، وأستطيع أن أؤكد للمثقفين الذين سيستهولون الأمر أن كل العواصم الأخرى ـ **إذا تعرضت لظرف مثل هذا** ـ فإنها ستشهد الحدائق العامة وهي تتحول إلى مزابل عامة تبطئ السيارات قربها، وينزل شخص محترم، أو على الأقل هذا ما يدل عليه مظهره، ليفرغ سلة من القمامة، بكامل محتوياتها، داخل حديقة عامة.

أقول هذا ، لأنني من شرفتي شاهدت من الناس ألواناً وأشكالاً، محترمون أو تدل مظاهرهم على ذلك، على الأقل، أطباء ومحامون، وأساتذة جامعيون، وآخرون بسطاء وربما أقل مكانة، لكنْ محترمون أيضاً، اجتمعوا جميعاً على رمي القمامة في تلك الحديقة العامة.

۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞

كان هناك رمزٌ صغير في ذلك كله.

رمز صغير ؟ لا . كانت لوحة سريالية مليئة بالرموز والدلالات، وجدتها منصوبة على الأفق القريب من الشرفة، وكانت في حقيقتها تمثل مقطعاً عرضياً للمجتمع : الانهيار القادم لا محالة ترى في هذا المشهد، أن الناس عندما حلوا مشاكلهم الخاصة، بتحويلها إلى الممتلكات العامة، كأنما كانوا يعبروا عن حقيقة أنهم لم يؤمنوا قط أنَّ الممتلكات العامة، هي عامة حقاً؛ بمعنى أنها تخصهم أيضاً بطريقة أو بأخرى.

وترى في هذا المشهد أن مجموعة الأفراد هنا لا يجتمعون ليكونوا مجتمعاً واحداً، وأنما يظلون أفراداً منعزلين كل داخل أسرته وبيته وهمومه الخاصة.

وترى في هذا المشهد، أن الواحد زائد واحد لا يساوي اثنان، بل يظل واحداً، فرداً منفرداً أعزلَ ومعزولاً داخل سياج بيته الذي يشكل حدود عالمه الخاص.

وترى في هذا المشهد، **أن العلاقة بين الفرد والجماعة مبهمة وغامضة ومعقدة، إن لم تكن مفقودة ومعدومة أصلاً.**

وأن كل فرد من هؤلاء لا تجمعه روابط حقيقية بالأفراد الآخرين خارج نطاق أسرته الضيق، كل فرد من هؤلاء ـ مهما تحدث و تمنطق وقال وصال وجال ـ **فإن شعاره الحقيقي** ـ ساعة الحقيقة : **لن يكون سوى نفسي نفسي ... نفسي نفسي** .

وكانت ساعة الحقيقة مشهداً بسيطاً، اختلطت فيه المفاهيم والقيم والشعارات وخطط العمل، ونتجت عن ذلك كله ساحة لرمي القمامة.

كانت ساعة الحقيقة تقول حقيقة بسيطة باختصار، أن الدولة بكل مؤسساتها وأجهزتها الإعلامية والأمنية والقمعية، وخبراتها البيروقراطية والتكنولوجية، فشلت في أهم مهمة كان يفترض أن تقوم بها، وهي أن يشعر الناس أنهم مواطنون فيها، وأن تتأصل في سلوكياتهم وأفكارهم مسألة المواطنة برمتها، وكأن ذلك يعني أن الدولة فشلت في أن تكون دولة ولم يكن ذلك فشلاً للدولة فقط، بل كان فشلاً للجميع، كان فشلاً لكل من تصدى للتغيير، سواء كانت التيارات العلمانية بمختلف تدرجات أطيافها من الإلحاد الشيوعي المباشر إلى الليبرالي اللامبالي، كلها فشلت في أن تؤصل المواطنة فكراً وسلوكاً في نفوس المؤمنين بها.

وغير بعيد عن ساحة القمامة العامة تلك، كانت هناك منارة لمسجد قريب، تنتصب

كدليل على فشل المسجد فيما كان السبب الأساسي لتشييده يوم بني أول مسجد على الإطلاق: **أن يجمع الناس، أن يحول الأفراد إلى جماعة، ويذيب الأسوار التي تعزل الفرد عن الجماعة، أن يحل تلك الإشكالية المزمنة العالقة بين «الأنا» و الـ «نحن».**

كانت تلك هي العقيدة الأولى، وذلك هو الحجر الأساس الذي بني عليه أول مسجد، والذي بنيت عليه أيضاً مؤسسات تلك الحضارة التي لم نرث سوى أسماء من منجزاتها، دون أن نحوز على معانيها وقيمها.

بين كوم القمامة المتصاعد، وتلك المنارة الشاهقة، كانت المسافة ليست بعيدة، وكانت تدل على درب بعيد، أوْغلنا فيه في البعد عن القيم والمعاني التي جعلت المنارة ـ **ذات يوم** ـ تكون مناراً للآخرين، بل جعلت هذه المنارة، تطل أينما كانت على ثلاث قارات، هي كل ما عرف العالم من قارات أنذاك.

ذلك الدرب بين المنارة والقمامة، هي قصتنا جميعاً، هي قصة انحدارنا وانحلالنا وزوالنا.

إنها القصة غير المروية بعد، لكل ما كان، ولكل ما سيكون.

إنها قصة سقوط بغداد.



كان ذلك التفلسف متقناً جداً، أو على الأقل هذا ما يبدو من وجهة نظري.

لكن فيه مشكلة واحدة ـ **على الأقل** ـ أنه لا يخفف الرائحة الكريهة المنبعثة من القمامة أمام شرفتي.

وكما لن ينتفع المريض من الوقوف عند حد تشخيص المرض، دون المضي قدماً في العلاج، فكذلك أن تدبيج النظريات وإنشاء الخطابات في أسباب التخلف و وسائل النهضة لن تجدي نفعاً ما لم تصاحبها خطوات عملية تترجم القول إلى فعل.

إن مشكلة ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢] ليست خاصة بالمنافقين في عهد الرسول ﷺ. كما أن كونها واردة في نص قرآني لا يجعلها خاصة بالتيارات الإسلامية فحسب. في الحقيقة إنها مشكلة النُّخب كلها على اختلاف أطيافها و تلون اتجاهاتها.

إنها تلك الازدواجية الموجودة في أعماق تلك النخب، إنها الهوة القائمة بين الفكر والسلوك، والتي تسقط فيها هذه النخب.

إنها الشيوعي الذي يصبح بالماركسية ويمسي باللينينية، ثم عندما تحين لحظة الحقيقة فإنه يعود عشائرياً طائفياً لا يؤمن بغيرها كانتماء له ولأولاده من بعده.

إنه الليبرالي الذي تنتفخ أوداجه وهو يتحدث عن المساواة التامة المطلقة بين المرأة والرجل، وبالذات في قانون الأحوال الشخصية الذي يطالب بتعديله أو بإلغائه تماماً، لكنه عندما تحين لحظة الحقيقة، وتتوفى أخته المتزوجة بلا أولاد ذكور، فإنه يطالب بحقه (الشرعي) المذهبي إلى أقصى حد ممكن.

وإنه الإسلامي ـ **وياللأسف** ـ الذي يرفع شعارات سامية ويتغنى بأهداف أكثر سمواً، ثم عندما تحين لحظة العمل، لاداعي، تعرفون طبعاً! خيبة أمل !

نعم. هذه هي مشكلة النخب على اختلاف أطيافها، إن انتماءها الأكثر وضوحاً هو لجبهة واحدة تضمها جميعاً هي جبهة *«**كثرة الجعجعة وقلة الطِحْن**».. إنها تنتمي لتلك الهوة الواسعة بين الفكر والسلوك، والازدواجية التي تعزل القول عن الفعل.

لكن في لحظة معينة، يكون عبء الحقيقة أثقل من أنْ تتحمله الهوة الواسعة بين الفكر والسلوك، وتكون رائحة القمامة أقوى من أن تحجبها حواجز القول وأغشية الجعجعة.

أحياناً ـ **يصير لابد لأحدهم أن يواجه** ـ أن يزحف عبر تلك الهوة، وعبر ذلك الدرب المفروش بالأشواك والزجاج المطحون، الفاصل بين القول والعمل، والفكر والسلوك.

اختراق تلك الهوة قد يكون صعباً إلى حد كبير، وقد يكون مروعاً للبعض مثل اختراق حاجز الصوت فوق قرية هادئة.

لكنه، عندما تحين لحظة الحقيقة ـ **والتي تدوم دهوراً إذا لم يتقدم أحد** ـ عندما تحين لحظة الحقيقة، لابد أن يتقدم أحد.

أقول : لابد. وعندما تكون القمامة أقرب شيء إلى منزلك، فإن هذا الأحد يجب أن يكون أنت.

أي أنا.

۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞

لعدة أسابيع، كانت وظيفتي الحقيقية التي لها أهمية وفاعلية في خدمة المجتمع بعيداً عن منظر الوظيفة التقليدي التي جعلتها الحرب مع وقف التنفيذ.

كل فجر، وقبل أن تطلع الشمس، ومباشرة بعد صلاة الفجر، كنت أتسلل، مع كمية من النفط في عبوة ملائمة، إلى تلة القمامة، أنثر النفط عليها بالتدريج، وأحرقها شيئاً فشيئاً.

أما لماذا أتسلل تحت جنح الظلام وأفضله على نور الشمس توقيتاً لحرق القمامة فلذلك عدة أسباب، أعترف أن أوَّلها كانت تلك النظرة التي يمتزج فيها الاستغراب بالسخرية بالاستهجان في عيون الآخرين الذين كانوا يستكثرون أن تنقلب الأمور لهذه الدرجة، بحيث يصل **(بالدكتور)** إلى أن ينزل من برج مكانته المهنية العاجي، ليحرق القمامة.

شيء آخر، ربما أكثر إحراجاً من الأول، هو تلك التعليقات الطفيلية التي كان عليَّ أن أتلقاها من أناس ينتمون ـ دون أن ينتموا .. لجبهة كثرة الجعجعة وقلة الطِحْن ـ كأنَّ المجعجعين يزعجهم أن يروا أحداً يتخلص من مشكلتهم ويقوم بالفعل .. بالطحن.

جاءتني أول الأمر جارة لنا لتقول: إن اتجاه الهواء يأخذ الدخان إلى بيتهم وأن زوجها ينزعج من الرائحة، ولما كان تغيير اتجاه الهواء أمر خارج عن قدرتي وكانت تتفهم ذلك، فقد اقترحت السيدة أن أقوم بتغيير مكان القمامة بحيث لا يؤثر الدخان المتطاير على أنف زوجها العزيز.

قلت لها ـ من بين أسناني ـ وبأكبر قدر تمكنته من التهذيب، أن تفعل ذلك هي، وزوجها شخصياً.

هزَّت كتفيها بلا مبالاة، فهي تجعجع فقط والطِحْن ليس من اختصاصها، وقالت أن قمامتها قليلة جداً وهي لا تلقيها إلا مرّة واحدة في الأسبوع.

في مرّة أخرى، وقفت سيارة بالقرب مني وأنا أحرق القمامة، ومن نافذتها جعجعَ أحدُهم ليعلق على طِحْني، قائلاً: إن القمامة منتشرة أكثر مما يجب، وأن من الأفضل لمها أكثر، في تلة أعلى وعلى مسافة أقل، مذكراً أن ذلك سيستهلك وقوداً أقل، وأنه سيكون أقل خطراً على السيارات المارة.

واحد آخر جعجع قائلاً: إن الأمر قد يتطلب تفتيش القمامة قبل حرقها، لئلا يكون فيها مواد تنفجر عند الاشتعال.

وأشار آخر إلى احتمالية أن تعد النيران المتصاعدة دليلاً أو إشارة للطائرات إلى موقع يجب قصفه.

وهكذا، كان لكل طفيلي ومار أن يدلي بدلوه في تلة القمامة المكومة أمام شرفة بيتي، قليلاً من الجعجعة لن تضر لأي أحد منهم - بل ستجعلهم مطمئنين أن الطِحْن هو المضر، وهو الخطر، وهو الذي يجب تجنبه وتجنب عواقبه قدر الإمكان.

بالرغم من كل ذلك، لم أتخلَ عن قراري بحرق القمامة، لكني و بسبب كل ذلك قررت أن أجعله فجراً، قبل أن تبزغ الشمس.



وبما أن الشيء بالشيء يذكر، فإني أؤمن تماماً، بأن أكوام القمامة في حياتنا تحتاج إلى من يجسر الهوة، ويجتاز تلك المسافة الفاصلة بين القدرة على الجعجعة والعجز عن الطحن.

أؤمن بأن الكثير من سلوكياتنا، وقيمنا، وأفكارنا، وحتى بعض عقائدنا لايمكن أن تنتمي إلا إلى القمامة، ولا يجب أن تكون إلا هناك.

وأؤمن أيضاً، أن مكانتنا هذه، التي انحدرنا إليها، كانت بشكل أو بآخر بسبب أفكار القمامة هذه، وقيم القمامة، وسلوكيات القمامة.

وأؤمن أيضاً بأن أحدهم عليه أن يتسلل تحت جنح الظلام، من أجل أن يحرق القمامة، حتى تشرق الشمس، حتى يطلع الفجر، فالقمامة تمنع شروق الشمس، وطلوع الفجر، وتكرس السواد، تروج للظلمة.

نعم. لابد لأحدهم أن يتسلل حاملاً وقود الجرأة والتجديد، وقود الأفكار الجديدة الحارقة الخارقة، لابد لأحدهم أن يكون **(فدائياً)** - **بطريقة ما** - وينزل من برجه العاجي المعلق في أوهام الماضي وأمجاد التاريخ الزائلة، ليتلمس مع الواقع أوحاله وقمامته.

وسيواجه هذا الفدائي الكثير من الجعجعة التي ستستفظع حرق القمامة أو حتى المساس بها، فالقمامة صارت - **بحكم القدم** - جزءاً من البيئة، جزءاً من التعود، جزءاً من الروتين المحيط بالناس، والمساس بهذا الروتين وهذه البيئة سيكون مساساً مباشراً بالناس والمجتمع.

بالتأكيد سيكون كذلك، فالكثير من السلوكيات والقيم التي نجترها مكانها في القمامة، لكنها مستقرة أيضاً في نخاعنا، في أدمغتنا، حرقها سيكون حرقاً لنا، ونزعها سيكون حتماً مؤلماً كنزع الجلد والأظافر على يد معذب محترف.

في القمامة رموز نجلها ونحترمها، وشخصيات مركزية نقدسها، و أقوال مأثورة تشكل وعينا وسلوكنا، وفتاوى فقهية وحيل شرعية وغير شرعية وآليات للفقه والتنظير التصقت بمرور الوقت بالنصوص الدينية حتى صارت تبدو كما لو قد جاءت معها، رغم أنها اقحمت عليها وقسرت معها ووحده الزمن جعلهما يبدوان ملتحمين معاً.

في القمامة توجد سلبيتنا، نخفيها خلف ما نسميه إيماننا بالقدر واستسلامنا لكل ما تأتي به الرياح.

وفي القمامة يوجد تلك القيود التي تحيط بوعينا، بعقولنا، هنا لا تقترب، وهنا احذر، وهنا خطر سريع الاشتعال.

في القمامة توجد الخطابة التي لا تقول شيئاً والتي تعودنا عليها، والسجع والطباق، والألفاظ التي تناور وتساوم، والمقدمات التي لا تؤدي إلى شيء، وتلك اللهجة الممجوجة المكررة التي نجترها منذ قرون.

وفي القمامة يوجد تاريخ الانحطاط الذي قدسناه، وأسباب الإنحطاط التي كرسناها، ونتائج الانحطاط التي عشناها.

وفي القمامة توجد فرديتنا، عجزنا عن الذوبان في الجماعة، عجزنا عن فهم مقاصد شريعتنا، وعجزنا عن تحويلها إلى واقع نافع رغم ولعنا بالتحليلات والاستنتاجات.

في القمامة يوجد ذلك الدرب الطويل الذي انحدرنا إليه من تلك المنارة العالية التي كنا عليها، إلى كوم القمامة العالية أيضاً والتي غرقنا فيها.. تماماً.

أنظر إلى كوم من القمامة موجود بالضبط في ركن الجامع المواجه للقبلة، وأنظر إلى قمة المنارة المزودة بالأضواء الحديثة ـ **ربما كانت كورية الصنع أو صينية** ـ ومكبرات الصوت كانت أجنبية أيضاً، كانت سويسرية على ما أذكر.

أجهزة التكييف في الجامع كانت يابانية، مثل معظم السيارات التي تقف في الباحة أمامه.

وحده كوم القمامة، كان محلي الصنع.

ربما كانت الأعمدة والزخارف والنقوش المرصَّعة بالخط العربي الذي خطت فيه الآيات القرآنية جميلة جداً، وتاريخية جداً، لكنها محض ديكور، محض رسوم وصور.

لكن الواقع الماثل ـ الواقع المعاصر، كان مجسداً أكثر في كوم القمامة الموجودة أمام الجامع.

مؤسف جداً..

ولابد لفدائي ما ـ أن يحرقه .



بين قصف وآخر، هناك دوماً مجال لقصف آخر.

تمر الساعات في اليوم الواحد والقصف متتابع دون انقطاع، يشتد حيناً ويخف بعض الأحيان، لكنه موجود، بين الصواريخ والطائرات، والقذائف والمضادات، يمر يومنا ونحن نحاول أن نمارس قدراً معيناً من الحياة، من الوعي، من التنفس، من التشبث بالحياة **أو بما تبقّى منها** !!...

وبين قصف وآخر، كانت معلوماتنا عن الأسلحة تزداد وخبرتنا تتوطد، صرنا نميز بين هدير طائرات الشبح والفانتوم، وصوت صواريخ الكروز، والانفجارات المتتالية للقنابل العنقودية، وقذائف الـ (٥٧) وأصوات مقاومات الطائرات وصواريخ سام التي كانت تختلط وتتشابك فوق رؤوسنا، ثم صرنا نميز بينها بالاسم والفعل وصار حتى ابني الصغير يتباهى بقدرته على التمييز، عندما لايكون القصف قريباً بحيث يعطل الخوف حاسته على التمييز.

تقاربت الغارات، مع الوقت، وتشابكت، ولم نعد نعرفها رأسها من قدمها، ولم نعد نحدد متى بدأت هذه الغارة ومتى انتهت تلك. بل لم يعد هناك داعي لاطلاق صافرات الإنذار، رغم أنها كانت تطلق بين الحين والآخر، كما لو كانت تذكر بأنها موجودة.

صار اليوم، وابتداءً منذ منتصف الأسبوع الثاني من الحرب، عبارة عن غارة طويلة تتخللها أحياناً بعض التقطعات.

انتظمت حياتنا على أصوات الانفجارات، صرنا نحاول أن نمارسها بشكل طبيعي

بأكبر قدر ممكن من التعايش مع الموت، مع القهر، ومع ذلك الصلف الذي يعبر عن نفسه ببذور الموت التي تحصدنا حصداً.

وبين الحين والآخر، وبالضبط قبل أن ننغمس في النسيان، ويتمادى الصلف في قهرنا، يأتي من مكان ما، **صوت يحاول أن يكون قوياً، ويحاول أن يكون معبراً وحنوناً في الوقت نفسه.**

يأتينا الصوت، كأنما من عالم آخر، ومن زمان آخر، يصلنا بشكل معجز، بدون مكبرات صوت، لكن كأنما أقوى مما كان يصلنا قبل، عندما كان يأتي ممزوجاً بالكهرباء والإلكترونات الموجبة والسالبة، **الآن يصلنا نقياً، فطرياً مشحوناً بالرغبة في إيصال تلك الحقيقة البسيطة التي ربما غابت عن أذهاننا في زحام الحقائق المتساقطة من الطائرات.**

بين الحين والآخر، كان هناك صوت يذكرنا بتلك الحقيقة الواحدة الوحيدة، الحقيقة الكبيرة، بل الحقيقة الأكبر التي ربما ينساها البعض وربما يتناساها آخرون، في غمرة الذعر من القصف والدمار.

بين الحين والآخر، كان هناك صوت، يهمس لقلوبنا، ويخاطب فينا عقولنا، كأنما يقول لنا، رغم القنابل الكبيرة، ورغم الصواريخ الكبيرة التي تنطلق من الطائرات الكبيرة، ورغم الدمار الكبير الذي تخلفه، ورغم أن أعداءنا كبار، ورغم أن زعيمتهم كبيرة الكبار، كان الصوت يذكرنا بحقيقة أخرى مختلفة ومخالفة.

كانت الغارات والطائرات والقنابل تقول لنا أن **أمريكا كبيرة**، وكان الصوت يقول لنا أن **«الله أكبر»** !..



قبل أن تبدأ الحرب بفترة، حوالي أسبوع أو أقل، وعندما بدا واضحاً أنها واقعة واقعة لا محالة، غزت الجامع ـ **قرب البيت** ـ وجوه جديدة تماماً.

الوجوه الجديدة التي أعنيها، كانت وجوهاً لضباط وعسكريين ينتمون لبعض الدوائر العسكرية القريبة، أو لبعض المواقع **(البديلة)** وهي دوائر عسكرية نقلت كوادرها وحتى أسلحتها من مقراتها الأصلية، المعروفة مواقعها بالنسبة للغزاة وطائراتهم، إلى مواقع بديلة، قد تكون منشآت مدنية، أو مخازن، أو مدارس أو حتى بيوت مستأجرة.

فجأة، تضاعف العدد لعدة مرّات، فجراً وعشاءً وفي معظم الأوقات، فقد كان

الوضع الطارئ يحتم عليها التواجد في دوائرهم بشكل دائم، وفي كل صلاة كانوا يأتون.

للوهلة الأولى ـ **وأيضاً الثانية** ـ لا يمكن للمصلين إلا أن يفرحوا، وهم يرون الناس تأتي لصلاة الجماعة أفواجاً ..**أنا وغيري كنا نتمنى ذلك دوماً**، وكنا نفرح في رمضان عندما يأتي الجدد، متمنين أن يمضي الشهر ويتركهم متمسكين في المسجد وصلاة الجماعة.

لكن والحرب على الأبواب، بدأ الأمر غريباً بعض الشيء، ومثيراً لمشاعر أخرى: غير الفرح.

كان هناك تساؤل: هل الأمر طوعي ؟ هل يأتون للمسجد طواعيةً بهذا الكم غير المسبوق أم أن هناك تعليمات في الأمر ؟ هل يأتون للمسجد مساقين بدافع اللجوء إلى الله في وقت المحنة (وهو دافع مفهوم جداً وطبيعي جداً حتى لو جاء متأخراً بعض الشيء) أم أنهم كانوا يأتون مساقين بالسياقات العسكرية والتعليمات القادمة من ذلك الهرم العسكري الذي تعود أن يأمر فيطاع..؟

كنت شخصياً أشعر بالتعاطف مع البعض منهم بالتحديد، دونما سبب واضح غير شعوري بأن في داخلهم معدناً طيباً أصيلاً، يصلي حقاً حتى لو كان يسير حسب السياقات.

وبعد كل شيء، فقد كانوا بشراً رغم الرتب العسكرية الموجودة على أكتافهم، وكانت لهم عوائل، وأولاد، ومشاعر ومخاوف، يمكن أن يكون أي منهم قريباً لي أو قريباً لك، أو قريباً لأي أحد هنا.

إلى جانب التساؤل المطروح عن الدوافع الحقيقية، كان هناك الشك التقليدي والمبني على خبرة قديمة مستقاة من تجارب متكررة، *__شك مر وحقيقي كان يستهدف أي حركة يقوم بها النظام من أجل إضفاء صبغة دينية على موقفه.__

كنا واعين تماماً لهذه المسألة، ولعل الإعلام وحده كان يمكن أن يخدع بها، ويخدع آخرين في بلدان أخرى ممن لا يعرفون حقيقة الوضع.

كنا واعين تماماً، ونذكر تماماً أنه لكل واحد من المصلين الأصليين المترددين على الجامع، كان هناك ملف باسمه في الدائرة الأمنية المختصة بمنطقة سكنه، حيث إن مجرد تردده على المسجد كان تهمة كفيله بوضعه تحت المجهر الأمني والرقابي، ناهيك

عن الوقت الذي كانت تهمة كهذه كفيلة بالسجن وربما بالإعدام.

وكنا نذكر تماماً أن هؤلاء العسكريين أنفسهم، قد مرّت عليهم فترات، ليست بعيدة عن ذاكرتهم ولا عن ذاكرتنا، كان مجرد أداء الصلاة حتى لو بشكل فردي كفيل بإجراء تحقيق أمني في الوحدة العسكرية بحثاً عن الدوافع وراء هذه الصلاة .**وكم مرّة يصلي فلان؟ وهل يصليها في وقتها أم أنه يؤخرها؟ وهل يجمع في صلاته أم أنه يصليها بخمسة صلوات ؟**

وسنذكر، كما يذكر هؤلاء اللذين يساقون اليوم إلى الصلاة بالأوامر العسكرية، أن تلك الرقابة والتحقيق قد أدت وقتها إلى إحجام الكثيرين من أصحاب المعادن الطيبة عن الصلاة خوفاً على ترقياتهم، وعلى رواتبهم، وحتى على حياتهم.

وستذكر أن هذا الإحجام ـ **قد أدى** ـ إلى ما أدَّى إليه حتى عند بعض أصحاب المعادن الطيبة من الانسياق في الفحشاء والمنكر الذي تنهى عنه الصلاة ـ **الممنوعة** ـ. ستذكر ما عرف عن حياة الضباط من لهو وعبث وسكر وعربدة، وستقول أن ذلك حدث **بعد أن تم تجريدهم من الحصانة، بعد أن تم منعهم من الصلاة.**

أتذكر ذلك كله، وأتأمل في الجموع حولي: عسكريين وقادة، ضباط كبار وصغار، ورتب عالية، ومسؤولين حزبيين ورجال أمن، وأتمنى لو كان الأمر غير ما نعرفه، أتمنى لو أن القرار كان أصيلاً وناتجاً عن تاريخ حقيقي ومتصل ومنسجم مع نفسه.

أنظر إليهم، لاشك في أن بعضهم صادق في صلاته، في دعائه، في ذلك الخشوع وفي تلك الدموع في العيون.

لا أشك في ذلك.

لكنني لا أشك في ذات الوقت أن النظام يستخدمهم، يستخدم صلاتهم ودعاءهم، وإيمانهم كورقة إعلامية ـ لا أكثر ولا أقل.

لا أشك للحظة واحدة، أن النظام يريد منح صبغة معينة لما يدور، صبغة فقط، دون الوصول للمضمون، دون أن يتجاوز السطح إلى الأعماق.

لا أشك للحظة واحدة، أن النظام يريد تعبئة المشاعر، يريد تجييش العواطف والقوى الإيمانية لتكون صفاً واحداً معه في معركته الخاصة، دون أن يعني ذلك أنه يؤمن بتلك المشاعر وبتلك العواطف.

ولم أكن أشك أيضاً ـ **أن هناك من السذج والطيبين** ـ من سيقول: **إنها التوبة** ... والله يقبل توبة أشد الظالمين.

لكني لم أكن أشك أن الأفراد يتوبون، أما الأنظمة .. فلا.. وألف لا ... !!! ...

الأنظمة ـ **حتى لو كانت تشاهد نهايتها** ـ حتى لو كانت تغرغر .. فإنها لا تتوب .. ولا تعود أدراجَها..

نعم. الأفراد يتوبون، ويصلون، ويتضرعون.. ويخشعون..

*** أما الأنظمة، فلا فرصة في ذلك.**



كل ذلك لخصته لقطة واحدة، شهدتها على الباب الخارجي للمسجد، ذات صلاة ظهر في يوم من أيام الحرب.

على الباب كان هناك ضابط ما، رائد أو عقيد ـ لم أعد أذكر وربما لم أنتبه حتى وقتها، كان وجهه مألوفاً جداً وكنت قد أنتبهت له منذ أن بدأ الغزو ـ كان يبدو مريحاً، وابن ناس، وكان وجهه يقول أن معدنه طيب، وأن مجيئه للمسجد لم يكن طاعةً للسياقات العسكرية، ولكن نابعٌ من التجاء حقيقي لله، وكنت أتساءل مع نفسي لماذا لم يكن يأتي للصلاة من قبل؟ وأتحسر على المئات غيره من أصحاب الوجوه المريحة والمعادن الأصيلة ممن حجزتهم التعليمات القديمة داخل إطار بعيد عنه عزَّ وجلَّ..

كان يهم بالدخول، عندما أوقفت سيارتي قرب الباب الخارجي، رأيته يقف ويلتفت خلفه إلى جندي صغير في السن كان يقف مستنداً إلى الحائط، ومن الواضح أنه كان ينتظر أحداً ما كان قد دخل للصلاة في المسجد.

وكان من الواضح ـ **أن الضابط** ـ رغم رتبته الكبيرة، يمتلك علاقة ودية مع الجندي البسيط الواقف على الزاوية ..**ربما كان ودياً مع الجميع.**

التفت إليه، وأشار له بيده، مع ابتسامة صغيرة، **أن ادخل وصل كما يصلي الناس.**

تمتم الجندي بشيء لم أسمعه. اعتذار خجول على الأغلب.

«هيا» قال الضابط .**«تعال وصل وكف عن هذا».**

كانت نبرته صادقة، كان معدنه الأصيل واضحاً من خلال ذبذبات صوته.

ابتسمت في سري، كان حدسي صادقاً هذه المرّة أيضاً، لطالما آمنت به، حدسي هذا، وصدقته، لا أنكر أنه أخطأ عدة مرّات، لكنه غالباً ما كان يتقن التنقيب في المعادن عبر محض قراءة الوجوه..

ظل الجندي مكبلاً باعتذاره : سيدي . لن أستطيع.

كان من الواضح أن الضابط لن يستسلم بسهولة، مدَّ يده ليتجاوز كل الفوارق والحواجز وسلسلة المراجع التي تفصل بينهما، مد يده و وضعها على كتف الجندي الشاب.

«**هيا. تعال وصل ولا تتعبني معك**»، كان صوته يختزن الأمل والألم معاً، وشعرت بالدم الساخن يصعد في وجهه، وبطرف عينه تختلس النظر لترَ أن كان هناك من يراقب المشهد.

كان محرجاً بالتأكيد، وكنت أقدر شعوره لأني سبق ومررت به.

كان الجندي ـ **وبشكل مفاجىء** ـ مصراً على رفضه، وكان الإحراج بادياً عليه مثله مثل سيده ـ وإن كان مصدر إحراج كل منهما مختلف.

قال الجندي، وهو يتكلف ابتسامة لتغليف خجله، وهمسة صغيرة تكاد لا تسمع على شفتيه، **لا أستطيع.. لا أستطيع** .

تمادى الضابط في آماله وهو يكاد يجر الجندي جراً ـ حركة حاول أن يجعلها تبدو طبيعية وفي إطار رفع الكلفة، لكن من الواضح أنها كانت تدل على يأس شديد بدأ ينتابه.

كان الجندي، الحريص هو الآخر على إظهار مقاومته على أنها امتداد لرفع الكلفة بينه وبين ضابطه، حريص أيضاً، في مقاومته للضابط، أن لا تمس قدماه أرض الجامع.

وفهمت !

بدا لي واضحاً سبب تمنع الجندي عن الدخول أصلاً إلى المسجد، وبدا لي واضحاً أيضاً أن الضابط لم يكن قد فهم بعد.

قال الضابط، ويده لا تزال تحاول سحب الجندي للدخول، **تعال، لعلك لا تعرف الوضوء .. سأعلمك كيف.. تعال** .

ذكر الوضوء استفز الجندي على ما يبدو ارتفعت نبرته قليلاً وهو يقول : **الوضوء لن ينفع يا سيدي** .

بدا على وجه الضابط أنه لم يفهم بعد.. وإن كان يبدو أنه أشرف على الفهم.

ثم بنبرة أوضح وإن كانت أقل علواً، قال الجندي مكرراً : **الوضوء لن ينفع يا سيدي.. أنني وسخ.. وسخ يا سيدي.. علي أن أغتسل أولاً..**

جمدت يد الضابط على كتف الجندي، وسحبها ببطء كما لو كانت جذعاً خشبياً أجوف لشجرة ميتة.

أظن الضابط قال شيئاً مفككاً ومرتبكاً يوازي إحباطه وإحراجه وإلحاحه، شيئاً حاول أن يبدو فيه متفهماً لينسحب بهدوء.

استدار الضابط ودخل إلى المسجد بخطىً ثقيلة لم أجرؤ على النظر إلى وجهه، وكنت متأكداً من التعبير المرتسم عليه، ربما لأنه نفس التعبير المرتسم على وجهي، ربما كنا متشابهين جداً ـ **كوجه و انعكاسه في مرآة** ـ في تلك اللحظة.

سبقني الرجل بخطوات، لاحظت للمرّة الأولى أن ظهره محني قليلاً ـ ربما أكثر من المتوقع بالنسبة لعمره الذي لا أظنه يتجاوز الأربعين.

لاحظت أيضاً أن النسر الموجود على رتبته، على كتفيه مقصوص الجناح، مكبل، مقتول وأيضاً محنط.

من ورائي جاء صوت الجندي ينادي سيده، ربما كان يحاول أن يطيب خاطره، ربما ندم قليلاً لأنه عصى أمراً بدا له أنه ربما كان عسكرياً.

من ورائي جاء الصوت «**ربما في المرّة القادمة،.. يا سيدي**».

التفت سيده، في وجهه كان هناك الإحباط والخيبة والذل والشعور المرير بالمرارة من كل شيء .

أحسست أنه يريد أن يقول شيئاً، فتح فمه ليقوله، ثم تردد، وسكت، واستدار ليكمل سيره البطيء.

كنت أعرف ما أراد أن يقول، فقد قلته في نفسي أيضاً، وبان في وجهي كما بان في وجهه.

في نفسي، وفي نفسه، في وجهي، وفي وجهه.. كان هناك ذلك الرد على صوت الجندي الآتي من الوراء وهو يقول : ربما في المرّة القادمة، سيدي.. وكأن الرد ـ **عندي وعنده** ـ واضحاً : **ربما لن يكون هناك مرّة قادمة .**

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

كان ذلك المشهد مليئاً بالكثير من الرموز والدلالات، كما هي الكثير من مشاهد حياتنا لو أننا حاولنا التوقف فيها للنظر والتأمل والتفكير..

كان هناك ذلك الضابط الذي يشبه الكثيرين منا، مدفوعاً بدوافع بسيطة وواضحة لتلك الصلاة التي كانت الأوضاع و الأعراف العسكرية تمنعه من أدائها، وهاهو الآن، يجد نفسه مأموراً بأدائها علناً وجماعياً كان ممنوعاً أن يؤديه حتى سراً وانفراداً.

ذلك الضابط ذا المعدن الطيب، كان لايزال لديه أمل، كان عنده رجاء ـ **كما عند الكثيرين** ـ بأن هناك فرصة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

كان يتصور أنه ربما كانت هناك فرصة للنظام، وأن توبة اللحظة الأخيرة قد «**تنفع**».

الجندي كان أكثر وضوحاً، وواقعية، قال «**لن تنفع**».

قال، ببساطة ورمزية مذهلتين، إن الوضوء لن ينفع، لأنه كان قد وقع فيما لا يزيله الوضوء..

كان يحتاج للتطهر والاغتسال إذا أراد أن يصلي.

لن ينفع فقط أن يتجه للوضوء.

كذلك الأمر بالنسبة للنظام، لم يكن ينفعه أن يرفع بعض الشعارات هنا وهناك،

ويأمر جيشه وأمنه ومخابراته بالصلاة، وكفى الله المؤمنين القتال.

كان هناك ذلك التراكم المرير مما لايمكن لمحض وضوء أن يزيحه ويغسله، كان هناك الدرب الطويل في البعد عن الله، والإيغال في الكبائر والذنوب بل وحتى الكفر، مما لايمكن لمحض شعار مرفوع أن يلغيه.

لم يكن الأمر بالنسبة للنظام مجرد صلاة أو امتناع عنها، كان الاختلاف من الأصول، من جذور الجذور، ولم يكن منع الصلاة سوى مظهراً متأخراً من مظاهر الاختلاف ذلك ـ **ولذلك لن يكون الأمر بأدائها فجأة** ـ عند ساعة المحنة، سوى قناعاً مزيفاً ترتديه السلطة لإخفاء ما يمكن إخفاؤه، وإنكار ما يمكن إنكاره، والادعاء بما لايمكن تصديقه.

كان ذلك مثل حجاب إسلامي ترتديه مومس عريقة في الإنحراف ـ لن يكون في النهاية سوى قطعة من القماش.

كنت أعرف أنه لن ينفع، ربما كنا نتمسك ببعض الرجاء، ونهلك أنفسنا في الدعاء.. لكن في النهاية، **هناك أسباب موضوعية حتى في الاستجابة للدعاء، هناك سنن كونية تحكم هذا الأمر كما تحكم كوننا كله.**

«ولن ينفع»!

وكنت أعرف أن هذا الجندي الذي نطق بتلك الرموز، كان ـ **على الأقل** ـ أصدق من غيره.. كان هناك حتماً من الداخلين والواقفين في صف الصلاة من مثله، بل وأسوأ منه، وكانوا يحتاجون إلى ما هو أكثر من الوضوء وأكثر حتى من الغسل من الجنابة.

لكنهم نفذوا التعليمات.

وكنت أعرف تماماً، أن هناك من المصلين، حتى أولئك الذين لا علاقة لهم بالأوامر العسكرية، وحتى الذين يأتون وهم على وضوء، بعضهم ـ على الأقل ـ لم يكن طاهراً، دخلت الأدران والإثم تحت جلودهم، ولم يعد ينفع لا وضوء ولا اغتسال.

نعم. كنت أعرف، وأنا أدخل المسجد للصلاة، أنه لم يعد ينفع..

وأنه لن تكون هناك **«مرّة أخرى»**.



وفجأة اختفى الجميع.

كانت صلاة الظهر وانتبهت إلى أن الجميع قد اختفى، وفجأة.

أقصد تلك الوجوه الجديدة التي جاءت مع السياقات والأوامر العسكرية الجديدة.

قلت في نفسي، إنهم، كموظفين، أولاً وآخراً، ربما قد ارتبطوا باجتماع طارئ معين تصادف وقته مع صلاة الظهر..

فاتتني صلاة العصر في الجامع يومها.

عند صلاة المغرب، بدا أن الأمر لايمكن أن يكون اجتماعاً طارئاً، لابد أن شيئاً ما قد حدث وطرد تلك الوجوه، بصادقها وكاذبها، بمنافقها ومؤمنها ـ بأولئك الذين اغتسلوا وتوضؤوا وتوجهوا حقاً للحي القيوم ـ وأولئك الذين لن ينفعهم اغتسال ولا وضوء.

سألت المؤذن ببساطة عن السبب في اختفاء **«الجماعة»**، فأجاب بطريقة توحي أن

الأمر خطير إنه لن يتمكن من إفشاء السر هكذا بمجرد أن أسأله.

حسناً إذن، لن أسأله.

كنت أعرفه جيداً وأعرف طبعه هذا.

فهو مغرمٌ بتضخيم الأخبار وخصوصاً بإنشاء مقدمات مفخمة لها، من أجل لفت الانتباه وسرقة أسماع الحاضرين، إنما ليس معي.

أشحت بوجهي عنه وكأن الأمر لم يعد يعنيني، كنت أعرف أن هذه الحركة تقضي على مقاومته وتجعله يعطي كل ما لديه، بعكس أي مساومة أخرى، تجعله يزيد في التمنع وفي الشعور بالأهمية.

جاء خلفي «**لكني سأخبرك مع ذلك يا دكتور**». بالتأكيد ...

عندما روى لي ما حدث، لم أصدق حرفاً واحداً مما قال. ليس لأنه كذاب، ولكني كنت أعرف طبيعة المبالغة الموجودة أصلاً والتي تزيد حتماً في ظروف كهذه..

لكن الخبر تأكد من مصادر أخرى مطلعة، وكأن خبراً مفاجئاً تماماً..

فقد كان خادم المسجد يعمل في الحديقة قبل يوم واحد، عندما وجد جهازاً مرمياً في الساقية بين شجيرات الورد، كان جهازاً نظيفاً كما قال، وصفه بأنه يشبه البوصلة أو الساعة، ولم يكن معطلاً كما يتوقع المرء من جهاز مرمي في الساقية، لذلك فقد تصور أنه ربما سقط سهواً من أحد المصلين من العسكريين وتدحرج ليسقط في الساقية، انتظر أول صلاة ليأتي بالجهاز إلى واحد من العسكريين من أصحاب الرتب العالية، كان الحارس بسيطاً وأميناً، وربما لم يقصد أكثر من أداء الأمانة، أو على الأقل الظهور بهذه الصفة، لم يكن يعلم أنه ربما يفعل أفضل شيء في حياته كلها.

أمسك سيادة اللواء بالجهاز، في اللحظة الأولى دونما اهتمام، لحظات وبدأ لونه يتغير. يقول الحارس: إن هناك ثلاث ألوان على الأقل ظهرت على وجهه قبل أن يهب واقفاً وينادي على مساعديه.

خلال لحظات، يقول الحارس، كان الجميع قد اختفوا، تراكضوا نحو سياراتهم وقادوها مسرعين خارجين من المنطقة بأسرها.

ظل الحارس مذهولاً دونما فهم. يقول: لولا أنهم أخذوا الجهاز معهم، لتصور أنها قنبلة موقوتة.

كان الأمر أسوء من قنبلة موقوتة.

فقد تبين أنهم أخبروا إمام المسجد ـ للتحذير فقط، وربما للاحترام، وربما أيضاً للتهديد، وكلها احتمالات واردة ـ أن يفتح عينيه جيداً ليراقب من يتردد على الجامع؛ لأن الجهاز الذي وُجدَ في الحديقة، كان جهازَ إرسال مصغر لإعطاء ترددات إلى تلك الأقمار الصناعية القبيحة التي تزيد الليل ظلمة وعدوانية، تلك الترددات المنبعثة من ذلك الجهاز المرمي في الساقية كانت تعطي لتلك الأقمار، وبالتالي لتلك الطائرات، إحداثيات لمواقع يجب أن تدك .. وتقصف..

هذه المرّة كان الموقع المقترح عبر التردد هو جامع الحيّ.

وكان اختياراً موفقاً، ففيه يتجمع لأربع أو خمس مرّات في اليوم، العشرات من الضباط بل ومن كبارهم ـ ومن مسؤولي الأمن والحزب، كلهم متجمعون في مكان واحد ولمرّة واحدة ـ في فخ وسهل التمييز، ومفتوح للضرب حتى من البحر الأحمر!!!...

كان مكانا ضخماً، وبه منارة، كأنما لتدل الصواريخ والقذائف لكي تصيب الهدف دونما خطأ.

حتى الطيار قليل الخبرة والتدريب، كان سيصيب الهدف دون صعوبة كبيرة.

كان اختياراً موفقاً دون شك. لكن شاء الله واختار خادم المسجد أن يعمل في الحديقة في تلك الساعة.

نظرت إلى شجيرة الورد التي وَجِدَ الجهاز تحتها، كانت شجيرة قصيرة ولكن نشطة، وردها أحمر بلون الدم الذي كان من المفترض أن يسيل.

يقولون، لا ورد بلا شوك، لكن هذه المرّة يبدو الموضوع أعقد بكثير : الورد مختلط بالقذائف العنقودية، وبالصواريخ الموجهة، وبالموت القادم عبر البحار.

تأملت في المسجد، في ذلك السرف المفهوم ولكن غير المبرر، في تلك المنارة التي كان من المفروض أن تطل على قارات العالم أجمع، وتلك القبة الرائعة التي كان يفترض أن تجمعنا جميعاً تحتها .

تأملت في تلك النقوش والزخارف التي تمثل خلاصة فنية لحضارة استعصت على الموت لعشرات العقود، وتذكرت كيف أن اللون الذي طليت به لم يعجبني أول الأمر، ثم تعودت عليه وصرت أجده مناسباً تماماً.

وتأملت في الثريات الضخمة المعلقة في السقف، هناك بالذات واحدة منها كان يجلس تحتها دوماً مسؤول الأمن الذي كان يزعجنا بتقاريره ورقابته المسلَّطة على رقاب المصلين، وكنت أتمنى دوماً أن تسقط الثريا الضخمة على رأسه ـ **قضاءً وقدراً** ـ فتخلصنا منه ومن تقاريره.

وتأملت في المنبر، كان من المفترض أن يكون منارة أيضاً ـ **بطريقة أو بأخرى** ـ يطلُّ علينا ليهدينا سواء السبيل، يمنحنا الوعي والرؤية والبصيرة في بحر الظلمات وغيابات الجهل، يقول لنا «**لا**» عندما تجب ال «**لا**» ـ ويشير لنا: أنْ نعم! عندما لا تجوز الـ «**نعم**».

للأسف، لم يكن هناك سوى اللف والدوران، ولم يكن سوى المزيد من الظلمة، ومن دوار بحر الظلمات، لم يكن سوى التكرار والمزيد من التكرار، بل ومن الاستغفال والضحك على العقول، في بعض الأحيان.

أتأمل في ذلك كله، وفي المصلين أيضاً، كان من المفترض أن تختلط أشلاؤهم بالزخارف وبالطابوق بحديد السقف وبخشب المنبر وبزجاج الثريات المطحون.

كان من المفترض أن نموت هنا، وأن يموت معنا أولئك العسكريون المستهدفون، وأن تأتي الكاميرات ووسائل الإعلام بعدها؛ لتشهد مأساة القصف الدموي الذي يستهدف المنشئات المدنية ولا يستثني حتى دور العبادة.

وكان من المفترض بعدها، أن يقول أحدهم ـ من الناطقين باسم وزارة الدفاع الأمريكية، في تلك القاعدة المنصوبة على أرض عربية ـ: إنَّ الأمر لا يعدو أنْ يكون خطأً غير مقصود. سيقول بدم بارد: ـ إنه سيفتح تحقيق في الموضوع ..(**ولن تظهر نتيجته أبداً**..) كان من المفترض أن نكون هدفاً إستراتيجياً لخططهم وصواريخهم وتقنية قنابلهم الذكية، وكان النظام سيستخدمنا كورقة في كل الأحوال، لقد استخدم المسجد عندما كان قائماً كورقة لتجييش المشاعر وتعبئة العواطف، وعندما يقصف المسجد، فإن الورقة ستصبح أقوى إعلامياً.. و ستجيش العواطف أكثر .

أقول، كان من المفترض، لكن شاء الله أنَّ خادم المسجد سيجد شيئاً ما، في الساقية، بين شجيرات الورد، وسيفعل بعدها أفضل شيء فعله في حياته.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

في كل الأوقات، وخاصة الحروب، هناك أناس يكونون معروضين للبيع ـ وبتسعيرة محددة سلفاً، وغالباً ما يطلق عليهم الطابور الخامس.

لا أتصور حرباً ـ **في هذا العالم كله** ـ بلا طابور خامس.. ولا أتصور عداءً ـ **حتى لو لم يصل لدرجة النزاع المسلح** ـ بين دولتين، في هذا العالم، دون طابور خامس، بل إنني أستطيع أن أتصور عدم وجود الطوابير الأخرى ـ رغم أني لا أعرف ما هي تحديداً، دون أن أستطيع تصور عدم وجود الطابور الخامس.

نعم، هذا الطابور هو جزء من أساسيات كل صراع، وكل نزاع، بعض دوافع الانتماء له هو حتماً : المال. المال الذي يغري لدرجة المخاطرة بالحياة، ومن دوافع الانتماء له أيضاً، الرغبة في الانتقام، ودوافع الثأر المختلطة.

ومما يسهل الانتماء للطابور الخامس عدم وجود انتماء.

ومما يسهل أيضاً ـ **على هؤلاء الأفراد** ـ الانتماء لهذا الطابور، أن لا يكون هناك أثرٌ ماديٌّ مباشرٌ محسوسٌ للمعلومات أو الخدمات التي يقدمونها، مثلاً أن تصب تلك المعلومة هنا أو هناك في خضم بحر هائل من المعلومات والتفاصيل، بحيث أن الضرر المباشر للمعلومة التي قدمها فردٌ ما، قد لا يكون محسوساً ـ لهذا الفرد بالذات.

كل ذلك، يجعل مسألة الانتماء للطابور الخامس، مسألة مفهومة ضمن هذه الحدود الضيقة بين النزاع العسكري والطبيعة الشخصية.

لكن، عندما يكون عدد المنتمين لهذا الطابور كبيراً، بحيث إنهم يشكلون طبقةً كاملة **بشكل أو بآخر** .

وعندما يكون الثمن المدفوع لهؤلاء بخساً، بحيث إنه بالكاد يكفي أودَهم، فضلاً عن أن يكون ثمناً لحياة كل واحد منهم ما دامت احتمالية الانكشاف يعني الموت المباشر والوحشي، ناهيك عن أن يكون الثمن كافياً لبيع الوطن.

وعندما يكون الأثر المباشر للخدمة التي يقدمها هؤلاء، واضحاً وسريعاً وشديد الضرر، بحيث إنه يؤدي إلى قصف وتفجير مباني كاملة ـ **بمن فيها من بشر** ـ وبمن في ما حولها أيضاً، خلال ساعات، إن لم يكن أقل.. من عملية الأخبار هذه.

كل ذلك **مجتمعاً** يعني : أنَّ الأمرَ يخرج عن ذلك الطابور الخامس المحصور بين النوازع الشخصية الشريرة، والنزاعات العسكرية السياسية.

كان الأمر أكبر من مجرد طابور.

و كان ذلك الشيء المرمي في الساقية في حديقة الجامع، يعني الكثير.



لن أقول: إن أعدادهم كبيرة تحديداً.

(لكني أعرف **يقيناً** مما كان يقال ويدور: أن أعدادهم لم تكن صغيرة).

لكن الأخطر من عددهم الحقيقي، هو أعدادهم الكامنة، عددهم المحتمل، عددهم الذي يختبئ بين الناس، بين العادي من الناس.

عددهم المخيف هو عدد الذي يملك الاستعداد لأن يفعل ذلك ـ **دون أن تكون له الفرصة** ـ وربما دون أن يمتلك الجرأة، ولكنه في الوقت نفسه لن يمتلك الحصانة ـ **المناعة** ـ التي تجعله يرفض شيئاً كهذا.

هذا العدد كان كبيراً حقاً، وهو الذي يخيف حقاً، ويقلق حقاً.

المشكلة لم تكن في أن شخصاً هنا، أو هناك كانوا يتركون أجهزة للإرسال، **المشكلة في أن الثمن كان بخساً، والعدد كبيراً، والأثر مدمراً.**

المشكلة كانت، أن خلف هذا العدد الذي حصل على فرصة الخيانة، كان هناك عدد أكبر مستعد لذلك، **فقط لو كانت هناك فرصة.**

كان ذلك مقلقاً ومخيفاً، نلمسه في التعليقات العابرة، **نسمعها هنا أو هناك** ـ أو على الأقل نلمس عدم الاستهجان والاستنكار واضحاً في التعليقات.

وكان ذلك يمتلك دلالات كبيرة.



أذكر واحداً من هؤلاء كان موظفاً معي عندما كنت أعمل في إحدى النواحي في القرى والأرياف، كان موظفاً للتحليلات المختبرية بمؤهل علمي متوسط، نسيت اسمه لكن لم أنسَ ما قاله لي ذات يوم.

قال لي، وهو يقطر مرارة وحقداً، ولا أدري مالذي قاده إلى أن يقول ما قال، ولا أذكر أصلاً بماذا كنا نتحدث عندما انفتح ليخرج من داخله قيحاً شديد القبح والنتانة،

سقط القناع ـ **الذي لم يكن جميلاً أصلاً** ـ ليكشف عن وجه بشع مليء بالدمامل والبثور.

قال لي، أنه مستعد من أجل الخروج من العراق، أن يفعل أي شيء، وأن يذهب إلى أي مكان ـ حدد إسرائيل بالذات ـ حتى لو عمل هناك حمّالاً حقيراً.

صدمتني كلماته، كانت هذه هي أول مرّة أسمع كلاماً كهذا ـ **بعدها سمعته مراراً وتكراراً وبأساليب مختلفة ومتنوعة** ـ.

كانت بيني وبين إسرائيل حواجز وأسوار وحقول الغام عقائدية ونفسية، من الصعب إن لم يكن من الاستحالة تجاوزها، وكنت أعتقد أن الأمر سواء مع الجميع.

عندما حاولت أن أستدرجه إلى الحيثيات التي تقع خلف قبح كهذا، كأن القبح أشد، والقيحَ أكثر نتانة، كانت هناك رائحة زنزانة قذرة هواؤها السل وترابها الجذام، قضبانها صارت جزءاً من القفص الصدري لسجينها.

أذكر بالضبط أنه قال لي، أنه يريد أن يؤذي نفسه، أن ينتحر.. وتذكرت ما كنت أعرفه عن سلوك الأسرى والسجناء الذين يتعرضون للأذى من قبل سجانيهم وزملائهم على السواء، يضطرون في النهاية، وللتفريغ عن الكبت والقمع الذي يتعرضون له، لإيذاء أنفسهم بأنفسهم جسدياً أو نفسياً.

لكل فعل رد فعل، حتى على المستوى النفسي.

وكان هناك فعل القمع والكبت والإيذاء المتراكم عبر قضبان زنزانة القفص الصدري.

وكان هناك رد الفعل الناتج عن ذلك، والذي يريد أن يعبر عن نفسه فلا يجد مساحة متاحة، غير الشخص نفسه، يؤذي نفسه بنفسه.

هذا السلوك المعروف طبياً كظاهرة سلوكية عند الأسرى، تتجلى أحياناً في مظاهر إيذاء بسيطة تتدرج إلى حد الانتحار..، هو ما شاهدته في ذلك الأسير الطليق ـ **ابن بلدي ـ الذي يريد أن يذهب ليعمل حمالاً حقيراً في إسرائيل.**

أفكر الأن بأثر رجعي، فأتذكر أنَّ عمر الحصار كان ـ **وقتها** ـ خمس سنوات وأتذكر أيضاً، أن هذا الشاب ـ **الذي أظنه كان في عمري ـ كان ميسور الحال** ـ نسبياً، كان يمتلك إلى جانب وظيفته، معملاً صغيراً للعلف في جنوب بغداد، بالإضافة إلى عمله الجانبي في مختبر للتحليلات المرضية.

لم يكن الوضع الاقتصادي فقط هو السبب.

كأن الأمر أعقدَ بكثير.



نستطيع أن نعلق ونطلق الأحكام الأخلاقية، والدينية، ونتفلسف حول ذلك بقدر ما نريد.

لكني أعتقد أني سمعت ما قال ذلك الموظف، فيما بعد، وعبر السنوات المتعاقبة، بأشكال مختلفة.

مرّة صدر القيح والقبح نفسه من تلك النخب ـ **أو التي تعد نفسها نخباً مثقفة** ـ وكلام فضفاض ومرواغ عن العولمة والشرق أوسطية والتطبيع والسوق المشتركة.

ومرّة صدر القيح والقبح من ناس بسطاء سلبَ الفقر والجوع وعيهم، إنهم لايريدون أكثر من الحياة الكريمة ـ **مهما كان الممر إليها يبدو عدوانياً** ـ .

ومرّة صدر ـ **مغلفاً ومبطناً** ـ عن سلبية لا تقرر شيئاً ولا ترى شيئاً ولا تفعل شيئاً، بل تنتظر ما تأتي به الرياح.

ومرّة صدر قبيحاً ووقَحاً وصريحاً، واستلم عنه أجراً بالدولار، من ذلك الشخص الذي رمى بذلك الشيء في الساقية.

ولم يحصل ذلك إلا بالتدريج بعد اثنتي عشر سنة من الحصار..

و بعدد لا يحصى من عهود الاستبداد.



من برجنا العالي نصدر فرماناً بالكفر وبعدم الانتماء وبسوء الأخلاق بحق هؤلاء.

لكن الواقع ـ **خلاف البرج العالي** ـ سيجبرنا على أن نعترف، أنه حتى الأحكام الأخلاقية لها أسباب موضوعية، لها بيئة تنمو فيها وتزدهر، صحيح أن حب الوطن من الإيمان ـ وأن «**بلادي وإن جارت علي عزيزة**» ـ إلى آخر الشعارات التي أؤمن بها بل وأتشبث بها شخصياً ـ لكن أليس صحيحاً، أن البلاد التي **لا تجور** تكون أعز من البلاد **التي تجور..**

وأليس صحيحاً، أن الإيمان نفسه، عند البعض، قد اهتز ـ إن لم يكن قد اختفى ـ بحيث إن إدراج حب الوطن تحت راية الإيمان لن يكون ذا قيمة كبيرة .

وأليس صحيحاً، أن المجتمع الذي يكثر فيه الفساد والجريمة والانحراف، بشكل أكثر من مجرد نسبة شاذة، هو مسؤول أيضاً بطريقة أو بأخرى عن هذا الفساد والانحراف .

أليس صحيحاً، أن مجتمعاً، تتحول نسبة من أبنائه إلى طابور خامس كامن، أو طبقة خامسة كامنة، مستعدة ـ **ولو بالحياد السلبي** ـ أن تشارك في جريمة قتل هي أشبه بالانتحار، هو مجتمع يحتاج إلى أن يراجع نفسه، ويحاسب نفسه قبل أن يحاسب أبناءه الجانحين.

وأليس صحيحاً، أن المجتمع أحياناً، هو الذي يدفع إلى الجنوح دفعاً، ويعبد الدرب إلى الانحراف، وإلى الانسلاخ عن القيم التي يفترض أنها تؤسس له.

وأليس صحيحاً، أن المجتمع، عندما يتحول إلى زنزانة، جدرانها الفقر والحاجة، وسقفها الكبت والقمع، وأرضيتها القهر والتمييز، هو مجتمع يدفع بأبنائه دفعاً إلى عدم الانتماء.

وأليسَ صحيحاً، أن قانون إسقاط الجنسية، الذي تفرضه بعض القوانين في بعض الدول ـ في بعض الظروف ـ يُمارس سلوكياً ونفسياً وبوعي أو بلا وعي من قبل بعض الناس دون أن تطالهم القوانين أو تكشفهم الأجهزة الأمنية، بعض الناس يسقطون الجنسية بأنفسهم ـ **دون محاكمة أو إصدار حكم** ـ يتقدمون إلى دواخلهم، ويقطعون انتماءهم عن بلدهم ووطنهم ومجتمعهم ـ **ربما دونما وعي حقيقي** ـ لكنهم غالباً ما يكونون مدفوعين دفعاً إلى ذلك.

دونما خيار حقيقي.



دعونا نعترف، أن هناك جيلاً أو أكثر، وجد نفسه في زاوية ضيقة جداً، محاصراً تماماً ومدفوعاً دفعاً لكي لا ينتمي، سواء أكان عدم الانتماء هذا ممثلاً في مقولة ثقافية، أم في عمالة مباشرة، أم في محض سلبية محايدة.

هناك جيل أو أكثر ـ **عبر ثلاثة عقود** ـ وربما يزيد، وجد نفسه الضحية الدائمة

والجاهزة دوماً للذبح والتقديم على قربان الشعارات الجاهزة والمثل الرنانة.

كانت هناك تلك المغامرات العسكرية الحمقاء ـ **تحت شعارات الدفاع عن الوطن وحدوده** ـ التي اتضح أنها ليست ثابتة، فمع كل مغامرة كانت الحدود تتمدد في بدايتها، وتتقلص في نهاية الأمر.

وكانت تلك المغامرات الحمقاء، تتحول إلى حروب تجر الويلات والنكبات، بل وتحصد أرواح الملايين ـ من الذين يدفعون ضريبة الدم من أرواحهم، ويدفع أولادهم وأمهاتهم وإخوانهم ضريبة اليتم والثكل والافتقاد بقية أعمارهم.

وكان هناك الظلم والاضطهاد والقمع : كلمة واحدة فقط كانت كفيلة أحياناً، **لو جاءت أمام الشخص غير المناسب في الوقت غير المناسب ـ بالرمي وراء الشمس ـ** والعودة منها بإعدام .. حتى بلا محاكمة ولا حكم.

وكان هناك الفقر والحاجة والعوز، خصوصاً مع ذاك الحصار الذي يبدو اليوم أنه المقدمة الطبيعية لما نحن فيه، وكان أصعب ما في الفقر، أسوء ما في الحصار، أنه لم يمر على الجميع بالتساوي، على العكس، لقد سحق البعض تماماً وكسر كواهلهم، بدلاً من أن أقول أثقلها، بينما رفع البعض، وأغنى البعض، وأثرى البعض ثراء فاحشاً

لم يكن هناك عدلٌ في الظلم الذي أتى من الخارج، بل تعرضَ لتقنين في الداخل، وتوزع بشكل غير متساوي، في غاية الإجحاف، والبعد عن الإنصاف.

وكانت هناك الرشوة، والمحسوبية، والواسطة، و«ابن فلان» و«أخو علان»، .. وكلها قضت تماماً على معظم المنجزات التي كانت قد تحققت فعلاً، في عقود سابقة.

وكان هناك الإعلام الموجه المضاد، والعالم خارج الحدود الذي يبدو أنه متخوم بالفرص والامكانات..

وكان هناك الوعي المستلب. والوعي المغيب. والوعي المحنط.

وكل ذلك، وأكثر، كان السماد الأفضل، والتربة الأنسب، للشيء الأسوء .

لجيل بلا انتماء. لجيل يقول من يقول فيه أنه مستعد أن يذهب ليعمل كحمال حقير في إسرائيل بمختلف اللهجات.

لجيل يستعد من يستعد فيه أن يبيع نفسه بثمن بخس ـ **دولارات معدودة** ـ من أجل أن يرمي بذلك الشيء .. في الساقية.

لجيل مستعد، وهذا هو الأسوأ والأكثر انتشاراً، أن يكون حيادياً حتى تجاه الطلقة المصوبة إلى جبينه.

وكل ذلك، كأن مقدمة لما بدأنا نراه، كل ذلك كان إشارة إلى أن أسوار بغداد الافتراضية كما يسمونها ، تحتوي على ثغرات افتراضية.

وتلك الثغرات، في ذلك السور، حفرتها أولاً تلك الظروف المعقدة.

لن يبرر ذلك الخيانة. أبداً . لكنه سيفسرها.



الفصل الثالث

التاريخ في عنق زجاجة

عبر توالي أيام الحرب، كانت خالاتي يجدن فرصة للتسلل إلى بيتهن، شيء للاطمئنان والتفقد، وشيء لنقل المزيد من الأغراض، كن يكدسنها في تلك الحقائب المعدنية الضخمة، والتي غالباً ما تذكر بالمهاجرين في دول البلقان، كما كنا نراهم على الشاشات.

ولم تكن تلك الحقائب، التي كانت تأتي تباعاً، تحتوي على أي شيء يستفدن منه عملياً في إقامتهن عندي، لكنها كانت ملآنة بما يذهبن لتفقده في البيت.

صحيح أن بعض الأشياء كانت قيمة مادية، **لكن عندهن** قيمتها المعنوية كانت لا تقل ـ إن لم تكن تزيد عن القيمة المادية ـ فحقيبة الفضيات الثقيلة جداً، كانت قيمة ماديةً وقيمة معنوياً، لأنهن ورثنها عن والدتهن.

في حقيبة أخرى، معدنية أيضاً وتشبه أيضاً تلك التي نراها في نشرات الأخبار عند حدوث أزمات في البلقان، لكنها كانت أقل ثقلاً.

في تلك الحقيبة، كانت خالتي قد وضعت كل ألبومات الصور التي جمعتها عبر أربعة أو خمسة عقود من السنين التي اعتبرت أنها تستحق أن توثَّق وتسجل، وتحفظ في تلك الصور المرصوصة في تلك الألبومات في تلك الحقيبة المعدنية.



من بين كل تلك الألبومات ـ كان هناك ألبومٌ ضخمٌ واحد متفرد وغريب، فاجأت خالتي وهي تتصفحه أكثر من مرّة، لم تكن تبكي، لكنني أعرفها جيداً، **في الداخل كانت تنتحب ..**

كان ألبوماً غريباً لأن كل صوره ـ **التي تربو على المئتين** ـ كانت لا تحتوي على صورة لأي شخص ـ قريب أو بعيد أو من أي درجة، كانت صوراً خالية، بالأبيض والأسود، التقطتها خالتي قبل حوالي نصف قرن، لبيتها **وبيت والدها** للبيت الذي ولدت فيه.

لقد أخذت صوراً للمكان، للزوايا، للأركان، للممرات.

لم تنادِ أحداً ليصطف ويأخذ مكاناً في الصورة.

إنما كانت الصور ـ **كلها** ـ للمكان.



يخيل إليَّ أن هناك حلقة مفقودة في الحديث.

لقد كان بيت جدي الذي أعرفه، والذي فتحت عيني وتفتّح وعيي عليه، هو ذات البيت على شاطئ النهر والذي تسكن خالاتي فيه، ويقمن برحلات مكوكية لتفقده بين يوم وآخر.

لكن ذلك لم يكن بيتهن الأصلي، لم يكن البيت الذي ولدن فيه، ونشأنَ فيه، وتكونت ذكرياتهن وتواريخهن فيه.

لقد كان بيتاً آخر، أضعنه جميعاً.



لا أذكره أبداً، كان قد ضاع تقريباً عندما ولدت .. لا أذكر سوى شرفة بعيدة متهالكة توشك على السقوط من علٍ، مثل نجمة تنتحر بينما هي تضيء، قالت لي والدتي مرّةً: إنها كانت غرفتها.

كان ذلك هو بيت العائلة الأصلي، البيت الذي توارثه جدي عن جده، في تلك المنطقة في قلب بغداد القديمة: **الحيدرخانة**.

أتأمل في الألبوم وصوره المئتين؛ صورة للمدخل، صورة للفناء الداخلي، صورة للشناشيل القديمة، صورة للباحة الخلفية.

فجأة تكف الصور عن أن تكون خالية، يأتي الصوت أولاً من بعيد، ثم تأتي الصور، مغبشة أولاً، ثم تتوضح ملامحها وخطوطها بالنسيج، ويزيد الصوت، يصير ضجيجاً.

تكف الصور عن أن تكون بالأبيض والأسود، تهب عليها الألوان شيئاً فشيئاً، باهتة أولاً، شاحبة شحوب الموتى، ثم تدب الحياة فيها، تضج وتشع بالحيوية.

أتأمل فيها من جديد، بعض الوجوه مألوفة جداً، سبق أن شاهدتها في صور أخرى

بالأبيض والأسود، لكن أراها مألوفة أكثر ـ **ليس اللون فقط هو المختلف** ـ لكن حيويتها جعلتني أعيد النظر فيها ، فجأة أكتشف كم يشبه ابني واحداً منهم بالذات.

فجأة أصوات القصف تعلو، تهز الأرض انفجارات لا تبدو بعيدة.

في مكان ما ، لا يبدو بعيداً ، هناك منازل صارت قاعاً صفصفاً ـ **مثل بيت جدي الذي ضاع** ـ وأناس دفنوا تحت الأنقاض، عما قليل ستلم أشلاؤهم وتودع في صناديق ما.

أشعر أكثر بتواصل مع الصور في الألبوم، إنها تقول لي : إن **الأمر لا ينتهي بسهولة، وإن البيوت التي تنهار وتسقط ـ لسبب أو لآخر ـ، وإن الناس فيها يموتون لسبب أو لآخر.. لكن الأمر لا ينتهي ابداً** ..

ـ **تحت القصف** ـ والبيت يهتز، وخالتي تعيد وضع ألبوماتها ، أشعر بتواصل أكثر مع الصور، ومع البيت الذي كان، ومع البشر الذين لم يظهروا في الصور.

أشعر بالبيت ينهض من قاعه، يعيد تركيب قواعده، وتنتصب أركانه ويعيد بناء نوافذه وجدرانه.

ـ **بمواجهة القصف** ـ أشعر بالبيت يكلمني، وأشعر بحاجة إلى أن أكلمه، وأفهم منه، **لماذا ضاع؟ ـ وكيف ضاع ـ وهل هناك جدوى حقاً في المقاومة، هل هناك جدوى في التساؤل.. وفي الاستجواب..؟**



الحرب، والقصف الذي يمطر علينا من السماء، وذلك السقوط الذي يتربص بنا على الأبواب، تجعلنا نعيد النظر حتى في أكثر الأمور رتابة وروتينية وتقليدية.

طيلة حياتي تعاملت مع سلوك خالاتي في التمسك ببيتهن على ما هو عليه، كسلوك طبيعي لنسوة لايملكن سوى الماضي. والماضي فقط..، تعاملت مع معاملتهن هذه على ظاهرها ، محض حنين مبالغ به للماضي يرتدي أحياناً ثوب الوفاء، حتى لو كان طرازه قد ولى ومضى.

لكن الآن، ربما لأنها الحرب، وربما لأن نارها تجبر على النضوج، وربما لأن لهيب النيران أسقط الأقنعة عن السلوك، أفكر وأنا أرى تفقدهن شبه اليومي للبيت ولهفتهن عليه، وتكبدهن عناء المشقة للذهاب والعبور عبر الجسر ريحة وذهاباً رغم مخاطر القصف

وأنا أرى خالتي تتصفح ألبوم الذكريات، وتتأمل في صور الماضي وأعمدته وأركانه، أرى كل شيء بشكل مختلف ومغاير عن ذلك التفسير السطحي الذي تعودته طيلة عمري.

أرى الآن، أنهن شبه مهووسات بالبيت ـ **متمسكات به، متشبثات به بوجه الريح والعاصفة** ـ لأنهن سبق لهن أن فقدن بيتاً، نعم، إن مرورهن بتجربة سابقة، هي تجربة الفقدان المر للبيت الذي نشأن فيه، لقد مررن بالحسرة والمرارة والندم الذي سكنهن وأعادَ تكوينهن بشكل جعلهن يفضلن التعرض لأي شيء ...**أي شيء، إلا أن يكررن تجربة الفقدان..**

الآن أفهم، هناك شيء من البيت القديم ـ **الذي ضاع** ـ في البيت الآخر المهدد بالضياع.

هناك شيء من التجربة، ومن الخوف من تكرارها، داخل السقف الموشك على الانهيار، والحائط الآيل للسقوط ـ ولكن المليء بالذكريات ـ **في البيت الذي يتمسكن به** ـ رغم كل شيء.

نعم، بالضبط مثلما هناك شيء من الأندلس، في فلسطين، وشيء من غرناطة في القدس، **هناك شيء من بيت ضاع، في بيت يوشك على الضياع.**

وهناك أيضاً ـ **يا حسرتي** ـ شيء من الأندلس، وفلسطين.. في العراق.

وشيء من غرناطة، والقدس، .. في هذه المدينة التي تقصف وتحرق وتوشك أن تسقط في الأسر.

هناك شيء من كل شيء في كل شيء الآن، في التداخل والتزاحم والاضطراب، في القصف والحرائق والصواريخ والقذائف، تختلط الأمور ولا يعود هناك حد فاصل وواضح بين شيء وآخر.. أبداً.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

في عنق الزجاجة ـ بالضبط ـ نقف جميعاً حيث تختلط الأمور كلها، في عنق الزجاجة التاريخية هذه، تحت القصف، والحقائق تغدو وتروح مهرولة، هناك غرناطة والقدس في بغداد، هناك البيت الذي ضاع والبيت الذي لم يضع بعد، وهناك البيت الذي انهار بالقصف، والآخر الذي انهار لأنه منخور، وهناك أجدادي وأولادي

وأولادهم يتراكضون أمامي متزاحمين في عنق الزجاجة.

وهناك الشعارات، تبدو مهترئة وزائفة، وهناك القيم، بعضها على الأرض يدوسها المتزاحمون، وبعضها صامد في القلوب والعقول.

في عنق الزجاجة، أقف، الغزاة على الأبواب ـ خمسون أو ستون كيلو متراً لا أكثر ـ والأسوار الافتراضية مليئة بثغرات ليست افتراضية، في النفوس... في العقول.

في عنق الزجاجة، أقف؛ لأرى الأمور بشكل مختلف، ولأرى نفسي بشكل مختلف.. لأرى السقوط كامناً قبل أن يحدث، ولأرى خطوط الطول والعرض تذوب وتمتزج، ولأرى ما هو شخصي وحميم يسكن ما هو عام وشامل، القدس وغرناطة في ذلك البيت القديم، وبغداد والمدن الأخرى في البيت الآخر الذي لم يضع بعد.

في عنق الزجاجة، والوقت يكاد يدركني، والقصف يكاد يقتلني، أحدق في الهاوية

ـ **قبل السقوط** ـ وأراها تحدق بي..

وأحدق في المستقبل، فأرى التاريخ يحدق بي، ويشير لي ويحدثني، ويشتد القصف!..



قيل لي عندما كنت طفلاً : إنه كان أكبر بيت في بغداد.

وعندما كنت طفلاً، صدقت بقليل من الفخر البريء ..

عندما كبرت قليلاً، ومررت بما يمر به الجميع من التمرد، استبعدت هذه الحقيقة تماماً.

اليوم، أعتقد أني أستطيع أن أوازنَ بين ما قيل لي، وما كان في الواقع، فأتصور أنه كان أكبر بيت في منطقته ـ **الحيدرخانة** ـ وأن النظرة القديمة عن بغداد آنذاك كانت لاتتجاوز تلك المنطقة في قلب بغداد إلا إلى بعض المناطق المجاورة، حتى الأعظمية، أو الكاظمية، والتي تُعدُّ كل واحدة منهما جزءاً من قلب بغداد اليوم، كانت آنذاك، مدناً شبه منفصلة عن بغداد..

هكذا أفهم اليوم مسألة «**أكبر بيت في بغداد**». وأقر، بشكل علمي تماماً، أن البيت كان كبيراً حقاً بالنسبة لبغداد الأزقة الضيقة و(المحاليل) الشعبية والبيوت الملتصقة

ببعضها البعض، وخاصة بالنسبة لعدد سكانه الذي لم يكن كبيراً في أي وقت من الأوقات..

أقبل المسألة بهذا التحفظ.

ولكن عندي تحفظ آخر، سيثير حفيظة خالاتي أكثر.



تحفُّظي الآخر يتجه نحو مفهوم «**الأكبر**» بالذات.

دوماً عندنا أن الأكبر ـ الأكبر مساحة، أو الأضخم حجماً ـ هو الأفضل.

دوماً لدينا هذا الاتجاه نحو الفخر كلما كان البيت أكبر حجماً، أو أكبر مساحةً، أو بعدد غرف أكثر، وشُرفات أكثر.

دوماً لدينا هذه النزعة المادية، في تقييم الأشياء، عدد الأمتار هنا، وعدد الغرف هناك، عدد الطوابق هنا، وعدد الأعمدة هنا ـ عدد الأقواس هناك.

دوماً نعتبر أن الأكبر هو الأفضل بالضرورة، وهو الأقوى بالضرورة، وهو الأكثر قدرة على المقاومة، بالضرورة.

كل ذلك ليس صحيحاً بالضرورة.

فأكبر «**بيت في بغداد**» ضاع تماماً وصار قاعاً صفصفاً، وربما كان هناك على بعد خطوات منه، بيت صغير، في ذلك الزقاق العتيق، استطاع أن يصمد، وأن يتماسك، وأن يبقى شاخصاً حتى الآن.

بالضبط كما لم ينفع الديناصورَ كبرُ حجمه، في معركة الصراع على البقاء فسقط هو ونجت السلحفاة !



أكبر بيت إذن ؟

إلى حد كبير ـ **ومع الأخذ بعين الاعتبار التحفظات السابقة** ـ ربما.

ففي صورة ملتقطة من الجو، لبغداد في عشرينات القرن الماضي، تبدو فيها المدينة

بعيدة مثل سراب مستحيل في خيال دليل تائه، يعرف جيداً أنه لا يرى سوى سراب لن يطفئ ظمأه.

لكن أمي وجدت أن السراب يمكن أن يتحول إلى حقيقة.

لا أدري بالضبط كيف عثرت عليها، تلك الصورة، لكنها عثرت عليها، وبما أنها مسكونة بذات الهاجس الذي يسكن خالاتي، فقد بحثت عن بيت أبيها في الصورة، ولم يكن من الصعب العثور عليه حتى في صورة التقطت من الجو، فقد كان غير بعيد عنه جامع الحيدرخانة الشهير ومأذنته المميزة، وغير بعيد عنه أيضاً جسر يربط جانبي بغداد، الكرخ والرصافة..

قامت والدتي بتكبير الصورة، و وضعتها في إطار لائق، استقر مع إطارين آخرين مماثلين تماماً لبغداد في نفس الحقبة، وتحتل الصور الثلاث ركناً قرب الباب، **كأنك لا تستطيع أن تخرج أو تدخل إلا إذا مررت بتلك الحقبة.**

ربما وضعت أمي تلك الصورة في ذلك المكان، لأغراض تزيينية، ديكورية بحتة..

لكن، ربما ـ **أيضاً** ـ كان ذلك هو الواقع . بصورة رمزية.

لن نمر بتلك الحقبة ـ **دخولاً أو خروجاً** ـ إذا لم نعد النظر في تلك الحقبة، أو إذا لم نعد تقييم تلك الحقبة.

على الحائط ـ **بين الصورة، والإطار** ـ كان هناك ذاك السراب الذي داعب مخيلة دليل تاهَ في الصحراء ذات يوم، وربما لم يعثر على دربه أبداً، صورة بغداد في العشرينات، نهاية حقبة وبداية لحقبة جديدة، سقوط الحكم العثماني وبداية الاحتلال البريطاني، سقوط دور الولاية التابعة للخلافة، ونشأة الدولة الحديثة.

من عنق الزجاجة، تحت القصف، أنظر إلى الصورة المحصورة بين الإطار والجدار : تُراه كان سراباً بعد كل شيء ؟ أم كان حقيقة، دفنتها رمال الرياح والعواصف ؟ ترى كل ذاك كان ـ **وهماً صدقناه** ـ محض جزء من خديعة وقعنا في حبائلها؟ أم أنه كان حقيقة لم نعطها حقها وخذلناها ؟

في عنق الزجاجة، بين الجدار والإطار، بغداد العشرينات تواجه مصيراً تجهل كم سيكون مظلماً.

وفي عنق الزجاجة، خارج النافذة، بغداد اليوم، التي تقصف وتحرق وتقذف

بالصواريخ والقنابل العنقودية، تواجه مصيراً لا يبدو أن أحداً يعرف كم سيكون مظلماً.

في عنق الزجاجة، يبدو لي أن قرناً كاملاً تقريباً قد استدار دون تغيير كبير في جوهر الحقائق.

وفي عنق الزجاجة، وبغداد تقصف، أتأمل في بغداد الصورة المحصورة بين الإطار والجدار، مجرد مدينة صغيرة وادعة نائمة في حضن دجلة، أركز أكثر فيها، أحاول تخيل ناسها والتأمل في أحوالهم.

ربما كانوا يتصورون ـ **مثل البعض الآن** ـ أنهم مقبلون على عصر جديد وحياة جديدة أفضل من سابقتها.

سيستدير القرن عليهم قبل أن يكتشف أولادهم وأحفادهم أنهم كانوا مخطئين، وأنهم ربما لا يزالون مخطئين.

وفي عنق الزجاجة، أفكر بأولئك الناس غير المرئيين في الصورة المحصورة بين الإطار والجدار ـ أولئك البسطاء المنسيين مجهولي العنوان والهوية، الذين كانوا يمشون في الأسواق ويأكلون الطعام ويبتاعون ويشترون ويجلسون في المقاهي عندما حلّقت تلك الطائرة عالياً في سمائهم والتقطت الصورة، أولئك البسطاء الذين رفعوا أبصَارهم إلى السماء، كانوا يجهلون تماماً ما يحيق بهم..

لم يكونوا يعلمون **أن أبناءهم وأحفادهم** سيكونون شعباً سيترشح **ليكون أتعس شعب في العالم..**

في عنق الزجاجة الآن، يعرف أحفادهم شيئاً كهذا..



من بعيد، يبدو «**أكبر بيت في بغداد**» صغيراً جداً.

بغداد كلها تبدو صغيرة جداً من بعيد، كما لو كانت مدينة غير حقيقية، مجرد ديكور مصغر لمنظر جوي لمدينة افتراضية، تبدو، حقاً، مثل بيوت دمى خشبية.

أتأمل في الصورة ـ **بين الإطار والجدار** ـ فأدهش من أنها رغم التقاطها بالأبيض والأسود.. إلا أنها خالية تماماً من هذين اللونين بالذات.

كان الرمادي ـ **وتدرجاته المتنوعة** ـ هو اللون السائد على تلك الصورة، كما لو كانت

الصورة قد التقطت صباح يوم سبقته عاصفة غبار و (طوز)[1] ليست غريبة بتاتاً على بغداد..

الرمادي وتدرجاته، **هو لون الصورة** ، كما لو كانت العدسة **التي تصور بدائية بمقاييسنا اليوم،** قد استطاعت أن تخترق حجب الغيب لتقرأ فيه ما سيدور. لن يكون أبيض مطلقاً أو أسود مطلقاً، بل الرمادي الكئيب هو الذي سيطغى على كل شيء.

سيكون الأبيض رمادياً ـ مادام ظل عاجزاً على محاربة الأسود، وسيكون الأسود رمادياً، مادام كان مساقاً لأن يكون أسود دون رغبة حقيقية في السواد.

وسيكون الأحمر القاني الذي سيسيل رمادياً أيضاً، لأنه سيهرق دونما قضية.. دونما هدف.. سيسيل مجبراً أيضاً..

سيكون الرمادي هو لون الصبر، ولون الجدار الذي كتبت عليه كلمة التوكل، ولون العيون المتعبة التي هرمت قبل أوانها، ولون الدمعة الصامتة التي تهبط من الأهداب الرمادية.

ستكون العدسة بمثابة كرة بلورية استطاعت أن تصدق ولو مرّة واحدة، **وسيكون الرمادي هو الأفق ـ وهو الإطار ـ وهو الخلفية التي سترسم فيها الأحداث الرمادية.**

أتأمل في ذلك الرمادي الغامض، وأتساءل مع نفسي.. هل هو الرماد الذي يخلف الحريق..؟

أم الرماد الذي سينشق عنه طائر الفينيق ؟



من العجيب جداً، وربما ليس من العجيب بعد كل شيء، أن الصور التي نراها على الشاشات لبغداد ـ **الملتقطة حتى من الأقمار الصناعية** ـ يسود فيها اللون الرمادي أيضاً..

رغم تقدم التقنيات ـ **عبر قرن تقافزت فيه التكنولوجيا** ـ لايزال اللون الرمادي هو الذي يطغى على الصور التي يلتقطونها لنا، عندما يحددون هدفاً لقصفه، وعندما يقصفونه، وعندما يتفاخرون بدقتهم في القصف ـ **دون أن نتأكد من ذلك** ـ فإنهم يقدمون لوناً رمادياً آسناً، **هو في حقيقته الواقع الذين يريدون فرضه وقسره..**

---

(١) الطوز: الغبار باللهجة البغدادية، و الذي كثيراً ما يهب من أطراف الصحراء في روتين يتعب ربات البيوت.

قد يقدمون سبباً فنياً أو تفسيراً علمياً، لن أفهم ما يقولون، إنهم لا يقولون إلا تفاصيل ثانوية، لكن جوهر الأمر هو ذلك الرمادي الذي يريدون فرضه، مرّة عبر لون النار، ومرّة عبر لون الدم، ومرّة عبر لون الظلم.

وتتمازج الألوان لتنتج ذلك الرمادي الذي يفرضونه على الصورة..

إنهم يريدون الرماد الذي يخلف الحريق، **الرماد الذي لاشيء بعده سوى العدم**، الرماد الذي هو الستارة تسدل لتعلن النهاية، الرماد الذي هو نقطة نهاية السطر..

هذا هو اللون المهيمن في تلك الصور التي يبثونها ويروجون لها، عبر قرن كامل منذ تلك الصورة الملتقطة من الكاميرا البدائية من تلك الطائرة التي حلقت في سماء بغداد مطلع عشرينيات القرن الماضي، إلى الصور التي يلتقطونها من الأقمار الصناعية في العقد الأول من القرن الحالي.

من رمادي باهت إلى رمادي آسن، استدار القرن ولم يتغير الواقع.. لكن هذا اللون لبس حتمية نهائية، والصورة المحصورة بين الجدار والإطار ليست لوحاً محفوظاً لا يمسه إلا المطهرون ..

فالرماد ـ بعد كل شيء ـ قد لا يكون نقطة في نهاية السطر، ومنه قد ينبعث، على غفلة من الخطط المرصودة، ناراً هائلة، ناراً قد تحرق ولكن أيضاً قد تضيء..

ومنه أيضاً، قد ينبعث ذلك الطائر، طائر الفينيق..



لاحظت أيضاً، وأنا لا أزال في عنق الزجاجة، تشابهاً آخراً بين تلك الصورة المعلقة عندنا على الجدار، وبين تلك الصور التي يبثونها في مؤتمراتهم الصحفية المباشرة عبر القنوات الفضائية.

لاحظت أن هذه الصور تظهر المدينة، كما لو كانت فارغة من الناس، أفهم أن ذلك

ـ **للوهلة الأولى** ـ يبدو طبيعياً، فالصور ملتقطة من علو شاهق لكن، مع ذلك، يبدو الأمر أكبر من مجرد علو شاهق، المدن تبدو خالية، كما لو كانت قد أخليت من سكانها، تبدو، كما لو أنهم قد أجبروا على الخروج منها قسراً، أو كما لو أن فرماناً يمنع التجول قد صدر من الباب العالي جداً.

كما لو كانت بومبي، المدينة التي أهلكها البركان، حنطها على الوضع الذي ماتت فيه آلاف السنين.

من بعيد، تبدو المدينة بلا سكان، كما لو أنهم قد قضوا تماماً بالطاعون أو بالجدري أو بقنبلة هيدروجينية، **تقضي على الزرع والنسل والضرع** ولا تمس الحجر..

من بعيد وعبر أكثر من قرن ، تبدو بغداد بلا ناس..، بلا بشر..، مجرد ديكور رمادي لمدينة هجرها سكانها..

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

وربما كانت هذه هي مشكلتهم معنا باختصار شديد..

ربما كانت المشكلة ـ **بعد كل شيء** ـ أنهم ينظرون إلينا من علو شاهق، بحيث يبدو «**أكبر مسجد في بغداد**» صغيراً جداً، يبدو «**أكبر بيت في بغداد**» كما لو أنه غير موجود، وتبدو أعلى مئذنة، وأضخم منارة، وأكثر القبب مهابة، كما لو كانت ديكور لعبة لمدينة دمى..

ربما كانت المشكلة أنهم لا يرون ـ **في تلك الصور التي يلتقطون** ـ أيَّ بشر، أي ناس يمشون في الشوارع والأسواق، وربما جعلهم ذلك يتصورون أن تلك المدن التي يقصفون ويحرقون ويدمرون خالية حقاً من السكان..

ربما كانت المشكلة، أن تلك الصور لا توضح لهم الصورة على حقيقتها، فلا نكون

ـ **في النهاية** ـ أكثر من طرق إمدادات، أو معبر لخطوط التجارة، أو أرض بكر لثروات هائلة..

نعم، من بعيد، من ذلك العلو الشاهق الذي يلتقطون فيه الصور، لا تسقط تفاصيل عابرة فحسب، بل تسقط الأساسات، تسقط الألوان الأساسية والملامح المهمة، والعلامات الفارقة..

كأن العلو الشاهق، يسقطنا كلنا من الحساب، فلا تكون الصورة سوى خريطة صماء ـ **فيها الطرق، وفيها الجسور، وفيها منابع النفط** ـ لكن لا بشر فيها.. لا قيم.. لا تاريخ.. ولا عقيدة..

نعم، تلك كانت مشكلتهم معنا، إنهم ينظرون إلينا من ذلك العلو الشاهق، الذي تقصفنا منه الطائرات، الآن وفي هذه اللحظة بالذات.

تلك كانت مشكلتهم، ولعلها كانت أيضاً مشكلتنا، وإنْ بشكل معكوس، لقد سمحنا لهم بذلك، سمحنا لهم بأن ينظروا إلينا من العلو الشاهق، ويطمعوا فينا من العلو الشاهق، ويقصفوننا من ذات العلو الشاهق..

وكانت مشكلتنا أيضاً، أننا قبلنا بأوطئ نقطة في المنخفض؛ ليكون قدرنا الذي لا نريد له تبديلاً..

وكانت مشكلة البعض منا، أنه تصور العلو الشاهق حكراً على هؤلاء الغزاة، وأن كل ما سيأتي منهم قدرٌ لا يجوز محاربته..

من العلو الشاهق، سقط صاروخ في مكان قريب، واهتز البيت كله، لكن الصورة **المحصورة بين الإطار والجدار** بقيت ثابتة..



إلى جانب تلك الصورة، كان هناك صفان من الصور العائلية التي تنتمي لنفس الحقبة..

في الحقيقة إنها ليست صوراً عائلية بالضبط، لكنها صورٌ تؤرخ لتطورات سياسية واجتماعية، تصادف أن رجالات العائلة لعبوا دوراً فيها، ووقفوا أمام الكاميرات في لحظة معينة، وامتزج في هذه الصور ـ **بهذه الطريقة** ـ الخاص مع العام على نفس الجدار، على بعد سنتمترات فقط من تلك الصور الملتقطة من العلو الشاهق..

كانت هناك صورة للاجتماع التأسيسي لجمعية (الهلال الأحمر العراقية)، كان ذلك قبل انهيار الحكم العثماني بسنتين، وكان جدي واحداً من المؤسسين..

وكان هناك أيضاً صورة لافتتاح أول معمل نسيج حديث في العراق، وربما في المنطقة **كان معملاً أهلياً يشكل** ـ ربما بطريقة أو بأخرى ـ نموذجاً للدور الذي يمكن أن يلعبه الرأسمال الوطني في البناء، كان المعمل يعود لأسرة ساهم أفرادها في ثورة العشرين الوطنية ضد الإنكليز **.كانوا أثرياء ولكن وطنيين ـ معادلة تبدو نادرة اليوم في زماننا الوسخ ـ ولكنها لم تكن شديدة الندرة في ذلك الزمن البعيد..**

كانت هذه الأسرة الثرية بالذات، قد ساهمت في تمويل الثورة، رغم أن ذلك كان يمكن أن يضر بمصالحها الاقتصادية، وهو أمر ستتردد فيه حياتنا الاقتصادية المعاصرة ألف مرّة..

وبنفس المنطق، قامت هذه الأسرة، بإنشاء أول مصنع نسيج معاصر في الشرق العربي تريد الربح ؟ نعم. بالتأكيد. لكن أيضاً تريد التحديث، تريد البناء..

على الحائط، صورة لافتتاح هذا المصنع، دعي إليه جدي والتقط صورة بالصدفة فوجدت المناسبة مكاناً لها على الحائط، في المكتبة في بيتنا، على الحافة السفلية للصورة يوجد، بخط جدي، ذكر للمناسبة وتاريخها..

خلال ثلاثة عقود فقط من تاريخ الافتتاح، جاء «**وطنيون**» من نوع آخر بقوانين من نوع آخر، وأصابت حمى التأميمات التي سادت المنطقة هذا المصنع، كما طالت أملاكاً أخرى للأسرة التي فر أفرادها تباعاً بما استطاعوا تهريبه من البلد إنقاذاً من قوانين التأميم والمصادرات التي كانت تلتهم كل ما يقف أمامها حتى لو كان حلالاً طيباً..

وبعد أقل من ثلاثة عقود، وبالتحديد في أوائل الثمانينات من القرن الماضي، وكنت لا أزال طالباً في المتوسطة، جاءت عندنا، لتزور والدي تحديداً، فتاة أمريكية الجنسية، عراقية الأصل والولادة، كانت تعد رسالة الماجستير عن تاريخ العراق الحديث من جامعة أمريكية، مجرد مستشرقة أخرى وجَّهها مشرفها الأمريكي باتجاه بلدها الأم، وقادها البحث عن المصادر إلى مكتبة والدي..

لم يكن قد بقيَ من أصلها سوى بقايا لهجة بغدادية هجينة، وذكريات غائمة عن وطن لم يحسن احتضان أبنائه..

إنها سليلة تلك الأسرة صاحبة المصنع ، بل الحفيدة المباشرة لذلك الثري الوطني الذي أراد تحقيق المعادلة التي انقلبت عليه والتهمت جزءاً كبيراً من ثروته..

سحبتها أمي سحباً إلى الجدار، حيث الصور المعلقة، أعتقد أن جدار الصور المعلقة يشكل جزءاً من ثقافتها كأمريكية. لكن صور التخرج، صور عائلية، شيء من هذا القبيل، مما يتوافق مع أسلوب الحياة الأمريكية، لذلك، كان مفاجئاً لها، أن تأتي لتبحث عن مصادر وكتب، فتجد صورة لجدها معلقة في بيت لا تربطه بها أي قرابة..

عبرت عن تفاجئها بأسلوب أمريكي تماماً..« How Ironic » قالت ! كانت كل جذورها قد قطعت، ونبتت لها جذور أخرى، في مجتمع آخر..

هذا ما فعله بعض الوطنيين ببعضهم الآخر..

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

بجانب تلك الصورة الخاصة بافتتاح مصنع النسيج، كان هناك صورة أخرى عن مصنع نسيج من نوع آخر، أسسه البريطانيون أنفسهم، وأقنعوا العراقيين أنه أعلى مطالبهم، فهو لا يكون إن لم يكن كذلك.

كان ذلك هو المجلس النيابي الذي كان جدي عضواً فيه، والذي اصطف أعضاؤه أمام الكاميرا كما لو كانوا طلاب مدرسة في حفل لتخرجهم ..(**في الواقع، كنت أعتقد حتى لوقت قريب أن الصورة لتخرج جدي من مدرسة الحقوق في إستانبول..**).

ما الذي يربط المجلس النيابي **الذي يشبه المدرسة** بمصنع النسيج الذي هو من نوع آخر ؟

نعم. الرابط كبير، فعندما قامت بريطانيا وشريكاتها بتقاسم المشرق العربي ـ **أو ما شئت أن تسمي** ـ اضطرت أيضاً، وكجزء من خطة التقاسم، إلى تقسيم المنطقة، ولأن التقسيم يتم من العلو الشاهق الذي تم النظر إلينا منه؛ ولأنه تم من قبل رحالة مغامرين وجوابين، يعرفون عن الأساطير وعن حكايات (ألف ليلة وليلة)، وعن الخيول العربية أكثر مما يعرفون عن العرب أنفسهم، فقد قاموا بتمزيق أوصال المنطقة عبر حدود رسموها بأدوات الهندسة وبخطوط مستقيمة تمر أحياناً في منطقة عشيرة واحدة وتقسمها كيفما اتفق، وتخلف بتقسيمها هذا نسيجاً **اجتماعياً** مهترئاً وممزق الأوصال.

ولأن النسيج القديم تمزق واهترأ مرّة بفعل التقادم، ومرّات بفعل خطة التقاسم، وخطوط التقسيم، فقد رأى المحتلون أن عليهم أن يضعوا نسيجاً جديداً ـ **يناسب تلك الأوصال المقطعة** ـ مهما كان ذلك سيكون نشازاً في أول الأمر..، أو آخره..

ومن مصانع النسيج التي أسسوها، ذلك البرلمان الذين لموا شتاته من هنا وهناك، طوائف وأعراق وعشائر ومصالح ونخب، ربما كانت منسجمة ومنصهرة عندما كانت ضمن الكتلة الأصل، لكن عندما مرَّ مبضع الجراحة ليقطع أوصالها بخطوط مستقيمة، بدا كل جزء منها هجيناً عن نفسه وعن الأجزاء الأخرى.

وتوهم المحتلون، **لأنهم ينظرون من ذلك العلو الشاهق** أن الانسجام سيأتي مع صنع نسيج جديد، وتوهموا أن افتتاح المجلس النيابي، ورفع الشعارات فيه، يمكن أن يساهم في صنع النسيج الجديد.

وكان الوهم الأكبر ـ **الذي لا أصدق أنهم صدقوه** ـ ولكن صدقناه نحن، ودفعنا ثمن تصديقه غالياً، كان ذلك أننا توهمنا أننا يمكننا حقاً استيراد الديمقراطية دون أن نمر

بظروفِ نشوئها الحقيقية، وبمراحل تطورها الدقيقة، وعاملناها، كما لو كانت سلعة أخرى تُستهلك للتمتع بها، دون أن يستهلكنا تجشم العناء بإنتاجها وصنعها.

تلك الصورة المعلقة لذلك المجلس النيابي الذي كان جدي عضواً فيه، كانت أيضاً بطريقة أو بأخرى، صورة **لحفلة تخرج، لكنها حفلة تخرج لم يتخرج فيها أحد، لأن الامتحان الذي عقدته الظروف والتجارب، لم ينجح فيه أحد..**



وفي قلب الحائط، وسط كل تلك الصور، كانت هناك الصورة الأكثر شهرة، والتي نشرت لمرّات في مجلات وصحف مختلفة، بسبب وجود شخصيات أدبية لها مكانتها في الثقافة العربية عموماً.

كان مناسبة الصورة، أن جدي قد عقد صلحاً بين شاعرَيْ العراق الأكثر شهرة في ذلك الوقت، وربما حتى هذا الوقت، وهما الرصافي والزهاوي، والذي كان بينهما من العداء مما هو أكثر من مجرد المنافسة، وعداوة أصحاب المهنة الواحدة.

ولسبب أو لآخر، فقد شاء جدي أن يعقد صلحاً بينهما، بحضور عليَّة القوم من مثقفين وأصحاب مناصب، وجاء بعضهم من الشام لحضور المناسبة والتي لابد سيصحبها وليمة تناسب أصحاب المناسبة.

ولأن جدي كان وزيراً ـ **كما سبق ـ ولأن الوليمة كانت عامرة ـ على ما يبدو فقد وافق الشاعران على الصلح، وجلسا معاً، في وسط تلك النخبة من الملأ البغدادي، وبينهما جدي، والتقطا تلك الصورة المستقرة في قلب الحائط، وعلى ذيلها السفلي، بخط جدي، البيت الشعري الذي جادت به قريحة واحد منهما وفيه يشيد «بكرم جدي» و «كرم داره»**، مما يتوافق مع المزاج العام لخالاتي ووالدتي.

الطريف أن هذا الصلح لم يكن إلا على الحائط ملتصقاً بهذهِ الصورة، ورغم أني لقنت منذ طفولتي أنهما تصالحا، إلا أني لم أجد أثراً لهذا في أي من السّير التي قرأتها عن حياتيهما . . **كان الأمر عابراً تماماً** ولعلّه لم يكن قط إلا أمام الكاميرا، وفي الوليمة وأمام حضرة صاحب المعالي، لكن في داخل كل منهما، على ما يبدو، كان هناك جرير وكان هناك الفرزدق، وكان هذا العداء المتبادل الذي اعتبراه جزءاً من مطاردة شعرية هي في جوهرها التراث المستعصي على الموت في الهوية الأدبية لثقافة بكاملها.

بالمناسبة، البيت الشعري الذي جادت به قريحة واحد منهما، كان، في رأيي، دون المستوى، ويوجز أيضاً في رأيي، أن الأدب والثقافة، كانا، مثلما الآن يُسَخَّرَان من أجل المناسبات والمجاملات والولائم..



صورة أخرى، يظهر فيها جدي وهو يلقي كلمة في نادٍ اجتماعيٍّ أسَّسه البريطانيون، المناسبة: توديع أمين العاصمة السابق، الذي تولى هو منصبه..

أتأمل في الحضور، كلهم بأزياء أوربية، لو التقطت الصورة قبل عشر سنوات من التقاطها، قبل انهيار الحكم العثماني، لكانت الأزياء مختلفة، لا، لم يكن هناك أتاتورك يفرض زياً ويمنع آخر، لكنه سلوك المغلوب أمام مظاهر الغالب.

وأتأمل جدي، قبل عشر سنوات ـ **أو أكثر بقليل** كان الإنكليز قد نفوه مع والده لأنهما شاركا في ثورة العشرين الوطنية، الآن، ها هو يستلم المناصب، ويشارك في المجلس النيابي، وتتلخص معارضته لهم، في اعتراض على كلمة في قرار، أو بند في معاهدة..

إنه شيء حزين جداً، لكن كان هذا ما حدث.



في صورة أخرى، يصطف ستة أو سبعة من أعضاء نادي الملأ البغدادي في العقد الأول من القرن المنصرم إبّان الحكم العثماني، كان جدي واحداً منهم، أتأمل في الأسماء، والوجوه، وأقفُ طويلاً عند الألقاب.

كل لقب من هذه الألقاب، ارتبط باسم أو أكثر من الأسماء التي تداولت السلطة لفترة طويلة، بالذات بعد الاحتلال البريطاني.

كان كل لقب له عدة مناصب وزارية، وكراسي لوزارات، بل واحتكرت بعض الألقاب رئاسة الوزارة لفترات طويلة..

حدث تداول للسلطة نعم، ولكن ضمن أطر محددة ومحدودة، ضمن إطار هذه الصورة، نادي الملأ البغدادي وألقابُه الفخمة الرنانة..

ستقولون: إنها النخب المثقفة و الأكثر تأهيلاً للإدارة، وإنه أمر طبيعي أن تتداول النخب المثقفة السلطة في مجتمع ناشئ، ربما، ولكن ألا يعني هذا أيضاً، في ظل

استمرار تداول السلطة الذي حصل، أن المشروع الإصلاحي الذي قدمته النخب، فشل أن يوسع دائرة النخب بضم قطاعات أخرى من الشعب استفادت حقاً من المشروع الاصلاحي ، **هذا إذا كان هناك أصلاً مشروع كهذا ..**

ربما ستقولون: ولو ! . سيظل هذا التداول المحدود للسلطة أفضل من الاحتكار والاستئثار الذي عانته نفس القطاعات الأخرى بعدما أخرجت هذه الأسماء من اللعبة.

ربما لكن نسبياً فقط. إنها لعبة الكراسي التي نصبتها النخب. ينقص العدد واحداً واحداً و يبقى كرسي واحد ووحيد..

نعم كانت لعبة الكراسي هذه، هي التي انتهت إلى أن يبقى في النهاية كرسي واحد وحيد، يجلس عليه لاعب واحد.

أتأمل الألقاب من جديد، هناك لقب أو اثنان، استطاعا الإفلات و تمكنا من ركوب الموجة بعد انهيار الحكم الملكي وقيام الجمهورية، وهناك لقب آخر ظهرمؤخراً على شاشة إحدى القنوات، وهو في منفاه الاختياري المترف، متحدثاً عن عودته إلى الوطن حال انتهاء «**العمليات العسكرية**» كما أسماها بتهذيب بالغ.

ندور دورة واسعة ثم نعود إلى نفس النقطة، نفس نقطة البداية، نفس لعبة الكراسي والألقاب الدوارة..

إنه التاريخ الذي مررنا به : **التجربة والخطأ**، وتكرار التجربة، وتكرار الخطأ..



إنني واثق تماماً ، أن والدتي لم تكن تقصد أن ترمز لدلالة ما ، أو تعطي إشارة، عندما وضعت الصور بهذا الترتيب الذي ذكرتُه، لم تكن تؤرخ لتطور العراق ونشأته الحديثة.. كانت ترتب الصور فقط على حسب أحجامها ، على الأغلب.

لكن في هذا الترتيب اللاواعي غير المقصود، كان هناك أكثر من رمز، أكثر من دلالة..

في البداية كانت تلك الصور الملتقطة لبغداد من ذلك العلو الشاهق قرب المدخل، كما لو كانت للدلالة على أننا لم نصل لما وصلنا إليه إلا من جراء تلك النظرة إلينا من ذلك العلو الشاهق، كما لو أننا لن نستطيع أن نخرج مما نحن فيه إلا إذا فككنا أسرنا من تلك النظرة..

ثم تأتي الصور الأخرى، مصفوفة في صفين كل صف يحتوي على ثلاثة، تروي باختصار قصة نشوء المجتمع الحديث في العراق، هنا جمعية الهلال الأحمر التي فيها من كل الأديان، وهنا أول مصنع حديث للنسيج في المنطقة بأسرها، وأصحابُه يفرون برؤوس أموالهم فيما بعد، وهنا مجلس نيابي يصنع نسيجاً جديداً ـ **لكن كله رقع !** ـ وهنا منتدى أدبي يمارس الثقافة بعقلية الوليمة والهجاء والمطاردات الشعرية.

وهنا الوطنيون يتقلدون المناصب من قبل سلطات الاحتلال، ويقنعون بمعارضة التفاصيل والهوامش الصغيرة..

وهنا لعبة الكراسي وتداول السلطة ضمن دائرة ستضيق بالتدريج، إلى أن تصير كرسياً واحداً منفرداً..

لم يكن ذاك مجرد جدار ـ **كما تلاحظون** ـ لقد كان جدارية، إذا شئتم، لم تكن مجرد صور عائلية اختلط فيها الخاص بالعام، لقد كانت مقطعاً عرضياً وطولياً في ذلك النسيج قيد التكوين..

لم تكن صوراً فوتوغرافية، كانت صوراً تحت المجهر، تحكي عن السبب فيما آلت إليه الأمور، والسبب الذي سيجعل الأمور تؤول إلى ما تؤول إليه..



لعلكم قد لاحظتم أن معظم الصور المعلقة ترتبط بعائلة والدتي بشكل أو بآخر..

حسناً.. لقد لاحظت والدتي ذلك أيضاً، ولكي لا يتبادر إلى ذهن أحد ما، شيء ما، فقد قامت بوضع صورتين تخص جدي لوالدي .

ولكن الطريقة التي وضعتهما بهما ـ **والمكان الذي انتقته لهما** ـ كان فيه من الرمز، ومن الدلالة بقدر ما للصور الأخرى ولم تكن تقصد أكثر من وضع الصور..

وضعت الصورة الأولى، لجدي، الذي كان عسكرياً تقلَّد أعلى المناصب في رئاسة أركان الجيش العراقي، وضعتها بالقرب من الصور الستة الأخرى، ولكن معزولة عنها، ومتقاطعة معها ـ كانت كل الصور الأخرى مرصوصة أفقياً، ووحدها تلك الصورة موضوعة بشكل عمودي ـ بتقاطع مع اتجاه الصور الأخرى..

أما الصورة الثانية، فقد وضعتها أمي في الحائط المواجه منفردة، كانت صورة كبيرة

ورسمية لجدي وهو مدجج بأوسمته ونياشينه، ملئت الحائط وانفردت به، أما الصورة الأولى فكانت له وهو شاب أول تخرجه من المدرسة العسكرية في اسطنبول .

كان ذلك هو ما حدث في العراق بالتحديد..

لقد كانت المؤسسة العسكرية الحديثة، منذ أول نشوئها، منعزلة عن مؤسسات المجتمع الأخرى، بالضبط كما وضعت أمي الصورة الأولى، ولم تكن منعزلة فقط، لكنها أيضاً ستختلف معها.. وستقاطع معها.

وسيؤدي ذلك، إلى ما حدث مع الصورة الثانية، تكبر المؤسسة العسكرية، وتلغي كل المؤسسات الأخرى، وتنفرد وحدها بكل السلطات، بكل المؤسسات . بكل الكراسي، بكل الصور، على كل الجدران، ،

هذا هو ما حدث مع العسكر في بلدي.

وهذا هو ما حدث في غرفة المكتبة، دون سابق قصد أو تصميم..



من بين الصور، كانت هناك صورة لجامع الحيدرخانة في قلب بغداد، المرتبط بذاكرة والدتي باعتبار قربه للبيت الذي ولدت فيه وشهد طفولتها، والذي يرتبط أيضاً بذاكرة بغداد نفسها، باعتباره واحداً من أقدم وأهم الجوامع فيها، قديم لأنه بني في العهد المغولي، وكان بذلك شاهداً على قدرة بغداد على احتواء الغزاة الذين جاءوها كفرة ولم تمض عقود حتى أشهروا إسلامهم وبنوا المساجد فيها، ومهم لأنه كان منطلقاً للتجمعات السياسية والمظاهرات الوطنية التي عمت البلاد وضمت أفضل النخب الثقافية والاجتماعية في تلك الفترة.

كانت الصورة مقربة للجامع، ومأخوذة بحيث تبدو قبته ومنارته أكبر من حقيقتها، أو أكبر مما أراه الآن وقد علت العمارات حولهما.

وكانت والدتي، عامدةً هذه المرّة، قد وضعت صورة جامع الحيدرخانة، فوق الصورتين الأخرتين الملتقطة لبغداد من العلو الشاهق.

كانت جد حريصة على تفاصيل كهذه ـ **الجامع فوق الجميع** ـ على الأقل في الصور وترتيبها.

أتأمل في الترتيب، والغارة مستمرة، في الحقيقة لست متأكداً إن كانت مستمرة أم أنها غارة جديدة، فهذِهِ الأمور لم تعد واضحة قاطعة ..

أتأمل في الترتيب، وأجد رموزاً متعددة ومنفتحة على احتمالات مختلفة ربما كانت هذه الغارة كلها، من أجل إعادة ترتيب الصور، **ألم يصرحوا بذلك فعلاً : إعادة ترتيب المنطقة ؟**

ربما كانوا يريدون أن ينزلوا صورة الجامع من قمتها العالية، ربما كانوا يريدون أن تكون ملتقطة من بعد، من ذلك العلو الشاهق الذي ينظرون إلينا منه..

أسمع صوت انفجار قريب، تهتز الأرض، أتذكر ما يسربون من خطط ومخططات، عن دستور بلا دين وبلا قيم، عن تعليم يكرس القيم الغازية القاهرة، وأفكر أنهم ربما يريدون إلغاء الصورة تماماً، لا تغيير ترتيبها فقط..

يعلو صوت القصف، ألاحظ أن المقاومة خافتة جداً، وأعرف أن ذلك لم يكن، وأننا لم نصل لما وصلنا إليه، **إلا لأن الترتيب كان صورياً. كان بالصور فقط** ..

وأن الترتيب الذي سارت عليه حياتنا، لم يكن ليضع الجامع **بتلك الصورة المقربة** في تلك القمة..

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

أقلب ألبوم الصور **الفارغة** أو التي كانت كذلك، ولم تعد كما أراها الآن.

هنا الحوش[١] ـ الباحة أو الفناء الداخلي ـ التي تتوسط الدار ويكاد الكون كله يتوسطها.

هنا الحرم[٢]، حيث العالم مقصور على النساء، وحيث النساء مقصورات على العالم .. هنا كان النساء أحياناً ـ على الأقل ـ يحكمن الرجال، وهن خلف قضبان الحرم المخملية..

وهنا.. في «الديوخانة»[٣] يبدأ عالم الرجال وحدهم، في تلك الصالة حيث يعقدون

---

(١) الحوش: الفناء الوسطي الداخلي باللهجة البغدادية. أول ما يواجهك عند الدخول في البيت البغدادي.

(٢) الحرم: الجناح المخصص للنساء في البيت البغدادي. الحرملك بالتقليد المصري.

(٣) الديوخانة: جناح الرجال الغرباء حيث يستقبل الضيوف في البيت البغدادي.

اجتماعهم الأسبوعي، ويتكلمون فيه عن الحكم والسياسة والعالم الذي يتخيلون أنهم يحكمونه ويسوسونه.

وهنا انتهك المحتلون حرمات الدار والنساء والرجال، واقتحموا البيت من هنا، وعاثوا في الأرض الفساد، وانتهبوا بعض المتاع والحلي.. هناك.

وهنا من هذا السياج، تسلق واحدٌ من أبرز رجالات ثورة العشرين[١]، وهبط على هذا السطح، دخل هنا من هذا الممر، واختبأ في هذه الغرفة بالذات، هرباً من مطاردة قوات الاحتلال..

هنا البئر في وسط الباحة، هنا جناح الخدم الذين كثيراً ما كانوا يصيرون جزءاً من العائلة، وهنا جناح للضيوف، كانت استضافتهم تدوم سنوات أحياناً.

هنا غرفة يسمونها غرفة الشمس، لأن الشمس لا تغرب عنها، وهنا غربت الشمس عن البيت بأسره.

وهنا السرداب ومدخله المظلم، وجوّه البارد في حر الصيف القائظ..

وهنا «**التخت بوش**» ـ غرفة أرضيتها من الخشب ـ لكنها في الواقع بلا أرضية معلقة بين الأرض والسماء..

وهنا «**الكفشكان**» ـ والتي كانت في الأصل «**كشف مكان**» ولحقت بها خاصية الإبدال والقلب ـ **غير الغريبة على اللهجة البغدادية** ـ دون أن تغير من مضمونها، فهي تلك الغرفة العالية ـ **في البرج العاجي** ـ والتي تشرف على البيت بأسره ،بالذات الحرم، حيث كان يجلس الذكور الذين كانوا يتوهمون ـ **كما دوماً** ـ أن المراقبة هي الحل !..

وهنا كانت تأتي سلال الفواكه من البساتين، مختلفٌ ألوانُها ومتنوعة ثمارها، صيفاً وشتاءً..

هنا تمر «**البربن**» الأحمر بلون الدم، وهنا **البرحي**[٢] الأصفر بلون السنابل وقت الحصاد. وهنا «**الخضراوي**» الذي فيه لمحة خفيفة من خضرة الربيع وزهوته..

هنا الرمان الحلو المر، وهنا عنب أسود لن يجرؤ على سبه أحد، وهنا الرقي البارد

---

(١) علي البازركان.

(٢) البرحي و البربن و الخضراوي، نوعان من أجود و أرقى التمور العراقية.

في الصيف القائظ، ينزل كالزغرودة على القلب الحار، فيرق القلب بالرقي الذي لن ينافسه في ذلك إلا بطيخ أشد برودة منه..

هنا التين يتحدى الزيتون، هنا المشمش يصمد أمام البرتقال..

من هنا كانت تدخل السلال الملآنة بما لذَّ وطاب، وهنا كانت تغسل وتنظف وتفرق ..

هنا كانت تمتلئ البطون، وكانت تذبل الفواكه قبل آن يجوع أحد في الدار.. وهنا كانت ـ **ربما، لست متأكداً** ـ ترمى في القمامة..

(.. وهناك، خلف تلك الأسوار العالية، كان هناك أناس فقراء في نفس الزقاق، وتئن بطونهم من الجوع..).

وهنا كانت الغرف التي لا يسكنها أحد ولا يستعملها أحد، وهنا كانت الشناشيل الحزينة الغامضة، وهنا المزاريب التي نشجت بحجة المطر.

وهنا دار الزمان دورته الواسعة هنا ترك الفرح توقيعه ومضى، هنا نسجت العناكب خيوطها، هنا عصفت الرياح، هنا سكنت الأشباح، هنا انطفأت الأضواء، وهنا لم تتألق مرّة أخرى، هنا كبر البيت فجأة عليهم، كما يكبر ثوب التاريخ ..

من هنا رحلوا ذات يوم. وإلى هنا لم يرجعوا أبداً بعدها..

هنا خلت الدار، هنا فارقها الخير والعمار، وهنا انتهى كل شيء، و أسدل ـ **على قصة عمرها قرنين** ـ الستار..



وحدها خالتي الكبيرة رأت الضوء من بعيد، وعلمت ـ **ربما بشكل مشوش وغائم** ـ حقيقة الأمرعندما جيء بذلك التبليغ الرسمي الذي يقضي باستملاك جزء من الدار، علمت أن المسألة ليست مسألة بيت معرض ـ **في جزء منه** ـ للاستملاك والهدم، لكنه تاريخ كامل، صار برسم الإزالة، مجتمع كامل صارَ آيلاً للسقوط بعدما تعرض للمصادرة..

علمت خالتي أن بيتاً كهذا لا يمكن أن ينشأ من جديد، لا يمكن أن يقوم من جديد، لا يمكن حتى أن يرمم.. أو يصان .. أو يدوم **.كان الأمر عكس التيار. وعكس التاريخ.**

علمت خالتي، عندما رأت الضوء وقررت أن تؤرخ للبيت، أن طرازاً من هذا البناء

لن يكون موجوداً بعد الآن، وأنه سيصير جزءاً من تاريخ لن يعود، لأن طراز الحياة الذي كان محتوياً في ذلك البناء، لن يعود موجوداً بعد الآن في خضم العواصف التي تمر بالمجتمع، لأن الطراز المعماري، كان الوعاء الذي احتوى النسيج الاجتماعي المهدد بالزوال..

كان الفناء الداخلي ـ **الحوش** ـ الذي يتوسط البيت، ويقع في المركز من الطراز المعماري البغدادي الذي بني عليه بيت جدي، وكل بيوت المحلة، والمحلات الأخرى..

كان ذلك الفناء، المفتوح إلى الخارج، إلى السماء، في قلب البيت، يرمز إلى تلك الصلة الحقيقية التي ربطت المجتمع ـ **أول نشوئه** ـ بالسماء.. بكل القيم العليا التي وجدت في السماء ملاذاً متسعاً لها، وكانت تتصل بالأرض عبر هذا الفناء المفتوح في قلب كل بيت..

لم يكن هذا الفناء ـ **أو الحوش** ـ ضرورة معمارية من أجل التهوية، كما سيبدو للوهلة الأولى، لكنه كان تعبيراً معمارياً عن تلك الصلة بين الأرض والسماء ـ التي بني عليها البيت، وبني عليها المجتمع..

كان الحوش هناك، تنفتح عليه كل الغرف الأخرى، كل ساكن من سكان البيت كان لابد أن يمر به في أي تحرك يقوم به، حتى ولو لقضاء حاجة، حتى ولو لشربة ماء من «**الحِب**»[1] أو من «**التنكة**» الباردة..

نعم. كان «**الحوش**» تعبيراً معمارياً عن فلسفة اجتماعية أصيلة، فلسفة تمثل عمقاً حضارياً بأبعاد متعددة..

لم يكن «**الحوش**» مجرد فراغ في «**الوسط**» ـ كما يبدو أولاً ـ على العكس لقد كان هذا الفراغ هو حجر الأساس الذي بني عليه البيت، حجر الأساس الذي بني عليه المجتمع بأكمله..

كان هذا الحوش هو التعبير العبقري عن الصلة بالله سبحانه وتعالى حيث كل الغرف تؤدي إليه، وكل المنافذ تنفذ إليه، وكل الطرق توصل إليه، لكن نمط العمارة هذا لم يعد مرغوباً فيه، لم يعد رائجاً، ولم يعد يُبنى على أساسه بيت جديد.

---

(١) الحِب: خزان مخروطي الشكل يحفظ الماء بشكل بارد. التنكة، إبريق من الفخار صغير يحافظ على برودة الماء.

إنها الخمسينات أيها السـادة..

ليس نمط العمارة وحده هو الذي قضى نحبه، لكن نمط الحياة نفسه تغير، لم يعد «**الحوش**» صلة مفتوحة من القلب إلى السماء، بل صار مجرد فراغ، بل أكثر من ذلك، لقد صار نقطة ضعف، من الناحية الأمنية..

إنها الخمسينات أيها السادة.. وفي العاصفة التي اجتاحت المجتمع، ستزاح تلك الصلة بعيداً، بل سيراد لها أن تلغى أساساً.

وسيعكس نمط العمارة الحديثة الذي سيستورد وسيسود نمط الحياة التي قدروا أنها ستستورد وتسود..

سيكون الطراز الجديد هجيناً مثل خيمة بدوية مزروعة وسط ثلوج آلاسكا، لا نمط المواد المستخدمة سيكون ملائماً لأجوائنا، ولا نمط التصميم سيكون ملائماً لنفسياتنا.

لن يكون النسيج الاجتماعي المستورد موافقاً لحساسية جلودنا، **ولن يكون التصميم الذي سيطبق على هذا النسيج ملائماً لتصميم أجسادنا، لكننا أقسرنا أنفسنا في التصميم الخطأ داخل القماشة الخطأ، وكانت النتيجة تمزقات وتشوهات نعاني الآن وفي هذه اللحظة بالذات منها.**

في الطراز الحديث، لن تكون الغرف ملتصقة معاً وملتفة حول محور واحد، مرتكزة حول صلة واحدة، كما كانت في الطراز القديم. إنما ستكون مكدسة فوق بعضها البعض ومنعزلة الواحدة عن الأخرى في الوقت ذاته.. لن تتمحور حول هدف، لن تلتف من أجل معنى.. لن تؤدي إلى مكان ـ **فقط ستنفتح على نفسها** ـ نحو المزيد من الانغلاق والفردية.

وفي الطراز الحديث، لن يكون هناك سراديب تدعو إلى التوغل في أعماق النفس والتأمل فيها، لكن الأرض ستكون مسطحة كما لم تكن من قبل .

وفي الطراز الحديث، لن تكون هناك شناشيل كتلك التي كانت في تلك البيوت، وكانت أيضاً جزءاً من النفسية البغدادية تشكلت؛ لتعبِّر عن نفسها معمارياً في تلك النوافذ المتشابكة المخرمة.

من الخارج، كانت النوافذ تبدو حصينة ولا تسمح لأي طفيلي بالتلصص.. أو المراقبة.

ومن الداخل، كانت الشناشيل تبدو مثل غربال لا يسمح بمرور أي شيء إلا بعد تنقيته وغربلته.

وفي كل الأحوال، **لن ترى حقاً إلا إذا اقتربت، لن ترى حقاً إلا إذا اقتربت ..**

وعندها سترى بوضوح، سترى بدقة..

ولم تكن الشناشيل معلقة هناك في الطوابق العليا بين «**الدرابين**»[1] فقط، بل كانت قبلها موجودة في النفسية البغدادية، في تلك الثنائية شديدة التداخل شديدة الوضوح في سلوكياتهم ومعاملاتهم.

من الخارج يبدو البغدادي مغلقاً بدرع الخشونة والصلابة والتوتر وحتى اللامبالاة، ومن الداخل هناك ذاك الغربال الذي يتقي به الآخرين ويمحصهم وينقيهم، والذي دفعته إليه دفعاً حياة طويلة من الخبرات المريرة وخيبات الأمل.

وفي الحالتين، لو اقتربت أكثر من هذا البغدادي المحصن بخشونته ـ **حتى بألفاظه ولهجته** ـ لوجدت طفلاً طيب القلب إلى حدِّ السذاجة، حدِّ الاستغفال، حدِّ أنه يُغري الآخرين أحياناً باستغلاله.

لكن ذلك كان عصر الشناشيل، وطرازها المندثر.

وفي العصر الجديد، استبدلت تلك الشناشيل الحنونة، بتلك الشبابيك المفتوحة على مصاريعها كأنها تعلن استسلاماً دائمياً بلا قيد أو شرط، ستوهمك بالانفتاح وقد تصدق الوهم، فإذا اقتربت فستصطدم بذلك الجدار الزجاجي الأملس البارد، سيحجزك عن الداخل ،سيمنعك من التوغل في الأعماق.

سيكون هذا الزجاج مثل قفصٍ يمنع من التواصل من وإلى وعبر الداخل، سيكرس العزلة والفردية رغم أنه يبدو من بعيد منفتحاً وداعياً إلى التواصل.

بينما كانت الشناشيل تكرس القرب والحنين، رغم أنها تبدو من بعيد مثل الحصن الحصين، كذلك النفسية الجديدة التي أرادت رياح التغيير أن تبذرها، من الخارج سيكون الفرد الجديد أكثر بشاشة وهشاشة ومدنية، لكنهم سلبوا منه أفضل ما فيه، داخله الطيب ومعدنه الأصيل، ومنحوه بدل ذلك زجاجاً أَصَمَّ هشاً وبليداً، جعلوه له قفصاً وحبسوه فيه.

وفي الطراز الحديث، لن يكون هناك (**حرم**) أو (**ديوخانة**)، فالأمر ستختلط في الحياة الحديثة، والخطة تفترض أن لا حرمات ستبقى، ولا حدود ستوضع.

---

(١) الأزقة البغدادية الضيقة.

وفي الطراز الحديث، لن تكون هناك أعمدة رشيقة شاهقة ترفع السقف وتصعد به إلى السماء، فالثوابت قليلة في الحياة الحديثة، والأسس ركيكة، مؤونة البناء مغشوشة، والمقاولة بأكملها تبدو مليئة بالرشوة والثغرات.

من الناحية التقنية، لن تنهار البيوت المبنية على الطراز المعماري الحديث، لكن مجتمعاً بني على أسس خاطئة ومنطلقات مزيفة، **قد يعلو قليلاً** ، **لكنه سينهار** ، **ولابد** سيسقط على رؤوس أفراده وينقلب عاليه سافله، **كما يحدث الآن معنا** .

ربما لم تكن خالتي على وعي بكل تلك التفاصيل، لكنها رأت الضوء، وقررت أن بيتاً كهذا لن يُبنى من جديد، وأخذت كاميراتها لتلتقط لكل زاوية من زوايا البيت صوراً ـ ستبدو للوهلة الأولى أنها خالية.

لكنها في واقع الأمر، ملآنة بالذكريات، بل وبتفاصيل الذكريات.



أتخيلها عندما ذهبت هناك.

بعد عشر سنوات من الرحيل، لم تذهب للبيت، ولا مرة خلالها.

ولا حتى مرّة واحدة.

عشر سنوات، عصفت فيها العواصف، وشبت النيران وانفجرت البراكين.

وماتت والدتهن ميتة مفاجئة وصاعقة، نتيجة لخطأ جراحي على يد أمهر الجراحين البريطانيين في عملية بسيطة في لندن.

كانت في الخمسين فقط، وكان بناتها في مقتبل الصبا والشباب، وحيدات إلا منها في عالم بدا كالخلاء الأجرد بعد وفاتها المروعة.

وبدلاً من أن يعُدْن من لندن بالحقائب المليئة بأحدث الألبسة وأجمل الهدايا، جئن في طائرة شحن صغيرة بصندوق خشبي، يضمُّ أغلى ما يمكن أن يملكه إنسان **أمه..**

وكانت صغراهن في الثامنة فقط، أخفوا الخبر عنها بإتقان، وأخبروها أن أمها ستلحقُ بهنَّ في طائرة أخرى، كانت تلهو وتمرح قرب الصندوق دون أن تدري أنَّ أمها مسجاة فيه، **ولو درت ما كانت ستفهم لماذا** .

كان ذلك هو الحدث الجلل في منتصف العشر سنوات تلك.

كان هو الحدث الذي سيطر على مشاعرهن، وعلى مواقفهن، وعلى إرادتهن وعلى الكثير الكثير من سلوكياتهن.

عندما تركْنَ البيت إلى غير رجعة، كن ـ كشابات ـ فرحات نوعاً ما بالبيت الأحدث طرازاً.. ولو نسبياً، المطل على النهر حيث كان بإمكانهن استقبال صديقاتهن واستضافة جلسات السمر التي تدور مع النهر، بسهولة ويسر أكبر..

فلنقل: إنهن كن فرحات بالتغيير، لمجرد التغيير، لمجرد أنه تغيير وسيتوافق ذلك مع الدم الشاب الذي يسري في عروقهن.

لكن هذا التغيير لم يكن دوماً متوافقاً مع ما يردن، ففي أعماقهن فوجئن بأن الموت أخذ أمهن دون سابق إنذار، طبعاً الموت لا يسبق بإنذار، لكن عندما تكون في مقتبل العمر، والدنيا فاتحة ذراعيها، مزهوة بك وزاهية لك، فإنك لا تفهم هذا، وعندما يأتي الموت على حين غرّة ليخطف واحداً من أحبابك فإنك تصدم.. كما صدمن.

وفي لا شعورهن، وجدن أن البيت الجديد مسؤول إلى حد كبير عن تواري والدتهن خلف تلك البلاطة في مقبرة باب الشيخ.

لم يكن يجرؤن على التصريح باعتقادهن، أن البيت منحوس، كان مستواهن الاجتماعي والعلمي ينأى بهن عن التصريح، دون أن يمنعهن حقاً من الاعتقاد بذلك.

لكنهن كن يتبادلن الاتهامات، لست أدري بالضبط مع من، حول جو النهر البارد، وانفتاح البيت الزائد على هذا الجو، وصعوبة التحكم بتدفئته، الأمر الذي أدى إلى إصابة والدتهن بالتهاب رئوي.

رغم أنها لم تمت بذلك، بل بتداخل جراحي بسيط ، لكن اللوم كان في أعماقهن على البيت الجديد، رغم الطراز الأحدث نسبياً، رغم النهر، ورغم أنهن كن يردن التغيير.

في منتصف العشر سنوات تلك، وجدن أنفسهن في بيتٍ خلا فجأةً من والدتهن.

وبيت آخر، كانت موجودة في كل زاوية من زواياه، في حجراته وغرفه وشناشيله وأسطحه.

في كل بلاطة من بلاطاته كانت هناك، رغم أنها توارت خلف بلاطة واحدة فقط. في تلك المقبرة غير بعيد عن البيت.

كان البيت يضج بها وبذكراها وبرائحتها..

ولذلك لم تجرؤ واحدة منهن على الذهاب إلى هناك، ولا واحدة، ولا حتى مرّة واحدة.

إلى أن جاءت تلك الورقة على الباب.

وذهبت خالتي لتلقي النظرة الأخيرة، على البيت، على ذلك الزمان المتواري، خلف رياح التغيير.

وأخذت معها كاميرتها، لتجمد تلك النظرة الأخيرة، وتحولها إلى صور صقيلة مرصوصة في ذلك الألبوم الذي أتصفحه تحت القصف.



أتخيلها وقد استقلت السيارة، في صباح أتخيل أنه كان حزيناً وغامضاً، وأخبرت السائق أن يذهب بها إلى الحيدرخانة.

أتخيل عيناها محتقنتين، تأهباً لدموع لاشك أنها ستهبط، وأتخيل شفتيها مزمومتين، تأهباً لمواجهة ماضٍ صار مجرد ذكريات، وهاهو الزمان يأتي ليهيل ترابه وركامه عليها.

وأتخيل السيارة تنهب الطريق، تسرع هنا وتبطئ هناك، وفي كل دورة تدورها العجلة يقترب ذلك الماضي أكثر فأكثر.

وكلما اقتربت السيارة من البيت، تقدم الماضي أكثر وأكثر، ليمحي كل علامة استحدثها الزمن، يكشطها كشطاً عن الأبنية والأشجار والأرصفة، وحتى عن الهواء الذي يلف الأماكن.

وفي كل مكان خطوة خطوة، ينتصب الماضي ويشيد أبنيته ورؤاه وأشخاصه.

هنا كان درب المدرسة، قصير جداً، فقط خطوات من البيت، بين درابين الحيدرخانة، لكن الأهل والتقاليد المرعية والأعراف والشرائع السماوية كلها كانت ترى الدرب بعيداً جداً، طويلاً جداً، وخطيراً جداً، فلا تذهب البنات إلى المدرسة إلا بصحبة قوة حماية مؤلفة من الحارس أو البواب أو السائق، أتخيلهن هناك، في تلك الدروب الموغلة في الماضي، يركضن مفعمات بالطفولة والفرح والأمل، غير مباليات بمخاوف الأهل ووساوسهم التقليدية، ولا بنفس الحارس العجوز المتهالك، الذي يكاد ينقطع ركضاً خلفهن.

وهنا كان درب المدرسة الأخرى، عندما تقدمن في العمر أكثر، قريبة جداً أيضاً، ولكن العرف الاجتماعي سينقل الحراسة من مستوى الحارس المتهالك، إلى مستوى السيارة المحصنة.

هنا بيوت جيران العمر، **مشى ببعضهن العمر، ووقف ببعضهم العمر، ضيع بعضهم العمر..**

وهنا في تلك الساحة، كان يأتي العيد وينصب نفسه وألعابه وأرجحاته ودواليب هواءه ـ **ويلم الأطفال ليلتم معهم العيد ـ أنهم هم العيد!.. رغم أنهم يتصورونه هو العيد ـ ..** ولم تكن الأعراف الطبقية تسمح بعيد كهذا لخالاتي إلا من خلال زجاج نافذة السيارة.

وهنا علقوا نشرات الأضواء الكهربائية على المباني الحكومية، لأول مرّة بمناسبة عيد جلوس الملك..، ودارت الأيام، ومات الملك ـ **عاش الملك ـ وقام ملك ليجلس ملك ـ ثم قام الملوك كلهم** ـ بل طاروا وطارت حتى رؤوسهم.. وأُلغي العيد كما ألغيت الملكية، لكن ظلت تلك النشرات الملونة تضيء الذاكرة بزهو الجلوس الأول، وحتى عندما صاروا يعلقون نشرات مشابهة في مناسبات شتى، **من ضمنها مناسبة القضاء على الملكية** ، صارت تلك النشرات تذكر ـ **ولو عفواً** ـ بذلك الجلوس المضيء..

هنا بائع «**الفرارات**» [١] ، لو يدري كيف ستدور الدنيا وكيف ستضيء، هنا بائع «الشعر بنات»[٢]، لو يدري أنهن سينفشن شعورهن لاطمات، وهنا بائع «الأبيض وبيض» [٣] ـ **ممنوع قطعاً الشراء منه بأمر الوالدة خوفاً من التلوث** ـ لكن من يأبه من الفئران للقط إذا غاب..

هنا فاجأتهم أول غارة ـ **في حياتهن** ـ إبان ثورة رشيد عالي الكيلاني، وتراكضن مرتعبات ـ **وهن لا يصدقن أبداً أن هناك هول كهذا** ـ سيختبئن مع الأهل في السرداب، وستختبئ بغداد كلها في سرداب ما ـ **وهي لا تصدق أبداً أن هناك هول كهذا** ـ فضلاً عن أن يكون هناك هولاً أكبر..

---

(١) الفرارات: لعبة تقليدية من ألعاب بغداد القديمة و هي أساساً بمثابة طواحين ورقية صغيرة يركض بها الأطفال ليحركها الهواء .

(٢) الشعر بنات: حلوى بغدادية تشبه الشعر المنفوش، وهو عند الدمشقيين: غزل البنات .

(٣) أبيض و بيض أكلة بغدادية يبيعها غالباً الباعة المتجولون ، مكونة من البيض ، و العمبة والطماطة

«آه بغـداد ! لو تعرفين، سيقيدونـك من يديك ورجليـك، ويغتصبونك على رؤوس الأشهاد، ويتفرج العالم كله على ذلك بالبث المباشر، وستبحثين عن سرداب ليؤويك ويؤوي جراحك، لكن .. حتى هذا لن يمنحوه إياك» .

هنا شب حريق في ذلك المبنى العتيق، وجاءت سيارات الإطفاء الحمراء بخراطيمها الطويلة لتطفئ النيران، وفرح الأطفال مرتين : مرة بالحريق ، ومرّة بسيارات إطفائه..

أطفئ الحريق وقتها، لكن كل تلك السيارات وخراطيمها وخزاناتها ستكون أعجز عن أن تطفئ نيران المشاعر والذكريات والقلوب.

هنا بائع الشلغم الساخن، وهنا الكاهي[1] من أفران السيد. هنا الشاي المهيل برائحة الماضي وبذكرياته الحلوة المرّة..

إنها عشر سنوات . عشر سنوات . والآن : النظرة الأخيرة..

هنا تتوقف السيارة، ويتوقف الزمان.



أمام الباب يوقف السائق السيارة.

أتخيل أن خالتي لم تنزل على الفور، فضلت البقاء قليلاً لاستجماع شجاعتها، وأتخيل أن البقاء أمام الباب المغلق، هز مشاعرها أكثر، واستفز دموعها أكثر..

ذلك الباب المغلق، الذي وقفت أمامه السيارة، والذي كان مغلقاً ربما لسنين خلت، إلا من بعض المرّات النادرة التي يدخل فيها الحراس والمستخدمون، **والذي كان سابقاً** لا يقفل أبداً ، بل يظل مفتوحاً على مصراعيه منذ أول تباشير الصباح، حتى أولى ساعات الليل.

كان البيت صدراً متسعاً للجميع، وكان الباب المفتوح دلالة **«بغدادية»** على ذلك، واليوم، تقف السيارة أمام بابه متعبة وشاحبة، خشبها منخور باليأس والانتظار، وحديدها علاه الصدأ من طول الانتظار..

الباب مقفول، كم مرّة دقه شخص جاء بعد غياب؟ كم مرّة دقه عابر سبيل؟ أو بائع جوّال؟!!..

---

(١) الكاهي: حلوى بغدادية يأكلها أهل بغداد في الصباح خصوصاً و مع القيمر بالذات.

كم مرّة دقته الرياح؟ في الليالي العاصفة، أو قطرات المطر، المنهمرة من المزاريب، في الليالي الممطرة..

ولعشر سنوات. ظل الباب مقفلاً، وهو الذي كان لا يقفل أبداً..

واليوم ـ **هاهو يفتح** ـ من أجل نظرة أخيرة.

عندما دار المفتاح في القفل، وانفتح الباب لأول مرّة، صدر صوت ما، صوت هائل وكئيب، أكثر من مجرد صرير باب تحتاج مفاصله إلى تزييت، كان الصوت يشبه شهقة؛ شهقة حزينة ومكتومة..

ربما كانت شهقة احتضار، **أو شهقة ولادة**، ربما كانت شهقة فرح، مفاجئة ونادرة، **وربما كانت شهقة حزن**، من صدر أثخنته الأحزان، ولايزال يشهق مع كل حزن جديد.

وربما كانت شهقة يأس، مثل صنبور ماء فرغ ويعلن ذلك بصوت كئيب مهيب..

وربما كان الصوت، مجرد صرير يحتاج إلى تزييت..

دخلت خالتي كمن تسير في جنازة، نعم، كانت تسير في جنازة، جنازة الماضي الذي جاءت تلقي النظرة الأخيرة عليه.

هنا دكة الحارس، الحجي مسرور، لم يكن مسروراً قط، كما أنه لم يكن حارساً بالمعنى العملي، كان بواباً كسولاً يجلس على الدكة معظم الوقت، لن تنسى خالتي ـ **ولا أحد من أفراد عائلتها** ـ عندما مرَّ رئيس الوزراء المزمن **نوري السعيد** أمام دكة «الحجي مسرور»، ووجده يأكل طبقاً شهياً من «**البامية**» ـ فوضع «**الباشا**» الإتيكيت جانباً على الدكة، وجلس يأكل البامية مسروراً قرب الحجي مسرور..

بعد ذلك بأشهر فقط دار الزمن وسحل الغوغاء الباشا ومزقوه إرباً، ثم دار الزمن مرّة أخرى ـ **كعادته دوماً** ـ ووجد بعض هؤلاء الغوغاء أنفسهم وهم يترحمون على الباشا، وعهده المباد!!...

هنا في حوش الديوخانة، كانت والدتي ـ ذات الثمان سنوات، تجمع الخدم والمستخدمين وتصفهم بشكل منتظم وتقودهم في خطوات عسكرية، **ربما لتثبت لوالدها، أنها يمكن أن تكون أفضل من الذكر الذي لم ينجبه** .

وهنا كانوا يأتون ـ **في أيام العيد** ـ بالقردة المدربة وهي تتراقص على إيقاع الطبول، وترتدي زياً إفريقياً والعظام في رقابها، وتدور في حلقة يسمونها «**ميدان عبيد**» ـ آه، كان

الأطفال يضحكون في العيد، من ميدان العبيد هذا، جاهلين أن الزمن سيدور، وأن الحلقات ستدور، وأنه سيأتي عليهم وعلى أولادهم وقت، يكونون عبيداً في ميدان آخر، سيرقص البعض، وسيقفز البعض، و سيقتل البعض، **وسيتفرج الناس علينا، في ميدان العبيد الآخر عبر البث المباشر.**

وهنا كانت تخزن المؤونة، وكل سنة تضاف لها كمية تكفي لعدة سنين، تضاف لمخزون يكفي أصلاً لعدة سنين، ويعكس ذلك كله المخاوف التقليدية عند سكان بغداد، من مخافة القحط وتكرار الحصار.

وهناك، على ذاك التخت كان يجلس جدها ووالدها، يتحدثان ويتناقشان يستقبلان بعض الزوار المقربين، وقرب الحائط خلفهما، التقطت تلك الصورة الشهيرة التي زعم الشاعران الشهيران أنهما تصالحا فيها، ومن ذاك السطح العالي تقافز ذلك القائد الشهير من قواد ثورة العشرين، هارباً من قوات الاحتلال، ومختبئاً في تلك الغرفة بالذات.

هناك ـ **في غرفة الشناشيل** ـ كانت جدتي تجلس قلقة لتنتظر عودة زوجها .. المستوزَر قسراً في عهد اضطرابات سياسية بالغة، وأمامها في الشرفة إسكافي فقير، يغلق كل يوم دكانه في ساعة محددة، ويقفل راجعاً إلى بيته، وتقف الزوجة القلقة للوزير المعهود ـ وهي تغبط زوجة الإسكافي المطمئنة على عودة زوجها إلى البيت كل يوم..

وهنا ـ **في هذه البالوعة** ـ كانت والدتها ترمي بكيس الدعابل الذي يهربه له والدها، بعيداً عن عين زوجته الموسوسة من أي شيء صغير ممكن أن يخنق الصغار.

وفي تلك الشرفة كانت والدتي ترسم بالطباشير خطوط ودوائر ومربعات، وتلعب «**التوكي**»[١] منفردةً مع خيالاتها وأوهامها.

وهنا درس البئر وردموه، ربما راحت البركة من يومها..

وهنا كانت تأتي بائعة اللبن ـ **الحاجة نايلة** ـ وتجلس قرب «**الخانم**» لتحكي لها عن مشاكل بناتها مع أزواجهن.

وهنا كانت تأتي الخبازة أم حسن، مرتين في اليوم من أجل أن يكون الخبز الساخن متوافراً وجبتي الإفطار والغداء على الأقل، تخبز بيدين معروقتين، صابرتين، ساكتتين عن هم، تبوح به أحياناً، وتسكت عنه معظم الأحيان.

---

(١) التوكي: لعبة تلعبها الإناث خصوصاً.

كانت تلوذ بصمتها عند التنور، وعندما يجلبون لها طعام الفطور، كانت تكتفي بالشاي، تلف الجبن في حرزٍ حصين ـ **تخفيه لأحفادها الصغار الثلاثة** ـ أولاد ابنها الذي لايسأل عن أولاده، وينفق كل ما يكسبه على رهان الخيول ـ **والذين ماتت أمهم عند ولادة شقيق رابع** ـ مات هو الآخر.

كانت قد صمدت مع البيت وأهله إلى أن ماتت أواخر السبعينات. وأذكرها كشبح لهيكل عظمي وقد أصابها العمى دون الخرف، كانت تأتي فتبقى في بيت جدي لأسابيع، فتستضاف معززة مكرمة. كواحدة من أهم الضيوف ـ كما يعامل عندهم دوماً أي شيء من مخلفات الماضي وتوابعه .

وإلى هنا جاؤوا بالبقرة عندما نشبت ثورة الكيلاني، وقيل إن نقصاً حاداً سيصيب إمدادات الحليب والألبان، فجاؤوا بالبقرة الحلوب لتعوض عن ذلك، واستفاد الجيران أكثر مما استفاد أهل البيت، فقد تصادفت ثورة الكيلاني مع ولادة ابنتهم البكرالتي تحتاج إلى تغذية متنوعة تشمل الحليب والألبان والأجبان، ويبدو أن وجه الحليب كان حلواً على الطفلة الرضيعة التي ولدت في تلك الظروف الصعبة، فقد كبرت لتتزوج زيجة ممتازة ـ **حسب المقاييس البغدادية السائدة** ـ من رجل معروف مثَّل العراق في المحافل الدبلوماسية، وكان ـ كلما ظهر على شاشة التلفاز، تذكر والدتي تلك البقرة الغابرة وحليبها الحلو، وتلك الظروف التي اتضح أنها ليست صعبة جداً بالمقارنة مع ما سنمر به لاحقاً.

وهنا ـ **في غرفة التخت بوش** ـ كانت خالتي هذه بالذات، تتقلب بكسل وهي تقرأ كتب أرسين لوبين وجرجي زيدان، وترسل بواحد من الخدم إلى تلك المكتبة العتيقة في **(الباب الشرقي)** ليجلب لها المزيد ـ كبرت خالتي فيما بعد لتمنعني من كتب جرجي زيدان بالذات. خوفاً عليَّ من **سمومه الاستشراقية الشعوبية على حد تعبيرها** ، آه يا خالة. ليتنا بقينا على جرجي زيدان وسمومه! ما كان أسعدنا بذلك، لقد سمموا الجو كله بعدها، سمموا الأفكار كلها ،حتى الأوكسجين الذي نستنشقه صار يحتاج إلى تنقية وإعادة تأهيل، بل إن سموم جرجي زيدان صارت تبدو مثل نزلة برد بسيطة مقارنة بالسرطان المتسبب عن اليورانيوم المنضب وغير المنضب الذي يزاحمنا في الحيز الذي نحتله..

ليتنا بقينا على سموم زيدان ؟ أم أن الأمر متصل بعضه بالبعض ؟ وأن ذاك السم أدى بالتتابع إلى هذا السرطان؟

جاست خالتي بين الأركان والزوايا، جالت في الماضي القريب الذي صار مجرد ذكريات، وتوغلت في الماضي الأبعد الذي لم تحضره ذاكرتها، ولكن حفره في ذهنها ترديد الألسن له عبر الأجيال..

هنا غادر والدها و والده البيت ـ **بل غادروا بغداد بأكملها** ـ تركوا كل شيء ورحلوا مع انسحاب الجيش العثماني قبل يومين من دخول الإنكليز إلى بغداد.

نعم، هنا سقطت بغداد عندما فرغ البيت ـ قبل أن تسقط بدخول الإنكليز .. وهنا اقتحم الغزاة الدار. هنا نهبوه وسلبوه باسم المصادرة والغنيمة ـ وهناك، في المزاد غير البعيد عن الدار، باعوا الأغراض والأثاث، واشتراها بعض الأصدقاء والمعارف لما ميزوا فيها متاع البيت الكبير، وادخروها انتظاراً لعودتهم من أجل ردها إليهم .

وهنا اعتقلهم الإنكليز بعد العودة، ومن هنا أخرجوهم عندما نفوهم بعيداً عن العراق.

هنا التاريخ لم ينتهِ حقاً، في كل ركن قصة، وعلى كل حائط بصمة، وقرب كل نافذة حكاية.

هنا الماضي ما فات ليموت، **بل فات ليدخل في كل التفاصيل، ويعشش في كل الحنايا والخبايا والزوايا** .

وهنا ـ **بالضبط هنا** ـ كان اللقلق الأسطوري يطير من قبة المسجد المجاور ليحط ـ **للحظات فقط** ـ في الحوش، وينتقي ما يريد مما هو أمامه من الحاجات والأغراض. وليس الصابونة ـ **فقط** ـ من فوق الرازونة[1] ، كما تقول أغنية أطفال المحلة. مرّة حطّ وأخذ الصابونة، ومرّة حط وأخذ زيتونة. ومرّة تورط ببكرة خيط، واحتار بها ونشرها في كل مكان على السطح العالي..

ومرّة أخذ بيضة مسلوقة كانت معدّة لخالتي ، ويبدو أن طعمها راق له فصار يأتي كل صباح ليتصيدها ويأخذها بمنقاره الطويل، وراق الأمر للجميع، فصاروا يتركونها له عامدين، ويقفون مختبئين متلصصين، ليراقبوا جارهم اللقلق وهو يلتقط إفطاره اليومي.. آه، يا لقلق جامع السيد إبراهيم، تراك مرّة ـ **دون أن يراك أحد** ـ دون أن يراقبك أحد،

(١) الرازونة: حافة الشباك .

حططت والتقطت الفرح بمنقارك الطويل وأخذته معك دون أن ترده أبداً..

أم تراك أخذت الماضي كله معك، طويته بمنقارك وتحت جناحيك، وطويت صفحته **على القبة هناك إلى الأبد ؟**

آه يا لقلق جامع السيد إبراهيم، تراك أين أنت الآن ـ **وأين حل الدهر بك ـ أو بأولادك** ـ هل وجدت لك قبة جامع تؤويك ـ **أم أنهم ضايقوك كما ضايقوا كل رواد المساجد، فاعتكفت مع الذين اعتكفوا، أو هاجرت مع الذين هجروا !!!...**

أو تراك انقرضت .. مع الذين انقرضوا...!!!...

آه يا لقلق جامع السيد إبراهيم، كم تبدو اليوم كأسطورة من أساطير الأولين، كم تبدو بعيداً مثل سراب مغبش في خيال يائس لرحالة تائه، كم تبدو نائياً في المعاجم والقواميس، وأنت الذي كنت تسكن قبة الجامع المجاور ـ وأغاني الأطفال وأهازيجهم.. (وتسرق الصابونة من فوق الرازونة..)..

آه يا لقلق، لقد قضي كل شيء كما ترى، وكم مرّة حططت في الباحة ـ **وبحثت عن بيضتك ـ بل عن أي شيء لتلتقطه بمنقارك** ـ ولم تجد شيئاً.. لعلك تساءلت في سرك : **ماالذي دهاهم؟ لعلك افتقدتنا يا لقلق بعد كل شيء؟**

لكن لا جواب، لا شيء غير الصدى يتردد في الأركان، ويتضخم في الزوايا.

لا شيء سوى خيوط العنكبوت تطغى على كل شيء، وتغطي كل شيء.



على تلك الحافة بين الواقع والأسطورة، بين الماضي والحاضر، بين الخيال والحقيقة، وقفت خالتي ولا صوت هناك غير صوت دموع صامتة تنهمر من عيونها، وصوت الحمام الحزين يهدل من بعيد، وصوت الكاميرا وهي تلتقط الصور ـ **التي ستستقر في ذلك الألبوم** ـ والذي أتصفحه أنا، فأرى كيف أن أكبر بيت في بغداد **قد آل إلى السقوط والانهيار** .

أتصفحه صورة تلو صورة، وصفحة تلو صفحة، وأنا أتصفح في الحقيقة مدينة كانت أيضاً أكبر مدينة في الدنيا، **وهي الآن آيلة للسقوط ..**

للمرة الأولى في حياتي أجد نفسي بمواجهة هذا السؤال و قد تحول ليصير سؤالاً مصيرياً : لماذا سقط البيت؟

لماذا تهدم أكبربُيت في بغداد؟ لماذا صار قاعاً صفصفاً عند منعطف القرن بين عواصف التغيير و رياح الحروب؟

هل كان الخطأ في الأساس؟ في مواد البناء؟ في طبيعة الأرض؟ في أسلوب البناء؟ في الخريطة؟ في الطراز..؟

هل أصدق ذلك الجواب الجاهز: لأن جدي كان بلا عقب من أولاد ذكور..؟

أم أن الأمر أكبر من ذلك.؟

و كان الذكور سيضيعون كما ضيع الإناث؟

للمرة الأولى أجد السؤال و قد خرج من إطاره الشخصي ـ الخاص ـ إلى إطار عام.

للمرة الأولى أجد السؤال و قد خرج عن كونه محاسبة عائلية، ليصير استجواباً تاريخياً.. يتغلغل في تاريخ بغداد، بدلاً من تاريخ العائلة..

بغداد التي توشك على السقوط، والبيت الذي سقط فعلاً و العلاقة بينهما أكثر من مجرد احتواء، أكثر من محض جيرة..

في مكان ما، بين حيثيات القضية و ملفات الذاكرة، هناك الأجوبة، هناك ذلك الرد عن سؤال السقوط..

بغداد و البيت ، مصير واحد.. و جواب واحد عن نفس السؤال..

في مكان ما سأجد الجواب..



المحور الثاني

المشهد الأول

العد التنازلي للسقوط

المشهد الثاني

لقد وصلوا

المشهد الثالث

ليلة سقوط بغداد

المشهد الرابع

السقوط حقاً

المشهد الأول

العد التنازلي للسقوط

كان ذلك في صبيحة الخميس، عندما صحوت لأشاهد في التلفاز ما لا أستطيع أن أقول: إنه أعجبني..

كنت قد نمت ليلتها مبكراً على ما يبدو، وفاتني أن أتابع آخر الأنباء، أو أني هربت منها - **بوعي أو بدون وعي** - إلى النوم المبكر، كما كنت أفعل في امتحاناتي أيام دراستي الغابرة، حيث كان النوم يأخذني من الخوف من الامتحان، أو عدم إنهاء المادة المقررة.

كنت أعرف أن الأخبار سيئة، وأن ذلك الضفدع المتقافز أخذ يقترب أكثر وأكثر دون أن يضطر لدخول المدن في طريقه، كان يلتف حولها فيحيدها، وإذا اضطر لدخول أطرافها واجهته مقاومة صدته ودفعته لتغيير طريقه قليلاً دون تغيير خطته.

وقبل أن أنام، كنت أعرف أنه في مكان ما - **في أطراف النجف** - وعندما صحوت، صحوت على كابوس لم أفق منه، فقد فتحت التلفاز لأجد نفسي في وسط تقرير مصور - **كان من الواضح أنه بدء قبل دقائق** - وكان من المؤكد أن الساعات التي قضيتها في النوم هارباً، قد شهدت من «الأخبار العاجلة» ما لم أكن أود سماعه، ولكن ما لا يمكنني الهروب منه إلى الأبد..

طوال ذلك الطريق الممتد الذي قطعه الضفدع المتفاخر، كانت هناك نقاط مقاومة، تضيء وتخفت، بشكل متناوب، بعضها ظل يقاوم حتى بعد ما اجتاح الغزاة بعدها مئات الكيلومترات، مثل أم قصر - **التي هي مجرد نقطة على الحدود** - ظلت تقاوم لأسبوعين حتى الرمق الأخير، وحتى اللقمة الأخيرة، وحتى الطلقة الأخيرة، وطوال كل تلك المدة، وطول كل ذلك الطريق، لم ينقل لنا التلفاز عملية سقوط ولا مدينة واحدة - **حتى تلك اللحظة** - نعم، في الناصرية كانت هناك بعض الصور، لكنها كانت صور مدينة تقاوم أكثر مما كانت صور مدينة تسقط.. والفرق كبير..

فيما بعد سيذكر الإعلام - ولن ينكر أحد - ، أن الغزاة اضطروا لاستئجار عوائل من الفقراء المغاربة الذين يعملون في إحدى الدول المجاورة، فقط ليلوحوا بأيديهم على الطريق للقوات الغازية.. لإعطاء الانطباع الإعلامي بأن كل شيء على ما يرام .!!!...

وكان ذلك هو الحال حتى دخلت إلى النوم .. ـ مدن تقاوم، ومدن تحيد، ومدن تحتل.. ولكن ليس **السقوط** .. وعندما صحوت، وفتحت التلفاز، وجدت نفسي في كابوس لا مهرب منه..

كان هناك الغزاة في شوارع مدينة ما ـ **للوهلة الأولى لم أعرفها** ـ لأن التقرير كان قد بدء قبلها بدقائق.

وللوهلة الأولى لن يهمك الاسم، إنها مدينة في بلدك وكفى، والغزاة بأسلحتهم يمشون ـ بحذر ـ نعم ولكن بسلام.

سترى الدبابات مدججة بعدائها ومدافعها، دون أن تضطر لاستخدامها، ستربض هناك في الشوارع، وستراها عبر الشاشة، فيؤذي المنظر عينك، حتى قبل أن تستوعبه تماماً.

وسترى على الشاشة وجوهاً ربما لن تعرفها بالاسم، لكن ملامحها مألوفة جداً، إنها ملامح أبناء بلدك، تراها فتميزها وتعرف أنك لن تضيعها بين ألوف.

ربما تلك الملامح ليست جميلة جداً، حسب المقاييس السائدة .. ليست فاتحة البشرة، والعيون ليست ملونة، والشعر ليس أشقر، رغم ذلك، فإنها ملامح ألفتها طيلة حياتك، بعضهم يشبه جارك، وبعضهم يشبه ابن البقال الذي طالما نقل مشترياتك إلى سيارتك، وبعضهم قد يشبهك، لو أنك مثله قضيت تحت الشمس، حياتك..

سوف تنزلق تلك الوجوه على عينيك من الشاشة، وسوف ترى على ملامحها الذهول، سوف تبدو كما لو كانت وجوه لموتى، شاحبة وفارغة ومفرغة من المعاني..

سوف تبدو لك تلك الوجوه، التي هي وجوه أبناء بلدك، كما لو أنها صحت للتوِّ من كابوس، أو دخلت للتوِّ في كابوس، أو صحت من الموت عقب نفخة هائلة، أو دخلت في الموت عقب نفخة هائلة أخرى..

أركز قليلاً في الشاشة، وأنصت لما تقول تلك الوجوه، بعض الوجوه تتجادل مع وجوه أخرى، هناك بعض الغضب والشدّة في الجدال..

وجوه أخرى تتحدث مع الغزاة، أنصت أيضاً، وأركز في الكلام وفي الملامح، لكن هذه المرة لا غضب ولا شدّة، لا أرغب في القول، هناك مذلة .

تتجول الكاميرا في الشارع، أتحفز لأعرف بالضبط أين يدور الذي يدور، وأفرك عيني وأنا أتمنى أن يكون كل ما يدور مجرد كابوس.

من بعيد، تبدو تلك القباب والمآذن المألوفة .

وينزل عليَّ الفهم كالصاعقة..

وأرى الناس ملتفين مصطفين، أيديهم متشابكة، يحمون تلك القباب، ويهتفون بصوت واحد، بالصلاة على محمد ﷺ، وعلى آل محمد .. وتمنيت لو أني لم أنهض من نومي، ولم أفتح التلفاز، ولم أرَ، ولم أفهم..

إنها النجف..

لقد سقطت النجف !!



عندما يلتفت حوالي نصف السكان في بغداد من حولك، إن لم يكن أكثر، وبعضهم أصدقاءُ عمرك وزملاؤك وجيرانك، صوب النجف، لتفتي لهم في أدق شؤون حياتهم، من مواقيت صلاتهم إلى كيفية أدائها، ومن مواقيت صيامهم، **إلى مواقيت إفطارهم**، مروراً باليوم الذي يبدأ فيه رمضانهم، والذي يبدأ فيه عيدهم..

في كل دقيقة، كل صغيرة ـ **وكل كبيرة** ـ كل شاردة وواردة ـ **كانت هناك تلك الالتفاتة صوب النجف** ـ وكانت هناك أيضاً، تجاه كل التفاتة، إيماءة من هناك، جواب من هناك..

لم يكن الجواب رجع الصدى فيما يتعلق بالنجف.. كانت هناك دوماً أجوبة تجاه تساؤلات حوالي نصف سكان مدينتك.. إن لم يكن أكثر .

ولن يدعي أحد أن الكل كانوا ملتزمين بتلك الأجوبة، وتلك الإشارات فالكثيرون كانوا متفلتين، لكن تلك كانت مسألة أخرى، المهم أنهم إذا التفتوا، فسيكون ذلك صوب النجف..

وإذا سألوا فسيسألون النجف..

كل حياتهم، أو حياة معظمهم، كانت تسير في درب النجف ..**نظرياً على الأقل** وعندما يموتون، فإنهم كانوا يسيرون **عملياً** على طريق النجف، حيث تذهب الجنازة إلى هناك.. ويدفن الميت هناك..

لذلك فسقوط النجف، لم يكن أبداً مجرد سقوط مدينة أخرى، في درب الغزاة إلى بغداد..

ليست النجف كالناصرية، ولا كالبصرة، ولا كأي مدينة أخرى، كانت النجف عمقاً من أعماق بغداد، وضاحيةً من ضواحي بغداد، وسوراً عالياً من أسوار بغداد.

وفي حقيقة الأمر إن معركة بغداد، التي قيل: إنها ستدور هنا أو هناك في دائرة حول بغداد يبلغ نصف قطرها حوالي ٥٠ كيلو متراً ـ حصلت في حقيقة الأمر في النجف.. وحسمت ـ **تقريباً** ـ في النجف..

أقول ذلك ولكني أستدرك: على الأقل، بالنسبة لنصف سكان بغداد.. سقطت النجف إذن..



على ذلك الكابوس صحوت ذلك اليوم..

وعلى الشاشة كان ذلك الكابوس مجسداً أمامي بتلك الملامح الذاهلة لتلك الوجوه المألوفة لأبناء بلدك الذين ستفضل الموت على أن تراهم على تلك الشاشة بذلك السقوط..

وعلى الشاشة تتجول الكاميرا باحتراف، لتلتقط تفاصيل وزوايا السقوط، وتجسدها وتجسمها وتضخمها، وتنقلها لكي تتمم عملية السقوط، لكي يعم السقوط، ويسهل السقوط.

أظنها كانت كاميرا شبكة فوكس ـ **فقد كانت قد اشترت الحقوق الحصرية لمصاحبة قوات الغزو** ـ ويبدو لي أن الشبكة التي كانت قد أسهمت ـ وبشكل كبير ـ في التمهيد للحرب والترويج لها والتسويق لأسبابها الموهومة، كانت تنتظر تلك اللحظة، **لحظة السقوط**، لتصورها على أحرَّ من الجمر..

كان رأس المال الذي استثمرته في الحرب، ينتظر لقطات كهذه، لقطات سقوط، ولقطات استسلام، ولقطات هزيمة..

حسناً. لم يكن هناك وردٌ في صحراء النجف ليستقبل به السكان الغزاة، كما توقع البعض، وللإنصاف، لم تستطعْ كاميرا فوكس التقاط الترحيب في ملامح أولئك البسطاء المذهولين في شوارع النجف..

ولكنها ركّزت أيضاً ـ **وبمهارة حرفية** ـ على أنه لم يكن هناك عداء في تلك الملامح، لم يكن هناك مقاومة في تلك الملامح.

لم يكن هناك تلويح بالأيدي.

ولكن لم يكن هناك تهديد بالأيدي، ولا تنديد بالأيدي..

كان هناك الذهول، كانت هناك السلبية، كانت هناك ـ **على الوجوه** ـ حيرة من نوع خاص، حيرة لن تؤدي إلى تفكير، بل لن تؤدي إلى أي مكان..

فقط ذهول .. فقط سلبية..

كانت وجوههم بالضبط كوجوه أسرى ظلوا معتقلين منذ عقود في زنزانة مظلمة، لا نور ولا شمس ولا هواء مباشر، ثم فجأة، وبعد أن يئسوا تماماً، جاءهم سجانون آخرون، وأخرجوهم من زنزاناتهم تلك، ليضعوهم في زنزانات أخرى ..

الشمس بين الزنزانتين كانت مثيرة للذهول.

الهواء بين الزنزانتين ، كان يبدو غريباً على رئة كل منهم.

في الطريق إلى معتقلهم الجديد، كانوا يسيرون كما لو كانوا منومين مغناطيسياً.. مستلبين تماماً، لا إرادة في الرفض أو حتى في القبول..

في شوارع النجف، والغزاة يدوسونها بأقدامهم، كان هناك أبناء بلدي وهم مذهولون مصدومون.. ومستلبون..

كان الثعلب هناك ـ **بكاميرا فوكس !** ـ وقد رضي بما حصل له **ولم يكن قليلاً** .

وبالمونتاج، والمكساج ، وبالإخراج.. استطاع ثعلب فوكس، أن يروِّج لمشهد سقوط النجف كنموذج محبب للسقوط المتالي للمدن التي يريد الغزاة اقتحامها..

نعم، كانت أهم لقطة في سقوط النجف، هي اللقطة التي لم تصور.. اللقطة التالية : **سقوط بغداد..**



وفي ثنايا المشهد، كان هناك تفصيلٌ دمويٌ ـ رغم أنه بلا دماء ـ تفصيل هزني بأكثر مما هزني مشهد جثث الأطفال المكومة في الحلة في اليوم السابق، وبأكثر مما هزني مشهد الأب المحامي في الموصل الذي يبكي ـ **بلا دموع** ـ ابنه المهندس الشاب الذي لم يتجاوز الخامسة والعشرين وتجاوز العشر براءات اختراع.. والذي مات تحت القصف وهو في سريره..

هزّني مشهد آخر، وآثار القشعريرة في جسدي، أحسست وأنا أراقبه أنَّ كل أعصابي واقفة تراوح في فضاء مطلق بلا أرض تحتها..

كان هناك، على الشاشة، واحد من أبناء بلدي، وجهه مألوف وملامحه مألوفة، ويرتدي كما يرتدي الألوف من أبناء بلدي..

كان يحاول التحاور مع جندي من جنود الغزو، يستجمع كل ما يتذكره من كلمات بالإنكليزية من هنا أو هناك، ويحاول أن يوصل ما يريد لذلك الجندي، أو لرأسه المصفح بتلك الخوذة المعدنية..

قال، بإنكليزية ركيكة، لكن واضحة ومفهومة..

The City, Yes ..... Imam Ali , No ....

المدينة ، نعم .. لكن الإمام علي .. لا ..



وكانت الجموع الحاشدة، والتي تحيط المرقد من كل الجهات، بأيدي متشابكة، ووجوه بلا ملامح، تقول، دون أن تقول، دون أن تكون هناك حاجة لأن تقول أصلاً.. نفس ما قاله ذلك الرجل البسيط..

The City, Yes.... Imam Ali, No ....

في لحظة ما، بدا أن كل ما يهم الناس هناك، وكل ما يمكن أن يتجمعوا من أجله، وكل ما يمكن أن تتشابك أيديهم حوله، هو ذلك المرقد الذي يلتفون حوله..

The City, Yes.... Imam Ali, No ....



كان ذلك مرعباً جداً..

فعند ما تختزل ملحمة رجل، وحكاية رجل، وقضية رجل، وعقيدة رجل، نضال رجل، بل وقداسة رجل، **عندما يتعرض كل هذا** إلى عملية اختزال، وبتر، وتشويه، فإنني لا أستطيع تخيل وسيلة أكثر نجاحاً من تلك العبارة (The City Yes, Imam Ali No)

وكان ذلك ظلماً وإجحافاً كبيرين، بحق المدينة، وبحق تاريخها، وبحق أهلها، وبحق أهلها، وبحق أولئك المدفونين في صحرائها..

وقبل كل شيء ، بحق الإمام ..

❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂

المدينة نعم ؟

لكن الإمام لا ؟

عن أي مدينة يتحدثون ؟

عن الكوفة ـ التي تماهت مع الإمام، في قصة كفاحه المريرة والمشبعة بالمعاني.. والتي اختلطت حدودها الجغرافية مع الحدود اللامتناهية لشخصيته، وانفتحت زواياها وأزقتها على آفاقه المتسقة،.. ... The City Yes, Imam Ali No .. وارتبطت سماؤها بمدياته الأبعد..

لكن، كيف تفصل حقاً بينهما..، بين المدينة والإمام، والإمام موجود في كل مكان في المدينة..

هنا وقف ذات مرّة وقال ما قال، وهنا خطب في ذلك المسجد تلك الخطبة التي ظلّ صداها يطوف الأحياء والبيوت والأزقة .. وظلت معانيها تتناسل وتتناقل عبر الولايات والأقاليم والأمصار والقارات، وظلت الحكمة ترتشف منها لتسود صفحات الكتب والمجلدات.

هنا، حيث تقف تلك الدبابة، قال يوماً، وهو يسير تلك الجملة البليغة، التي سارت مسار الأمثال المأثورة ونسبت لعشرات الشخصيات من غيره..

وهنا، حيث يقف هذا الجندي، بحذائه الضخم المستفز، مرّ الإمام على ذلك الخيط الرفيع الفاصل بين الإفراط والتفريط..

هنا رفض المساومة، وهنا قاوم الإغراء، وهنا صمد أمام الرضوخ، هنا علّم أولاده كيف يرفضون، علَّمهم كيف يلفظون : لا..

واحد منهم، سيقول فيما بعد، أعظم (لا) في التاريخ..

هنا قالت المدينة كلها (لا) معه (فكيف يقال اليوم : The City Yes) .

وهنا، ذات فجر حزين، صاح ديك صيحة مميزة، واستل خنجراً سممه الحقد..، وعند صلاة الفجر، دفع حياته ثمناً لقضية حياته..

في كل مكان من المدينة، يوجد شيء من الإمام، والفصل بينهما غير ممكن، إن لم يكن مستحيلاً..

(The City, Yes.... Imam Ali, No)

معادلة صعبة : بالنظر لخصوصية المدينة .. ومكانة الإمام..



بالنسبة لسكان المدينة، الذين يمثلون شريحة مهمة من سكان بلدي، وأيضاً من أبناء مدينتي، كان هناك حيز ضيق جداً لتطبيق المعادلة..

حسموه مع أنفسهم عندما حلت الحقيقة، واستيقظوا صباحاً على منظر الدبابات تجوب شوارع المدينة، والأحذية الضخمة تدنس ترابها الكريم..

حسموا المسألة، و وجدوا حيزاً ضيقاً لتطبيق المعادلة

(The City, Yes.... Imam Ali, No)

كيف ـ **وهو في كل مكان** ـ والمدينة تماهت ـ **بكل تفاصيلها** ـ معه بكل تفاصيله..

لم يكونوا يقصدون الإمام ـ **الإمام!** ـ فذلك لم يكن فصله عن المدينة ... لكنهم قصدوا شيئاً آخرَ ـ **بضعة مئات من الأمتار، خططوها و وضعوا حولها سوراً عالياً .. وقالوا .. هنا ! NO ...**

عدا ذلك، المدينة كلها، بتاريخها وماضيها ـ بمآسيها وعبرها، بالخيط الرفيع بين الإفراط والتفريط، بالحد الفاصل بين الغلوّ والغلو المضاد، بالرفض للرضوخ، بالرفض للمساوة، بمقاومة المداهنة.. كل ذلك YES !!

وكان ذلك مرعباً..

أن تختزل ملحمة حياة رجل، ورجل ليس أي رجل، **بل رجل مثل الإمام**، أن تختزل **بشموخها وشمولها** وتتقلص .. لتصير بضعة مئات من الأمتار، حتى لو كانت مقامة عليها قباب مذهبة ومآذن شامخة، فإن ذلك يظل مرعباً، مثل أن تستيقظ ذات يوم على القارة الشاسعة التي تسكنها لتجدها قد صارت مثل جزيرة لا تتجاوز مساحتها بضعة أمتار، ضائعة في خضم محيط هائج..

شيء كهذا : Imam Ali No ... The City Yes

في كواليس المشهد، كان هناك حوار صامتٌ، دار بين ابن بلدي العامي البسيط الذي بالكاد يستجمع كلماته بلغة ركيكة، وبين ذلك الجندي الغازي المصفح بخوذته الباردة وأفكاره المسبقة الجاهزة..

حرصت كاميرا فوكس أن تحذف الحوار من لقطات السقوط، ولا تبرز غير كلمات ابن بلدي الذي يريد تحقيق معادلة صعبة..

لكن في الكواليس، كان هناك أكثر من مستوى للرد، أكثر من سيناريو للجواب.

فجندي المارينز الأمريكي الذي توجه له الحوار أولاً ، والذي ـ على الأكثر ـ لا يمثل أكثر من الفرد الأمريكي العادي الذي لا يعرف حتى أين تقع ولايته من خارطة الولايات المتحدة الأمريكية.

هذا الجندي، الذي لا يعرف شيئاً عن المكان الذي جاءَ ليغزوه، ستغريه الصفقة : المدينة مقابل الإمام علي، وسيوافق على الفور «**اتفقنا !**» ـ **! deal** على الطريقة الأمريكية..

لكنه سيستدرك «**هل أنت متأكد أنه ليس على قائمة المطلوبين .. أو شيء من هذا القبيل..؟**

على المستوى الأعلى منه، سيهز الكولونيل رأسه موافقاً، ويقول «**نستطيع أن نحاصر المكان ونحيده، ونقول: إننا سيطرنا عليه، كما فعلنا في كل المدن السابقة**».

سيحك المتحدث الإعلامي رأسه ويقول: «**سيكون مناسباً جداً لنا، أنْ نقول: إننا احترمنا مشاعر السكان المحليين، رغم أن أفراداً من قوات النظام اختبأت في المرقد وأخذت تطلق النار علينا منه..**».

سيضيف خبير البحث عن أسلحة الدمار الشامل «**.. ونستطيع أن نتحدث أيضاً عن التخوف من احتمالية إخفاء النظام لأسلحته البيولوجية والكيمياوية داخل الأماكن المقدسة، وتحذير النظام من مغبة أفعال كهذه..**» ستبحث خبيرة النفط في خرائطها بدقة، وتزم شفتيها الدميمتين لتعلن : **لا شيء عندي مهم هنا حتى آخر التقارير. إذا استجد شيء وتعارض ذلك مع مصالحنا، فيمكن نقل المرقد من موضعه لبضعة كيلومترات، لن يكون في ذلك أيُّ إشكال على ما أتصور** . سينقر مكتب المباحث الفيدرالية على حاسوبه الشخصي، ويتأمل في نتيجة البحث طويلاً، ثم يقول: « **ضعوه الآن ـ في مكانه ـ تحت الإقامة الجبرية. بعدها أريد أن أجري تحقيقاً مطولاً معه، أريد أن أعرف عن حقيقة دعمه لبعض التنظيمات الإرهابية مثل**

حزب الله.. كما أني أريد أن أعرف عن مكان تواجده ليلة الحادي عشر من سبتمبر ، هناك تقارير موثوقة وبالغة الأهمية تؤكد أنه التقى بمنفذي العملية ليلة قيامهم بها».

سينهره وكيل **السي آي إيه** : أجِّل هذا الموضوع الآن، وإياك أن تعلن عن إقامة جبرية أو تحقيقات معه، سيؤلب هذا جماعته وأتباعه، من الأفضل حالياً مهادنتهم وتذكيرهم بالاضطهاد الذي تعرضوا له من أبناء جلدتهم، من أجل أن يهبوا للانتقام منهم، **وسنوحي لهم أن يتفرغوا لنا بعدها، بينما نتفرغ نحن لمن ينتصر منهم..**

سيفرك مدير الشركات الاستثمارية عابرة القارات يديه جذلاً ، أمامه العقود جاهزة للتوقيع ، سيعلن : **سمعت أن الملايين من كل أنحاء العالم يرغبون في زيارة هذا المكان، هذه عقود لبناء مطار دولي حديث، وفنادق خمس نجوم، وشبكة طرق حديثة، سوف تسجل التكاليف على فاتورة إعادة الإعمار وقائمة الديون المتراكمة، أما الأرباح فستصب في جيوبنا..**

سوف يصرخ هنتنغتون ومعه طاقمه من محرري مجلة الشؤون الخارجية ومعهم شهاداتهم الجامعية من هارفرد ويال عن مجتمعات لم يزوروها قط ، سيصرخون : « **إنه صدام الحضارات. لا يمكنكم أن تغيروا ذلك. هذا الشخص قنبلة موقوتة، نعم معرض للانفجار في أي وقت، لن ينفعكم أن تحولوا مرقده إلى منتجع سياحي.. إنها مسألة حتمية : صدام الحضارات هذا...».**

في ركن غير بعيد، سوف ترتجف بحقد، لهبة شموع سوداء، في ذلك الشمعدان السباعي اليهودي الشهير، وسوف يخرج صوت يهمس كفحيح الأفاعي **..يالثارات خيبر. لن أنسى قط ما فعله يوم كسر باب الحصن، اقتلوه مرّة أخرى، أعدموه مرّة أخرى، لكن إياكم أن تمسوا مرقده بسوء، اقتلوه في أذهان أتباعه، اقتلوا المعاني المرتبطة به، اقتلوا القيم التي حافظ عليها، اقتلوا صموده، اقتلوا عدم رضوخه ورفضه للمساومة .. آن أوان الانتقام لخيبر، لكن إياكم أن تمسوا مرقده..**

حدث ذلك كله، كحوار صامت، في خلفية المشهد الذي فاجأني ذلك الصباح الحزين، يوم سقطت النجف..

لكن مخرج الأخبار في قناة فوكس، صرخ. مونتاج !، وحذف الحوار كله باستثناء تلك الجملة الوحيدة التي تناقلتها وكالات الأنباء جميعها فيما بعد..

The City, Yes.... Imam Ali, No ....

۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞

تلك المعادلة الصعبة، لم يكن الدرب إليها سهلاً على أحد، وعبر عقود طويلة، أجبر الناس على المرور في درب واحد.. شديد الوعورة، شديد الصعوبة، معبد بالأشواك، سيق الناس عليه وأجبروا على الزحف فيه.

طيلة عقود ـ مرَّ الناس بكابوس لا حدود له، وعانوا ظلماً لم يتصوروا أن ستكون له نهاية، واجتازوا سنينَ لا يمكن تصور اجتيازها، ونجوا من حروب إبادة لم تبق ولم تذر، وحملات اعتقالات لم يكن يعود منها أحد، قبور ضيقة سميت خطأ بالزنازين، ينال ساكنوها عذاباً قد يصمد إذا قورن بعذاب القبر، وبين الحين والآخر، كان الزبانية يحرصون على إبقاء واحد من المساجين على قيد الحياة، ثم يحرصون على إطلاق سراحه، ليس لأجل الرحمة والشفقة والعدالة والمفاهيم الأخرى المحذوفة من معاجمهم، ولكن فقط لكي يروي هذا الذي **(نجا)** ما يدور خلف تلك الأسوار العالية المكهربة بالخوف والرعب..

نعم.. لم يكن يخرج أحد من هناك إلا نادراً .. وإذا خرج فقد كان ذلك لسبب واضح ومحدد : أن يحكي عن الرعب المهول الذي مرّ به، أن ينشر الرهبة والخوف..

كانوا يفرجون عن نموذج بين الحين والآخر؛ من أجل أن يرى الناس الموعظة والعبرة في بقايا الإنسان الذي أفقدوه ـ **في الداخل** ـ كل آدميته، وعبر عقود طويلة، مر الناس بكابوس جثم على صدورهم وآمالهم وكل تفاصيل حياتهم، أفقدهم آدميتهم، وحرَّم عليهم عقائدهم، وأبادهم أحياناً و **فقط** ؛ لأنهم أظهروا شعائرهم..

عبر عقود طويلة، **مرّ الناس بواقع مرّ شديد المرارة**، أجبرهم في الحقيقة على أن يقبلوا بواقع آخر، مُرٍّ آخر، عسى أن يكون أقل مرارة، وذاك الرجل العامي البسيط، الذي قال ما قال، The City Yes .. ، لو سألناه ـ **وذكرناه أثناء سؤالنا بالإمام** ـ لكان حكى لنا عن قصة ظلم طويلة، وعذاب مريرة، لربما أخرج من جيب محفظته صور إخوته الذين أُعدموا أو ماتوا تحت التعذيب أو فُقدوا تماماً دون أي تعليق..

سيذكر لك عين والدته التي أعماها الصبر، وقلبها الذي قدده الدهر، وسيمسح من عينه دمعة لم تنزل، عندما سيقول لك : **مالذي يجبرنا على المر .. غير ما هو أمر منه ؟**

ستنظر إلى الشاشة وترى الجموع، وهي ملتفة حول مرقد الإمام، تحاول أن تختار المر على الأمر..

أو أنها على الأقل، تحاول أن تجد أساساً نظرياً، لما وجدت نفسها مجبرة عليه.

ستنظر ملياً في الشاشة، لست في موضع لوم لأحد، لكنك فقط لست متأكداً أيُّهما المرُّ وأيُّهما الأمرُّ ؟ في لعبة الاختيارات الصعبة..

هل الظلم والطغيان والاستبداد هو الخيار الأشد مرارة، أم تراه الاحتلال والغزو ومسخ الهوية واستحلال كل القيم الحضارية تحت اسم صدام الحضارات؟

بين الخيارين، أتأمل في الشاشة، لست متأكداً أيهما الأشد مرارة، لكن الناس هناك يبدو متأكدين، **رغم أنهم لم يجربوا بعدُ الخيارَ الآخر.. لكن ما مرّوا به يجعلهم يتصورون أن لا شيءَ أشد هولاً وأكثرَ مرارةً مما كان..**

أتأمل في الشاشة، أقلب في الوجوه، كل وجه يحكي قصة، كل قصة تكشف أرشيفاً من العذاب والكبت والقهر.

فجأة يضيء فكري كمصباح كهربائي أوصل بتيار الحقيقة، وأجد الربط الهائل بين الخيارين.

لقد أعدوا المشهد بإتقان منذ عقود . لقد كتبوا السيناريو ببراعة وحضروا كل لوازم التصوير..

من أجل أن نقرر أن احتلالهم هو الخيار الأسهل، الأقل مرارة، جعلونا نمر بذلك الدرب الطويل من الكبت والقهر والاستعباد..

كان ذلك عن طريقهم، بعلمهم، بل وأحياناً بمباركتهم، وبعض أقسى حملات الإبادة والمجازر كانت بمعرفتهم وبإشرافهم، لقد جعلونا نمرُّ بذلك كلِّه، من أجل هذه اللقطة بالذات لقطة: (The City Yes) المدينة نعم .

لكن الرجل الذي امتزج بالمدينة، وصار جزءاً منها، كما هي جزءٌ منه، كان لن يقول «المدينة نعم» مهما كانت الظروف..

حياته كلها، حكايته كلها، ملحمته كلها، تؤكد أنه كان سيقول ، «المدينة أيضاً لا» ..

لا ، بسيطة وحاسمة وقاطعة، غير قابلة للاستئناف أو التأجيل أو التبطين أو التأويل..

لا ، لا تحتاج إلى فتوى أو اجتهاد، كما لا يحتاج التنفس إلى بحث عن أدلة شرعية، ومرجعية وغير مرجعية ..

لا ، صريحة واضحة وعالية، كما كان دوماً صريحاً واضحاً وعالياً..

لا ، ما كان الإمام ليقول " المدينة نعم.. "...

ونعم، كان الإمام سيقول بالتأكيد بكل تأكيد : لا ...



قبل أكثر من عشر سنوات، من هذا المشهد، كان هناك مشهدٌ آخر ـ **بالقرب من نفس المرقد ، ومرّ به نفس الناس** ـ أو أقاربهم أو جيرانهم أو أصدقاؤهم .

كان مشهداً مريراً، **مفجعاً** مشهداً امتلأ بالكرب والبلاء، مشهداً كربلائياً .. لكن في النجف ..

كان ذلك هو المشهد الحقيقي الموجود في كواليس المشهد الحالي، كان مشهداً مروعاً دمّرت فيه القنابل واجهة المرقد، ودنست فيه الأحذية القبيحة باحة الحرم الداخلي، وانتهكت حرمات، وسالت دماء، وارتفعت بين المآذن تلك المروحيات الشريرة، وأطلّت منها مكبرات صوت، نقلت للناس، وكبّرت لهم، إنذارات وتهديدات ودعوات بالويل والثبور..

ذلك المشهد الكربلائي في النجف ـ **والذي تكرر في كربلاء** ـ كما في الديوانية كما في الناصرية وفي عشرات المناطق الأخرى، ذلك المشهد الدامي، كان في ذاكرة كل من كان في تلك التظاهرة، على الشاشة في ذلك اليوم..

ربما لم يكن في أرشيف شبكة فوكس نيوز صور لذلك المشهد، **لكن ذلك لم يكن ليضعف ذاكرة الجماهير، كان في الأرشيف الشخصي، المخبئ في وعي ـ ولا وعي ـ كل واحد من هؤلاء، صور دامية عن تاريخ دامٍ من الاضطهاد والقهر والكبت..**

وفي كل الأحوال، فقد كان ذلك المشهد، الذي لم تحتفظ شبكة فوكس بصور عنه في أرشيفها، موجود **كسيناريو وكخطة وكمؤامرة**، وفي ملف ما، درج ما، من أرشيف المخابرات المركزية الأمريكية التي أشرفت على كل تفصيل صغير في المشهد، **كجزء أساسي، لابد منه**، من أجل الوصول إلى المشهد النهائي **المتمم** .

المشهد الذي يقتحم فيه الغزاة المدينة، وهناك من يقول؛ لسبب أو لآخر: **نعم**.



بطريقة استثنائية جداً ـ **كما كل الأمور القدرية** ـ يرتبط بيت جدي في ذهني ووعيي

بذلك الاضطهاد الاستثنائي الذي مرَّ به سكان النجف وكربلاء، وبذلك الكرب والبلاء الذي مرَّ به كل من كان يتوجه بأنظاره إليهما..

أكثر من ذلك، ارتبط البيت نفسه، **وعبر نفس المحور بمصيري بشكل مباشر أعني: بمصيري المهني، بمستقبلي الدراسي بدون أي استخدام لأي مجاز لغوي؛ كيف ذلك ؟**

كيف يرتبط بيت ـ **كان قد انهار وانتهى** ـ في الوسط السني لبغداد، بعذابات الشيعة في الجنوب، وبمصيري الدراسي والمهني..؟

للوهلة الأولى الارتباط صعب. لكن في واقع تختلط فيه الأوراق، وتلتبس فيه الرموز، وتتبادل فيه المواقع، لا شيء صعب حقاً، ولا شيء مستحيل تماماً..



عندما ولدت، كان البيت قد انهار تماماً.

في الحقيقة، كان عمري أربعة أشهر عندما أبلغوا رسمياً بأن عليهم إزالته بشكل نهائي، بسبب خطورته على السكان المجاورين من جهة كونه آيلاً للسقوط..

كان **أكبر بيت في بغداد** قد تدهور تدريجياً، منذ أن اقتطع جزء منه من أجل الشارع، ليسَ بسبب الإهمال فقط وصعوبة الصيانة، ولكن تيار الزمن، **فجأة** تسارعت وتائره بعكس اتجاه البيت.

وعندما أُعلنت الجمهورية بعدها بسنة، اجترأ الناس أكثر فأكثر عليه، **فجأة** فقد جدي جزءاً من هيبته المنتمية للعهد الذي أبيد وسحق وسحل بعضاً من رجالاته بالحبال في الشوارع.. وكان ـ **كتحصيل حاصل** ـ أن فقد البيت هيبته..

بدأ الناس في المنطقة، التي تعرضت هي الأخرى لتغييرات طبيعية صاحبت الانقلاب غير الطبيعي، بدؤوا يرمون بالقمامة والقاذورات والنفايات في البيت المهمل، واسع الأرجاء، المهدم من بعض أجزائه..

أفكر الآن بالأمر بتجرد، فأرى في ذلك السلوك مظهراً طبيعياً من مظاهر التمرد..

كان الوقت قد انقلب، والمائدة قد انقلبت، وتبوأت السدة ثُلَّة من الشيوعيين وأشباههم وأضرابهم، وارتفعت شعارات معادية لكل من كان يمتلك بيتاً أصلاً .. فكيف إذا كان أكبر بيت في بغداد.

وكان من الطبيعي، أن يرمي أولئك الذين يعيشون في بيوت صغيرة، **(صغيرة لدرجة أنها لا تكاد تكفيهم)**، بنفاياهم وقمامتهم في أكبر بيت ببغداد القديمة آملين بأن بغداد الجديدة ستكون أكثر عدالة وتوازناً، وستتسع للجميع دون تمييز طبقي، كانت قمامة أيدلوجية تماماً، لكن ذلك في البداية فقط، في أول الفورة التي ارتفعت فيها الشعارات وعلّقت فيها الحبال..

مع الوقت ـ كما أتصور ـ صار الأمر روتينياً تماماً محض كسل وتخلص من القمامة في أقرب مكان، دونما أيديولوجيات . دونما شعارات..

زاد الأمر أن أهل المحلة الأصليين بدوا ينتقلون ـ **بالتدريج** ـ إلى الأحياء الحديثة، وحلَّ محلهم، بالتدريج أيضاً، أناس زحفوا على العاصمة من خارجها، في ظاهرة عرفها العالم بأسره في تلك الفترة والفترات اللاحقة، وعرفت باسم الهجرة من الأرياف، وجلبوا معهم سلوكيات ومظاهر ربما كانت غريبة عن الجيرة البغدادية وسلوكياتها العريقة.

وزاد الأمر مع الوقت، نفايات وقمامة وأيادي العابثين السارقين، التي امتدت لتسرق حتى الشبابيك وزخارفها ونقوشها على الجدران..

وصار البيت مرتعاً للمراهقين والخارجين عن الأعراف والتقاليد وسلوكياتهم المنحرفة، وصارت الأمهات في المحلة تحذر أطفالهن من الدخول إلى «**الخرابة**»..

نعم، بعد عشر سنوات من أول استقطاع (هدم) من البيت، صار **«أكبر بيت في بغداد»** ، يسمى **«خرابة»**.

نهاية مؤلمة لذلك التاريخ الطويل، وحلقة حزينة أخيرة لتلك السلسلة من الانجازات.

وبعد ذلك كله ببضع سنوات، وكان عمري وقتها أربع أشهر فقط، بُلِغت والدتي رسمياً بأمر الإزالة الذي أصدرته الأمانة وقتها..

في الحقيقة إنها لم تبلَّغ؛ إلا لأنَّ الأمانة شاءت أن تغرِّم أهلي تكاليفَ ونفقات هدم البيت وإزالة أنقاضه..

وكان الأمر مؤلماً جداً لهم ـ **كما أتصور** ـ أن يجبر شخص على دفع تكاليف هدم وإزالة البيت الذي كان ملعب صباه ومرتع نشوئه، وأيضاً هويته واعتزازه، وكيانه، **ولم**

يكن الأمر غريباً جداً في ذلك الوقت، إنها السبعينات والحزب الواحد يتصدَّر سُدَّة الحكم، ويتصدره أنصافُ متعلمين وأشباهُ عسكريين، ويتعاملون مع الجميع بذات الأسلوب القمعي الشمولي.

وكانت أمي محظوظة جداً؛ لأنها لم تجبر على دفع غرامات مماثلة غير تكلفة هدم منزلها.

فقد جاء زمن، تجبر فيه الأمهات، والأشقاء، والآباء **على دفع ثمن الرصاصات التي أعدم فيها أولادهن** إخوتهم وأبناءهم.

ولم تكن جثث المعدومين تسلم لذويهم، قبل أن تستوفى منهم أجور الرصاصات التي أودت بهم في ساحة الإعدام، كان ذلك يحدث حقاً ـ **رغم أنه لا يكاد يصدق ـ لكنه كان يحدث** ـ لم تكن الدولة فقيرة لهذه الدرجة في أي وقت من الأوقات، لكن الزبانية كانوا مبدعين دوماً في الإيذاء والقهر والقمع، لم تكن القيمة المادية للرصاصات والتي لم يتجاوز عددها الخمسة في كل الأحوال، إنما كانت القيمة المعنوية هي ما يريدون، كان استيفاء أجور الرصاصات من ذوي المعدومين، وعند استلام جثثهم بالذات، يصوب هذه الرصاصات نحو رؤوس هؤلاء، يبقيها هناك، أو يطلقها عليهم ـ يقتلهم بها ـ **أو على الأقل يقتل فيهم انتماءهم** ـ يقتل فيهم حبَّهم لوطن يعدم أبناءه ويطالب أيضاً بثمن الرصاصات.

ومحظوظة أمي، محظوظة كل أم في وطني لم تلبس السواد على ولد لها، راح ولم يعد في النزوات والغزوات والحروب التي استنزفت من الأمهات فلذات أكبادهن .

ومحظوظة أمي، ومحظوظة كل أم في وطني، لم تضطر لدفع ثمن الرصاصات التي أودت بحياة ابنها، ولم تستلم إيصالاً دموياً، يذكرها طول العمر بأنها شاركت ـ **ولو قسرياً ـ في قتل ابنها..**

ومحظوظة هي الأم التي استطاعت أن تلبس السواد على ابنها، واستطاعت أن تنوح عليه علناً، دون أن يأتي رجال الأمن، ليذكروها بالتعليمات التي تليت عليهم مع استلام الجثة: **ممنوع إقامة العزاء. ممنوع لبس الحداد. ممنوع إعلان طريقة الوفاة.**

محظوظة هي أمي، رغم أنها لم تدرك ذلك قط، ورغم أنها دفعت ثمن هدم منزل أبيها ورفع أنقاضه.. إلا أنَّ ذلك أمرٌ لا يعد شيئاً بالمقارنة مع ما جرى طيلة عقود..

تمَّ إعدام البيت إذن وأنا ابن أربعة شهور، لم يبق منه سوى جزء من طرفه الشرقي المواجه لباب جامع السيد إبراهيم، ولا أذكر شيئاً سوى أن أمي قالت لي بوجه جامد، وهي تشير بأصبعها إلى نافذة غرفة كانت لاتزال باقية، قالت لي: **إن تلك كانت غرفتها** كانت تصحبني في مشوار لها، لم أعد أذكره الآن، في تلك الأزقة الضيقة، كنت في التاسعة أو العاشرة من العمر، وأذكر أنها شدَّت على يدي، كما لو **كانت تتشبث بالمستقبل في وجه الحاضر من أجل الماضي..**

كانت غرفتها، وغرفة أخرى تحتها هي كل ما بقي ذلك الوقت، وكانت قد أجرتا قبل ذلك كدكانة لنجار شاب سرعان ما اختفى في ظروف غامضة، وعلم أنه قد ألقي القبض عليه؛ لانتمائه لحزب الدعوة المحظور، والذي كان برسم الإبادة الشاملة في ذلك الحين..

لم يظهر النجار الشاب أبداً بعدها، ولعله لن يظهر أبداً، ولم يجرؤ أي أحد من العائلة على كسر الباب واقتحام الدكان أو الاتصال بعائلة النجار من أجل إنهاء الأمور معهم..

بمزيج من الأمانة **(تجاه النجار)** والخوف **(تجاه السلطات)** والإهمال **(تجاه كل شيء)** بقيت الدكانة مغلقة الأبواب لما يزيد عن خمسةَ عشر عاماً.. ولم تفتح إلا في أواسط التسعينات، وبأمر قضائي من المحكمة..

هذا ما كبرت عليه، أكبر بيت في بغداد، ليس سوى حكاية تلهب خيال الطفل الجامح خياله أساساً ، أسطورة من أساطير الأولين، مقدسة ومعتبرة ولكنها، غير واقعية.. بلا مصداقية وبلا إمكانية للصمود..

هذا ما كبرت عليه، أكبر بيت في بغداد، **ليس سوى خرابة أزيلت، وصارت أرضاً خلاءً، ودكانة اعتقل صاحبها ولم يرجع قط، ونافذة علوية مشرعة باتساع على الأزقة البغدادية الضيقة..**

وعندما كبرت أكثر، كان أكبر بيت في بغداد قد تحول ليصير مرآباً متوسط الحجم للسيارات في وسط بغداد، كان هذا هو الواقع، البيت الذي استقر فيه التاريخ لفترة، صار في نهاية الأمر، محض موقف عابر لسيارات عابرة يقودها أناس عابرون..

لكن ـ **أيضاً** ـ كان ذلك المرآب، يدر مبلغاً مادياً مجزياً جداً، لا أنكر أنه أنقذ الأسرة من بعض المشاكل، في ظروف متقلبة عبر الحصار وغيره..

وفجأة، وكما لو كان القدر يريد أن يقول لي: إن حقيقة الأمر غير ظاهرة، وإن التاريخ لا ينتهي حقاً ـ كما قد يبدو ـ انتفض البيت من قبره، من تحت التراب الذي دفن تحته، ليتكون، ويتشكل، ويتدخل في تحديد مصيري..

❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂

كنت أعد أوراقي للتقديم على الدراسات العليا، مستعيناً بالصبر الذي لابد منه، مع أي مراجعة إدارية روتينية في دهاليز الدوائر والمؤسسات الحكومية .

وكأي مواطن عراقي، كنت قد تعودت، أن أتسلح بمجموعة من الأوراق الثبوتية التي لا غنى عنها في أي معاملة رسمية مهما كانت بسيطة..

كانت خمس أو ست أوراق، تحتاج إليها في كل حين، وعليك أن تضعها في حرز حصين، إذا ضاعت فقد ضعت شخصياً، فلا شيء سواها يثبت أنك مواطن في هذا البلد العظيم، وبما أن حقوقك ـ **كمواطن** ـ معدودة جداً إنْ لم تكن معدومة أساساً، فإن فقدانها سيعني ضياعك حرفياً، وبكل ما يعني للكلمة من إهدار لوقتك وأموالك، حتى لا أقول آدميتك وإنسانيتك..

والويل ثم الويل لمن صادف، وفقد هذه الأوراق جميعاً، دفعة واحدة، فاستخراج بدل ضائع عن أي منها يرتبط بوجود الأوراق الثبوتية الأخرى، وعندما تضيع جميعاً ستجد نفسك في متاهة من الدهاليز والإداريات ودروب الروتين التي لن تبدأ في مركز الشرطة حيث ستبلغ عن الفقدان كحادثة بوليسية، ولن تنتهي في مبنى الجريدة وأنت تدفع مبلغاً لإعلان، **لن يقرأه أحد** عن فقدان هذه الأوراق، كل على حدة..

وفي خضم ذلك كله، سيواجهك رجال الشرطة والأمن الذين تراجعهم بنظرات الشك والريبة، وقد يضعونك تحت مجهر تحرياتهم، فأنت ـ **كمواطن** ـ متهم حتى لو أُثبتت براءتك، فكيف بك و أنت قد أضعت إثباتات مواطنتك، ألا يعني ذلك قطعاً ـ **أنك تروم شيئاً ما ؟.. وأنك بصدد شيء ما** ـ شرير ومعادي للحكومة والنظام..

كل ذلك من أجل حفنة من الأوراق تثبت انتماءك لوطن سبق ودفعت ضريبة انتمائك له من دمك وعرقك وأعصابك وغذائك وحليب أطفالك، ولم تشعر قط بالحاجة إلى هذهِ الأوراق لتكرس عندك انتماءك..

كانت هناك من ضمن الأوراق تلك هوية الأحوال المدنية، التي لا تفصح أبداً عن

حقيقة أحوالك، وكانت هناك شهادة الجنسية منحوها لك كما لو كانت منّة عليك وكرماً منهم، وكانت هناك البطاقة التموينية التي تمنحك كل شهر النزر اليسير الذي لا يكفيك، والتي يذكرك بشكل غامض بأن العالم كله متآمر عليك بشكل شخصي جداً، وهناك أيضاً بطاقة السكن الصادرة من مركز الشرطة، والذي سيحدد إذا كنت قد تورطت في جريمة ما أم أنك **بعدُ** غيرُ متورِّط، وستؤيد ذلك مضبطة لتأييد السكن يصدرها مختار المنطقة الذي لم تساهم في اختياره، ولم تعرف قط من اختاره، وما المنطق في اختياره، كل ذلك، وأكثر، أحياناً، وبنسخ تحتاج إلى تحديث دائم أحياناً أخرى، كنت تحتاجه في كل خطوة تخطوها في أي دائرة من دوائر الدولة، إذاً أردت التزوج.. أو أردت التوظف، أو أردت الإنجاب.. أو حتى إذا أردت أو أرادت السماء أن تموت ثم تدفن، فلا بد أن تكون معك تلك الأوراق في رحلتك إلى الآخرة..

ومن باب أولى، أن تكون معك.. إذا شرعت في التقديم للدراسات العليا.. كما فعلت أنا..



كانت أوراقي كاملة قبل فترة، بالإضافة إلى بعض المستندات الأخرى الضرورية فقط من أجل التقديم للدراسات، وكان الأمر يسير في طريقه الروتيني المعتاد إلى أن صدرت تعليمات، من مكان ما **(فوق)**، وقبل انتهاء فترة التقديم بفترة لا تزيد عن أسبوع، بإضافة مستند آخر، يثبت **(رعوية)** المتقدم للدراسات العليا..

ومصطلح **(الرعوية)** الذي انتشر بعد هذا القرار بالذات، هو مصطلح يعني أن أي أحد من أجداد المتقدم ـ **سواء من الأب أو الأم** ـ لم يكن من رعايا دولة أجنبية..

وبما أن العراق، لم يكن قد صار دولة بعدُ في عهد هذا الجيل ـ **على الأغلب** ـ فإن العراقيين كانوا وقتها رعايا لدولة **(أجنبية حالياً)** اسمها تركيا، وكانت وقتها تسمى الدولة العثمانية..

ولأسباب مختلفة، أهمها الرغبة من التهرب من التجنيد في جيش دولة حروبها لاتنتهي، فقد سجل البعض أنفسهم كرعايا لدولة أخرى، أجنبية أيضاً حالياً، وهي إيران..

وكان من الواضح تماماً، أن قرار إثبات **«الرعوية»** هذا، الذي طلب إثباته في التقديم للدراسات العليا لم يكن موجهاً ضد العراقيين ممن هم رعايا للدولة العثمانية ـ وإلا كان

صار موجهاً ضد الجميع وضد نفسه أيضاً..

لكنه، كما هو واضح تماماً أيضاً، كان موجهاً ضد هؤلاء الذين كانت **رعويتهم** تتجه نحو إيران..

وكان هؤلاء ـ **في معظمهم** ـ قد تعرضوا للتهجير والطرد ولإسقاط الجنسية عنهم، في حملات متعددة، انتهت بوضع مئات آلاف منهم على الحدود الملتهبة بين العراق وإيران، بل بوضعهم في حقول الألغام في بعض الأحيان..

ماذا يريد هذا القرار منهم، وقد هجروا وطردوا وصودرت أملاكهم وبيوتهم وذاكرتهم وكل تفاصيل حياتهم ؟.

آه. هناك استثناء بسيط بالنسبة لقرار التهجير السابق، جاء هذا القرار الجديد ليطارد المستفيدين منه ويلاحقهم حتى الرمق الأخير..

كان هذا الاستثناء والضيق يمنح فرصة البقاء للمرأة التي تبعيتها إيرانية إذا كانت متزوجة من رجل تبعيته عثمانية .. وبعد حوالي عقدين من هذا الاستثناء. جاء هذا القرار ليطارد أولاد تلك المرأة.

لا تهجير هذه المرّة. ولكن منع من الدراسات، منع من التطور، منع من الالتحاق بالمناصب.

لا تهجير، ولكن إصرار على الغباء، إصرار على الاقصاء، وعلى الاستعداء.. إصرار على منعهم من الاحساس بالانتماء..

أعترف : لم يكن الأمر يعنيني أكثر من كونه مجرد مراجعة روتينية أخرى في دائرة حكومية، كنت قد أسندت ظهري مرتاحاً لحقيقة أنّ تبعية والدي عثمانية، ولم يكن هناك أي مشكلة سوى الوقت اللازم لاستصدار الإثبات، وكان ضيقاً أصلاً وعلى وشك النفاذ، لكن ثقتي هذه اصطدمت بذلك الغباء البيروقراطي المرتدي البزة العسكرية، والذي يمثل خلاصة ما وصلت إليه السلطة في زمننا ذاك..



نظر إلي كما ينظر قط إلى فأر وقد وقع في المصيدة:

«أريد أن أتأكد من شهادة جنسية والدتك» .

كان ضابطاً برتبة لم أعد أذكرها ، لكن ليس أقل من رائد، وكان متسلحاً بذلك النسر على كتفيه، وبالشاربين على شفتيه، وبذلك اللقب العشائري المهم المكتوب على اللوح الخشبي على مكتبه..

وكنت مجرد فأر مذعور وقع في الفخ، بينما كان يريد التقديم للدراسات العليا ـ **ووقته يكاد ينفذ ـ** .

أعتقد أنني بدوت غبياً جداً أمام سيادة الضابط عندما ناولته شهادة جنسية والدتي، وكانت عنده في الملف أمامه نسخة منها..

نظر لي من عليائه، نظرة كانت مغزاها ،هل أنني غبي فعلاً أم أنني أتغابى..

كتب شيئاً على الأوراق أمامه، ودفعها باتجاهي، حركة كانت معناها : أنه يسمح لي بالانصراف..

في الممر خارج غرفته وقفت أحاول أن أقرأ ما كتب، فشلت في ذلك، كان خطه لايتناسب مع هيبته وشاربيه والنسر الرابض على كتفيه، سألت واحداً من الجنود الموظفين عن الشيء المكتوب على الأوراق، نظر بخبرة وقال لي على الفور : «**صحة صدور ؟ أنه يرسلك إلى مديرية الجنسية العامة..**» .

كان ذلك بعد أربع ساعات من الانتظار..

وكان الوقت يكاد ينفذ.



انتظار آخر. في بناية أخرى ـ **ضابط آخر** ـ لكن هذه المرة لم أره.. ظل خلف تلك الأبواب المغلقة..

بعد عدة ساعات، أطل جندي من خلف الباب وقال : « **تعال غداً**».



يوم آخر ... وانتظار آخر..

و «**تعال غداً**».. أيضاً و أيضاً.

❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂

وكان الوقت ينفذ حقاً..

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

وأخيراً، الورقة المطلوبة كتابٌ رسمي من مديرية الجنسية العامة يؤيد صحة صدور شهادة جنسية والدتي، ويذكر السياقات التي أصدرت على أساسها، وكانت سياقات عادية جداً، مستندة على شهادة جنسية سابقة لشقيقتها، والتي أصدرت أصلاً عند دخولها للكلية، بحضور المختار وشهادة اثنين من الجيران ـ **وكانا اسمين مألوفين جداً تذكرت أني أعرف أبناءهما** ـ.

أخذت الأوراق، كما لو كانت طفلاً وليداً طال انتظاره، وتصورت أن الأمر انتهى عند هذا الحد..

وكنت مخطئاً..

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

مرّة أخرى، النسر والشاربين، العشيرة المهمة على اللوح الخشبي.

من فوق الشاربين كانت هناك نظرة جديدة، رماني بها بعدما رأى الكتاب الذي جئت به، نظرة كان مفهومها : **وقعت يا شاطر !** .. رغم أني لم أفهم ما الذي وقعت فيه بالضبط..

قال لي: "**لماذا شهادة جنسية والدتك أصدرت بناء على شهادة جنسية شقيقتها.. وليس شهادة جنسية والدها ؟**

بدا لي سؤاله سفسطة لاتفسر إلا بأنه يتقصد تأخير معاملتي من أجل أن أدفع له..

وكنت مستعداً للدفع أكثر من أي شيء، لكن في داخلي كان لايزال هناك الاحترام لتلك الرتبة ولذينك الشاربين، ولم يكن من الممكن أن أتجاوز تلك الحواجز دونما وساطات ووسائل تقريب..

أجبته ببساطة: «**لأن جدي لم يدخل الكلية في وقتها، فلم يحتج إلى شهادة جنسية، بينما دخلت خالتي الكلية فاحتاجت إلى إصدارها**».

ولم أقل له: إن جدي كان قد تخرج فعلاً من الكلية قبل نشوء الدولة العراقية؛ لأن ذلك كان سيستفز النسر والشاربين بأكثر مما احتمل من نتائج..

أعتبر ما قلته نكتة، ولم يضحك لها.. أجابني بحدّة: «**أثبت لي أن جدك كان عراقياً وبعدها ستحصل على رعويتك**».



في الممر خارج الغرفة كان رأسي يدور «**أثبت لي أن جدك كان عراقياً**»، بدت جملة غير مفهومة بالنسبة لي، إلى هنا كان الأمر لايبدو أنه أكثر من سياقات الروتين التعقيدية التي ستعملها الموظفون، إما إيماناً منهم بالسياقات، أو إيماناً منهم بأن هذه السياقات ستحث المراجعين على دفع ثمنٍ مُجْزٍ من أجل فك عقد الروتين..

لكن الآن، ومع هذه الجملة، كان هناك تلميح آخر لم أفهمه، ولم أستسغه ولم أهضمه ..«**أثبت لي .. أن جدك..**» .

قال لي الجندي الواقف على الباب: «**مابك ؟ ألا تفهم ؟ انظر إلى لقب جدك..**».

هبطت عيني من وجهه إلى الورقة في يدي، لأنظر إلى لقب جدي .. كما لو كنت أتعرَّف عليه للمرّة الأولى..

نظرت إليه، وبدا أني أراه للمرة الأولى فعلاً.

بدا غريباً جداً بين الألقاب الرائجة والسائدة حالياً، وألقاب تستند على العشيرة، أو على الجد وتضيف له «**الـ التعريف**»، تنتسب إلى المدينة أو المنطقة التي جاءَ منها الجد الأول..

كان لقب جدي مجرد لقب مهنة ينتمي بجذوره إلى العهد العثماني، وكانت العائلة

ـ **حتى في وقت عزها** ـ صغيرة الحجم وقليلة العدد، فكيف بها وهي تكاد تنقرض اليوم.. بالتأكيد يبدو اللقب هجيناً وناشزاً..

« **وغير عراقي**»

تلعثمت وأنا أقول للجندي: «**كان جدي عراقياً**» .

قال الجندي وهو يحول ببصره عني: «**ربما، لكن سيادة الضابط يظنه إيرانياً..**» .



كنت متوتراً جداً عندما عدت للبيت، لم يكن الأمر تهمة، ولم أكن لأكترث له أو أعتبره سوى نكتة لو لم يكن مصاحباً لتقديمي للدراسات العليا، ولو لم يبق على

المهلة المحددة سوى ثلاثة أيام..

قالت لي والدتي مغتاظة : **لماذا لم تقل له: إنه كان من مؤسسي الدولة العراقية؟**.. فكرت أن رد فعل النسر والشاربين تجاه قول كهذا سيكون غير مؤدبٍ على الأكثر..

أجبتها : ألم يكن من الأسهل أن يكون لجدي شهادة جنسية كما بقية الخلق ؟..

ردت علي بتبرم وهي تبحث في الجرارات : لم يكن ليحتاج أصلاً إلى إثبات هويته إذا دخل إلى أي مؤسسة حكومية، كان معروفاً جداً، وكان الموظفون يخجلون من أن يطلبوا منه إثباتاً لجنسيته..

جزرت على أسناني وأنا أقول : **ألم يكن من الممكن أن يحترم القانون ويطبقه شخص درس القانون مثل جدي ..**

كانت ـ **على غير عادتها في ظروف كهذهِ** ـ متفهمة، قالت لي: إن الحاجة إلى شهادة الجنسية في ذلك الوقت لم تكن ملحة، كما هي اليوم «**لم نكن نحتاجها في كل خطوة نخطوها كما اليوم**».

كان ذلك واضحاً، ولكنه لم يكن يكفي.

وكانت أمامي كومة من الأوراق والمستندات، عليّ أن أستل منها إثباتاً يقنع سيادة الضابط بأن جدي كان عراقياً..

خلال ثلاثة أيام فقط..



خلال هذه الأيام الثلاثة، كنت أقوم برحلات مكوكية أنقل فيها ما يقع تباعاً في يدي من وثائق قد تثبت لحضرة الضابط عراقية جدي، كانت هناك هويات مختلفة. منها دفتر للنفوس لعام ١٩٤٧، وآخر لعام ١٩٥٧، وأيضاً جوازات سفر ـ لم أبينها جميعاً فقد كان مثبتاً فيها أنه زار إيران. إثبات للتهمة كنت في غنى عنه في تلك اللحظة..

رغم ذلك، لم يكن شيء من هذا ينفع..

إنه يريد شهادة الجنسية.

عليّ أن أقر هنا، أن الضابط كان شريفاً، لم يكن عنده أي نية إيذاء، أو رغبة في الاضطهاد، كان ينفذ التعليمات، حسب السياقات التي تعلم أن ينفذها بها..

لم يكن يحاول الضغط عليَّ لدفع الرشوة، رغم أن تفسيراً كهذا كان جاهزاً وواردا لكن أعترف : لم يكن هناك أي شيء من هذا معه، لا تصريحاً و لا تلميحاً ولا أي شيء. بل إني عندما حاولت فتح قناة وسيطة معه، **عن طريق الجندي الواقف على الباب** ـ كما هي الأصول في حالات كهذهِ، صدني الجندي معلقاً : إن الضابط ليس من هؤلاء..

كان شريفاً مثل آلاف الضباط العراقيين الذين وضعهم الحظ العاثر في السياق الخطأ والوقت الخطأ، ـ **لم يكن سيئاً كإنسان، لكنه كالآلاف غيره**، وضع في مواضع شديدة السوء وأخذت عنه قرارات شديدة الخطأ، وما كان عليه ـ **كعسكري** ـ سوى أن ينفذ..

ربما لو التقيت به في مكان آخر، لتجاذبت معه أطراف الحديث ـ **كان يبدو ودوداً ولطيفاً** ـ لكن الآن، والنسر والشاربين، وهذا اللقب المهم ـ وخلفها جميعاً رأس لايقتنع إلا بالسياقات الواضحة أمامه والتي كان جدي ـ **حسبها** ـ ليس عراقياً..



قلت له، وأنا أحاول الاستعانة بقواعد المنطق الأرسطي معه، وصبري ووقتي يكادان ينفذان : «**هل تعقل يا سيدي، أن يكون وزير الخارجية العراقي إيرانياً ؟..**» . كانت هذه هي المرة الأولى التي ألوح فيها بهذه الورقة. لم أكن قد نوَّهت قبلها بالمناصب التي تقلدها، حتى لا يفهم الأمر بأنه نوع من التباهي..

وكنت أعتقد، عندما اضطررت أخيراً أن أستعمل هذه الورقة؛ أنها ستكون القاضية..

كنت مخطئاً بالتأكيد..

قال، وعلى شفتيه ابتسامة هازئة وواثقة من نفسها : «**وما علاقة هذا بالموضوع، ألم يكن جورباتشوف في نهاية الأمر «تبعية» ؟**» .

هكذا ـ **وبكلمة واحدة** ـ فسر الضابط انهيار الاتحاد السوفياتي السابق.. وربط الأمر بقضية تقديمي للدراسات العليا.

لم يكن من الممكن مواصلة النقاش معه، وكنت بالتأكيد لا أريد أن أسمع آراءه في السياسة الدولية والحرب الباردة..

كان من الواضح أنني أتعامل مع صخرة عنيدة، كان من الواضح على وجهي خيبة الأمل والإحباط .

قبل أن أصل إلى الباب، استدار لي وقال: **«ما دام كان وزيراً كما تقول، فهل بقيت لديكم سند طابو عثماني باسمه ؟»** .

قلت ملهوفاً: **«نعم، بالتأكيد».**

ثم استدركت: **«أظن ذلك».**

أجابني: **«هاتها إذن».**

«ممكن أن تنفع»!



من بين كل الوثائق، والمستندات والهويات، بنسخها الأصلية والمصدقة، والصادرة عن الدولة العراقية، فإن الذي اعتمده الضابط، في النهاية، لم يكن سوى ورقة صادرة عن الدولة العثمانية وبختم الباب العالي..

نعم، ورقة طابو عثمانية، مصورة بالنيجاتيف الأسود، تروي بالمختصر المفيد حكاية انتقال الملكية من شخص إلى آخر، وصولاً إلى **«العراقي ابن العراقي» .. جدي ..**

وكان هذا هو المطلوب..

كل الوثائق الأخرى لم تنفع، كل الأختام وكل التوقيعات وكل الرموز ابتداءً من شعار الملكية إلى نسر الجمهورية .. ـ كلها لم تقنع الضابط.. وحده **(الطابو العثماني)** كان مقنعاً للدولة العراقية. ويالالتناقض .. ويالغرابة..

كل الحقائق والتفاصيل المادية والشاخصة لم تقنع السياقات العسكرية وسلسلة المراجع وقوانين مديرية الجندية، **ولاحتى حقيقة واضحة ماثلة أمامهم : أنني عراقي وكل ما أريده هو التقديم للدراسات .**

كل الذي نفع، هو ذلك البيت الذي كان قد انهار وصار قاعاً صفصفاً.. أمتار وأحجار وبقايا تحت الأرض..

وورقة ملكية **سوداء ومصورة وشبه مهترئة عليها** ذلك الختم بالطغرة العثمانية..

كانت مفارقة غريبة.. **أن البيت المنهار في النهاية هو الذي أقنع الدولة الموشكة على الانهيار..**

وأن **ختم الدولة التي أبيدت، هو الذي أقنع الدولة التي تكاد توشك أن تباد..**

لا شيء بالصدفة، فكل أمر يحمل معه دلالاته ورموزه، وأيضاً يحمل معه خطوط نهاياته..

لا شيء بالصدفة حقاً في هذا العالم المحكوم بالسنن، لو أننا تأملنا قليلاً في ما نتوهمه تفاصيلَ عابرة، لوجدنا الرموز والدلالات مقيمة هناك..

قبل السقوط، **أتذكر أن الختم الوحيد الذي أقنع الضابط، هو ختم الدولة العظمى التي كانت، ثم سقطت ولم يكن ذلك مصادفة..**



سارت المعاملة بعدها بشكل سريع، ولم تنقض فترة طويلة حتى كنت قد قبلت فعلاً في الدراسات العليا..

لم يبق من تلك الفترة العصيبة غير تلك المرارة المتخلفة في فهمي من تلك البيروقراطية الظالمة التي يختلط فيها الروتين بالغباء بالظلم بالتميز العنصري..

وبقيت تلك النكتة عن جورباتشوف مثالاً عن ذلك كله..



لكن، هناك الآن، وربما حتى في وقتها : **ماذا لو لم تكن هناك ورقة سند طابو عثماني ؟ ماذا لو أنها فقدت، تلفت، أو أهملت عبر تعاقب العهود، وتجديد وثائق الملكية الضروري واللازم حسب التعليمات الإدارية..**

ماذا لو لم تكن هناك ورقة سند ؟

سؤال آخر : ماذا لو لم يكن هناك طابو **أصلاً**، لكي يكون هناك سنده وورقته؟

ماذا لو كان جدي رجلاً بسيطاً : حمالاً ، نجاراً أو نحاساً في سوق الصفافير..

ماذا لو كان لا يمتلك بيتاً ولا سنداً عليه ذلك الختم العثماني ؟ أكان على حفيده أن لا يقبل في الدراسات العليا، لمجرد أن جده لأمه كان رجلاً فقيراً..



وسؤال آخر، **أكثر أهمية وإلحاحاً** : وماذا لو كان جدي إيرانياً، سواء كان إيرانياً فعلاً، أو أنه سجل كذلك لهذا السبب أو ذاك..

ماذا لو كان إيرانياً فعلاً ؟ **ألم يكن هذا التنوع العرقي** مصدراً للقوة والغنى والخصب طوال قرون متعاقبة ؟

ألم يكن تنوع الأعراق، **وتعدد الأعراق** وتنافس الأعراق، **هو الذي جعل العراق** عراقاً ؟

ألم يكن تنافس الأخوال والأعمام، **من عرب وكرد وترك وفرس وبربر وأفغان** مصدراً للتجاذب والشد في الشخصية العراقية ؟

ألم تنصهر كل هذه الأعراق، **وتلتحم معاً، وتنسجم معاً** ، في بوتقة بغداد، دون أن تلغي خصائصها تماماً، ولكن بأن لغت الحدود فيما بينها، ومنحت أفضل ما لديها ليصب في بحر واحد **هو العراق**..

ألم يكن الإخلال بهذا التناغم، بالتمييز ضد عرق معين، **ونسب معين، ظلماً مُورس ضد الصورة كلها** بكل تفاصيلها، وكل أعراقها، وكل أجناسها.. ؟

ألم يكن الإخلال بهذا الانسجام ـ **بتهجير عرق، وبطرد عرق، وبحرمان عرق، ومصادرة ممتلكات عرق** ـ هو الذي زرع الألغام في الصورة بأجمعها.. وجعلها عرضة للانهيار والاحتراق .. في أي وقت ؟

⊛ ⊛ ⊛ ⊛ ⊛ ⊛ ⊛

بعد كل هذه الحيثيات، هناك اليوم سؤال أخير : **هل كان يمكن إلا أن تسقط النجف ؟**

هل كان يمكن لكل ذلك الظلم والقهر والاستبداد والاستعباد والتمييز إلا أن ينتج واقعاً هشاً يحمل معه بذور سقوطه وإرهاصات انهياره ؟

هل كان يمكن لكل ذلك الدهر الطويل من الاضطهاد، إلا أن ينتج لحظة السقوط المزرية المؤلمة المعلومة، والتي شاهدتها على شاشة التلفاز .. في ذلك اليوم الذي لا ينسى ..

وهل كان يمكن إلا أن تسقط النجف ؟

⊛ ⊛ ⊛ ⊛ ⊛ ⊛ ⊛

كان يمكن ـ بتاريخ آخر، وفكر آخر، وثقافة أخرى، أن تكون النجف هي الحلقة الأصعب، والحلقة الأقوى، فتاريخها حافل بالاستشهاد، وترابها مليء بالشهداء، وأبوابها عصية، وهواؤها، ـ حتى هواؤها ـ صعب المراس..

أقول كان يمكن..

لولا أن المسار كله وضع في خط آخر..

وسقطت النجف، ونقل سقوطها على رؤوس الأشهاد..



في نفس اليوم الذي شاهدت النجف وهي تسقط، **وكان جلدي يقشعر للمشهد،** في نفس اليوم، في ظهيرته تحديداً، علمنا أن الغزاة وصلوا إلى المَحمودية، **على بعد لا يتجاوز الثلاثين كيلو متراً من بغداد..** ، لم نكن متأكدين بالضبط من مسار الضفدع القفاز، الذي يحوم حول بغداد، ولم نكن نفهم كيف أنهم ـ **للتو** ـ قد دخلوا النجف على بعد مئة وثمانين كيلومتراً ـ **وكيف أنهم ـ في الوقت ذاته** ـ على بعد ثلاثين كيلو متراً من بغداد..

وكنا نعلل التناقض بما نسمعه أنهم يقومون بإنزال ليلي في بعض المناطق الخالية ـ **ثم ينصبون بعدها نقاط تفتيش على الطرق الفرعية الخارجية،** للإيحاء للسكان ولوسائل الإعلام **بأنهم قد سيطروا على تلك المناطق** ، كجزء من الحرب النفسية ..

كان ذلك مقنعاً إلى حد كبير في مناطق قاحلة وواسعة مثل الصحراء الغربية، **مع مقتربات مدن، مثل: راوة، وعانة، وهيت، وحديثة** ، تبعد مئات الكيلومترات عن بغداد، وعن مناطق القتال الساخنة..

كان مفهوماً أن يكون هناك فراغ في تلك المناطق. فراغ من التواجد العسكري والأمني والسلطوي مما يسهل على الغزاة القيام باستعراض العضلات ذاك..

كان ذاك مفهوماً ـ **وإلى حد ما مقبولاً** ـ مادام من المستحيل أن نتوقع أن تنتشر **قطعات الجيش**، لتغطي كل كيلومتر مربع من صحراء هائلة الحجم، **تغطي** ربما مساحة **ثلث العراق..**

لكن، كان هذا التعليل يبدو غريباً ومنذراً بالخطر، **عندما يتعلق بمنطقة لا تبعد أكثر** من ثلاثين كيلو متراً عن بغداد، وكنت تعدها طيلة عمرك من ضواحي بغداد، **بغض النظر**

عن التقسيمات الإدارية التي تسبق اسمها..

لم تكن أي من وسائل الإعلام قد ذكرت أيَّ نبأ مقارب بهذا الخصوص، ولو أني كنت قد سمعت النبأ من أي شخص آخر، لاعتبرت الموضوع مجرد إشاعة من الإشاعات الكثيرة التي نسمعها..

لكنه كان شاهد عيان.

وكان واضحاً على وجهه، على عينه، **أنه شاهد ما يقول، أنه شاهده** .. وكان واضحاً عليه أنه شاهد شيئاً مهولاً..



كان اسمه أبو داود، لم يكن ذلك اسمه، بل كنيته التي لا أعرف غيرها اسماً له..

ولم يكن له طفل اسمه داود، **فقد كان أفقر من أن يتزوج، لكن الكنية كانت لصيقة به، مثلما كان العوق الذي في رجله اليمنى سمة مميزة له ..**

كان أبو داود مؤذنا للمسجد، وكما كان هناك إجماع بين المصلين على عدم محبة إمام المسجد وخطيبه، فقد كان هناك شبه إجماع بين المصلين على محبة «أبي داود» والانسجام معه..

لم يكن مجرد مؤذنٍ، فقد كان متخرجاً من إحدى كليات الشريعة، ويتابع دراسته العليا **وكان يمتاز على الإمام والخطيب، وجوقة المعممين بصدقه وإخلاصه** ، إذا كان هناك من وسيلة حقيقية لتبين الصدق والإخلاص..

وفي المرّات التي كان فيها الخطيب يتغيب عن أداء صلاة الجمعة، كان أبو داود يصعد على المنبر، ويتمكن من لفت انتباه المصلين بدلاً من تذكيرهم بالتثاؤب .. كان يقص في الغالب مواعظ مؤثرة وموقظة، بدلاً من أيديولوجية اللف والدوران، وخطب الغموض والتعمية التي تعودوا عليها..

لم يكن مجدد القرن ـ **بالتأكيد** ـ لكن مقارنته بالآخر، كانت تجعله يبدو شيئاً كهذا !.

وكان من أهالي المحمودية..

قبل صلاة الظهر، في ذات اليوم الذي أعلن في صباحه سقوط النجف ، كان أبو داود واقفاً والمصلون حوله في حديقة المسجد أمام الحرم، وكان واضحاً أن لديه ما يقوله..

وكانوا يريدون أن يسمعوا..

وكان واضحاً على وجهه أنه شاهد شيئاً مفزعاً أذهله وأرعبه..

كان أبو داود يردد : **(الذي يسمع غير الذي يرى)، (الذي يسمع غير الذي يرى)**..

كان أبو داود قد ذهب إلى أهله في المحمودية للاطمئنان عليهم.. وعندما رجع شاهد هذا الشيء الذي أرهبه، والذي: أن تراه غيرُ أن تسمع به..



ماذا شاهدَ أبو داود في المحمودية ؟..

لم يشاهد مذبحة هائلة ارتكبتها قوات الغزو بدم بارد، لم يشاهد الرؤوس المقطعة والجثث المتفحمة، ولم يشاهد البيوت المتهدمة على رؤوس أصحابها..

لم يشاهد القنابل العنقودية تفقئ العيون وتقطع الأطراف، ولم يشاهد الحبالى وقد تقطعت أرحامهن بفعل الشظايا، وأطفال يولدون ليموتوا ساعة ولادتهم..

لم يشاهد السيارات المحروقة على جانب الطريق، وعلى بعد أمتار منها جثث لأشخاص حاولوا التشبث بالحياة ـ وعاجلتهم الرصاصات الغادرة..

لم يشاهد شيئاً من هذا. . [**أو أنه شاهده ولم يقل**] .. فقد كان كل هذا روتيناً متوقعاً لعله لا يستحق الذكر أو التعليق..

وكان بالذات لا يستحق أن تقول عنه: «**الذي يسمع غير الذي يرى**»..

لكن أبو داود رأى شيئاً أخر .. غير هذا كله..

لقد شاهد شيئاً أخطر من هذا كله، وأكثر إرعاباً من ذلك كله، وأكثر إرهاباً من ذلك كله..

كان يقص علينا ما شاهد، وعلى ملامح وجهه الذهول، والألم وأيضاً تشبث ساذج بعدم التصديق..

وكنا حوله، ملتفين نسمع، ونحن نتشبث أيضاً بعدم التصديق.

كان قد شاهد هولاً أكبر من كل مشاهد الترويع ـ **شاهد شيئاً لم يكن في الحسبان** ـ لم يكن قد دخل في دوائر التصور، لم يكن قد طرأ وقوعه على الأذهان..

شاهد شيئاً مهولاً..

شاهد ـ **فجأة** ـ : **نقطة تفتيش أمريكية** !..



نقطة تفتيش أمريكية..!



عندما أشرفت الحرب على الوقوع، كان كل منا قد أدى استعداداته لها بطريقة أو بأخرى، وكل حسب طاقاته..

كان هناك استعدادات المؤونة الغذائية، وذلك الخزن للمواد الأساسية الذي شكل جزءاً من تراث الحروب المتكررة والحصار المستمر.

وكانت هناك استعدادت المؤونة الدوائية، والتي تشمل على الإسعافات الأولية وأدوية المضادات الحيوية وأدوية السعال والإسهال كثيرة الاستعمال، إضافة إلى أدوية الأمراض المزمنة لأصحابها..

كان البعض مستعداً حتى لمواجهة حرب كيمياوية، بشراء الأقنعة الواقية من الغازات السامة ـ **رغم ارتفاع أسعارها** ـ ، وذهب البعض إلى حد شراء الدجاج الحي ووضعه في الحديقة من أجل أن يعمل كجهاز إنذار مبكر ـ حيث يفترض أن الطيور تستنشق الغازات السامة قبل البشر، ولا أدري علامَ استندت هذه الفرضية بالضبط..

كنا قد أعددنا عدة التجويع، وأيضاً عدة الترويع..

وكنا قد تهيأنا نفسياً، وتدربنا ذهنياً، لأشد مشاهد القصف والتدمير، ساعدتنا الصلاة والتضرع بالدعاء على الاستعداد للقنابل العنقودية والقنابل الفراغية والقنابل الكهرومغناطيسية، وتخيلنا المشاهد المروعة للموت القبيح وهو يخطف أحبابنا منا، ويسقط السقف علينا بينما نتراكض لنحمل بقاياهم..

كنا مستعدين للتعامل مع مشاهد كهذه .. ـ كانت في بالنا طيلة الوقت..

لكننا لم نكن قد تهيأنا، ولم نكن نعرف كيف نتهيأ، للتعامل مع المشهد المهول الذي شاهده أبو داود..

نقطة تفتيش أمريكية ..

نعم، لقد كنا أعددنا العدة لكل شيء ، إلا هذا..



ربما لم يكن النظام الذي يحكم بلدك أفضل نظام في العالم..

بل ربما أنه يتنافس على كونه الأسوء..

وربما لم يكن الوضع في بلدك، أفضل وضع لبلد في العالم، بل لعله كان سيترشح ليكون أسوء وضع..

وربما كان لديك ألف ملاحظة وألف انتقاد على الحكومة التي تحكم بلدك، وعلى رئيسها بالذات..

وربما كان صدرك ضيقاً بالعيش في بلدك، تعيش فيه وعيناك متجهتان صوب تأشيرة سفر وورقة إقامة في بلد آخر..

وربما كان عندك ألف سبب لتدعم شعورك هذا، ربما كنت قد دفعت الثمن من أحد إخوتك أو أخوالك أو أعمامك، ولعلك اضطهدت بشكل شخصي لهذا السبب أو ذاك..

ولعل كل الأيديولوجيات والشعارات التي تتغنى بحب الوطن كانت تبدو لك كئيبة وسخيفة ومُملَّة، مادام وطنك لا يجعلك تشعر بكرامتك فيه..

كل ذلك، نعم ـ وأكثر ـ أفهمه وأتفهمه وأتفاعل معه..

لكن كل ذلك ـ **وقل أكثر من ذلك** ـ سيبدو سخيفاً وبلا معنى، **كل ذلك سيكون لاشيء** أمام ذلك المشهد المروع المهول الذي لم يكن أحد منا مستعداً له، والذي فاجأ «أبا داود»، على غرّة..

إنها نقطة التفتيش الأمريكية !..

ربما كنت قد تعودت الإذلال من طيف واسع من الموظفين في بلدك.. من أصغر موظف استعلامات في أتفه مؤسسة حكومية، إلى أكبر مسؤول أمني من أولئك الذين يستطيعون إيداعَك أنت وأهلك وراء الشمس.

ربما تعودت الإذلال منهم، وتقطيبة جبينهم، والتعبيسة التي يواجهون بها أسئلتك، ربما تعودت على نفاذ صبرهم عندما يتعلق الأمر بك، ونباحهم بوجهك كلما خطر على بالهم ذلك..

وربما لم تتعود بالضبط، لكن أقسرت نفسك على قالب من إظهار الأدب والتهذيب أمام هؤلاء، بينما في داخلك بركان يغلي ويحترق ويهدد بالانفجار في كل حين..

وربما كنت تحمل حقداً لا حدود له **على كل شخص يمكن أن يمثل السلطة**، من أصغر شرطي مرور إلى أكبر رأس في النظام، وربما كنت تعد كل مسؤول في النظام مسؤول كل مذلة تعرضت لها بشكل فوري وشخصي، وتتمنى لو نال إذلالاً **لا حدود له**، كعقوبة له عن كل إذلال تعرضت له..

ربما كنت تعتبر أنْ **لاشيء، في العالم كله، أسوء من الوضع الذي أنت فيه.**

ولكن، رغم ذلك، رغم كل ذلك **فإنه قد يأتي عليك حين لتغير كل أفكارك**، وتكتشف أن كل ما كان **بالنسبة لما سيأتي**، لم يكن أكثر من مزحة عابرة.. ستأتي عليك لحظة **لن تفهمها**، لم تكن مستعداً لها، ولم تكن قد تهيأت لها، لكنها ستأتي عليك، بشعور جديد، شعور لم تتعوده، ولم تتخيل قط أنه سيمر بك، أو أنك ستمر به..

فجأة، وعلى حين غرّة، ولأنك لم تتهيأ الأمر، ستجد أن أرضك قد زلزلت، وكونك قد انهار، ومجرتك قد غيرت عنوانها..

فجأة سيصير ظلم ذوي القربى عدلاً قضيت عمرك وأنت تحلم به، سيغمرك نوع من الحنين الغامض الذي لن تفهم كنهه لشرطي المرور الذي اضطهدك، ولرجل الأمن في الاستعلامات الذي أذلَّك ..

لست **مازوشياً** ولا تحب أن يبرع الآخرون في إيذائك ..

ولكن **في الوقت ذاته**، ستفضل، وكخيار شبه فطري لا علاقة له بالعقل والمنطق والنظريات والأيديولوجيات، ستفضل أن يكون إذلالك على يد أبناء وطنك، **لا على يد نقطة تفتيش أمريكية..**

وربما لن تفهم أياً مما قلت ـ **إلا إذا خضته** ـ وإلا إذا شاهدت ذلك الشيء الذي شاهده أبو داود، والذي ارتسم على وجهه بملامح الذهول وعدم التصديق ..**نقطة تفتيش أمريكية..**



عندما تمر بحياتك نقطة تفتيش أمريكية ـ فإنها لايمكن أن تكون عابرة..

لايمكن أن تكون مجرد نقطة تفتيش، لايمكن أن تكون مجرد «**نقطة**»..

قد تكون جملة طويلة مريرة ملآنة بالجمل الاعتراضية، وبعدها إشارات استفهام وأدوات استنكار، وعلامات تعجب، لكنها أبداً أبداً لن تكون مجرد **نقطة** ..

مهما كنت قد تعرضت لنقاط تفتيش سابقة، أذلتك بالبحث عن تهمة، واضطهدتك بالتدقيق في هويتك، وأثقلتك بالأسئلة ودفعتك من أجل أن تدفع رشوة..

مهما كان ذلك قد حدث لك، **فإن نقطة التفتيش الأمريكية لن تكون حدثاً عابراً في حياتك**، ربما ستجتاز النقطة، لكنها، بطريقة ما ستظل عالقة معك، هناك في حلقك، كشيء مزعج بين أسنانك، عند بلعومك، كشيء يضغط على أعصابك ويكاد ينفجر في دماغك..

لن تجتاز الأمر أبداً، قد يسمحون لك بالمرور، لكن شيئاً آخر سينفجر في رأسك، لن يسمح لهم بأن يسمحوا، أو لا يسمحوا لك بالمرور..

لن تعبر قط من تلك النقطة، ستظل تتعثر بها، ستظل عالقة معك، ولن تستطيع أن تتجاوزها..

وعندما يؤشرون لك بأيديهم أو بتلك الهزة من رؤوسهم : أنِ اعبُر.. سينتابك شعور هائل عصيٌّ على الفهم، أنك قد تعرضت لإهانة فظيعة لم يوجهها لك أَحد طيلة حياتك **رغم أنك كنت قد تعودت الإذلال** لدهور مضت..

ستشعر أن يداً قاسية وخشنة قد صفعتك على وجهك، ستنظر إلى المرآة في السيارة وستفاجئ بأن خديك كليهما قد احمرّا من أثر الصفعة..

ستحتاج وقتاً لتفهم، أن آثار السياط على ظهرك في أقبية المخابرات ممكن أن تلتئم مع الوقت، وأن الجروح التي أحدثتها السجائر في خضم التحقيق ممكن أن تنطفئ مع الوقت..

لكن الآن، مع تلك الإهانة، مع تلك الصفعة الغيرمرئية التي تلقتها حياتك، لن يزيد الوقت خديك إلا احتقاناً واحمراراً، سيمتلئان بالالتهاب والقيح، سيتورمان بالغيظ والحقد وسيزدادان ورماً كلما مرّ الوقت..

وذات يوم ستنظر في المرآة وتجد وجهك وقد أكله سرطان قبيح مليء بالدمامل والبثور.. وستذكر أن ذلك كله قد بدأ يوم مررت بنقطة تفتيش أمريكية ،ربما تكون سيارتك قد اجتازتها، لكنك فشلت في تجاوزها طيلة حياتك.

ربما كنت مستعداً للموت، أنت وأبناؤك تحت القصف، ربما كان الموت وقتها سيكون غامضاً قادماً من طائرة بعيدة لن يتسنى لك مشاهدة الطيار الذي يقودها، أو الذي ضغط على الزر الذي أسقط الصواريخ التي هدمت السقف على رؤوس صغارك..

سيكون الأمر كما لو أنه غير شخصي، **كما لو أن الطيارة كانت بلا طيار** ويمكنك بعدها أن تصب جام غضبك على النظام الذي دفع بالطيار، وبالمؤامرات والأيديولوجيات والإستراتيجيات التي تدفع أنت وأطفالك الثمن لها..

لكن مع نقطة التفتيش الأمريكية، تجد نفسك **فجأة** مع من لم تستعد له، العدو **وجهاً لوجه**، **العدو** على بعد أمتار منك، على بعد سنتمترات منك، على بعد رصاصة واحدة منك.

كان العدو دوماً بالنسبة لك شكلاً هلامياً غامضاً غائم الملامح، رمزاً لمؤامرة كبرى ومخططات عسكرية ومطامح اقتصادية، كان الأشخاص وصورهم يعبرون عن محض رمز، لم تكن تفكر كثيراً بهم . إنهم مجرد (رمز)!

تبقى الاستراتيجية، و لكن تغيب الصور وتذوب الشخصيات، ويبقى ذلك العلم وصورته رمزاً ثابتاً لكل ما حاق ويحيق بك وبأولادك، ويحاصرهم ويهدد أحلامهم وآمالهم ومستقبلهم..

فجأة سيستحيل الرمز أشخاصاً حقيقيين، بشراً من لحم ودم، جاؤوا من أقصى الأرض إلى بلدك، عبروا القارات والمحيطات، **ربما لكي يثبتوا لك** أن الأمر في النهاية ليس مجرد خطط وإستراتيجيات ونظريات، وإنما يتطلب أيضاً بشراً يكونون أحياناً مجرد وسيلة ـ **ويكونون أحياناً هدفاً** ، ولايكونون، في بعض الأحيان أكثر من ترس صغير،

ولكنه ضروري في آلة قتل هائلة الحجم.

نقطة التفتيش الأمريكية تلك، لن تستوقفك فقط ولكن ستستوقف مفاهيمك، وستغير قناعاتك..

ستكتشف أن عدوك لم يكن نظرية أو خطة أو مؤامرة محضة..

وإنما كان يتقمص أحياناً شكل أولئك الجنود الذين وقفوا على ذلك الحاجز **عند نقطة التفتيش الأمريكية ..**



قبل أن تزول القشعريرة من جلدك، سيغامرك شعور غامض أن هوليوود قد خدعتك، وأن الصورة التي روجتها ورسختها في ذهنك لجنودها الوسيمين مفتولي العضلات، هي صورة منقوصة إن لم تكن مغلوطة أساساً.

لن تجد ميل غيبسون، أو شارلي شين عند نقطة التفتيش، ربما ستكون ملامح الجنود قريبة من مواصفات الجمال التي عممتها هوليود أيضاً.

لكن ستكون هناك تفاصيلُ أخفتها الكاميرا بإتقان..

نعم، إنهم بيض، وقد تعودت أن تعتبر ذلك دليلاً على الوسامة، لكنك ستلاحظ أن بياضهم ليس ناصعاً، وإنما تخالطه صفرة خبيثة لن تخطئ فهمها.

ستلاحظ أيضاً أن عيونهم ملونة، لكن نظرة اللؤم فيها واضحة وشديدة البروز.

رغم الأسطورة الهوليوودية المرسومة بإتقان، ستجد في الجنود الأمريكان شيئاً كريهاً بشكل شخصي، بشكل فردي يخص كل فرد من هؤلاء الجنود، **عند نقطة التفتيش الأمريكية..**

سترى في كل تفصيل من تفاصيل وجوههم شيئاً يستهدفك وبلدك، وستتأمل فيها كما ليلى تتأمل في الذئب المتنكر بملابس جدتها، ستبدو عيونهم أكبر من حقيقتها، وستعلم أنها لن تحدق إلا في خصوصياتك وحرماتك، وستبدو أنوفهم أكبر من حقيقتها، وتعلم أنها لن تكون كذلك إلا لكي تنقب عن النفط والغاز والثروات الأخرى في بلدك، وستلاحظ أن أفواههم أكبر من المعتاد، سيكون ذلك من أجل أن يبتلعوا بلدك بثرواته وخيراته.

برعب، ستلاحظ أن أسنانهم كلها أنياب، لن يكون ذلك إلا لأنهم سيغرسونها في عنقك، في الموضع الذي تحب تقبيله من أعناق أطفالك.

ربما لن تكون بصيرتك واعية لهذه الدرجة من البصر، ربما ستلاحظ فقط أن ملامحهم كريهة ولزجة، **حتى لو كانوا ينفذون التعليمات الموجهة لهم والقاضية بتوزيع الابتسامات، لن ترى في ابتساماتهم غير أفعى تزحف بخبث، وذئب يتربص بمكر ..**

ستكرههم شخصياً ربما دون أن تعرف لماذا، سيكون ذلك مؤلماً بشكل استثنائي. ستحاول أن تخفف من ألمك بأن تهمس لنفسك، بأنهم مجرد بشر، مجرد جنود ينفذون الأوامر.. وربما لو رأيتهم في وضع آخر، وملابس أخرى، لابتسمت لهم وهززت رأسك وأنت تحييهم.

نعم، ربما في مكان آخر، ووضع آخر..

لكن ماداموا هنا، ماداموا هنا بملابسهم العسكرية، وأحذيتهم الضخمة، تلك الخوذ التي تغلف رؤوسهم، لايمكن أن تشعر نحوهم إلا بهذا الكره..

نعم، ماداموا هنا فليس سوى الكره.



شيء آخر لن تتمكن من أن تفر منه، إذا كنت ملتزماً، ولو إلى حد بسيط بالشعائر الدينية، والتي غالباً ما تكون النظافة وقواعدها في مقدمة العملية الشعائرية منها إن لم تكن في الصلب منها.

لن تتمكن من أن تطرد رأسك، والجندي الأمريكي على بعد خطوات من رأسك، حقيقة إن بعض أدق تفاصيل النظافة، التي تشكل جزءاً أساسياً من موروثك النفسي والذهني، لاتتوفر عند هذا الجندي الأبيض القادم من وراء البحار..

ربما كنت قد رأيت أجانب من قبل وتحاورت معهم وجلست معهم وربما عشت معهم لسنين ـ **لم تفكر بهم هكذا من قبل** ـ لم تتدخل في خصوصيات نظافتهم ـ **بل إن فكرتك عنهم عموماً** ـ كانت مرتبطة بالصورة المتحضرة الزاهية التي رسختها أجهزة الإعلام في ذهنك، لكن الآن ـ **على الحاجز** ـ والخوذة والبدلة والحذاء العسكري الضخم على تراب بلدك، لن يمكنك إلا أن تفكر **بأنهم قذرون ..**

سيخطر على بالك أنهم لا يغتسلون من جنابة، وأن قواعد دينهم لا تعلمهم كيف يتبرؤن من بولهم، وأن آليات الطهارة المقدسة التي تعلمتها منذ طفولتك غير موجودة عندهم بل إن معجم لغتهم خال من مرادف لكلمة الطهارة بالمعنى الاصطلاحي الذي تعودنا عليه..

لديهم مساحيق للغسل والتنظيف عديدة، لديهم عطور غالية الثمن، ومعطرات فاخرة، وموانع للتعرق فعّالة ولكن ليس لديهم هذا الشيء الذي يسري في دمك قبل أن يكون على جلدك **الطهارة** ..

عند نقطة التفتيش الأمريكية، ستفهم أخيراً، ما كنت قد سمعته من أن الكفار أنجاس، كنت قد عرفت طيلة حياتك أصدقاء وجيراناً من ديانات أخرى ـ **بالذات من نفس ديانة الجنود عند نقطة التفتيش الأمريكية** ـ لكن لم تلاحظ قط أنهم أنجاس، ولم تعتبرهم أنجاساً قط.

الآن فقط ـ **متأخراً جداً ـ تفهم أنهم لا يكونون أنجاساً إلا إذا كانوا أجانب** ، **غزاة** مثل أولئك الجنود الواقفين عند نقطة التفتيش الأمريكية ..



نقطة التفتيش الأمريكية تلك، لا تريد حقاً أن تفتش صندوق سيارتك، كما سيبدو لك للوهلة الأولى.

إنها تريد أن تقتحم صندوق دماغك، أن تداهم تلافيفه، وتسيطر على خلاياه.

إنها تريد أن تحدد مسار حياتك، وتعسكر داخل حياتك، تمضي أنت، ولكن تمكث نقطة التفتيش تلك في داخلك تحتلك، تسيطر عليك، وتحدد مسارك.

ليس صندوق السيارة، **و ما يمكن أن يحتويه من أسلحة، ولكن ذلك الصندوق الصغير بين كتفيك**، والأفكار المحتواة فيه، والألغام المزروعة فيه.

وعندما سيأمرك ذلك الجندي وعلكته في فمه يمضغها باستهتار، عندما يأمرك بأن تترجل من سيارتك، **فإنه في الحقيقة يأمرك بأن تترجل عن كل قيمك، كل مبادئك**، كل موروثاتك، وكل مكتسباتك.

وعندما سيأمرك بأن تنبطح أرضاً ليتمكن من تفتيشك بإتقان، **فاعلم أن وضعية**

الانبطاح تلك، هي الوضعية الأمثل بالنسبة له، إنها الوضعية التي يريدون إبقاءك فيها إلى الأبد، **ولو قمت عن ذلك مظهرياً، فإن الانبطاح هو وضعك الأمثل بالنسبة لهم .**

وعندما سيتفرسون في وجهك ليبحثوا عن قائمة مطلوبيهم من المسئولين والقادة العسكريين، لا تطمئن كثيراً إلى أنهم سيتركونك، فأنت أيضاً مطلوب بشكل أو بآخر، **بل إنك على رأس القائمة** ، ولو لم يرد اسمك فيها..

ولا تصدق تلك القائمة المعلنة، فمعظم من فيها من أسماء، لا أهمية لهم ولايشكلون خطراً على نقطة التفتيش الأمريكية، لكن هناك قائمة أخرى مضمرة **غير معلنة**، جاؤوا من أجل أسمائها بالذات، عبروا المحيطات وجيشوا الجيوش وقاموا بغزوهم هذا، من أجل تلك الأسماء..

إنها القائمة التي تضم أسماء أئمتك وأعلامك، صحابتك وقادتك وعلمائك، تلك الأسماء المطرزة في أعمق أعماقك، الموشومة بالجمر في شرايينك وأوردتك.

وعلى رأسها يوجد ذلك الاسم ، اسم نبيك عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم..

لا تهرب من هذا، لا تخدع نفسك بأي شيء آخر، هذه القائمة المضمرة هي التي دفعتهم للمجيء..

ذلك الاسم الذي على رأس القائمة هو الذي يريدون .

كل الباقي مجرد تفاصيل.



وعندما ستجتاز تلك النقطة، ستلاحظ أن واحداً من جنودها بصق على الأرض . ستقول مع نفسك: إن مشهداً كهذا لا يظهر في هوليود، وإن الممثلين الوسيمين يظهرون دوماً متمسكين بقواعد التهذيب.

ستواسي نفسك بأن تقول لها: إن الكثيرين من أبناء بلدك يبصقون أيضاً على الأرض. وإن هذا الجندي لا يعدو أن يكون مثلهم، وجد حاجة بيولوجية لأن يبصق، فبصق.

ستقول لنفسك : إنها مجرد بصقة، لا فرق حقاً في منشئها، سواء كان محلياً ، أو أجنبياً.

لكن لا خديعة ، لاسواء..

فتلك البصقة ستشعر بها لزجة ومقرفة وتغطي وجهك كله.

ستشعر بالبصقة، وهي لا تقصد تراب بلدك، بل بلدك بأكمله، بكل تاريخه، بكل قيمه، **ستشعر بها تقصد رأس القائمة المضمرة..**

ستمتلئ بالغضب، ستلتفت نحو نقطة التفتيش، سترى تلك النظرة على وجه الجندي تقول لك: **ردها عليَّ إن استطعت .**

ستقضي عمرك و أنت تذكر أنك لم تستطع.



بينما نحن بعد في الجامع، وأبو داود يضيف بعض التفاصيل للذي شاهده، **والذي: أن تشاهده غير أن تسمع به** ، بينما نحن لانزال متحلقين حوله، دوى انفجار هائل شديد القرب، ثم تلاه آخر فآخر..

قال العارفون بالأمور، **وهم كثر في أحوال كهذه** : إن أصوات الانفجارات هذه، هي صوت المدفعية العراقية المنصوبة ولابد في مكان قريب، وهذه الانفجارات القريبة كانت مصداقاً مباشراً لما شاهده أبو داود، القوات الأمريكية كانت، ولابد على مرمى المدفعية المباشرة، عشرين إلى ثلاثين كيلومتراً لا أكثر.

وأكد العارفون بالأمور أن التمييز بين صوت المدفعية وهي تقصف، وبين صوت الصواريخ والقذائف وهي تسقط سهل، لأنك تسمع صوت الأولى ثم تحس بالاهتزاز، بينما تحس بالاهتزاز ـ **مع الثانية** ـ ثم بعدها تسمع صوت الانفجار.

الكلام سهل نظرياً طبعاً، لكن التمييز كان صعباً جداً على المستوى العملي، عندما تتوالى الانفجارات، فإن عقلك يكون مشغولاً بأمور أخرى كثيرة، قبل ترتيب أولويات الانفجار واهتزازاته.

أكد العارفون بالأمر أن التمييز جداً سهل، وأيدهم بعض الواقفين، ولم يكن هناك فائدة من الجدل، فما الخيارات التي نملكها أصلاً ـ سواء كانت الأصوات أصوات انفجارات لقذائف تسقط علينا من بعيد أو أصوات لقذائف تطلقها مدفعيتنا.

عدت إلى البيت وأنا لا أعرف بالضبط هل الخبر الذي أحمله سيئٌ أو جيدٌ، كنا قد

وصلنا إلى تلك النقطة التي لاتعرف معها بالضبط ما هو السيء وما هو الجيد، هل هو شي جيد أن تكون المدفعية منصوبة على بعد أمتار من بيتك ـ **مما يجعله عرضة للقصف المضاد** ـ أم هل هو شيء جيد أن يكون الغزو قد وصل إلى حد، **أنه صار على مرمى المدفعية المتوسطة المدى، وصلنا لتلك النقطة** التي يتساوى فيها السيء والجيد.

وصلنا لنقطة صار فيها هناك سيء وأسوء فقط، لا شيء جيد هناك.

كان هناك عندنا عامل للكهرباء ـ كردي وطيب جداً ـ استفسر مني عن صوت الانفجارت المدوية فطمأنته (!) إنها أصوات مدفعيتنا، وكذلك طمأنت من في البيت، وكان الأمر له مفعول السحر في تهدئة مخاوفهم بل وإزالتها تماماً.

بعد دقائق، دوى صوت انفجار هائل مرّة أخرى، ثوان أعقب الانفجار حاولت أن أركز لأعرف هل عقب الاهتزاز الصوت أم سبقه..

بصراحة : لم أستطع التمييز، لكن في داخل كل منا ـ **على ما يبدو** ـ آلية تحاول انتقاء أفضل الخيارات من أجل أن تزرع ـ **بلاوعي** ـ الطمأنينة في نفوسنا، لذلك خيِّل لي ـ **عن طريق هذه الآلية** ـ أن الصوت سبق الاهتزاز فصحت : **لا تقلقوا .. إنها مدفعيتنا من جديد..**

كانت الكلمة لها مفعول مثل السحر أيضاً على الجميع، ذهب الروع الذي كان على وجوههم، عاد الأطفال للعبهم دون أي مبالاة، و واصلت زوجتي إعداد الطعام، وواصلت خالتي متابعة الأخبار.

وعندما توالت أصوات الانفجارات الهائلة ـ **وكان كل واحد منها يبدو أكثر قرباً من الآخر** ـ واصل الجميع ما كانوا يعملونه: **إنها مدفعيتنا** ولا داعي للقلق.. الآن **على الأقل..**

ثوان واقتحم ـ **بدون استئذان** ـ عامل الكهرباء والفزع يبدو على وجهه، كان واضحاً أنه لم يقتنع بما قلته له، **والذي قاله لي العارفون بالأمور** ، من أنها أصوات مدفعيتنا، مادام الصوت قد سبق الاهتزاز.

قال لي ـ وهو يكاد يلهث ـ : **هل تريد أن تقتلني ؟**

قلت له : **كاكه**[1] **! .. ما بك ؟ لا تقلق ! إنها مدفعيتنا ؟**

---

(١) كاكه: أخ باللغة الكردية. و كل الأكراد ينادون بكاكه في بغداد.

رفع يده وهو يحمل قطعة معدنية صغيرة، وقال: **لا، دكتور. هذه ليست مدفعيتنا.**

انظُر، إنها شظية من قذيفة أمريكية.

ونظرت إلى تلك القطعة المعدنية الحادة، التي لاتزال ساخنة، كما لو كانت جثة طفل وليد مات فور ولادته..

أمسكت بالقطعة المعدنية، لم تكن عندي أي خبرة من أي نوع، لا بقذائف مدفعيتنا، ولا بقذائف مدفعيتهم.

أمسكت بالقطعة أتأملها، كانت أطرافها حادة ومدببة، بدت لي مثل أنياب فك مفترس، ليس من شراهة فيه إلا للدماء.

كانت القطعة كريهة، باردة الملامح ـ **رغم سخونتها ،فيها شيء غامض ووقح** ـ وقدرت بسذاجة أنها لابد أن تكون أمريكية مادامت كذلك.

قبل أن أفرغ من تأملاتي كان كاكه عبد الله قد جلب شظية أخرى، وأخرى، وأخرى..

في الشارع أمام الباب كان هناك المزيد من الشظايا المتناثرة، كان من الواضح، أننا تعرضنا لقصف قريب.

وكان من الواضح أيضاً، أن العارفين بالأمر، قد اتضح أنهم لايعرفون شيئاً، كما هو معتاد.. ومتوقع !..

كانت القذائف الصاروخية قد سقطت على منزلين في شارع خلفي لا يبعد أكثر من خمسين متراً عن شارعنا.

وخلال بضعة دقائق، كنت أرى من شرفتي منظراً غريباً لأناس يمشون فرادى ومثنى وجماعات، يتركون المنطقة وهم يحملون أقل من القليل من المتاع وحطام الدنيا.

كانوا في معظمهم، كما توقعت من سكان المنطقة الفقيرة المجاورة المحاذية للطريق السريع.. قدروا ـ **عندما حقت الحقيقة** ـ أن بيوتهم الآيلة للسقوط لن تصمد أمام قصف قريب، وقرروا أنهم سيغادرون، كان بعضهم قد ركب في الحوض الخلفي للشاحنات الصغيرة، ومعهم بعض ما استطاعوا أن يحملوه من أثاث وأدوات، **تصوروا أنها ستكون مهمة أو خافوا عليها من السرقة** ، وكان البعض الآخر لم يجد شاحنة تحمله وأثاثه، فحمل على ظهره ما استطاع أن ينوء به من ملابس وأغطية وبعض المواد الغذائية.

لن أنسى أبداً.. منظر أولئك الناس الفارّين من بيوتهم، وهم لا يحملون شيئاً يذكر، لايلوون على شيء سوى الفرار من قدر تصوروا أنه سينهار فوق رؤوسهم تلك الليلة.

لن أنسى منظر تلك السيدة المسنة، الواضح جداً من زيها أنها مسيحية، محنية الظهر من حمل عشرات السنين من المصاعب والهموم تجرُّ نفسها جرّاً، ولا تحمل غير كيس صغير لعله لا يحمل سوى مؤونة يوم أو أقل.

من شرفتي شاهدت العشرات يغادرون ـ **باتجاه واحد** ـ الشارع العام، حيث كانوا ينتظرون أن يستقلوا سيارة تقلهم إلى قدر آخر، قدروا أنه سيكون أكثر حناناً عليهم.

عرفت، فيما بعد، أن ذلك اليوم بالذات، شهد خروج مئات الآلاف من سكان بغداد. وعرفت أن الطريق الوحيد الذي بدا للسكان آمناً وقتها، **وكان طريق بعقوبة، شمال شرقي بغداد** قد امتلأ على آخره، بطاقته القصوى، بل بأكثر من طاقته القصوى.

كان الطريق السريع ـ باتجاهَيْ الذهاب والإياب، قد امتلأ بسيارات متجهة صوب جهة واحدة..

ذهاباً ، خارج بغداد !.



تلك الليلة، حوالي الساعة الثامنة مساءً، غرقت بغداد في ظلام دامس، كان التيار الكهربائي قد انقطع عدَّة مرات عن بغداد خلال الحرب، لكن ليس بصورة كاملة عن كل أحياء بغداد، وكنت إذا صعدت إلى السطح تستطيع أن ترى من بعيد بعض الإنارة الخافتة المنبعثة من الساحات والأحياء، تبعث في نفسك الطمأنينة بأن هناك بعض الضوء في ذلك النفق الذي دلفنا إليه.

تلك الليلة، كان الأمر مختلفاً جداً، لم يكن هناك ضوء البتة، وعندما صعدت إلى السطح لأستطلع الأمر، وكلي أمل بضوء ولو خافت ولو من بعيد، لأتعلق بحباله المهترئة الذائبة. وجدت أن **بغداد كلها قد غرقت في ظلام دامس شديد الحلكة**. بل وجدت **في تلك الليلة التي غاب فيها القمر، أن الكون بأكمله قد سقط في هوة معتمة شديدة السواد.**

تلك الليلة، **لا قمر ولا ضوء ولا بصيص أمل.. وبغداد مظلمة كما لم تكن أبداً من قبل،** مظلمة كلها دفعة واحدة دون أن يكون هناك قصف قد وقع وأدى إلى ذلك.

نعم، كانت الأمسية كله أمسية قصف كالعادة ـ **لكن لم يكن في اللحظة التي انقطعت فيها الكهرباء** ـ أي قصف شديد و واضح يتوقع منه أن يخرب محطات الكهرباء الرئيسية في المدينة.

كان ذلك الانقطاع لغزاً غامضاً لم نفهمه ـ **بينما نحن ندلف في ذلك النفق المعتم** ـ تعالت التفسيرات والتحليلات ـ **التي عادة تزيد من غموض القضية** ـ وكان الأمر غامضاً ومبهماً لدرجة أن العوائل التي تمتلك مولدات كهربائية امتنعت عن تشغيلها خوفاً أن تكسر تعتيماً معيناً أرادته السلطات.

لم نكن نعلم، أن ذلك الظلام الذي خيم على بغداد، وتلك العتمة التي غرقنا فيها ليست سوى رمز صغير ذي دلالات كبيرة.

تلك الليلة، لا قمر فيها ولا حتى بصيص من ضوء، لا عود ثقاب، لا شمعة، لا بطارية لمصباح صغير.

لم نكن ندري، أو أننا كنا ندري ولكن تجاهلنا، أن ذلك النفق المظلم الذي دلفنا فيه، سيصب بنا في بحر الظلمات.

لم نربط كثيراً بين الظلم والظلمات، رغم أن الربط كان واضحاً، من الظلم إلى الظلمات، سقطنا في هوة مرعبة لا قاع فيها، في تلك الليلة تحديداً.

كانت الليلة التي بدأت فيها معركة «**المطار**» !.



رغم خوفنا من كسر التعتيم الذي كانت احتمالية قائمة، فإننا قمنا بتشغيل المولد الكهربائي الصغير الذي نملكه، كنا جياعاً لعود ثقاب، لخبر فيه شمعة، فيه بصيص من أمل.

في تلك الليلة، ظهر ذلك المراسل، الذي علا نجمه في حرب أفغانستان، تيسير علوني، وهو في منطقة ما من ضواحي بغداد، وخلفه كانت أضواءٌ لانفجارات هائلة، لكن الصورة كانت غامضة، فأضواء الانفجارات لم تصاحبها أصوات هائلة كالعادة.

كان الأمر يشبه مذبحة صامتة، طلقة نارية قاتلة من مسدس كاتم للصوت، وساد تكتم الأنفاس على وجه الضحية، ثم فوهة مسدس توجه نحو صدغه دونما تردد.

نعم. كانت الانفجارات بلا صوت، وكان ذلك الصمت مفزعاً حتى أكثر من كل الأصوات الهائلة المهولة التي مرت بآذاننا وزلزلت حياتنا عبر الأسابيع الماضية.

كان الصمت مرعباً ـ **أكثر من أي شيء آخر** ـ كان يعني أنك ستتلقى فجأة طعنة دون سابق إنذار أو تنبيه.

كان الصمت مفزعاً ـ **أكثر من أي شيء آخر** ـ كان يعني أنهم يستخدمون سلاحاً غير تقليدي هذه المرّة.

كان الصمت مروعاً، **كان يكاد يشعرك أن حواسك بدأت بالتعطل، إنهم سلبوك سمعك أولاً**، ثم إنهم سيسلبوك بصرك ثانياً، ولاتدري بعدها أي شيء سيسلبوك، من أجل أن يدفعوك في الطريق الذي يريدون.

دفعني ذلك الصمت الغامض أن أصعد إلى السطح، لأتحقق من أن الأمر لم يتعلق بخلل ما في إرسال الجزيرة !!.. كما كنت آمل أن يكون الأمر.

من بعيد، في الجهة الشمالية الغربية، كانت هناك تلك الأضواء المكتومة الصوت ـ الأضواء التي لم تكن تزيد الظلمة إلا ظلاماً.. من بعيد، كان هناك شيء ما يحدث في الأفق، شيء غريب لم يكن يمكن تبنّيه ..**شيء ما في الأفق..**

شيءٌ ما عند المطار!.



آه، المطار..

كتاب أغلقت صفحاته على أسرار دفنت مع الضحايا هناك، تفحمت جثثهم وزال اللحم عنها في لحظات، لم يبق سوى هياكل عظمية، لم تجد فرصة لتروي ما حصل.

آه ، المطار..

ربما لن يعرف أحد حقيقة ما حصل، ربما لن يتمكن أحد من رواية ما حصل، وربما لن يصدق أحد حقيقة ما حصل.

المطار .. تلك الليلة..

أتخيل تلك العيون وهي تفتح على اتساعها، من الرعب، من الهول، من ذلك الانفجار كاتم الصوت الذي لم يفهموه، جمدَ الرعب في عيونهم، جمدت عيونهم،

جمدت الدماء في عروقهم، وماتوا، قبل أن يفهموه.

آه ..المطار .. تلك الليلة .

والأمهات، لا يعرفن بالضبط ماذا يدور، لكن قلوبهن تهمس في آذانهن بتلك اللغة التي لا تتقنها غير الأمهات .. يرحن . يجئن. يعددن الطعام، يقرأن القرآن، ويتظاهرن بالتماسك والإنصات باهتمام.. لكن قلوبهن قبل آذانهن ـ ترهف السمع، لأي صوت عند الباب، قد تنشق بعده الباب، عن ذلك الحبيب البعيد، الجندي في المطار، وقد استطاع أن يحصل على إجازة لتلك الليلة..

المطار .. تلك الليلة..

قلوبهن عرفتْ شيئاً، لكنها جهلت التفاصيل، قلوبهن قالت شيئاً، لكن آذانهن أبت التصديق، قلوبهن قرأت في الجو شيئاً غامضاً، بلغة لا تتقنها غير قلوب الأمهات.

المطار .. والأمهات .. تلك الليلة..

عيونهن شاخصة على الباب.. آذانهن مرهفة إلى الباب، قلوبهن متعلقة بالدعاء، يطلبن ويترجين النجاة لأولادهن، ولو عرفن ما يدور حقاً في المطار تلك الليلة، لصلين بحرارة فقط **من أجل أن يموت أولادهن بسلام، بسلاح تقليدي، برصاصة رحمة، بشظية قاضية.**

لو عرفت، الأمهات تلك الليلة بما يدور قرب المطار، لطلبن منه تعالى فقط أن يموت أولادهن دونما ألم، لطلبن فقط أن يعجل بموتهم؛ **رحمة بهم .. وبهن.**

المطار، تلك الليلة في ذلك الخميس الحزين، لن يعرف أحد ماذا حدث، لم ينج أحد على ما يبدو من تلك المحرقة الصامتة، **العيون جمدت على المنظر، والحناجر جمدت على صرخة الرعب، والزمن كله توقف لبرهة ستستمر إلى الأبد.**

تلك الليلة، بغداد في ظلام دامس لا نهاية له، وشمالها الغربي يضيء بصمت مريب، بضوء هو جوهر الظلام.

تلك الليلة، الطريق إلى المطار يتحول إلى مقبرة جماعية غامضة، لجثث تحولت إلى عظام في ثوان، وثوان استمرت لدهور بالنسبة لأصحاب تلك الجثث.

تلك الليلة، لم ينقل أحد صرخات الاستغاثة، لم يسمعها سوى ذاك الذي لا يغيب عن سمعه شيء، غيره لم يسمع أحد، ولم يكترث أحد...!!

تلك الليلة، وأولئك الذين ماتوا في درب المطار المزروع **بجثثهم وأحلامهم وخيباتهم وإحباطاتهم ودعاء ودموع أمهاتهم**، أودعوا صرخاتهم وآلامهم ورعبهم في زجاجة، وظلت الزجاجة تهوي نحو قعر محيط لا قاع له..

تلك الليلة، المطار، شيء ما في الأفق ينذر بشيء ما **«غير تقليدي» ـ استخدم** ـ لم يفصحوا عنه، بل كتموه وتكتموا عليه، **وسوف تظل المنطقة بأكملها محظورة على دخول الصحفيين لفترة طويلة، حتى لا يتمكن أحد من معرفة ما حدث..**

لم ينج أحد، لم يخرج أحد من تلك المحرقة ليروي ما حدث، **لكن الذين كانوا في المشرحة رأوا آثار الجريمة على الجثث، الأطباء في المستشفيات شاهدوا شيئاً لم يشاهدوه من قبل، فاعلو الخير الذين دفنوا الجثث المتفحمة الملقاة على قارعة الطريق، رأوا عظاماً منزوعة اللحم، منزوعة البصمات، وأكثر من أي شيء منزوعة الحظ..**

لم يعرف أحد حقاً ما دار فعلاً ـ **لكن الجميع ـ وأولهم الأمهات** ـ يعلمون أن شيئاً ما، غريب جداً، مريع جداً، نادر جداً، قد حدث في المطار.. تلك الليلة..

وذات يوم، بطريقة ما سيعثر على تلك الزجاجة الهاوية في قاع المحيط، وستنقل تلك الصرخات ـ **تلك النظرات** ـ التي تجمدت في أحداق وحناجر أولئك الذين تفحموا بسلاح لا نعرفه، لكنه بالتأكيد غير تقليدي .. في المطار، تلك الليلة، ذلك الخميس المظلم الحزين.



المطار، قبل تلك الليلة ـ بثلاثة أسابيع بالضبط.

خميس حزين آخر، الخميس الذي سبق الحرب بالذات **التي بدأت أيضاً يوم الخميس..**

المطار، ذلك الخميس الذي سبق الحرب، وبغداد كلها تبدو كئيبة ـ **لكن متماسكة، لم تفقد بعد رباطة جأشها** ـ ترتدي ثياب الحداد على الحسين ـ **سمحوا أخيراً لها بذلك..**

كان ذلك الخميس ـ **الذي سبق الحرب ـ** هو يوم عاشوراء، وكانت ذكرى الحسين تزيد من كآبة المشهد وتلقي عليه بظلال لا يمكن إلا أن تكون ظلال الموت.

وكان المشهد كله، الخميس الذي سبق الحرب، ذلك العاشوراء الحزين يشبه

وبشكل مفاجئ، مشهد العاشوراء الأصلي.

كان العالم كله يتفرج علينا ونحن نكاد نذبح، البعض كان مستعداً لمحض التعاطف معنا، والبعض الآخر كان مستعداً للعويل واللطم من أجلنا.

البعض كان مستعداً لإظهار الفرح بذبحنا، والبعض الآخر كان مستعداً لإظهار اللامبالاة واللااكتراث من أجلنا.

البعض كان مستعداً للتظاهر من أجلنا، ولإصدار البيانات ولكتابة القصائد، وأيضاً المقالات.

لكن ـ **بعد ذلك كله** ـ في النهاية، لم يكن هناك أي أحد ـ **ولا شخص واحد** ـ مستعد لأن يفعل شيئاً، حقاً من أجلنا.

كنا سنموت وحيدين .. نذبح ونقصف ونهتك وحيدين..

وكان ذلك هو جوهر الكرب والبلاء، جوهر عاشوراء ـ **أن تموت مظلوماً، وحيداً، وقد خذلك الجميع**، أن تموت وحيداً، والعالم كله كربلاء ـ **وأنت غريب حتى بين أهلك** ـ وأهلك أيضاً غرباء عندما يتعلق الأمر بذلك الموت الذي يستهدفك من جميع الجهات..

ذلك هو عاشوراء : أن تموت مظلوماً، ويخذلك الجميع.. الجميع.. الجميع..

وذلك الخميس، **العاشوراء الحزين**، كان العالم كله ـ **كله** ـ قد أعد العُدَّة ليعد عداً تنازلياً قبل أن يبدأ ذبحنا ـ وقبل أن يبدأ التفرج علينا، بينما نحن نذبح ـ **ونقتل.. ونحترق.. ونؤخذ سبايا في سوق الرقيق العالمي** ـ على رؤوس الأشهاد.

ذلك الخميس الحزين، عاشوراء ليسَ بالمصادفة، بل بذلك القدر الذي يجعل الرموز والدلالات في الواقع أوضح وأكثر بلاغة من أي فن مصنوع.

ذلك الخميس الحزين، وعاشوراء ليس مجرد يوم في السنة، إنه تاريخ طويل عاشته بغداد، إنه ذاكرتها وذكرياتها وهاجسها المزمن الذي عاشته بإتقان طوال عصور.

عاشوراء ليس مجرد رأس الحسين الطاهر وهو يفصل عن جسده وينتقل بين الأمصار، إنه رأسك أيضاً، ورأسي ، ورأس أخيك وأخي ووالدي ووالدك، إنه رأس أي واحد منا المهدد بالفصل لأي سبب كان ـ وبلا أي سبب كان ـ في مواجهة عهود ظلم واستبداد مزمنة، عاشوراء هو الاحتمالية الدائمة لأن تذبح بلا سبب، ويمثل بجسدك بلا سبب، ويبحث بك ناس بلا سبب.

عاشوراء هو ذلك التاريخ الطويل المستمر الذي نبكي خوفاً من تكراره فينا ـ **وكربلاء ليست حقاً مدينة تبعد سبعين ميلاً عن بغداد** ـ بل هي تقع في مركز بغداد، **داخل كل شخص من السكان في بغداد**، إنها ذاكرة الكرب والبلاء التي في رأس كل واحد منهم ـ **ورأس كل واحد منا** ـ كربلاء موجودة في كل المدن التي عانت من استبداد وظلم وطغيان، إنها موجودة في كل سنتمتر مربع من الخريطة، في كل مليمتر مربع من تلافيف أدمغتنا التي تقولبت على القمع والكرب والبلاء.

بغداد ـ **في ذلك الخميس الحزين** ـ ذلك العاشوراء الاستثنائي، كانت تبكي دون أن تدري حتفها، كانت ترتدي السواد ليس على غريب كربلاء فحسب، ولكن على غرباء آخرين سيسقطون جثثاً بلا أسماء، **بلا ملامح، بلا هويات، فقط** بعد ثلاثة أسابيع من ذلك العاشوراء الحزين.

بغداد، ذلك الخميس الحزين الذي سبق الحرب ـ **عاشوراء ما قبل الحرب** ـ كانت تبكي دون أن تدري أنهم سيحاصرونها كما حاصروه، وسيمنعون عنها الماء كما منعوه، وسيذبحون صغارها كما ذبحوا صغاره، وسيقتلونها كما قتلوه، ويفصلون رأسها ليتناقلوه ويشهروا به، كما فصلوا رأسه الكريم.. وتناقلوه.. و .. و ..

بغداد، المتشحة بالسواد المزمن، والدمعة المزمنة، والكرب والبلاء المزمنين، **لم تكن تدري** أنها بعد ثلاثة أسابيع، **ستؤخذ كسبية.. وأن بناتها سيبعن كرقيق رخيص، ويهربن عبر الحدود كأرخص بضاعة معروضة في سوق الدعارة العالمية.. كما ..**

..كفى !.



بالقدر الملآن بالرموز ـ **وليس بالمصادفة العبثية** ـ كنت .. ليلة الخميس ذاك ـ **عاشوراء الحزين** ـ الذي سبق الحرب، في المطار..

كان قد مضى عليَّ حوالي خمسة عشر سنة لم أطأ بقدمي أرض المطار، الذي كان مغلقاً معظم تلك الفترة بسبب الحصار الذي عطل الملاحة الجوية تماماً حتى عادت بشكل محدود جداً، قبل أشهر فقط من ذلك العاشوراء الحزين.

كل من ودعتهم من أقرباء وأصدقاء وأحباء ـ **عبر سنوات الحصار التي نزف فيها**

العراق خيرة أبنائه وعينتهم، كانت مغادرتهم ليس عبر المطار بل براً انطلاقاً من كراج للسيارات.

لكن تلك المرّة بالذات، ذلك العاشوراء الحزين قبل الحرب بأسبوع، كنت أودع واحداً من أقرب أصدقائي في المطار..

كان سفره قد واجه جملة عراقيل قانونية تم تجاوزها بما هو أشبه بالمعجزة في الأسابيع التي سبقت الحرب مباشرة.

وحتى اللحظة الأخيرة، لحظة دخوله **قاعة المغادرين، كان هناك قلق من عدم تمكنه من المغادرة**، كان جواز سفره قانونياً تماماً، لكننا كنا نعيش في عهد يمكن لأي قرار جديد أن يصدر فيه **تريث** يوقفه إلى الأبد، **ويتضح أن القرار كله قد صدر من أجل شخص أو شخصين استفادا منه قانونياً**، ثم يغلق بعدها **الباب** إلى الأبد..

كان صديقاً قريباً جداً، **جمعتني به سلسلة مما يعتبره الناس في العادة محض مصادفات** وهي في الحقيقة سلسلة من الإضاءات الإلهية المباشرة في درب الوحشة الإنسانية الوعرة.

كان الجوع إلى **الرفقة**، إلى الضوء هو المعيار الأول في تلك الصداقة النادرة التي اخترقت حياتينا معاً، وغيرت حياتينا معاً.

وكان سفره هذا ـ **على الأغلب** ـ سفراً نهائياً لا رجعة فيه، فقد كان كل أفراد عائلته ـ **كلهم دون أي استثناء** ـ قد اختاروا العيش في المهاجر الغربية منذ سنوات ـ **كما فعلت عشرات الآلاف من العوائل العراقية بضغط الحصار أو غيره** ـ وكان قد بقي هو وحيداً محاصراً بعراقيله القانونية التي منعته من الالتحاق بأهله.

وفي تلك الليلة بالذات، ليلة عاشوراء الحزينة، **كان عليَّ أن أودع شخصاً كان أقرب إليَّ من طلقة نارية تخترق جبيني.**

أسباب كثيرة للبكاء، في عاشوراء ذاك ..

عندما مررت بسيارتي ـ **أنا وصديقي وبعض الأصدقاء** ـ بذلك الشارع، والسيارة تنهب الطريق الإسفلتي السريع المؤدي للمطار، كنت أجهل أن دموعي تلك لن تكون سوى قطرات في بحر من الدموع التي ستذرفها الأمهات والزوجات على أولئك الأحباب الذين سيبقون ـ **لأيام طويلات** ـ على قارعة طريق المطار ـ مجرد جثث محترقة..

لم أكن أدري ، وأنا أركب سيارتي في ذلك المرآب العلوي المواجه لصالة المغادرين، أي هول، أي رعب، أي وحشية ستحط في هذا المرآب، بعد أسابيع فقط من ذلك العاشوراء الحزين.

لم أكن أدري، وأنا أدخل صالة المغادرين ـ **في ذلك الخميس الحزين** ـ أن خميساً حزيناً آخراً ـ **بعد ثلاثة أسابيع فقط ـ سيشهد** في نفس تلك الصالة، صالة المغادرين، مغادرة الآلاف من الجنود البسطاء المساكين في رحلة الأبدية.

لم أكن أدري، **أن صالة الشرف الكبرى** المحاطة بالمحاذير الأمنية والأسيجة الواقية، **ستتحول إلى صالة الهول الكبرى .. وصالة الرعب الكبرى، وأخيراً صالة الذل الكبرى.**

لم أكن أدري أن الصالة التي كانت متلألئة بالأنوار في ذلك العاشوراء الحزين، ستشتعل وتضاء بلهيب الجحيم وسعيره بعد ثلاثة أسابيع بالضبط من ذلك اليوم.

لم أكن أدري أن أرضية المطار اللامعة، **التي كانت تغسل ساعة دخلنا بالمنظفات الملمعة** ، ستغسل بالدماء بوفرة، وستسيل عليها دماء، كما لم تفعل على نفس المساحة المربعة.

لم أكن أدري أن كل تلك الدموع، **التي ذرفت في صالة المغادرين، منذ افتتاح المطار،** كانت من أجل أولئك الذين سيقضون في المطار، **في ليلة قصف صامتة** من أجل تلك الجثث المتفحمة.. والأشلاء الممزقة.. والأطراف المقطعة..

لم أكن أدري، وأنا أسير على أرض المطار، أن كل بلاطة من أرضية المطار، سيسقط عليها جزء ، أو طرف أو نسيج من إنسان..

هنا سيتناثر جزء من دماغ، كان يختزن في تلافيفه ذاكرة لاتنسى أحداً من الأقارب والأحباب، **وهنا سيسقط ذراع شخص طالما ربت بحنان على أكتاف الآخرين** ، وهنا سينزف قلب طيب ليس هناك من هو أطيب منه، **إلا قلب أمه المفجوع عليه، وهنا سيتمزق صدر كان يختزن هموم أكل الأولاد وحمل الطعام إليهم كل ليلة.**

لم أكن أدري، **أي ملحمة ستقع في المطار، بعد ثلاثة أسابيع فقط**، أي محرقة، أي مذبحة، **ولو دريت.... ماذا كان سيحدث ؟**

ولـم أكن أدري، عندما انزويت لأصلي في المصلى الصغير الملحق بصالة المغادرين، أن العشرات من الجثث هنا في المطار لن تجد فرصة لتغسل .. أو تكفن.. أو حتى تدفن.

ناهيك عن أن يصلى عليها..

لم أكن أدري ذلك كله، ربما لو تفرست في المكان، لوجدت دليلاً أو أثراً على ما سيحيق به ـ **وبنا** ـ بعد ثلاثة أسابيع فقط، لكنني لم أفعل، فقد كنت مشغولاً بتوديع صديقي.



دهر الوداع كان صعباً... دعونا منه..

لكن عندما اجتاز صديقي ذلك الحاجز الزجاجي، غمرني شعورٌ بأن المسافة الفاصلة بيني وبينه تضاعفت لملايين المرّة خلال ثوان.. فجأة فصلتني عنه محيطات وبحار وعوالم، فجأة وجدتني في قارة ووجدته في قارة أخرى مختلفة، وبيننا ذلك الحاجز الزجاجي الذي لا يتجاوز سمكه بضعة مليمترات، ولكنه كان كافياً لقطع الاتصال بين روحين ظلتا ملتصقتين لفترة تلاصق يتيمين في ملجأ.

لم أكن أدري، **وأنا أحاول عبثاً أن أتحدث مع صديقي، عبر الحاجز، أن ما حدث في المطار تلك الليلة، هو ما سيحدث لنا جميعاً ، جميعاً !.**

لم أكن أدري، أننا سنوضع جميعاً خلف قفص زجاجي كبير، وأن العالم بأكمله، سيأتي ليتفرج علينا .. كما يتفرج على حيوان نادر مشرف على الانقراض.

لم أكن أدري، أننا خلف ذلك القفص، سنحاول عبثاً أن نسمع صوتنا لأحد .. خلف ذلك الحاجز، سنصرخ، ستتمزق حناجرنا ونحن نحاول أن نسمعهم، سنفقد أصواتنا في النهاية، سنحاول أن نستخدم لغة الإشارة، سنرطم الجدار بأيدينا.. ثم برؤوسنا.. سنلطم.. سنبكي.. سننهار.. ولن يفهمونا.. لن يفهمونا..

سيأتون وسيتفرجون.. سيلصقون على شفاهنا ما لم نقل. سيؤكدون نظرياتهم ومعتقداتهم وفرضياتهم بالاعتماد على قراءتهم المغلوطة لحركة شفاهنا، سيعلقون، ويضحكون، ويهزؤون، ويمصمصون شفاههم، أو يسخرون ويذهبون..

لكنهم لن يفهموا.. لن يفهموا.. سيظل ذلك الحاجز الزجاجي فاصلاً بيننا وبينهم كما كان فاصلاً بيني وبين ذلك الصديق ... تلك الليلة..

عبثاً حاولت أن أوصل صوتي إليه عبر ذلك الحاجز ذلك العاشوراء الحزين ..

كنت أريد أن أقول له شيئاً لم أستطع أن أقوله في دهر الوداع الصعب..

كنت أصرخ بالكلمات بأعلى صوتي، لكن أي من كلماتي لم تستطع اختراق الحاجز، وكان صديقي، على الجهة الأخرىٰ من العالم، **عبر ذلك الحاجز الذي لا يتجاوز سمكه مليمترات** يؤشر لي أنه عاجز عن سمعي..

وسط نظرات رجال الأمن القمعية، **والتي احترفت وامتهنت عبر العقود منع التواصل بين البشر، وسط تلك النظرات، وجدتني أحاول التواصل بواحدة من أقدم الطرق التي اخترعها البشر، بالكتابة..**

فتحت حقيبتي ووجدت ورقة صغيرة **(لا أزال محتفظاً بها)** وكتبت بها على عجالة ما أريد أن أقوله لصديقي في الطرف الآخر من العالم.. كانت جملة من أربع كلمات **خفيفة على اللسان ثقيلة في الميزان** ، إنها الطريقة المحببة التي يتوادع بها المصريون..

كتبت له تلك الكلمات: **«لا إله إلا الله»**..

وألصقتها على ذلك الحاجز الزجاجي، الحد الفاصل بين قارتين..

في عينه ترقرقت دمعة، كنت قد **خبرت صدقها**، عندما قرأ تلك الكلمات، تحركت شفتاه .. بالرد إياه، أدهشني أن أسمع الكلمات بوضوح رغم الحاجز المانع، **لكن دهشتي زالت، فقد كنت قد سمعته بقلبي لا بأذني** ..

أدهشني كيف أن الكلمات والرد الذي هو تتمتها الحتمية استطاعت أن تلغي ذلك الحاجز ـ **أن تمحيه** ـ أن تمد جسر التواصل بين القارتين ولعل ذلك لم يكن مدهشاً بعد كل شيء.

تلك الكلمات التي سطرتها على الورقة، والتي قالها على شفتيه، ودمعته تترقرق في عينيه، **لم أكن أدري أنها ستطير وتحلق عالياً لتستقر في سقف المطار**، ذلك العاشوراء الحزين.

ولم أكن أدري، أنها ستنتظر ثلاثة أسابيع ـ **هناك في سقف المطار** ـ إلى أن تأتي المحرقة، إلى أن تأتي المذبحة، عندها وعندها فقط، **ستخرج تلك الكلمات من مخبئها**،

تحت القصف، بين القذائف، وستتناسل، وتتكاثر، وتتناثر، لتطرز الشفاه المحروقة لأولئك الذين سيلقون حتفهم بعد ثلاثة أسابيع من ذلك العاشوراء الحزين..

لم أكن أدري أن تلك الكلمات، التي سطرتها على عجالة، على ورقة صغيرة (**لا أزال محتفظاً بها..**) يمكن أن تلقن أولئك المحترقين كلماتهم الأخيرة ـ **الشهادة** ـ قبل أن يتركوا صالة المغادرين.. في رحلتهم إلى الآخرة..

لا . لم أكن أدري، كنت مشغولاً بالوداع..

كانت ليلة عاشوراء حزينة..



في طريق العودة، مروراً بطريق المطار، وضع القدر على ألسنتنا ـ **نحن المودعين** ـ كلمات مذهلة الدلالة والترميز، عندما أتأملها الآن، بعدما كان كل ما كان.. كان النشيج أعلى في طريق العودة، أعلى مما كان في طريق الذهاب إلى المطار، بالذات كان أعلى في المقعد الخلفي، حيث جلس صديق لصديقي، وقريب له اسمه عمر..

كان عمر، ابن السابعة عشر، وهو ابن خالة صديقي، ينشج بصوت عالٍ، ويردد، بين دموعه وشهيقه، كلمتين اثنتين..

كان يقول «**الطيب راح**» .. «**الطيب راح**»..

وكانت كلماته موجعة ومفجعة، فقد كنت أعرف بالذات، ماذا يقصد بالطيب الذي راح ؟

كان عمر، وأمه وأخ آخر له، يشكلون عائلةً فقيرة بدخل محدود، إن لم أقل: إنه معدوم.. وكان صديقي ـ **الطيب الذي راح** ـ والميسور إلى حد ما، يشكل سنداً مادياً لهم في ظروف بالغة الصعوبة والعسر، بل إنه كان، كثيراً ما يستضيفهم لأسابيع، في بيته، حيث كانوا يتمتعون بذوقه العالي في الطعام والشراب، ويوفرون ثمن القوت الذي كانوا سيدفعونه لو كانوا في بيتهم..

في عالم مليء بالظلم والشر، والجشع والشراهة، كان صديقي ـ **الطيب الذي راح** ـ يشكل نسمة من العدل والطيبة في هذا العالم ـ على الأقل بالنسبة لخالته وأولادها.

تلك الليلة، في ذلك العاشوراء الحزين، وجد عمر وأمه وأخوه أنفسهم في عالم فارغ تخلى فيه عنهم الجميع، وخذلهم فيه الجميع، وسد الجميع أبوابهم، وآذانهم،

وصار العالم ـ **فجأة برية خالية إلا من الوحوش والضواري** ـ صقيعاً بارداً لا دفء فيه ولا حنان.. فالطيب راح .. الطيب راح..

عمر، يبكي في عاشوراء على الطيب الذي راح..

أي رمز... وأي دلالة..



على جانبي الطريق الإسفلتي، كانت هناك حاشية ترابية ضيقة، تنمو بها بعض النباتات البرية والحشائش.. لم ألتفت إليها، ولا أظن أحداً ممن كان معي في السيارة التفت إليها..

بل إني لا أظن أن أحداً، **لا في تلك الليلة ولا في سواها، قد التفت حقاً إلى تلك الحاشية الترابية الضيقة..**

لم يقف أحدٌ ؛ **ليتأمل في ذلك الهامش الضيق؛ ليتفرس في تلك المسافة الضائعة التي لا يفكر فيها أحد..**

لم يتصور أحد ـ **ولا تصورت أنا** ـ أن ذلك الهامش الضيق سيستوعب ملحمة تعجز عن استيعابها آلاف الصفحات، وأن تلك الحاشية الصغيرة ستكتب ما لا يكتب في المتن الأصلي.

في تلك الحاشية، على جانبي الطريق، سيدفن ـ **بعد موتهم بفترة** ـ المئات، وربما آلاف ، سيدفنون دون أن يحوزوا فرصة ثانية، **وربما حتى دون أن يكونوا قد حصلوا على فرصة أولى..**

في تلك الحاشية، سيدفنون، بعضهم تحت حجر.. وبعضهم تحت جذع شجر.. وبعضهم بلا تحت أي شيء، بلا أي أثر..

سيكتب أولئك الذين سيخرجون بعد أيام من سكان المناطق القريبة، ليدفنوا أولئك المشلوحين في العراء، سيكتبون، على أحجار، بخط رديء، بحبر رديء، كل المعلومات التي استطاعوا أن يحصلوا عليها من الجثث الصامتة ـ **التي لا تدلي بشيء ـ** لعل وعسى يأتي يوم.. ويأتي من يبحث عن تلك الجثث..

كتبوا **هنا يرقد عقيد مجهول الاسم يقود سيارة نوع كورونا بيضاء،** لا شيء آخر..

ويسرح خيالك ليملئ الفراغ الذي لم تملأه المعلومات المدونة على الحجر فوق القبر، لعل العقيد كان يملأ الدنيا بهيبته وشاربيه وابتسامته، كان **رفعة رأس** أهله وعائلته. وقرة عين أمه المصابة بالضغط والروماتيزم ـ **وظهر أرملة أخيه وأولادها الأربعة ـ والآن من يكون ظهر أرملته وأولاده الخمسة، أفكر، لكن الله موجود** .. لعله كان يساعد ابن الجار عندما أدى الخدمة العسكرية، ولعله كان كثيراً ما يؤدي **الواجب** مع الجيران والأقارب..

قرة عين أمه .. عميت عين أمه عليه، ليس سوى حجر فوقه، عليه تلك الكلمات **عقيد مجهول الاسم يقود سيارة** .

وهنا كتب: **هنا يرقد مدني يلبس حذاء رياضة وتراكسوت أزرق** ، هذا كل شيء. حياة إنسان كاملة، مشاعره عواطفه همومه وأفكاره كلها تصير موجزه كبرقية، **لا تسمن ولا تغني من جوع .. حذاء رياضة وتراكسوت أزرق**، هي كل ما يمكن أن يدل على أهله الذين ستتقطع بهم السبل بعده.. وربما لن يدلهم الحذاء والتراكسوت على شيء..

وهنا كتب **شاب يرتدي نظارة** لا شيء عن عينيه، عن شفتيه، عن أذنيه، لا شيء عن يديه وعن رجليه..

لا شيء عن أي من العلامات الفارقة التي تكتب في الهوية ـ **ويتصورها الناس عادة ثابتة .. كل شيء زال، لم يبق إلا ما كان يبدو أنه زائل جداً** : **فقط نظارتيه..**

وهنا لم يكتب أي شيء. لم يجدوا أي شيء يمكن الاستدلال عليه: **مجرد شخص** آخر، **يشبهني أو يشبهكم أو يشبه أي واحد من معارفنا، فكروا لو أنا كنا هناك بالصدفة المحضة بالقدر المحض** ، في محرقة المطار في ذلك الخميس الحزين، وكانوا وجدونا هناك، بعد أيام، مجرد جثث نصف متفسخة، **نصف متفحمة** ، ماذا كانوا سيجدون فينا مميزاً ليكتبوا على الحجر. فكروا لو أنا تجردنا من الألقاب التي تسبق أسماءنا ومن ملابسنا ومن معارفنا ومن علاقاتنا، وكنا هناك جثثاً بلا ملامح مميزة في تلك الحاشية الضيقة على طريق المطار السريع ، ماذا كانوا سيكتبون سوى اللاشيء المدونة قرب معظم الجثث المدفونة هناك.. عند ذلك الهامش الذي لم ألتفت إليه، بينما كنت أمر مسرعاً بسيارتي **في ذلك العاشوراء الحزين** .



قيلت لنا أشياء كثيرة، عن ليلة المطار تلك..

بعضها كان واضح التزييف والكذب، **لكننا صدقناها لأننا كنا نريد أن نصدق.. كنا نحتاج إلى أن نصدق.. كنا نحتاج إلى أن نبتلع تلك الحبة المهدئة، حتى لو كنا نعرف أنها لن تنفع.. وأنها مجرد حبة فارغة أو منتهية المفعول..**

وبعض الأشياء التي قيلت، كان يمكن أن تكون حقيقية، لكننا كنا أعجز من أن نصدقها ؛ لأن الذين قالوها طالما كذبوا علينا.. وطالما تحققنا من تعمدهم الكذب تحت شتى الشعارات.. بعض الأشياء التي قيلت كانت حقيقة فعلاً، كانت واقعاً شهد به الكثيرون .. لكن؛ لأنهم قالوه دونما وثائق .. دونما صور.. وجدنا أنفسنا أعجز من أن نصدق..

أشياء كثيرة قيلت لنا.. لكن أذهاننا كانت مشوشة، عقولنا كانت مرتبكة.. كنا أعجز من أن نفهم أو نصدق أو نكذب أو نقبل أو نرفض..

لقد وصلوا المطار..!



قالوا لنا : إن انقطاع التيار الكهربائي عن بغداد بأسرها، ليلة معركة المطار، كان لأمرين مرتبطين ببعضهما البعض.. لا بسبب قصف معادي .. بل؛ لأن الطاقة الكهربائية ـ **كما قيل** ـ استخدمت كسلاح استثنائي في كهربة شبكة أنفاق تحيط بالمطار .. وكان لا بد أن الغزاة قد تورطوا بها..

لم تكن هذه هي المرّة الأولى التي تستخدم فيها الكهرباء ضد البشر، لكنها كانت بالتأكيد من المرّات النادرة التي تستخدم ضد غير المواطنين، فقد كان الاستخدام التقليدي للكهرباء، والتي تختزنه ذاكرة الناس وذاكرة الأقبية والأنفاق، هو الاستخدام في التعذيب على أيدي المحققين والزبانية.. وكانت هناك بعض التجارب الأخرى.. في كهربة الأهوار في الجنوب ...

لكن هذه المرّة، كما قيل، استخدمت ضد الغزاة ـ **لا أعرف أحداً شعر بالأسى أو الأسف أو حتى الاشمئزاز من أجل طريقة الموت تلك** ـ لو أن أي أحد من هؤلاء الغزاة **قد صعق بالكهرباء وهو يصلح أداة منزلية كهربائية بين زوجته وأطفاله، وقدر لنا أننا رأينا الخبر أو تعليقاً عليه، لربما كان ملأنا الغمُّ وأسقمتنا الكآبة. لكن الآن، والكهرباء قد صعقت ـ كما قالوا** ـ المئاتِ.. لا نشعر بأي شيء من التعاطف، **ما الذي جاء بهم إلى هنا أصلاً.. لو كانوا**

بقوا في بيوتهم .. هل كانت ستصعقهم الكهرباء ؟

قالوا لنا ذلك ولم نتأكد قط مما حدث حقاً هناك، فكل ما حدث قد دخل في قنينة الأسرار المكتومة الساقطة نحو قاع محيط لا قعر له.. كل ما حدث دخل في برزخ لا يمكن استكشافه أو التنقيب فيه..

وقيل لنا أيضاً ـ وتناقلناه كما نفعل مع كل ما قيل لنا: إن انقطاع التيار الكهربائي كان تغطية على هروب بعض المسؤولين الكبار وعوائلهم من المدينة ـ تحت جنح الظلام .. كما لو كانوا يهتمون أصلاً بما سيقال عنهم، كما لو كانوا يكترثون ويتجشمون مشقة الاستتار على كل ما فعلوه طيلة عقود .

وقيل أيضاً، وتناقلناه كذلك: إن فرقة أمريكية خاصة قامت بإنزال في وسط المدينة لاعتقال شخصية معينة، هي الشخص بعينه وشحمه ولحمه، وكان التعتيم الذي فرض على المدينة تضليلاً لهذه الفرقة، من أجل تسهيل هروب ذلك الشخص، بعينه .. كما لو كانت الفرقة الخاصة تعتمد على إنارة الشوارع العامة وأضواء بيت الجيران !.. لا ندري بالضبط ماذا حدث.. لكننا نعرف أن بغداد غرقت في الظلمة، وأن الكهرباء لم ترجع بعدها..)

وقالوا كذلك: إن الغزاة تكبدوا خسائر فادحة في المطار، وإن أعداداً كبيرة، بالمئات، من جنودهم، قد أسروا، مما أفقد الغزاة أعصابهم ودفعهم لاستخدام ما استخدموه من أسلحة، مما لا يعلمه إلا الله.

وسيقولون بعدها ـ **ليسَ بعدها بكثير جداً** ـ: إن تلك الخسائر التي تكبدها الغزاة .. تلك الجثث وأولئك الأسرى، استخدموا جميعاً للمقايضة في صفقة مريبة .. مقابل تسليمنا جميعاً **..ومقابل تسليم بغداد..**

وقيل أيضاً: قاله ذاك الذي حاز على شهرة إعلامية واسعة أثناء الحرب، أن المعركة حسمت لصالحنا، وتحدى الجميع باصطحاب الصحفيين ومراسلي الوكالات للمطار، ثم عادَ أدراجه في منتصف الطريق بحجة أن القصف شديد في المنطقة.

وقيل أيضاً: إن الخيانة بدأت من هناك.. وكان ذلك كذباً مفضوحاً، فالخيانة تبدأ عندما تبدأ ليس بين ليلة وضحاها، ولكن .. قبل أن تظهر على السطح بفترة طويلة.

وقيل أيضاً: إن بعض أفدح الخسائر التي تكبدناها كانت نتيجة مباشرة لقصف بعض

قطعاتنا لقطعات أخرى، **فيما بدا للوهلة الأولى أنه خطأ شنيع وقاتل ولكن غير مقصود، ثم سيتبين لاحقاً، أنه جزء من هوة الخيانة التي سقط فيها بعض القادة العسكريين المقربين من السلطة.**

كان ولاؤهم دوماً مبنياً على الإغراق في المال.. وعندما جاء من يدفع أكثر لم يتوانوا..!

وستتناقل بغداد قصة المروحية الأمريكية الغامضة التي حطت على سطح منزل واحد من كبار القادة العسكريين .. ونقلت عائلته بعيداً، كجزء من الصفقة التي عقدوها معه.

وسيقال لنا ـ **كما قيل دوماً** : إننا سنقطع رأس الأفعى ، كما كانوا يقولون قبلها، إننا سنقطع جسدها الممتد على طول الصحراء إلى قطع صغيرة..

سنحاول أن نتناقل ذلك، ولن يمنعنا عن تناقله غير أننا نشعر بشيء ما عند حنجرتنا،.. ما هذا ؟

نعم. إنه رأس الأفعى، يلتف عند رقابنا.. يكاد يخنقنا ويحطم عظامنا.. يكاد يقتلنا.. وقد قيل لنا إننا سنقطعه أوصالاً..

مرهقين كنا، مشوشين.. مخذولين ومخدوعين.. ورغم الظلام الدامس .. رغم أننا كنا لا نكاد نرى شيئاً .. رغم أن عقولنا مشوشة وأفكارنا حائرة إلا أننا كنا نعرف شيئاً واحداً لا شك فيه **لقد وصلوا ..!**



المشهد الثاني

لقد وصلوا!

صلاة الجمعة في مدينة توشك على السقوط تجربة مريرة، ليس ما هو أمر منها غير صلاة الجمعة في مدينة قد سقطت فعلاً.

وقد جربتهما معاً، في جمعتين متتاليتين، لا يفصل بينهما غير أسبوع السقوط نفسه..

الجمعة التي سبقت السقوط، والتي صحت فيها بغداد على حقيقة أنهم (..**وصلوا**..)

كانت جمعة مريرة جداً، ليسَ هناك ما هو أمر منها **غير الجمعة التي تلت السقوط**. . .

قصدت المسجد الذي تعودت أن أذهب إليه قبل بدء الغزو ـ **كنت أذهب إليه مع صديقي الذي غادر نهائياً ليلة عاشوراء، قبل ثلاثة أسابيع من ذلك كله.**

ذهبت كما لو أني كنت أريد أن أتفقد كل شيء، أو ربما أودعه، أو هكذا، ذهبت بلا سبب واضح المعالم في وعيي يملي علي سلوكي.

بدا اسم المسجد ـ **للمرة الأولى** ـ موحياً وله دلالاته: **عمر المختار** .. كان يبدو ـ **قبلها** ـ مجرد اسم لجامع.. لكن الآن بدا الاسم عنواناً لمرحلة .. وقدراً لوطن..

ساعدوا الشيخ العجوز على صعود الكرسي، وضعوا الحبل المتين على عنقه، شدوه جيداً من الخلف، تأكدوا من أنه لن يفلت، **شدّوا وثاقه جيداً، تأكدوا من متانته** .

قدمٌ ما ترفس الكرسي .. يترنح الجسد العجوز ويهتز في الفراغ، يلبط، يشهق.. ويختنق. ثم يسكن تماماً.. رغم اهتزاز الحبل كالبندول..

يومها ـ **تلك الجمعة المريرة** ـ بدا الاسم منذراً بأننا جميعاً ـ **نحن المصلين في ذلك الجامع** ـ على وشك صعود الكرسي الذي سترفسه قدم ما.. على وشك أن نهتز في الفراغ.. على وشك أن نشهق.. ونختنق..

ونموت..

لكن دون أن نحوز شرف المقاومة..

للمرة الأولى بدا الاسم له معنى، أكثر من الاحترام والتقدير لذلك الرجل الذي قضى قبل حوالي قرن في قارة أخرى..

للمرة الأولى قرأت في الاسم اسمي، واسم صديق لي.. واسم وطني الذي شدّوا وثاقه جيداً..

ثم **ساعدوه..** على صعود الكرسي..

حتى اسم المنطقة التي يقع فيها الجامع، **اليرموك**، بدا موحياً ومليئاً بالدلالات بعدما كان مجرد اسم لمنطقة لا يذكرني إلا بأسماء أصدقائي الذين خرجوا ولم يعودوا في معظمهم.

فجأة، صار الاسم ـ **اليرموك** ـ يذكرني بالتاريخ الذي خرج ولم يعد هو الآخر. وبالروم الذين هزموا، وبالروم الذين عادوا ، والروم الذين على الأبواب، والروم الذين وصلوا..

وصار الاسم يذكرني بالجيل الذي خرج ولم يعد، وبالمجد الذي خرج ولم يعد، وبالعز الذي خرج ولم يعد.

صار اسم اليرموك يذكرني بالواقع الذي أوصلنا لما وصلنا إليه، يذكرني بضباط كبار وقادة عسكريين يسكنون اليرموك ـ **خدموا بلدهم لعقود** ـ ثم انتهوا إلى راتب تقاعدي يكاد لا يكفي لاكتراء سيارة أجرة واستلام ذلك الراتب التقاعدي..

جامع عمر المختار.. في اليرموك في تلك الجمعة المريرة التي لا أمرّ منها غير الجمعة التي تليها، اسمان بدوا يومها مختلفين جداً عما سبق، اسمان صارا فجأة مليئان بالدلالات والإيحاءات.

۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞

لا أذكر شيئاً من الخطبة غير النشيج، غير ذلك البكاء الذي كان يسري بين المصلين كالعدوى التي لا تجدي معها وقاية.

بلى، أذكر شيئاً مريعاً غير البكاء. أذكر جملة قالها الخطيب وعلا بعدها النحيب. قال: **لايقعد أحدكم في بيته ويغلق بابه عليه ويقول الأمر لايعنيني..** علا النحيب، علا النحيب، علا النحيب.. أجهشت الجموع في البكاء **.كانت تعلم أن هذا ما سيحدث بالضبط كانت تعلم ـ ربما دون أن تعترف ـ أن كل واحد منها في اللحظة الحاسمة جداً عندما يدخل الغزاة، سيغلق الباب عليه ويقعد وينتظر.. ويقول : الأمر لا يعنيني..**

الصلاة كانت مروعة وإن كنت لا أذكر شيئاً منها غير القلوب التي بلغت الحناجر، والزلزال الذي زلزل المؤمنين، وكان قلبي عند حنجرتي، وكان الزلزال يعصف بكل وطني.

عند القنوت قال الإمام شيئاً لا ينسى، قال وهو يتحشرج: «نشهدك يا رب أننا نحب بغداد».. ثم سكت، اختنق عندها وظل ساكتاً .. اختنقنا معه.. خنقتنا عبراته وخنقته عبراتنا.. دارت الدنيا بنا.. وكانت قلوبنا عند الحناجر.. والحناجر كانت مكلومة، تئن وتنزف وتتحشرج.. بعد الصلاة، شبكني من الخلف صديق قديم منذ أيام الدراسة الابتدائية، احتضنته واحتضنني و بقينا نبكي في أحضان كل واحد الآخر لدقائق ـ بكينا كما لم نبك حتى في طفولتنا الغابرة، بكينا كل شيء، بكينا الزمان الذي راح والطيب الذي راح.. بكينا الطفولة الذبيحة وبكينا الأمان الذي اغتيل، وبكينا أحلامنا البريئة وطموحاتنا القتيلة، وبكينا الخداع وبكينا الحقيقة، وبكينا أنفسنا.. بكيناها طويلاً طويلاً..

ولم ننس أن نبكيكم أيضاً.. نعم، لقد ذكرناكم و بكيناكم.. بكينا كل شيء .. لكن تهربنا من البكاء على بغداد .. نرثي أي شيء، نبكي أي شيء إلاها **..إلا بغداد..**

هذا ما يفعله الرجال في المدن التي توشك أن تسقط مدنهم: إنهم يبكون.. إنهم بدلاً من أن يذهبوا ويتهيؤوا للقتال أو يحفروا الخنادق أو أي شيء من هذا القبيل، فإنهم يبكون. ..

كلي خجلٌ، أقول، منكم ومن الأجيال، من أولادي، لكن ـ **كلي صدق: نعم، هذا ما فعلناه، لقد بكينا..، وقفنا نبكي كما يبكي كل الرجال في المدن التي توشك على السقوط، نبكي كالنساء ملكاً لم نحافظ عليه كالرجال..**، ربما يسقط الرجال قبل أن تسقط المدن.. وربما لاتسقط المدن أبداً إلا إذا سقط الرجال..

لن أبرر.. لن أحاول أن أبرر فليس عندي تبرير أصلاً.. لكن الكلام عن الجهاد والقتال سهل، وعندما تحين الحقيقة وساعتها أو دهرها الأمر أصعب..

لن أبرر، لكن سأحاول أن أفسر والكلام سهل، لكن الحقيقة أصعب، ليس الأمر أن تضغط على زر فتجد في نفسك مقاتلاً مستعداً للموت، **بدلاً من رب الأسرة الذي يعود كل ليلة حاملاً الطعام والحلوى لصغاره ـ ببساطة الأمر ليس سهلاً ـ ولا يمكن أن يحدث فجأة،** ولايمكن بالذات أن يحدث إذا كانت إرادتك سليبة، إذا كنت لم تتعود أن تأخذ قراراتك بحرية، إذا كنت مجرد عبد سليب الإرادة في مجتمع مستعبد بالكامل..

لا أحاول التبرير... فقط التفسير..

وقفنا نبكي، كما لم نبك في طفولتنا : متحاضنين، كما لو كنا نحتمي بطفولتنا ـ **من واقعنا المر** ـ كما لو كنا نود الاختباء فيها، في خبايا ذكرياتها، وفي زوايا المدرسة وممراتها **وفي حديقتها الخلفية حيث كنا نؤدي التمارين والألعاب** ، من تلك العاصفة التي توشك على ابتلاعنا..

كان يسكن ـ **كما أذكر في منطقة قريبة من الجامع** ـ عكسي أنا الذي أسكن على الجانب الآخر من بغداد، قال لي، بين دموعه : **ألا يزال بيتكم في موقعه** ؟..

لم أكن متأكداً من الجواب . كان قد مضى عليَّ أكثر من ساعة منذ غادرت المنزل، وفي ساعة ـ **كان فيها الكمية المعتادة من القصف** ـ يمكن لأي شيء أن يحدث.

لكن بعد كل شيء، أليس العالم كله كله قد تغير موضعه ـ **وليس بيتي وحده؟ ألم يكن كل حجر على حجر في بغداد، قد غير موقعه** ـ في هذين الأسبوعين المنصرمين؟

لم يكن يقصد أي شيء من هذا بسؤاله الواضح، طبعاً..

هزرت برأسي فيما بدا أنه علامة إيجاب..

أجابني : **ماذا تفعل هنا إذن ؟ .. اذهب إلى البيت..**

تلك النصيحة ـ **اذهب إلى البيت** ـ كانت تلخص كل ما سيحدث، وكل ما حدث فعلاً بعدها ـ **لا يقعد أحدكم في بيته ويغلق الباب عليه** نصيحة الشيخ على المنبر، تقابلها نصيحة صديقي **اذهب إلى البيت..**

لست متأكداً، لكني أعتقد أن الشيخ نفسه، قد طبق نصيحة صديقي..

تلك الجمعة المريرة، انسحبت من **«اليرموك»** ـ **لقد كان الروم على وشك الوصول** ـ ..



تلك الليلة، ظهر ـ **هو** ـ على شاشة التلفاز..

كانت المشاهد التي صورت له تظهره وهو يتجول عصر ذلك اليوم في شوارع المدينة بين سحب الدخان والخرائب.. وهو يحيي الناس ويتفقدهم بينما هم يمارسون ما تعودوا

أن يمارسوه ـ **عبر ثلاثة عقود وأكثر** ـ من هتاف .. تصفيق و .. وثنية.. كان سلوكاً جماعياً يؤديه القطيع المدرب على ذلك دون أن تكون هناك آليات واعية واضحة المعالم لتغيير هذا السلوك..

لم يكونوا جميعاً منافقين، بل كانوا مدربين، مغسولي الدماغ عبر عقود طويلة على التصرف بهذا الشكل، مزيج من الخوف والإرهاب والتقليد و التعود..

أدمغتهم ـ **كجماعة وكقطيع من البشر** ـ لم تغسل فحسب، ولكنها ركبت بهذا الشكل من أجل الوصول إلى هذا الشكل.

من السهل اتهام هؤلاء بالنفاق، وهي صفة ستكون متوافرة فعلاً عند البعض، لكن تعميمها رغم سهولته، سيكون عملية غير منصفة، وغير مطابقة للواقع، كان الأمر أعقد من مجرد نفاق..

لو أنك استوقفت واحداً من هؤلاء المصفقين، ودخلت في أفكاره، في أعماقه، لربما وجدته لا يكره شخصاً في العالم بقدر هذا الذي صفق له وهتف بحياته، لربما وجدته يسبه أقذع السباب كل يوم، ويعتبره السبب الأساسي ـ **أو الوحيد** ـ في كل مشاكله الخاصة والعامة ابتداء من قوت أولاده إلى دواء أمراضه إلى قنينة الغاز التي يحتاجها لطهي طعامه ـ **كل ذلك وأكثر** ـ ولكن، عندما يأتي أمامه مدججاً بحمايته وشرطته وأمنه الخاص وغير الخاص، فإن ذلك كله يختفي من وعيه ويظهر لاوعيه شخصاً آخر يقفز ويهلل ويهتف بحياة هذا الذي لايكره أحداً في العالم بقدره..

انفصام في الشخصية ؟ تناقض مرضي ؟ نفاق ؟ خوف ؟ طمع ؟ غسل في الدماغ ؟.. مزيج من كل ذلك ؟ ـ **ربما** ـ المهم أنه كان سلوكاً جماعياً انساق له الألوف، إن لم يكن المئات من الألوف ممن لا نستطيع أن نتهمهم جميعاً بالنفاق الخالص أو العمالة الكاملة..

وفي تلك الليلة الليلاء، عندما ظهر على شاشة التلفاز ، حدث نموذج آخر من ذلك السلوك الجماعي الذي تعوده القطيع..

قيل لنا : إنه كان يحاول أن يرفع الروح المعنوية لشعبه، **مقابل ذلك الانكسار الذي أحدثته ليلة المطار..**

كان الحديث عن **الروح المعنوية** أمراً يشبه نكتة قديمة لم تعد تضحك أحداً، لقد كان هناك من لايزال يتحدث عن **الروح المعنوية ـ بينما كانت عشرات الأرواح تزهق**

وتخرج من الأجساد ـ هناك في المطار وفي الطريق إليه وفي الضواحي المحيطة ببغداد.

كان الحديث عن **الروح المعنوية** التي يفترض أنها سترتفع بين صفوف الشعب حديثاً سخيفاً، **فالناس لم تعرف أصلاً بأنه خرج ليتجول في الشوارع ويرفع معنويات (رعاياه)**، فالكهرباء قد قطعت تماماً منذ الليلة السابقة، القلة التي لديها مولدات ويمكنها التواصل مع الأخبار ـ **مثلنا نحن** ـ فهمت الأمر بشكل معكوس تماماً : **لقد اعتبرنا الأمر توديعاً من قبل (سيادته) لرعاياه ـ لا أكثر ولا أقل ـ عن أي روح معنوية يتحدثون ، لقد وصلوا !.**



أعترف أيضاً، أن المشهد كله، كان مثيراً للحزن جداً، كما بدا كل شيء في تلك الجمعة المريرة..

أعترف أني بكيت، وأن والدتي بكت، وأن زوجتي بكت، ـ عندما شاهدنا ذلك الرجل الذي أوصلنا لما وصلنا إليه، و هو يقوم بما فهمنا أنه توديعنا..

عليَّ أن أجد تفسيراً عقلانياً لتلك الدموع.. وهو ما أعرف أنه صعب إن لم يكن مستحيلاً..

كان في رأس كل منا رغم الدموع التي يذرفها، تاريخ طويل وعام من الكره والرفض تجاه هذا الرجل الذي قادنا بحماقاته أو بشيء آخر إلى ما وصلنا إليه ..

وكان هناك، داخل رأس كل منا ـ رغم الدموع ـ تاريخ خاص من التفاصيل المروعة والمفجعة والموجعة التي سببها هذا الرجل بشكل شخصي لكل واحد منا..

كان في رأس زوجتي ذكرى دامية لخال شاب اقتادوه من بيته ذات ليلة، قدّر أنها كانت قد باتت فيها عنده .. وعند عروسه الشابة.. وتلك الطفلة ذات العشر سنوات التي كبرت فيما بعد لتصير زوجتي، سوف تظل تحتفظ في ذاكرتها بذلك المشهد، وبمشهد آخر، يوم جيء به في تابوت.. ويوم فتحوا التابوت .. وكان قد مات تحت التعذيب..

وفي ذاكرة والدتي، كان هناك المصادرات المستمرة الظالمة للأراضي والأملاك، والمعاملة المهينة في أروقة الدوائر الرسمية .. فقط لأن والدها كان مستوزراً في عهد سابق مباد..

وفي ذاكرتي كانت هناك الاستدعاءات المتكررة لدوائر الأمن.. وأمزجة الضباط المتقلبة التي يجب أن أتقبلها بصدر رحب ـ دون خيار آخر ـ وهم يجسون نبضي بأسئلة

تتراوح بين السياسة الدولية والمعلومات التاريخية .. فقط من أجل صلاتي في المسجد..

وكانت هناك قائمة الممنوعات والمحرمات التي تجثم على صدري، كما صدر أي مواطن آخر : الكلام ممنوع، التعليق ممنوع، التنكيت ممنوع و الضحك على التنكيت ممنوع، الكتابة ممنوعة والنشر من باب أولى ممنوع، الدّش ممنوع والنقال ممنوع، النظر ممنوع والمقارنة ممنوعة ... لكن التنفس مكرمة سمح بها سيادته، وعلينا أن نسبح ونحمد ونهلل لحفظه من أي مكروه من أجل ذلك..

وكانت هناك، في رأس ورؤوس الآخرين، ممرات تسير عليها قوافل المعدومين

ـ لمجرد أنهم خالفوا قوائم الممنوعات ـ ، وقوافل الشهداء والمفقودين .. لمجرد أنهم ولدوا في سنوات سيقت مواليدها في محرقة الغزوات والنزوات..

كان هناك الدم، والمزيد من الدم، والقمع، القهر ، الكبت..

وكان هناك الرعب، ربما مغلف، ربما مكتوم ، لكنه موجود فعلاً ، **الرعب تجاه هذا الشخص.الكره.الحقد، تجاهه** ليسَ أقل من ذلك، وربما أكثر بكثير..

وها هو الآن، وهو يتجول في الشوارع ـ ربما للمرة الأخيرة ـ **في المدينة التي طالما اضطهدها واستلبها.. والتي طالما** ـ رغم ذلك ـ **هتفت وصفقت له..**

تلك الجمعة الحزينة ـ وبغداد غارقة في ظلمتها وظلامها وظلمه لها وظلمها لنفسها بالقبول بظلمه لها.. وظلم الآخرين لها..

تلك الجمعة ، وتلك المشاهد التي تبث على واحدة أو أكثر من القنوات نزر يسير جداً من العراقيين شاهدوها **تلك الليلة..**

الكثيرون من ذلك النزر، قالوا لي: إنهم بكوا، كما بكيت أنا، وبكت والدتي.. وبكت زوجتي..

كان ذلك غريباً، كما قد تتوقعون..

كنا نكرهه.. ومع ذلك بكينا عندما شاهدنا تلك اللقطات التي فهمناها أنه توديع ما، لعصر ما..

لو أن الذين كانوا يبكون، كانوا من محبيه، من أتباعه، من المنتفعين منه.. لقلنا : إنهم يبكونه..

لكن الدموع التي ذرفت .. كانت من عيون طالما نظرت بكره ورفض لصوره وتماثيله التي لا تخلو ساحة أو منعطف منها..

طالما بكت منه .. ومن جرائمه المروعة..، وطالما أغمضت ليلاً وهي تحلم به وهو يتلقى جزاءه وقصاصه العادل..

أو تحلم بأن تفتح على عالم يخلو منه ومن أمثاله..

لكن عندما حانت تلك اللحظة، فيما بدا أنه الوداع لا محالة..

انهمرت الدموع..



لعله أمر غريب ؟



يستطيع أي مستشرق، وبالذات أي مستغرب، لو دخل علينا في تلك اللحظة، ونحن نبكي، أن يهين لنا عدته التحليله وأدواته السايكولوجية ليفسر لنا الموقف بما يتوافق مع منطلقاته ودوافعه الأيديلوجية..

سيقول لنا : إنها المازوشية المتأصلة فينا.. إنها عقد الشرقيين في عشقهم المتخلف لكل من يبدع في إيلامهم .. إنه قيس الذي يعشق عذابه بليلى أكثر من عشقه لليلى نفسها.. إنها العلاقة المركبة التي تربط بين زعيم سادي وشعب مازوشي، وهي علاقة تشكل ظاهرة ليست نادرة في تاريخ المجتمعات الشرقية..

سيقولون ذلك متذاكين، وسيردد قولهم آخرون.. وسيعتبرون هذا التفسير نهائياً وقاطعاً وغير قابلٍ للمراجعة أو التغيير..

أعترف أني بكيت ، تلك الجمعة الحزينة، لكن لم يكن هناك أيُّ دموع موجهة له، تجاهه على الأقل ، كما لم يكن هناك أي من الترهات الفرويدية المعتادة..

لم تكن تلك الدموع المنهمرة، هي دموع السجين وهو يودع سجانه وزنزانته وقضبان سجنه، ولم تكن دموع الضحية وهي تودع جلادها وسوطه وركلاته..

لقد بكيت نعم.. لكني لم أبكه هو .. لقد بكيت أجيالاً كاملة ضاعت أعمارها هدراً تحت زعامته.. وبدا المشهد، وبغداد تحترق، والناس ـ لاتزال تصفق وتهتف ـ محزناً جداً، مبكياً جداً، لقد كانوا لايزالون ـ حتى هذه اللحظة، **والروم قد وصلوا** ـ يصرون

على أن يصدقوه، أو يتظاهرون بأنهم يصدقوه.. ويهتفون له.. ولحياته التي حياتهم فداءٌ لها..

كان منظرهم محزناً جداً، لقد كان وعيهم مغيباً لهذهِ الدرجة.. كانت وجوههم بلا ملامح، بلا تفاصيل، كانت العلامة الفارقة الوحيدة فيها هي تلك الفجيعة ـ تلك الخديعة ـ تلك الخيبة التي صارت أعمق ما فيهم وأبرز ما فيهم وأصدق ما فيهم .. حتى لو كانوا لا يعلمون..

بكيتهم تلك الليلة، ناسي وأبناء شعبي الذين ضاع عمرهم في كذبة تلو أخرى، وخيبة تلو أخرى، وفجيعة تلو أخرى..

قال لهم، وصدقوه أو توهموا ذلك: **إنه سيملأ حياتهم عزّاً ورخاء وبحبوحة، وانتهوا بأن عاشوا في مجاعة وفقر وفاقة..و صار بلدهم يستجدي المساعدات من دول كانت تستلم منه المعونات..**

قال لهم: **إنه سيملئ بلادهم كرامة ورفعة .. وانتهوا بالذل المهين أمام أبواب السفارات الغربية المغلقة أبوابها في وجوههم ووجه طلباتهم باللجوء..**

قال لهم: **إنه سيحرق نصف إسرائيل، لكنه أحرقهم هم، وعذبهم هم، وقتلهم هم، وشردهم هم..**

وقال لهم: **إنه سيلقن الغزاة درساً، فإذا بهم قد وصلوا، وإذا بهم على الأبواب..**

لا، ليس شعبي مازوشياً ـ بل هو محض شعب طيب ـ كان مستعداً للمغفرة ونسيان كل الجرائم التي ارتكبت ضده.. فقط لو أنه كان قد صدق مرّة واحدة ـ واحدة فقط ـ **ولم تأت .. حتى هذه اليتيمة..**

لم تأت..

نعم، بكيت، وبكينا عندما بدا أنه مشهد وداع، لكن تلك الترهات السايكولوجية لم تكن التفسير..

كان الأمر أبسط، وأسهل، وأوضح.

كنا نبكي **شبابنا المأسوف عليه. وطننا المأسوف عليه. تاريخنا المأسوف عليه، و مستقبلنا المأسوف عليه..**

ربما كان البعض يبكي وهو يودع الشر؛ لأنه كان شراً يعرفه خوفاً من شر آخر لا يعرفه.. لقد تعودنا أن نفضل الشين الذي نعرفه على الزين الذي لا نعرفه، فكيف إذا كان الذي لا نعرفه شيناً آخراً، ربما يفوق سابقه في المساوئ إن **لم يكن هو أستاذه ومدربه في السوء..**

نعم، كانت القيود والسلاسل مؤلمة لنا ـ رغم أنها صارت جزءاً من جلدنا ومن عظامنا ـ ولكن عملية نزعها ستكون مؤلمة أكثر..

وكنا نعلم أن الذي **ينزعها عنا سيستبدلها بقيود أخرى، ربما من نوع آخر، ربما ستكون غير واضحة للعيان كما سابقاتها، لكنها قيود على أي حال.. وقد تكون ـ على المدى البعيد ـ مثل تلك القيود التي نزعوها منا..**

أو أخطر؟

نعم.. كنا نبكي، نبكي استبداداً عرفناه، وخبرناه، خوفاً من احتلال لم نجربه بعد.. وإن كنا قد عرفنا نواياه..



وعندما يبكي الرجال .. في مدينة على وشك السقوط، فإنك تعلم أن المدينة ساقطة لا محالة.. وأن تعلم أنهم الرجال قد سقطوا.. أن المدينة ستسقط لأنهم قد سقطوا..



السبت ربما..

تحاول أن تهرب مما يدور، من نفسك.. من واقعك من مدينتك التي توشك على السقوط..

تحاول أن تهرب من الأخبار بالذات، تشعر كل كلمة في التقارير والنشرات المتواصلة كما لو كانت تقصد إيذاءك وجرحك، تشعر بكل كلمة، كما لو كانت سكيناً يواصل طعنك والنكش في جروح غير ملتئمة لك..

بل إنك تخاف أن تسمع ـ بين الأخبار ـ خبر نعيك، أن تشاهد بين الصور، صورة لجثتك أو جثة أولادك.. وتخاف عندما ترى صور المنازل المهدمة.. أن ترى بينها صور بيتك..

تقرر أنك متعب جداً وأنك تجاوزت الحد الفاصل بين الواقع والخيال، كما فعل كل شيء تقريباً.

تقفز إلى ذهنك اسم رواية قرأتها قبل سنوات ..« **وقائع موت معلن**» لماركيز.. حيث تدور أحداث الرواية كلها في يوم واحد .. يبدء بشخص يعلن أنه سيقتل شخصاً آخر بدافع الثأر أو الانتقام، وينتشر خبر الموت المعلن في القرية، ويصل إلى الشخص المعني الذي يحاول بشتى الوسائل تجنب موته المعلن..

لكن سيناريو الموت المعلن ـ واقعة بعد أخرى ـ يستمر ليصل إلى قدر اللحظة الأخيرة، حينما يقتل ذلك الشخص الذي أعلن موته قبل أن يموت.. دون أن يتمكن من تغييره..

كل تلك الأخبار والنشرات والتقارير كانت تبدو لي مثل «**وقائع موت معلن**» لي، لأطفالي.. لوطني كله..

سانتياغو نصار ! يقفز اسم بطل الرواية إلى ذاكرتي.. أغَصُّ إذ أتذكر أن أحداً لن يكتب اسمي، ولا أسماء أطفالي، إذا ما تم موتنا المعلن. أغَصُّ إذ أتذكر أننا سنقضي، كما سيقضي الآلاف غيرنا، تحت السقوف المنهارة، مجرد عدد ربما سيحسب وربما لا لن يكترث أحد بذكر أسمائنا، أو بكتابتها ناهيك عن كتابة رواية عنها..

أغَصُّ إذ أتذكر أن يكون (سانتياغو نصار) اللعوب التافه قد وجد من يدون وقائع موته المعلن، بينما يموت وطني ـ وطني ! ـ على رؤوس الأشهاد، ويذبح عبر البث المباشر، وتنقل وقائع انتهاكه واغتصابه عبر الأقمار الصناعية ـ ولا يكتب أحد وقائع قتله المعلن..

أقرر أن أعصابي لم تعد تحتمل ذلك كله لكني لا أقوى على تغيير المحطة، أحاول رشوة أطفالي لكي يقوموا هم بالمهمة.. فأخبرهم أن بإمكانهم مشاهدة قناة الرسوم المتحركة ـ إذا أحبوا ! ـ

ينظران لي بتشكك وقد حرما من متابعتهما قبل بدء الحرب بفترة، ويسرعان لتغيير المحطة قبل أن أغير أنا رأيي..

أحاول أن أركز في أي شيء آخر .. أو بالأحرى أن لا أركز في أي شيء على الإطلاق.. تفشل محاولتي بسرعة، إذ أنتبه إلى صوت «الجزيرة» مرّة أخرى..

أنتبه من اللاشيء ـ و إذا بابني قد غير القناة بمحض إرادته.. وأنظر إليه، ابن الخمس سنوات لم يطب له أن يتابع ما يتابعه أقرانه في البلدان الأخرى، بينما وطنه يحترق..، وفضل أن يعود إلى «الجزيرة» .

أنظر إلى عينيه ـ الأغلى عليَّ من عينيَّ ـ **فأرى فيهما انعكاساً لوطن يحترق و .. أرى فيهما مفترق طريق.. وأرى فيهما تاريخاً يختاره المستقبل، ومستقبلاً يبحث عن تاريخ، وأرى فيها سفينة تبحث عن بوصلة وعن مرفأ، وأرى فيهما جيلاً مولوداً وآخر مفقوداً ـ وخيار على جيلي أن يتخذه من أجل .. أن لا يكون جيل ابني كجيلي..**

.. أحتضنه.. أحتويه.. وأتشبث به..

يبكي الرجال في المدن الموشكة على السقوط.. لكن تلك اللحظة لم يكن فيها بكاء.. كان الأمر أكبر من البكاء.. وأكبر من السقوط..



السبت .. (أو الأحد ؟)

لم أعد واثقاً من شيء.. تختلط الأيام وتتشابه ببعضها البعض، لا يعود التمييز ممكناً فضلاً عن أن يكون مهماً..

أحاول الهرب إلى النوم، كل مرّة يوقظني قصف لا يهدأ ولا ينام، أتقلب وتفشل كل محاولة للتمييز بين أصوات الانفجارات، هل هي قذائف ؟ صواريخ ؟ صواريخ مضادة ؟ قنابل عنقودية ؟ قذائف مدفعية ؟ ما الفرق حقاً بين كل ذلك (**لقد وصلوا..**) .

في الليل لا يكاد ينقطع القصف ولا حتى لحظة واحدة، نتكيف مع ذلك ونستطيع أن ننام بالرغم منه، أعلق بصوت عال قائلاً : إن الإنسان سمِّي كذلك لأنه يستطيع أن يتكيف مع كل شيء، يبدو التعليق بلا معنى فما العلاقة بين لفظتي إنسان وتكيف.. تحول الأمر إلى نكتة بسرعة وضحك من استطاع أن يركز ليفهمها، تكيف آخر كانت البقية الباقية من الإنسان فينا تبدعه بوجه القصف والموت، والسقوط القادم من كل مكان..

ورغم القصف ـ رغم أصواته واهتزازته، كان إرهاق أجسادنا ونزيف أرواحنا يحتمان علينا فسحة صغيرة من النوم الذي يشبه الإغماءة ـ نقضيه متقطعاً بين قذيفة وأخرى، وشهقة وأخرى وكابوس وآخر..

كنا قد وصلنا تلك المرحلة التي لم نعد نعرف فيها ما نريد حقاً.. ولم نعد نعرف ماذا يمكن نطالب في صلواتنا ودعواتنا.

قبل أن يبدأ الغزو ، كنا نعرف ماذا نريد : أن **لايبدأ** !..

عندما بدأ، كنا نعرف ماذا نريد أيضاً : **فيتنام أخرى** ـ إن أمكن ـ وسريعة أيضاً، لو سمحتم ـ **ومقتصرة على الجنوب** ـ شكراً جزيلاً حتى ينكسر الحلف الأمريكي مرّة واحدة وإلى الأبد ..، ويرفع الشعب رأسه عالياً ويكتشف إمكانياته، و لا يعود بإمكان حكامه أن يتخذوه مطية

لم يحدث ذلك أيضاً..

ثم أردنا أن يتقدم أحد بحل سياسي من نوع معين، مساومة أو مبادرة تحت الطاولة أو فوقها أو من أي اتجاه..

لم يحدث ذلك أيضاً..

اتضح أننا كنا نريد معجزة، لا يستحق من كان في عجزنا حصولها..

والآن، والروم قد وصلوا .. والغزاة على الأبواب، لو واجهنا أنفسنا للحظة ـ لو تمكنا من مواجهتها في دوامة الفوضى ـ وسألناها ـ قبل أن تهرب منا ونهرب منها : ماذا نريد الآن بالضبط، (وهم قد وصلوا).. لما عرفنا ولما عرفت .. ولما عرف أحد بالضبط ما الذي يريده بالضبط..

بغداد ـ **والسكين على العنق** ـ لم تكن تدري بالضبط ماذا تريد .. هل كانت تريد أن يكون السكين حاداً ليكون الذبح سريعاً والألم أقل، أم كانت تريد من السكين أن تظل تروح وتجيء على رقبتها وتذبحها ذبحاً بطيئاً؟

في المسلخ كنا، معلقين هناك.. ننتظر دورنا في الذبح والسلخ والتقطيع، ولم نكن ندري بالضبط أيهما أصعب : السلخ، أم انتظاره؟ ولم نكن نعرف بالضبط ماذا علينا أن نبتهل إلى الله : أن يعجل في سلخنا، أم أن يعطله ما دمنا لا نستحق معجزة إلغاء السلخ..

كان النهار قصفاً لا ينقطع.. والليل قصفاً لا ينقطع كذلك، وكنا قد دخلنا في مرحلة من الذهول وانعدام الوزن بحيث كانت كل مفاصلنا ـ حتى تلك التي تتحرك في أدمغتنا ـ تصاب بالشلل، بالكساح، بالرعاف الذي ينزف نخاعه وذكرياته وأنينه..

لم نكن نفهم ما نريد.. وهناك، في سجودنا، في دعائنا، كنا لا نفقه حقاً ما ندعو الله أن يحقق لنا.. كانت كل الكلمات تبدو غامضة وهلامية وغائمة : ما معنى الستر والسلامة، ستر من بالضبط ؟ وسلامة ماذا بالضبط ؟ ما معنى الحفظ الذي كنا نبتهل الله من أجله ؟ حفظ ماذا بالضبط ؟ وهل يمكن أن نكون مستورين في وطن قد انتهك ستره وعرضه ؟.. هل يمكن أن نكون سالمين في وطن قيدوه وذبحوه وقطعوا أوصاله ؟.. هل يمكن أن نحدد معنى لحفظ الله لنا بينما وطننا كله محض خيمة في قلب عاصفة لا قلب لها ؟

أقول لكم: لم نكن نعرف بالضبط ماذا نريد ونحن في خضم تلك الدوامة التي صارت محوراً للعالم من حولنا..

وعندما لا يعرف الناس في مدينة توشك على السقوط، ماذا يريدون بالضبط ولا بماذا يحلمون، فإنك تعلم أنهم لا بد ساقطون.. وأن مدينتهم قد سقطت بسقوطهم قبل أن تسقط بحدودها وضواحيها..

وعندما يكون الناس ـ في المدينة ـ يفضلون الذبح السريع الحاسم، على الموت البطيء انتظاراً.. فإنك تعلم أنها النهاية القادمة لا محالة.. وأن المعجزة التي كنا نأمل في انتظارها.. لن تأتي، لأننا لا نستحقها..



السبت أو الأحد (أيضاً..) ؟

يقول لي أحدهم ـ في المركز الصحي ـ: إن إعلاناً قد صدر باتخاذ التوقيت الصيفي منذ أول ليلة أول جمعة في نيسان، كما هي العادة المتبعة ربما منذ عشرين عاماً أو أكثر..

يبدو الخبر لي كما لو كان نكتة استثنائية في وقت لا مكان للضحك فيه..

أن يكون يوم الجمعة ٤/٤ هو أول يوم للتوقيت الجديد ؟ الجمعة الذي كان الروم قد وصلوا المطار.. الجمعة الذي صحت فيه بغداد على غموض ما جرى في المطار وحقيقة أنهم **هناك** .

أن يكون يوم الجمعة هو اليوم الذي يبدأ فيه توقيت جديد، وبغداد كلها قد غرِقَت في ظلام دامس بسبب انقطاع الكهرباء واختفاء الأمل..

بدا الأمر كنكتة.. موظف بيروقراطي في مكان ما من وزارة ما، لا يزال مصرّاً على

أداء الأوامر الإدارية الروتينية في أوقاتها المحددة سلفاً، كما لو أن شيئاً استثنائياً لا يحدث في البلد، كما لو أن هذا الزلزال لا يهز أركانه وجذوره في الأساس .. كما لو أن العراق لم يكن يكاد يقطع ويجتث من العروق..

تذكرت هذا التاريخ ٤/ ٤ ؟. يبدو الرقم مألوفاً، نعم، إنه موعد انتخابات النقابة .. تذكرت كيف أن النقيب وبطانته كانوا يتصلون حتى آخر نقطة من خط حرارة في الهواتف، وقبل أن تلفظ كافة وسائل الاتصال أنفاسها الأخيرة مذكرين بموعد الانتخابات مصرّين على أنها ستجري بموعدها المحدد سلفاً، كما لو كانت الأمور تسير بشكل طبيعي تماماً.. روتيني تماماً..

وتذكرت كيف رأيتهم قبل الحرب بأربعة أيام فقط ـ أو أقل ـ النقيب وثلة من المصفقين والمؤيدين والمهرجين المصاحبين دوماً له، وهم يروجون لأنفسهم ولانتخاباتهم الشكلية، والبلد يوشك على أن يتعرض وحيداً منفرداً لحرب عالمية تستهدف وجود البلد ومستقبله وتاريخه وماضيه وحاضره وكل شيء له قيمة فيه..

وتذكرت كيف استصغرتهم واحتقرتهم، كما لم أفعل من قبل، رغم أني قضيت عمري كله في احتقار أمثالهم، لكن يومها، وأنا أراهم متمسكين بالكراسي حتى لو ذهب البلد كله إلى الجحيم، احتقرتهم كما لم أفعل من قبل، استصغرتهم لدرجة أني تصورت أني أحتاج إلى مجهر على عيني بدلاً من نظارتي.. لأراهم فيه..

كان مبنى النقابة قد تعرض للقصف عندما قصف، ودُمر معرض بغداد الدولي المجاور، وكان ذلك قبل موعد الانتخابات بيومين أو ثلاثة فقط، وكنت متأكداً أن تلك الشلة كانت حزينة على فوات فرصة التجديد للانتخاب أكثر بكثير من حزنها على الضحايا الذين سقطوا أو الدمار الذي حل..

وكنت واثقاً تماماً ـ **أن هؤلاء سيستغلون خبراتهم العريقة في التصفيق والتأييد والهتاف من أجل أن يستمروا في التشبث بالكرسي والمنصب، حتى مع الغزاة عندما يصلون..**

تذكرت كل ذلك عندما قيل لي: إن إعلاناً قد صدر، من جهة ما في الدولة الموشكة على السقوط، يغير توقيت المدينة (التي وصل الغزاة إلى أبوابها) إلى التوقيت الصيفي..

كان ذلك التغيير بمثابة نكتة سريالية مالحة عن البيروقراطية التي لا يهمها شيء غير متابعة عملها، ولا تتقن شيئاً غير الاستمرار في أوامرها الإدارية، ولا أفق لها غير حافة مكاتبها..

❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂

لكن، بعد قليل من التأمل، وجدت أن الأمر مليء بالرموز والدلالات.. تلك الجمعة المريرة، وبغداد غارقة في ظلمتها، والروم قد وصلوا، ربما كان الأنسب أن يتغير التقويم كله ـ لا التوقيت فقط... الزمن كله ـ تفاصيله وعناوينه وفهارسه.. ومفكرته..

لم يكن التوقيت الصيفي هو الذي فرض يوم الجمعة ٤/ ٤ ـ لكن الزمن الأمريكي هو الذي زحف علينا، على بغداد، على زماننا وأيامنا وتاريخنا وصولاً إلى مستقبلنا..

الأجندة الأمريكية، هي التي جاءت لتلغي كل مفكراتنا ومعاجمنا وترمي بها إلى الوراء..

الوقت الأمريكي هو الذي جاء ليحاصرنا ذلك اليوم، لم يكن الأمر يحتاج إلى بيان أو مرسوم أو إعلان.. كان موجوداً في الجو، كنت إذا خرجت قليلاً إلى الهواء (غير الطلق)، أرهفت السمع لأصوات الانفجارات، ستسمع البيان واضحاً، بأبلغ ما يكون بيان : **إنه الزمن الأمريكي .. و قد جاءكم على جحافل الدبابات والمدرعات وعبر الطائرات التي تقصف زمنها علينا..**

وبينما كان التوقيت الصيفي، يقدم الوقت ساعة ليصبح الفرق أربع ساعات عن توقيت غرينتش بدلاً من ثلاثة،.. فإن التوقيت الأمريكي كان يريد سرقة زمننا بأكمله، كان يريد رغم أنه ادعى غير ذلك، إرجاعنا آلاف الساعات، بل آلاف السنين .. عن توقيت غرينتش .. وعن أي توقيت آخر..



الأحد بالتأكيد

في الليل، لم أكن متأكداً إذا كنت أسمع صوت طائرة مروحية، أم أن الأمر كان صدى لكابوس كان الواقع جزءاً متمماً له..

قلت لزوجتي ـ وكانت تنام بحجابها وملابسها الكاملة، وتحرص على أن ينام الأطفال بأحذيتهم خوفاً من أن نضطر لترك البيت تحت أي ظرف قلت لها : **أتسمعين؟ إنه صوت الأباتشي..**

سكتت قليلاً ثم قالت : لا أسمع شيئاً غير أصوات القصف الاعتيادية.. أدهشني إنكارها.. نعم، كنت مرهقاً ومتعباً ونصف نائم.. لكن الصوت كان أوضح من أن يكون مجرد صدى لكابوس..

قلت لها : **إنها الأباتشي!**

قالت، وأتخيل أنها كزت أسنانها بإصرار : **إنه مجرد قصف اعتيادي ..**

لكن صوت الأباتشي ظل يروح ويجيء. ولم يكن هناك صوت مضادات .. كنا قد وصلنا لهذه المرحلة.. وكانوا قد وصلوا .. وصلوا .

في الصباح أنكر الجميع أنهم سمعوا شيئاً كهذا.. وتأكدت من أنهم سمعوا الصوت وقرروا أن يتجاهلوه ويغضوا النظر والسمع عن الأمر..

قالت خالتي الأولى: إنها لم تسمع متعللة بسمعها الثقيل، الذي بدأت أميز انتقائيته أكثر من أي وقت، وقالت خالتي الثانية إنها كانت تعبة ونامت دون أن تسمع شيئاً، أصرت والدتي أنها لم تنم ولم تسمع.. وحده ابني كان مستعداً لتأكيد روايتي، بل إنه كان مستعداً للإضافة عليها، بأنه صعد إلى السطح وشاهد الأباتشي وهي تحترق وتهوي وطياريها وهم يؤسرون..

كانوا في إنكارهم يمارسون أقدم آلية دفاع عن النفس عرفها البشر.. النسيان .. أو التناسي.. كانوا لا يريدون مواجهة تلك الحقيقة، ذلك الشر الذي يحلق على ارتفاع منخفض..

كان الإنكار هو طريقتهم في دفن الرؤوس في الرمال، وكانت الرمال ساخنة ومتحركة، وكانوا لايزالون يسمعون ـ وينكرون ـ ويغرقون رؤوسهم أكثر .. فأكثر..

كان اعترافهم بالأباتشي، يعني اعترافهم بأنهم قد وصلوا على بعد بضعة عشر متراً، لا أكثر من سطح المنزل، الطائرات الأخرى التي كانت تقصف وتهدم وتقتل وتحرق كانت تحلق على ارتفاعات شاهقة وأحياناً على بعد شاسع.. لم يكن ذلك يفيد كثيراً في طمأنتنا لكن الآن، وهذا القرب، هذا الارتفاع الواطئ يحفر في رأسي ويستفزني .. لقد أصبحوا قريبين جداً، على مرمى حجر ـ حرفياً ـ على مرمى شهقة، على مرمى نظرة.. على مرمى طائرة ابن الجيران الورقية، كان الأمر مخيفاً، ولربما كان الأفضل لو أني اتبعت آلية الدفاع في التجاهل التي اتبعها كل من حولي من أفراد أسرتي..

لم تكن تلك الآلية سهلة على أذن مرهفة كأذني، خصوصاً وأنهما كانتا مدربتين على تحديد صوت المروحية بالذات ـ .

(فيما مضى، وقبل الحرب، ومنذ أن ابتعت الصحن اللاقط، كنت أحمل معي ذلك

الهاجس الأمني المزمن، وأذناي تعملان كصحن لاقط آخر ليميز صوت أي مروحية .. فقد كانت المروحيات تستخدم وقتها للكشف عن وجود الصحون اللاقطة على سطوح المنازل، وكان اقتراب صوت مروحية ما، يعني أن أتراكض على السلم وصولاً إلى السطح لأتأكد من أن الغطاء الذي يلف الصحن اللاقط لم يتزحزح بفعل الهواء أو أي شيء آخر...

آه، ماذا فعلنا بأنفسنا وبمدينتنا وبسطوح منازلنا.. مروحياتنا تفتش سطوحنا بحثاً عن صحن لاقط صغير، وقبلها تقصف قرانا وتقتل ناسنا وأهلنا.. وشيئاً فشيئاً، بين مروحية تمارس دور رجل الأمن الذي تارة يقصف ويقتل، وتارة يبحث عن صحن لاقط، فوجئنا بالأباتشي وهي فوق سطوحنا، تحفر في رؤوسنا، وتجوس بالقرب من نخلة دارنا .. تارة كالحفارة الضخمة التي تدق في أعصابنا .. وتارة كالحشرة المزعجة التي تطن في آذاننا..

لقد فعلنا هذا بأنفسنا، لم يفعله أحد بنا إلا بعد ما فعلناه نحن بأنفسنا..

لكن كان هناك فرق كبير وجوهري بين صوت المروحيتين، الأولى كانت تبحث عن الصحن اللاقط كان صوتها عندما يختفي تتنفس الصعداء وتنسى الأمر إلى حين الغارة التالية، أما الأباتشي فإن صوتها يظل حتى بعد أن تذهب.. يظل صداها هناك، فوق السطح، قرب النخلة، عند آذاننا.. عند أذهاننا، يظل صوتها كالحفارة، وتظل مروحتها تحوم حولك، تريد أن تفرم لحمك ولحم أطفالك..

لكنهم أنكروا جميعاً أن سمعوا شيئاً كهذا..

قطيع من النعام يغوص بأكمله في رمال حارقة .. وخانقة..



الأحد ـ أو الاثنين ..

على الشاشة ترى دبابة أمريكية محترقة وحولها مواطنون يهتفون ويصفقون وبعضهم يرقص..

تخطف بصري، لا الدبابة ولا الجموع الجذلة، ولكن خلفية المشهد .. الشارع الذي احترقت فيه الدبابة .. أركز أكثر .. إنه طريق سريع ويمكن أن يشبه أي طريق سريع على بعد مئة كيلومتر أو أقل أو أكثر.. لكن شيئاً ما فيه يبدو مألوفاً بطريقة مزعجة..

أقلب بين القنوات وأنتظر رؤوس الساعة من أجل أن أجد لقطةً أطول أو عبارة ما من

الجموع الراقصة ترشدني إلى المكان الذي يبدو مألوفاً بطريقة مزعجة..

أتفرس في تفاصيل البيوت والطريق الوسطي خلف الدبابة المحترقة، أشعر أني كنت هناك من قبل، وأني مررت بهذا المكان مئات المرّات..

أحس باسم المكان على طرف لساني، وأعجز عن التذكر..

أظل أتابع الأخبار والقنوات وأنا أتقلب على سطح صفيح ساخن، أقول لنفسي ما الفرق؟ بغداد كلها تبدو وكأنها على وشك السقوط في أي لحظة، السكين معدّة، والرقبة على الدكة، والضحية مستسلمة لأن الاستسلام هو أكثر ما نتقنه منذ قرون.

تقول لي نفسي: الفرق كبير بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون، ومهم جداً أن تعلم متى ستصل السكينة إلى بلعومك.

أركز أكثر، كل القنوات على ما يبدو محتفية جداً بالدبابة المحروقة، ومراسلوها لا يقولون سوى الجنوب الغربي من بغداد ـ الجنوب الغربي ـ الجنوب الغربي.. حسناً ليكن الجنوب الغربي، كما يقولون، لكنك ابن بغداد ـ ولا تحتاج إلى الخارطة لتتعرف عليها، ولا البوصلة لتحدد مكان اختراقهم ـ جنوبها الغربي أو شمالها الشرقي سواء عندك، إنها مدينتك ولا تستطيع أن تفرق بين نواحيها، كما لا تستطيع أن تميز حقاً بين شرايينك وأوردتك، أيهما سيخترق السكين، فإنك ستنزف حتى الموت، حتى الموت.

لا أزال أحاول أن أميز المكان، هذه اللافتة المرورية المعلقة التي تشير بسهم إلى اليمين وتقول **(حلة ـ كربلاء)** أعرفها جيداً، طالما مررت بها، ولعلها هي لا غيرها التي كنت أهتدي بها عند ذهابي إلى أول عيادة عملت بها في الضواحي بعد تخرجي قبل عشرة سنوات تبدو اليوم، كما لو كانت عشرة قرون..

الصورة تقترب أكثر، اسم المنطقة على طرف لساني يلسعني .. يحرقني يحاول تذكيري..

ينقذني واحد من المراسلين، ويقولها أخيراً : **الدورة !.**

نعم. إنها منطقة الدورة !

الدورة!

وهذا هو الطريق السريع الذي يمر عبرها، وهناك طالما مررت بسيارتي عند ذهابي إلى صديقي حسين. وفي ذلك المنعطف الذي يصل إلى بيته، كانت هناك تلك الحفرة:

الهائلة التي لم أجعلها يوماً تعتب عليَّ، كما كان يقول هيثم، كلما دخلت بسيارتي في الحفرة، رغم تحذيره منها في كل مرّة..

نعم. بالتأكيد ، إنها الدورة

لكن ما بال هؤلاء الناس فرحين ـ باحتراق الدبابة ؟ **لقد وصلوا !**

وسواء احترقت هذه الدبابة أو تلك، وسواء انسحبوا بفعل المقاومة أو كجزء من خطة مسبقة، لقد وصلوا، ومروا من هنا، من الدورة، ليست ضاحية في الجنوب الغربي من بغداد، كما قد يتخيل المشاهد الجالس في القاهرة أو دمشق أو لندن.

ربما قبل عقدين أو ثلاثة كانت من الضواحي، لكن اليوم، وبغداد التي ظلت تتسع بكل الاتجاهات وتقول : هل من مزيد ؟ جعلت من تلك الضاحية، بالتدريج، خصوصاً مع شبكة الطرق والجسور السريعة، تقترب من قلب بغداد.. وشرايين بغداد .. وأوردة بغداد..

إنها الدورة.. والناس يقفزون فوق الدبابة المحترقة، والتي تقول: إنهم مرّوا من هنا، حتى لو احترقت وصارت رماداً..

نعم، إنها الدورة، والطرق السريعة والجسور التي تمر بالقرب منها، تربطها بكل قلب بغداد.. بكل بغداد..

أتأمل في الصور على الشاشة.. لماذا يرقصون ؟



كنت أحاول كتم موضوع «الدورة» عن زوجتي التي لا يبعد بيت أهلها كثيراً عن الدورة، وبالذات عن طريقها السريع..

في الحقيقة، كنت أحاول كتم الموضوع عن نفسي أولاً، كنت أقول: إن (السيدية) غير «الدورة» متجاهلاً أن الفرق بينهما مجرد جسر للمرور السريع لا يتجاوز طوله كيلو متر أو أقل.. متصوراً أن القذائف ـ أو الدبابات ! ـ مضطرة إلى الذهاب إلى تلك الاستدارة البعيدة التي نضطر لأخذها نحن ـ ملتزمين بقوانين المرور ـ إذا أردنا الالتفاف من الدورة إلى السيدية..

لم يكن ممكناً الاستمرار في التكتم.. نعم، إنها (الدورة)، قلت لها ـ وليست

السيدية ـ : كذبة مفضوحة لم يكن من الممكن التصور أنها ستهدئ قلق زوجتي.. بالإضافة إلى أنها لم تهدئ قلقي الشخصي.. الحل الوحيد ـ كان أن نستقل السيارة ـ ونذهب إلى هناك، لنطمئن موقعياً..

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

الأحد ـ أو الإثنين

جولة في بغداد ـ التي توشك على السقوط..

رحلة في المدينة مغلقة العينين، لست متأكداً إن كانت نائمة، أو ميتة، أو مصابة بالإغماء..

لست متأكداً إن كانت قد أغلقت عينيها بوعيها؛ كي لا ترى ما سيحدث لها، أو لأبنائها، أو أنها كانت قد أغلقتها قسراً، إرهاقاً أو تعباً.. بغداد مغلقة العينين.. ونجول فيها وعيوننا مفتوحة باتساعها .. نكاد لا نصدق ما قد حل بالمدينة، منذ أن اقترب الغزو منها، كنا قد مررنا بالطريق نفسه قبل ثلاثة أيام لا أكثر، لكن كل شيء تغير في هذه الأيام الثلاثة.. كل شيء .. نزعت المدينة جلدها، أو نزعوها عنه قسراً .. وخلت الشوارع من المارة.. وبدت المدينة مهجورة، كما لو أن إنذاراً بأنها تنتظر ضربة ذرية أو كيمياوية..

أصرّت خالتي على أن تأتي معنا، فضلت ببساطة أن تعرض نفسها للخطر بالتجول في المدينة في ذلك اليوم، على أن تعرض نفسها للقلق بانتظار عودتنا في المنزل.

بدت بغداد غريبة جداً بالنسبة لها، كما بالنسبة لنا، لكن بالنسبة لها بدت غريبة لدرجة أنها لم تتعرف عليها، كانت تقول : أين نحن الآن ؟ أين نحن ؟ لم أعد أميز شيئاً.. ظلت تردد ذلك طوال الوقت، وكانت محقة. أوشكنا نحن أيضاً أن لا نعرف أين نحن.. كانت حركة المرور قد خفت بالتأكيد منذ بداية الحرب، لكن ليس لهذه الدرجة، ليس لدرجة أن تسير في شارع مزدحم مثل الكرادة[١]؟ (والذي كنت أحرص على تجنبه في الأحوال الاعتيادية) ولا يكون فيه سيارة أخرى، غير واحدة تطارد الأفق..

---

(١) الكرادة واحدة من مناطق الرصافة العريقة، وشارعها التجاري واحد من أهم مناطق التسوق الراقي في بغداد.

كان الأمر مرعباً، فقد كانت المدينة قد فرغت من سكانها إلا بعض الناس المسرعين مثلنا، وبعض المسلحين خلف المتاريس وأكياس رمل نعرف جيداً ـ كما يعرفون ـ أنها ربما كانت ذات جدوى أمام الأسلحة قبل عقدين أو ثلاثة من الزمان، ولكن لن تكون كذلك أمام ما نسمعه به من أسلحة حديثة..

كانت قلوبنا تنبض في الفراغ، ليس لأنها محطمة من المنظر فقط، ولكن لأننا لم نكن ندري إذا كنا سنلتقي عند منعطف ما تمر به الغزاة.. وقد تمترسوا وأخذوا تشكيلاً دفاعياً عن ما لا يحق لهم الدفاع عنه.. كان هذا الاحتمال وارداً جداً .

لقد كانوا في (الدورة)، قبل ساعات، ما الذي يمنعهم أنهم أحدثوا ثغرة أخرى.. ويصلوا إلى الكرادة ؟ أم أن شيئاً ما سيمنعهم ؟



كان خلو الشارع يدفع إلى تساؤل كهذا، مع تساؤل آخر، لو أنهم وصلوا، لو أنهم تمكنوا من فتح ثغرة وعبروا إلى الرصافة، لو أنهم أمامنا الآن، هل سيقوم أحد ـ بوضع حاجز ـ بوضع إشارة .. أو علامة .. لتقول: **قف، انتبه، أمامك خطر، أمامك غزو قادم.. أمامك وحش حضارة أخرى. جاءت لتلتهمك.**

طوال الطريق كان هذا الاحتمال وارداً، وكانت عجلات السيارة تنهب الطريق، وقلوبنا تخفق بسرعة عشرين حصاناً برياً أو أكثر..

كان الطريق الذي نمر به، يخترق الكرادة وصولاً إلى الجادرية[1]، ومن ثم إلى جسرها الطويل الخطر الذي يربط بالسيدية ويمر أمام مصفاة الدورة ومحطة توليد الكهرباء الرئيسة..

في كل ركن من أركان الكرادة كان لنا ذكرى، مثل كل سكان بغداد، هنا، عند مرطبات الفقمة، موقعها القديم، ذهبت لأبتاع لزوجتي الآيس كريم بالفستق.. وكان المخاض قد جاءها ولم تكد تكمل التهام الآيس كريم حتى ذهبنا إلى المستشفى وأنجبت أكبر أولادي

---

(١) الجادرية : حي سكني من أرقى الأحياء في بغداد.

وهنا في مطعم (الهنوف) المظلل بالنخيل، والأضواء الخافتة، قضينا والأصدقاء أطيب الأوقات، وهنا في مطعم (بلوتو) خرجنا معاً أنا وزوجتي، لأول مرة بعد عقد القران، وهناك في (سيسبان) نصحونا أن نذهب، واتفقنا على الذهاب ثم اختلفنا في الميعاد.. كل ركن في الكرادة، كان مليئاً بالذكريات والبصمات، لكن لا تصدقوا أننا تذكرنا شيئاً من هذا كله عندما مررنا بالكرادة يومها .. أبداً، ولا ذكرى ـ ولا لمحة من أي ذكرى ـ لاتصدقوا أن أحداً كان في تلك الساعات يمتلك القدرة على التذكر.. أو على السياحة في عوالم الماضي والذكريات .. كانت ذاكرتنا مشلولة تماماً.. خلاياها مشدوهة، واقفة على أطراف أصابعها، بالكاد تتحرك، بالكاد تتنفس، بالكاد تستطيع أن تتصور أن تبصر..

لا.. الناس المتدافعون في هيروشيما، في لحظة الأزل تلك، قبل أن يذهبوا، لم يتذكروا شيئاً عن تفاصيل مدينتهم، الناس المتراكضون في بومباي بينما البركان يحجّرها ـ ويحجرهم فيها ـ إلى الأبد .. لم يجدوا لحظة في دقائقهم ما قبل الأخيرة.. لا وقت ليتذكروا شيئاً عن الشوارع والأزقة التي قضوا فيها.

ليس من (فلاش باك) في اللحظات الأخيرة.

ليس سوى الشهيق والزفير في اللحظات الأخيرة، وأنت ترى مدينتك فارغة تنتظر أن تهوي ـ تسقط ـ في هاوية الاحتلال.

لكن حتى الشهيق والزفير في بغداد ـ بدا صعباً تلك الأمسية، فحتى الأوكسجين يبدو أنه حزم حقائبه ورحل عن بغداد ـ أو تكوم في ثقب ما ـ في جحر ما.. من جدار ما.. لا أوكسجين في المدن التي توشك على السقوط .. وليسَ سوى رئاتنا تخفق في الفراغ، لسنا سوى أسماك غلاصمها مهترئة، في محيط مظلم خلا إلا من ذلك الانتظار لحوت هائل سيفترسنا في أي لحظة..



عند التقاطع المروري الذي يربط الجادرية بجسرها وقفنا الطريق المؤدي الى جامعة بغداد على شمالنا .. والآخر المؤدي إلى شارع أبي نواس على يميننا .. خلفنا مدينة بتاريخ طويل تركناه وراءنا.. لست متأكداً إن كان هو الذي خرج ولم يعد، أم إن كنا نحن الذين خرجنا من التاريخ ولم نعد ؟

أمامنا كان المجهول، كان الغيب، كان الجسر الذي يقود نحو الضفة الأخرى من الواقع.. الضفة الأخرى من الكابوس..

عند التقاطع المروري ذاك وقفنا. شاهدنا هناك ما يصلح أن يكون لوحة تعبيرية ملآنة برموز ودلالات لم نستغرق وقتاً طويلاً لإدراكها .

كانت هناك عند التقاطع، سيارة حديثة الطراز، من تلك التي تستعملها الكوادر الحزبية أو العسكرية التي أخذت تتجنب ركوب عربات عسكرية مكشوفة الهوية.. وكانت السيارة متروكة في عرض الشارع.. باب سائقها مفتوح ومتروك وهو كذلك..

كانت السيارة مهجورة على قارعة الطريق، في منتصفه بالتحديد، دون أن يجد سائقها وقتاً على ما يبدو، لإيقافها على جانب الطريق..

على الرصيف، كان هناك ساتر مكون من أكياس الرمل، وخلفها هناك تلك الأسلحة المضادة للدروع مصوبة باتجاه الجسر.. دون أن يكون هناك أحد خلفه..

وعلى الجسر، كان هناك حاجز حديدي بسيط ـ للتنبيه على عدم المرور.. كان موضوعاً في الجانب الذاهب من الجسر.. بينما لا حاجز في الجانب الآخر،.. الجانب القادم من الضفة الأخرى..

كان الشارع خالياً تماماً إلا من سيارة واحدة أمامنا، رأى سائقها ما رأينا.. ووعى ما وعينا، واستدار مسرعاً وعاد من حيث جاء..

وقفت للحظات في التقاطع، لم أنبس ببنت شفة، فقط شهيق و زفير.. التفت إلى زوجتي لم أنطق ولم تنطق، ولكن فهمت أنها قد فهمت.

كان واضحاً أن الجنود قد تركوا الموضع الذي تمترسوا فيه، تركوه بأسلحته، كما هو.. دون قتال .. ، كان من الواضح أنهم تعرضوا لقصف من نوع مختلف، **قصف نفسي هزهم من الأعماق، من الجذور، قصف نفسي استمر لسنوات خلت.. جعلتهم لا يتحملون فكرة أن الوحش هناك على الضفة الأخرى..**

كان من الواضح أنهم قد وضعوا بمواجهة حادة مع واقع كالكابوس، جعلتهم يتركون الموضع كما تركوه، كان من الواضح أن شيئاً ما، قد قيل لهم جعلهم يفرون من المكان الذي هم فيه، وجعلت سائق تلك السيارة لا يهتم حتى بوضعها جانباً، أو بغلق بابها قبل أن يهرب ويتركها، **في تقاطع الجادرية كان ذلك المشهد ملخصاً لما سيدور**

لاحقاً، كان كرة بلورية نرى من خلالها كل ما سيتكرر في كل مكان..

ربما كان الجنود قد سمعوا تواً ما حدث عند المطار، ربما سمعوا بالجثث المتفحمة والقنابل التي لا تحدث صوتاً، ربما خافوا، فهم بشر بعد كل شيء، لايمكن لومهم، لذا لا تلوموهم رجاءً، ربما لو كنتم مكانهم خلف ذلك الساتر، في ذلك التقاطع.. وأمامك جسر خلفه يزحف ذلك التنين الهائل، وجاء من يهمس في أذنيك بما حدث لأولئك الذين كانوا خلف السواتر على طريق المطار، ربما لتركتم الساتر كما تركوه، وربما ما أغلقتم الباب خلفكم، كما فعل ذلك السائق الذي فرَّ من سيارته العسكرية.

كان الحاجز على الجسر، بالذات على الجانب الذاهب منه، معبراً هو الآخر، كان وجوده هناك ـ يعني، ولو رمزياً ـ أننا لا نستطيع العبور إلى الوحش، كان حاجزاً حديدياً خفيفاً، من السهل إزاحته، لكن أحداً لم يتقدم ليزيحه، ذلك الحاجز كان رمزاً صغيراً على مدى عجزنا، وكان ذلك الحاجز شاهداً على مدى تكبيلنا، كان الدليل على أن الأغلال في أعناقنا في أعماقنا إلى الأذقان فنحن مقحمون.

وكان الجانب الآخر، من الجسر، بلا حاجز.

كان الوحش يمكن أن يعبر إلينا، دون أن يمكن لنا نعبر إليه..

لحظات كالأزل أمام ذلك التقاطع، قبل أن أحزم أمري وأستدير بالسيارة لم أنطق بكلمة. لم ينطق أي منا بكلمة واحدة..

عندما التفتُ إلى زوجتي كانت ترتجف بصمت، ففي نهاية ذلك الجسر، لم يكن هناك الوحش الرابض الزاحف علينا فقط، ولكن كان هناك أيضاً عند نهاية الجسر تحديداً، كان هناك أيضاً، بيت أهلها..



الإثنين

جاءت خالتي الأخرى التي تعيش في الكرخ، فيما بدا لحظتها أنه مكان بعيد جداً.. ومعها ابنها..

سألتهما مندهشاً : كيف عبرتم ؟

شرح لي ابن خالتي الطريق، وأسهب في شرح ما شاهد خلاله، دبابة محترقة في

مكان ما، عند جسر ما، وبقايا لأخرى، تم سحبها في مكان آخر..

كان هو، وخصوصاً والدته، فرحين جداً بالدبابة المحترقة، وكنت لا أزال عاجزاً عن فهم ذلك، عن فهم الفرح برؤية دبابة محترقة في ضاحية من ضواحي بغداد، ناهيك عن أن تكون في قلب بغداد، كنت أعرف أن فرحهما يستند على حقيقة أن الدبابة احترقت، وأن بقية الدبابات قد هربت، وكنت عاجزاً عن فهم ماهية الفرح، حتى لو كانت الدبابة قد احترقت، والبقية هربت : **لقد وصلوا..**، وهنا أو هناك ـ دبابة أو أكثر ستحترق، لكن البقية ـ في مكان ما، من مكان ما ستحترق.. وستنفذ.. وستدخل..

عندما خرجت خالتي وابنها ـ خرجنا أنا وزوجتي ـ لاتباع الطريق الذي أرشدانا إليه، تمكنا من العبور فعلاً، على جسر باب المعظم، لكن حاجزاً أوقفنا عند مدخل شارع حيفا، بعد نزولنا من الجسر مباشرة. كان على الحاجز مسلحون مدنيون ـ شباب صغار ـ كان من الواضح أنهم من أبناء المنطقة، أشاروا بأيديهم لنا أن نعود من حيث أتينا.. كنت أتمنى أن أقف لأسألهم حقيقة الأمر **..هل وصلوا حقاً ؟. هل لا زالوا هنا ؟ .. ما الذي يحدث بالضبط؟ لكني كنت في الوقت نفسه مرعوباً من سماع الأجوبة، لدرجة أني لم أكن أريد سماعها .. وكنت أفضل أن أدفن رأسي في الرمال.. وأعود من حيث أتيت..**

ورغم أني عدت أدراجي ـ إلا أني لم أكف عن المحاولة ـ عبرنا من جسر آخر، جسر الأعظمية، وكانت المفاجأة أن أحداً لم يوقفنا بعده، لم يكن هناك حاجز، رغم وجود المسلحين .. توغلنا.. مررنا.. بالمنصور، بشارع ١٤ رمضان تحديداً، وهالنا ما رأينا من آثار قصف استهدف منزلاً قيل: إنه (هو) قد اجتمع فيه مع بطانته .. لم يقتل (هو) ولا أي واحد من بطانته بالتأكيد، كما في كل مرة، وكما في كل مرّة، قتل العشرات من الأبرياء، وهدمت تماماً عدة منازل، وكانت واجهات المحلات ولافتات العيادات ونوافذها محطمة تماماً عن بعد ما لا يقل عن خمسمئة متر من موقع الانفجار، **أتعجب الآن كيف كيف لم أمر من أمام عيادتي، غير بعيد عن ذلك كله، لأتفقدها..**، فقد كانت في وسط مجموعة من الأهداف التي قصفت بكثافة وتركيز : معرض بغداد الدولي، مستشفى الهلال الأحمر، الأسواق المركزية، مبنى المخابرات..الخ..، ربما لم يكن الأمر عجيباً بعد كل شيء فقد كانت كل دقيقة إضافية في الطريق تعادل دهراً من الزحف على الشوك في رحلة الأهوال والمصاعب، كنت أنهب الطريق في المدينة الخالية المليئة بآن واحد..خالية لأن الناس قد تركوها، ومليئة لأنها لم تتركهم حتى عندما تركوها، ظلت فيهم، ساكنة فيهم وظلوا فيها .. حتى بعدما تركوها.. يجوبونها

كالأشباح في قصر قدره أن لا يكون مهجوراً حقاً..

حاجز آخر. هذه المرّة عند ساحة قحطان[1]، قرب جامع بلال الحبشي، لو أننا عبرناه لكنا وصلنا إلى طريق سريع يأخذنا مباشرة إلى بيت أهل زوجتي لكن الحاجز كان هناك..

جربنا طريقاً آخراً.. كدنا نصل.. مرة أخرى الحاجز..

وثالثة أيضاً : الحاجز..

كنا ندور في حلقة مفرغة.. كنا نعرف أنها كذلك لكن كنا ندور فيها، كما يدور الثور في ساقية.. كنا نأمل أن نجد ثغرة ما في تلك الحلقة، نتمكن عبرها من الوصول.. كانت الحلقة تضيق حيناً حتى نكاد نأمل في الوصول، وتتسع الحلقة فنظل نتشبث بالسراب.. شيئاً فشيئاً، فهمنا الموضوع وامتلكنا ـ دون أن نتناقش أنا وزوجتي في الأمر ـ رؤية متكاملة ـ لعلهم يسمونها بانورامية ؟ ـ للحلقة التي ندور حولها، **لقد كانت الحواجز متفرقة حول شبكة الجسور والطرق السريعة التي تربط بين جانبي دجلة وتصلهما بالطريق السريع القادم من الحلة وكربلاء، وتصلهما أيضاً بطريق المطار..** (آه.. المطار..).

في وسط هذه الشبكة كلها، بالذات عند نهاية جسر الجادرية، وعلى بعد لايزيد عن المئة متر من طريق الحلة السريع، كان يقع بيت أهل زوجتي وسط البساتين التي يسمونها بالحزام الأخضر، موقع استراتيجي وممتاز في وقت السلم : يرفع من سعر المتر الواحد أضعافاً..

ولكن وقت الحرب، خاصة عندما تكون غزواً، فإن الموقع استراتيجي أيضاً.. ولكن من ناحية أخرى..

لم يكن يدري، عمي، عندما اختار قطعة الأرض تلك، ووضع فيها تعب عمره وكد سنينه، وبنى ذلك البيت وسط البستان، **لم يكن يدري وقتها أن قيادة عسكرية ما، أجنبية، بالذات أمريكية ستختار ما اختاره، وستتخذ من ذلك البيت وسط البساتين، بالقرب من كل تلك الجسور قاعدة لها..**

لم نكن ندري، أن، من بين كل البيوت في المنطقة، وكل البساتين، أن **الغزاة قد اختاروا البيت الذي ندور من أجل الاطمئنان على من فيه..**

---

(١) ساحة قحطان: تقاطع اليرموك ـ الأربع شوارع ـ مع منطقة القادسية.

لم نكن ندري، أن تلك القذائف التي نسمع صوتها، كانت تسقط على تلك الأماكن التي نحبها.. تلك الساحة حيث كان خال أولادي يلعب السلّة، وتلك الحظيرة حيث ابني متعلق بالحيوانات..، وذلك الحقل البهيج حيث طالما تجمعنا..

لم نكن ندري، أي هول يحدث هناك..

لم تكن زوجتي ـ رغم قلقها ـ تدري، أو تتخيل.. مايدور هناك.

كانت قلقة.. ترتجف بصمت. لكنها لم تكن تدري..

لا هي، ولا الجنين ابن الست أسابيع الذي كان في أحشائها..



جميل أن تعود إلى بيتك، والقصف ينهش المدينة نهشاً، فتجده واقفاً مكانه.. لم يسقط.. لم ينهَرْ.. لم يتهدم تحت القصف.. جميل أن تعود، فتجد أن القنابل العنقودية لم تختر بيتك وحديقتك لتسقط فوقهما وتنفجر على أفراد عائلتك..

جميل أن تعود، فتجد أطفالك أحياء يرزقون، أطرافهم في أماكنها، لم تتقطع، وعيونهم ـ الأغلى عليك من عيونك ـ لم تفقأ بعد، وأدمغتهم في رؤوسهم، ولم تنشطر لتصبح شظايا على السقف..

جميل أن تعود، والقصف ينهش المدينة، فتجد أن والدك المريض في فراشه منذ عقود، لايزال يتنفس، وأن والدتك لاتزال تصلي، وأن خالاتك لايزلن يمارسن طقوس المشاكسة والمناكفة بينهما، كما لو أن العالم لا يحترق في الخارج.

كل ذلك جميل، ويستحق أن تستغرق في التسبيح والتحميد، لمجرد أن معجزة البقاء على قيد الحياة قد حدثت.

كل ذلك جميل، لكنه للأسف غير كاف لجعلك تشعر بالطمأنينة.



ستدخل البيت، وأنت تحمد الله أنه واقف مكانه، وتغلق الباب وراءك، تريد أن تعزل نفسك وأهلك عن ذلك الرعب الذي في الخارج، تريد أن تسد الباب بوجه الريح.. لتستريح دقائق، وتكتشف أن الأمر أصعب مما اعتقدت.. وأن الريح لا تصدها الباب

حقاً، فهي تعصف بالبيت كله، تدخل من النوافذ، من الشقوق من التصدعات.. الريح تعصف بك حتى وأنت داخل بيتك، وتدخل حتى من مسامات جلدك..

ستظل قلقاً.. ولن تفهم لماذا ـ ما دامت أطراف أولادك في مكانها، وعيونهم ليست مفقوءة ـ وما دام والدك لا يزال يتنفس.. ستشعر، كما لو أنك نسيت شيئاً، لست متأكداً بالضبط ماذا، لكنك ستظل تتقلب على نفس الصفيح الساخن، ستشعر كما لو أنك تركت والدك وهو يحتضر تحت الريح والقصف وأغلقت دونه الباب.

ستشعر، كما لو أن أحد أولادك في الخارج وهو يملأ الدنيا وأذنيك صياحاً وبكاءً وطرقاً على الباب..

ستظل تدور لتتأكد أن كل شيء في بيتك في مكانه.

كل شيء في مكانه..، لكن مع ذلك يساورك الاحساس، بأن كل شيء ليس حقاً في مكانه، بل إنك أنت وبيتك كل أفراد عائلتك وتاريخك وكل تفاصيل حياتك، قد جمعوا جميعاً في خيمة بوجه العاصفة والرياح والقصف..

تعود لتتفقد الباب والأقفال والمزلاج، ثم تعود لتتفقد والدك وأنفاسه..

ولا تزال تشعر أن هناك شيئاً يخصك في الخارج.. شيء ما مهم، كما ابنك الغالي ووالدك المريض و دعاء والدتك الحنون شيء ما في الخارج تحت القصف والريح والزلزال.. على وشك السقوط..

شيء يخصك، ويهمك.. نعم..

بالتأكيد : إنها بغداد..

بغدادك !

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

قال لي صديقي عبد اللطيف، وهو يصلح لي سيارتي، وهو شبه منهار، **هل ستبقى؟ هل ستستطيع أن تبقى بعدما يأتون ؟ هل ستستطيع أن تكون موظفاً وتستلم راتبك من الأمريكان ؟**

وضعني سؤاله أمام الواقع ـ أمام أمر ليس له ـ على مايبدو دافع..

وضعني سؤاله أمام الكابوس وقد تجسم ليصير واقعاً حياتياً لم يكن ليخطر على

بالي، ولا على بال أي من فصيل النعام الذي دفن رأسه في الرمال..

أن أعيش تحت الاحتلال ؟ وأن يرتفع علمهم على أرض بلدي ؟ وأن أرى أحذيتهم وهي تدوس على التراب الذي ضم رفات أجدادي ؟

أن أمر قربهم ووجهي في الأرض، وظهري مكسور ينوء بعار الاحتلال، أن أقف في طابور طويل أنتظر دوري في الذل.

أن يداهموا بيتي، ويفتشوا أوراقي، وينثروا أغراضي، أن تمتد أيديهم لتفتيش في ثياب زوجتي.. في...

آه الكابوس سوف يصير واقعاً يجثم على صدري .. أفتح عيني عليه كل صباح..

ويأتيني صوت الصديق .. **«هل ستبقى»** ؟



وهل سأبقى ؟

هل أملك سوى أن أبقى ؟

وهل هناك خيار آخر غير البقاء، غير التشبث بالبقاء، وغير التمسك بالبقاء..

نحن الذين بقينا ـ رغم كل الظروف ـ وعانينا ـ وخضنا ـ وقاسينا.. وخرجنا من طور إلى آخر.. نحن الذين تمسكنا بالبقاء، في بطن حوت الاستبداد ـ إلى بطن حوت الحصار..إلى بطن حوت الظلم المركب والعوز والحاجة..

هل نملك الآن، إلا أن نصمد، في بطن حوت يضم كل الحيتان السابقة، سيصير اسمه الاحتلال..

هل نملك سوى أن نصمد، نحن الذين جذورنا تمتد في الأرض.. كجذور النخيل، هل نملك سوى أن نمارس أكثر ما نتقنه، وأكثر ما تعلمناه، **من بغداد سوى أن نبقى فيها، في بغداد ..**

هل نملك، نحن الذين ودعنا الأصدقاء والأقرباء، ورأيناهم وهم يحزمون حقائبهم، ويهزون أيديهم ـ بين دموعهم، بين دموعنا ـ ملوحين مودعين..

نحن الذين رأينا ملامحهم تذوب في السراب.. وتمسكنا رغم ذلك بالبقاء..

بالصمود، وقاومنا الانقراض، وتكيفنا مع بطن الحوت.. .. بإستراتيجية واحدة، تغيرت أساليبها وبقي جوهرها ثابتاً ...**الصمود** ..

نحن الذين رأينا السماء تندلق علينا ناراً، والأرض تنشق تحتنا متزلزلة.. ومع ذلك بقينا في بغداد.. وبقيت بغداد فينا..

و «.. **هل سأبقى**» ؟

وهل أملك إلا أن أبقى، حتى لو احتلوا بغداد، وهم يكادون أن يفعلوا فعلاً.. وهي على وشك السقوط فعلاً، رغم ذلك.. رغم مرارة ذلك .. وفجيعة ذلك..

هل أملك إلا أن أبقى، وأمارس كل ما علمتني بغداد بسقوطها المتكرر وقيامها بعد كل سقوط أن أمارسه وأتقنه ..**الصمود** ..

هل أملك إلا أن أصمد، وأتشبث بها، وتتشبث بي.. ويبقى كل منا صامداً بوجه الريح والعاصفة والزلزال..

لا شيء غير الصمود..

لو أنهم كانوا قد جاؤوا من أجل النفط، فذلك اعتراف أنهم قد يحصلون عليه..

لكن النفط ليس سوى تفصيل من تفاصيل القضية، كما أراها..

لقد جاؤوا من أجل رأسي، ورأس أولادي، جاؤوا من أجل أن يغيروا ما بداخلي.. يجتثوا أشياء .. ويزرعوا أشياء..

نعم، من أجل رأسي ، وخصوصاً رؤوس أولادي.. جاؤوا..

وهذا، أعرف جيداً أني لن أسلمه إياهم..

سأصمد ..



لوالدتي مزاج غريب في التحكم بالأشياء. إنها ـ مثلاً ـ تقوم بتغيير أسماء الأشخاص والأماكن والأشياء، إلى أسماء أخرى، أقرب إلى (ما تتصوره هي) إنه الحقيقة بالنسبة لهؤلاء الأشخاص والأماكن، وحتى الأشياء..

وفي حياة والدتي، وعبر العقود المتعاقبة، توجد وردة سرية غامضة، تغيب لسنين

ثم تظهر فجأة، دون سابق إنذار، تلك الوردة الغامضة تغير ألوانها بطريقة فيها من الخبث بقدر ما فيها من الأناقة، تارة تكون حمراء بلون ذبيحة برية، وتارة تكون صفراء بلون دهن ساخن وتارة تكون زرقاء بلون سماء لم تلوثها حرب بعد.

وتارة تكون مزيجاً سريالياً من كل ذلك.

لا أتكلم عن خرافة، عن نبتة أسطورية في خيال والدتي وأحلامها، بل عن نبتة حقيقية في الحديقة، مزروعة في التراب، تمارس عملية التركيب الضوئي، كما كل النباتات الخضراء.

عن وردة حقيقية، أتحدث، تظهر وتغيب، تطفو وتغطس.. تموت ثم تبعث حية من جديد.

كانت والدتي تغير تسمية هذه الوردة الغامضة التي رافقتها في مسيرة حياتها.. وعبر العقود حصلت تلك الوردة على عدة تسميات، عكست مزاج والدتي، أكثر مما عكست حقيقة الوردة زئبقية اللون.

قالت لي والدتي، قبل خمس سنوات أو أكثر، عندما فاجأتها الوردة بلون أحمر حرّاق

بعد عقد كامل من الخمود، إنها كانت تسمي هذه الوردة ـ في الخمسينات ـ إبان المدّ القومي باسم «جمال» ـ تيمناً بجمال عبد الناصر.. الذي طبع تلك الفترة ببصمة زعامته و جاذبية شخصيته وآفاق أحلامه..

قالت لي ذلك عندما قررت أن تغير اسم الوردة، إلى اسم آخر، اسم حفيدتها، ابنة شقيقتي المغتربة، التي دفعتها نفس الظروف التي دفعت مئات الألوف من أبناء جيلي، إلى ترك الوطن والتغرب في مشارق الأرض ومغاربها.

«يسر» هو اسم ابنة شقيقتي التي ولدت في ظروف شديدة العسر ـ فور انتهاء الحرب ـ أي حرب ؟ ما الفرق. واحدة من تلك الحروب التي حررنا بها، تصادف أنها حرب الكويت تلك المرّة ـ والتي كبرت في ظروف حتى أشد عسراً في الحصار، وكانت نور عين والدتي عندما أخذها والداها معهما في رحلة البحث المرير عن واقع أقل مرارة..

«يسر» هو اسم ابنة أختي التي نتهرب جميعاً من حساب عمرها الآن، حتى لا نتفاجأ بطفلة الأربع سنوات وقد صارت صبية على وشك دخول مرحلة المراهقة، كبرت

في الغربة، ولا تتقن من العربية غير عاميتها..

و «يسر» هو الاسم الذي اختارته والدتي لتلك الوردة الساحرة المزاجية المتقلبة العصية على الفهم التي ظلت تروح وتجيء في حياة والدتي..

هذا العام، لم تأت تلك الوردة، تعرفون أن الربيع كله لم يأت خوفاً من القصف والعمليات العسكرية، وظلت تلك النبتة الغامضة ذابلة حزينة تنتظر الربيع وتنتظر الوردة وتنتظرنا... !

وعندما يأتي الربيع القادم، ـ إذا أتى ! ـ وإذا أتت تلك الوردة بألوانها المتقلبة ومزاجها الغامض، وإذا جاءت ووجدتنا هناك، فإني أعرف أن والدتي ستغير اسم الوردة مجدداً..

وأعرف من الآن، ما سيكون الاسم..

تعرفون أنتم أيضاً ؟

بالتأكيد.. بغداد..



المشهد الثالث

ليلة سقوط بغداد

الثلاثاء بالتحديد والتأكيد

كانت ليلة هادئة، لن أنسى قط، أن ذلك الرعب كله سبقته ليلة هادئة جداً، لعلها أول ليلة هادئة منذ بدء الغزو.

بعد صلاة الفجر، الظلمة لا تزال مخيمة، بدأ القصف. لا، لم يكن قصفاً هذه المرّة، كان شيئاً آخر، كلمة قصف تبدو قاصرة هنا مثل طفل أقسروه على ارتداء ملابس أخيه الأصغر منه.

نعم، كانت ليلة هادئة، ولكن بعد الفجر، بدأ «الضرب». ليس من كلمة أخرى غير ما نستخدمه في العامية، الضرب، نعم، **كان ضرباً وحشياً مخيفاً، كذلك الذي يسمع أنه يحدث في الزنازين وأقبية التعذيب التي قلما يخرج منها أحد.**

سمرني الضرب في فراشي، كان مختلفاً عن القصف التقليدي الذي تعودنا عليه. لم يكن أقوى كان مختلفاً، وقد تعودنا أيضاً، عبر خبرة الحروب المتعاقبة، أن لا يجر الاختلاف غير الكوارث والويلات.

في فراشي ظللت أرهف السمع وأترقب، مررنا في رحلة أهوالنا بقصف أقوى، ومرت على بيوتنا صواريخ هزتها هزاً، وكادت أن تقتلعها من جذورها اقتلاعاً.

ولكن، اليوم، وبعد ليلة لن أنسى قط أنها كانت هادئة، يبدو الضرب مختلفاً، ليس أقوى، لكنه أكثر قدرة على الإرعاب.

لم يكن الأمرالمرعب يقاس بعلو الصوت وقوته، **طرقة شديدة على بابك، قد تكون مرعبة بالنسبة لك، أكثر من انفجار ذري، إذا كنت تعرف أن خلف الباب من جاء ليأخذك إلى ما وراء الشمس.**

كذلك كان ذلك الضرب، ليس قوياً كالصواريخ التي سقطت على الشارع الخلفي المجاور، ولا مزلزلاً كالصواريخ التي سقطت حيث كنت أقف في انتظار حافلة المدرسة، ولكن كان مختلفاً، كان شخصياً، كان قريباً، كان مهدداً أكثر ـ أفهم الآن، بعد أن انتهى كل شيء ..**أنه كان إعلاناً شخصياً إلى كل فرد منا، كان تبليغاً شخصياً جاء إلى**

باب كل بيت من بيوتنا ـ ذات فجر.. بعد ليلة لن أنسى قط أنها كانت هادئة..

أرهفت السمع أكثر، فشلت أن أدفن نفسي في النوم أو في الرمال أو في أي شيء آخر ..**عجزت عن التهرب من استلام التبليغ..**

كانت أذني قد استلمت المعلومات، الداتا، وأرسلت الإشارات إلى دماغي لتحليلها، لكن دماغي حاول التأجيل، مارس التسويف البيروقراطي، حاول أن يتصرف كالنعامة إياها حاول أن يتهرب من مواجهة الحقيقة.

لكن الضرب صار أقوى، وأذني كانت مرهفة، واستمرت بإرسال الإشارات.

دماغي وقف أمام الشفرة عاجزاً، مرعوباً، مشلولاً.. كان يعرف في أعماق تلافيفه ـ لماذا الضرب هذه المرة مرعب أكثر من القصف، كان يعرف في أعماقه ـ وإن كان يتجاهل ـ ماهية الاختلاف هذه المرة..

انهار دماغي وهو يعترف لي هامساً أن هذا الضرب مختلفٌ ـ وهو بالتأكيد ليس قصفاً ـ لأنه مختلف فعلاً.. إنه ـ **مايسمونه في نشرات الأخبار ـ تبادلٌ لإطلاق النار..**

نعم.. هذا الضرب الذي بدأ بعد ليلة لن أنسى قط كم كانت هادئة، كان تبادل لإطلاق النار، ليست صواريخ هذه المرّة.. ولا قذائف صاروخية ولا قنابل عنقودية.. ولا صواريخ عابرة للقارات، فقط أسلحة خفيفة أو متوسطة حسب المعايير العسكرية، لكني في ذلك اليوم اكتشفت أن الأسلحة الخفيفة أثقل بكثير ـ **من كل الصواريخ التي سقطت فوق رؤوسنا عبر كل الحروب التي مررنا بها.**

تلك الأسلحة الخفيفة ـ وذلك التبادل لإطلاق النار عبرها، قال قولاً ثقيلاً، قولاً عسيراً.. قولاً كان وقعه مثل وقع صاروخ ثقيل في أذني..

انتهى الأمر .. لقد وصلوا..



على فداحة الموقف كانت أذناي لاتزالان تعملان بشكل جيد. في الحقيقة ،لم يكن هناك شيء فيَّ يعمل غير أذني.

أرهفت السمع أكثر.. صرت أستطيع تمييز هذا التبادل بشكل واضح. كان الصوت مختلفاً.. والصدى كان مختلفاً.. أيضاً..

نزلت من فراشي، أسرعت الى الشرفة وفتحت بابها، ووقفت متلصصاً أتنصت على ذلك التبادل، كان الأمر أوضح، صرت أستطيع تمييز أن النيران المتبادلة تأتي من أماكن مختلفة صرت أقدر على تحديدها.

كان هناك مساحة من الصمت بين كل مجموعة كثيفة من النيران، مساحة تشبه تلك اللازمة لوصول رسالة بالبريد الإلكتروني وقراءتها، ثم الرد عليها.

كانت النيران المتبادلة، بمثابة حوار متبادل بلغة أخرى، لغة غير كل اللغات العالمية التي تتداول في وسائل التعليم والإعلام والترفيه..

من الشرفة، وقفت أتنصت على ذلك الحوار.



وتعطلت لغة الكلام.

لم يعد هناك في هذا العالم، ذلك الفجر، بعد تلك الليلة التي كانت تبدو أنها كانت هادئة، من وسيلة للتفاهم ـ للحوار ـ غير تلك اللغة التي علا صوتها ذلك الفجر..

ولعل تلك اللغة كانت منذ البداية هي الوحيدة الحقيقية، وأسلوب التعامل بها هو نمط التفاهم الوحيد الموجود ـ لكننا ـ كعادتنا ـ صدقنا كل ما قيل لنا باللغات الأخرى، التي أجهدنا أنفسنا في تعلمها وتأنقنا بالترطن بهما، **وانظروا أين وصلوا هم وأين وصلنا نحن** .. لقد قضينا أجيالاً في محاولة التلاقي على (أرضية مشتركة) ـ كنا مخلصين في ذلك، تصورناهم كذلك، وانظر أين وصلوا، انظروا أين وصلنا، لم تقنع تنازلاتنا ـ والأرضية المشتركة الوحيدة التي قبلوا بها، **هي رقعة ما في قلب بغداد، مكان يحدث فيه تبادل إطلاق النيران الآن، هذه اللحظة..**

حاولت أن أحدد الجهة التي يحدث فيها هذا الحوار، خرجت إلى الشرفة، في الفضاء، حيث الأصداء مفتوحة لكل الاتجاهات، قدرت أن الأمر ليس بعيداً، ربما عند (الباب الشرقي) (ساحة التحرير)، أو شيء مقارب، على بعد لايزيد عن ثلاث كيلومترات.. من حيث أقف (اتضح فيما بعد أن مقدار الخطأ فيما قدرته كان لايتجاوز النصف كيلومتر باتجاه الضفة الأخرى.. عند كرادة مريم[١])..

---

(١) كرادة مريم : منطقة في الكرخ. عند جسر الجمهورية .

هناك، على الشرفة، والفجر لا يريد أن يطلع، كنت أستمع إلى حوار الحضارات ذاك.

أو تصادمها ؟

لا فرق !

۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞

عدا عن حوار الحضارات، كنت بحاجة إلى أن أتحاور مع أحد، ربما ليس الحوار هو ما كنت أحتاجه بالضبط، كنت أحتاج إلى أن أقول ما عرفت، ما سمعت من حوار الحضارات، كنت أحتاج أن أزيح ذلك الحجر عن صدري لأشارك أحداً به.

تسللت إلى أمي، كانت ـ كعادتها، منذ أن مرض والدي قبل أكثر من عقدين من السنين، نصف نائمة نصف مستيقظة، يكفي فقط أن أمر أمامها بهدوء كي تنهض مذعورة وهي تقول : ماذا ؟ ماذا حدث ؟ كل مرّة، عندما تسأل ذلك، كنت أسارع إلى طمأنتها حتى قبل أن تنهي سؤالها..

هذه المرّة، وقفت ساكتاً، لم أتمكن أن أقول : **لا شيء، لم يحدث شيء**، وأنا أعرف أن الذي حدث ليس شيئاً فقط.. وإنما أشياء ستجر أشياء.. وأشياء.. وأشياء..

وقفت صامتاً.. زاد ذعرها وهي تسأل «ماذا ؟.. ماذا هناك ؟» .

كان ذعرها ـ تقليدياً ـ من وقفة صامتة كهذه ينصب على خبر موت أحد ما، أو شيء مقارب.

كان الخبر الذي أحمله غير مقارب، لا أظنني تصورت ـ في حياتي ـ كلها أني سأقف لأقول شيئاً كالذي أريد أن أقوله الآن.

قلت لها : هذا ليس قصفاً..

بدا على وجهها عدم الفهم.. ما هو إذن ؟. إذا لم يكن قصفاً ؟

قلت : **إنه تبادل لإطلاق النيران..**

سكت.. سكتت هي أيضاً. للحظات بدا عليها عدم الفهم أيضاً..

ثم فهمت.. بان على وجهها أنها فهمت..

قلت «إنهم هنا»، لقد وصلوا إلى هنا.

كانت مستعدة للفهم.. لكن ليس للقبول.. كانت مستعدة للتصديق، إنهم هنا، وإنهم وصلوا ـ لكن ليس لقبول أن الأمر قد انتهى.. في الخامسة والستين، لكنها كانت أكثر أملاً مني ـ وكنت أكثر يأساً منها.. طار النوم من عينيها فجأة، انتفضت في عروقها الحيوية .. قالت **شيئاً عن كون الأمر كله إنزال وسيحبط..**

هراء.. لقد أوشك الأمر على الانتهاء..

لقد وصلوا..

و...ص...ل...و...ا



عدت إلى الخروج، السطح هذه المرّة، كان حوار الحضارات قد خفت وطأته نوعاً ما، دون أن يعني ذلك أنها كفت عن التصادم.

في الجو كان هناك شيء غريب، شيء غامض، شيء مريب، كذلك الذي يمكن أن يكون قبل أن تقع جريمة نكراء..، **كالجو الذي كان في كربلاء ـ قبل أن تقع واقعة كربلاء..**

في الجو كان هناك ترقب، كان هناك حذر، كنت تستطيع أن تشعر بذلك، كنت تستطيع أن تحس بشيء ما، أن تستشعره، تحدسه بحاسة غامضة دفينة في أعماقك، لم تدر بوجودها؛ لأنك لم تمر بشيء مشابه طيلة حياتك.. شعوب كاملة لم تمر بشيء مشابه، ولم تدر بوجود تلك الحاسة.

كان شيئاً غامضاً سيطر عليّ، وعلى الجو.. فجأة تحس بهيمنة غريبة في كل مكان، تلتفت، يتأكد إحساسك بالخطر دون أن تدري لماذا.

لا أعرف كيف أعبر عن هذا.. لكنني أعرف أني أحسست به، وأعرف أن آخرين، مثلي أحسوا به، بل إني متأكد أن الناس في هيروشيما، في ذلك الصباح، تلفتوا بتوجس وقد أحسوا بشيء ما في الأفق ـ كما أحس الآن ـ ثم نظروا إلى الأعلى.. وكانت طائرة الجحيم في الأعالي غير المنظورة، بعد...

وفي الأعالي المنظورة، رأيتها هناك، تلك الطائرة التي كانت تحوم بلا صوت..

صدمني وجودها، كانت بلا صوت ـ حقاً بلا صوت ـ كانت تطير على ارتفاع منخفض جداً.. وكانت بلا صوت..

وجدتها فجأة، بلا مقدمات، هناك عند مئذنة المسجد، بلا صوت، كذلك الذي يسبق رؤيتنا للطائرات..

كانت قريبة جداً.. لا أستطيع أن أحدد أي عدد بالأمتار.. قرب كهذا لا يقاس بالأرقام.. إنه يقاس بعدد خفقات القلوب المرعوبة.. بعدد العيون المصوبة نحو ذلك الخطر.. بعدد الأطفال النائمين في البيوت المهددة..

لا شيء مثل طائرة تتقدم بلا صوت، كالسرطان يتقدم بلا ألم، بلا إنذار.. ـ لا شيء مثل طائرة تجدها عند المئذنة التي كبرت على صوت أذانها..

لا شيء مثل طائرة تجدها في سمائك الدنيا .. سمائك القريبة التي تستنشق هواءها وتزفره فيها..

كانت قريبة جداً . كان قربها مستفزاً ومذلاً.. كان يشعرك بأن طيارها مطمئن تماماً إلى عدم وجود مقاومة، كان يتحرك ويحلق على مرمى المدفعية المضادة للطائرات، لكنه كان واثقاً ـ ساخراً ـ يعلم أن الأمر انتهى، وأن الشخص خلف سلاح المدفعية إما قد أصابه الشلل ـ (أو أنه هرب..؟)، بمجرد أن عِلمَ أنهم وصلوا، وأن الأمر قد انتهى .

كانت الطائرة قريبة لدرجة أني لو كنت أمتلك كافة حواسي، لربما استطعت رؤية وجه الطيار أو على الأقل نافذته.

لكني لم أمتلك حواسي، لقد جمدت، لقد شللت، طالما سمعت بأن الناس يهربون ويتراكضون على السلالم إذا شاهدوا طائرة معادية في الأفق، كذب، كله كذب، إنهم يشلون، يجمدون، يقفون عند المذبح في انتظار دورهم، إنهم يظلون على السطح في انتظار حتفهم.

أو هذا ما حدث، معي على الأقل، لقد ظللت واقفاً على السطح وعيني مصوبة إلى الطائرة.. لا ، ليست شجاعة، إنه الشلل.. إنه الجمود.. لقد وجدت أطرافي عاجزة عن الحركة.. عن إبداء أي ردة فعل.. طالما أسمعونا في حربهم النفسية أن هناك قنابلاً سيجربونها علينا تؤدي إلى الشلل، ربما كانوا يقصدون هذا.. لست متأكداً..

للحظات، صارت رئتاي تبحثان عن الأوكسجين الذي بدا أن الطائرة قد امتصته كله.

للحظات، لم يكن هناك في الكون سوى تلك الطائرة، وسوى تلك النملة الواقفة تتأمل بذهول.. أنا..

كانت أشعة الشمس التي بدأت للتو بالبزوغ، تنعكس على جسم الطائرة وتعطي مظهرها المعدني لوناً أحمرَ يكسبها طابعاً دموياً.

بدت لي الطائرة، بمظهرها ذاك، وحشاً خرافياً قادماً من أسطورة عتيقة.

بدت لي، تنيناً مجنحاً عشت عمري، وأنا أتصوره محض خرافة، إلى أن قابلته على السطح، بعد ليلة ليتها لم تكن هادئة.

وفي الأسطورة لا دور للعبيد، لا دور للنمل، لا دور للرقيق المقيد في الأغلال والسلاسل.

ولم أكن سوى عبد ذليل، لم نكن جميعاً سوى رقيق مقيدين بذلهم وعجزهم منذ عقود.. عفواً، منذ قرون..

وفي الأسطورة ليس من دور لنا، ليس سوى التنين، والفارس النبيل على الجواد الأبيض.

والآن ها هو التنين. . **إنه حقيقة واقعة وليس أسطورة من أساطير الأولين**، أما الفارس النبيل، فلا أدري أين هو، لقد ظللنا ننتظره لقرون، وصدقنا كل مجرم وأفّاك وسفّاح أراد أن يمتطينا بحجة أنه قد يكون ذلك الفارس المنتظر، وربما لم يكن هذا الفارس سوى أسطورة ـ سوى كذبة ـ سوى خرافة ـ ربما كان بيننا نحن، ربما كان نحن ـ لو علمنا، لو اجتمعنا ـ لكننا استسلمنا للأغلال، ولانتظارنا لذلك الفارس في خيالنا، واستسلمنا للمجرمين يتقمصون دور الفرسان ويمتطوننا نحن، ومن واحد إلى آخر.. انظروا أين وصلنا.

صحيح.. أين وصلنا ؟

وصلت أنا إلى السطح.. وأمامي وحش الخرافة التي اتضح أنها ليست خرافة..

وإنما واقعاً أشاهده بأبعاده الثلاثة.. الثلاثة أو الأربعة أو العشرة.. لم أعد متأكداً كم بعد هناك لهذا الواقع.. لست متأكداً سوى من وجود هذا التنين الطائر، وأجنحته التي تبدو لامتناهية في العدد والحجم.

فجأة، كشر التنين عن أنيابه، من بطن الطائرة هبطت النار، كرات من النار نزلت ببطء وبشكل عمودي، طالما رأيت في السينما صور القذائف تهبط مسرعة من الطائرات وبشكل أفقي ـ كذب أيضاً ـ أو على الأقل ليس هذا ما حدث، هذه المرّة.. **هبطت**

النيران، كما لو كانت تلك شرارة منبعثة من جهاز لحام الحديد، كانت بلا صوت أيضاً.

كانت تتهادى ببطء أثناء هبوطها، الأمر الذي يغير من موقع سقوطها على الأرض، أو هكذا خيل لي، في تلك الثوان التي استغرقتها كرات النار إلى أن وصلت إلى الأرض.. لم أستطع تحديد موقع سقوطها، فالأرض كروية كما تعلمون، أو هكذا قيل لنا ـ رغم أنها تبدو الآن ليست مسطحة فحسب.. ولكن تنتهي في المكان الذي تنتهي الغابة، حيث تغطس الشمس وراء الجبل، كما كانت تبدو في عيون قبيلة بدائية في مجاهل إفريقيا..

حسناً، لم أرَ أين سقطت بسبب أن الارض كروية، أو بسبب أن البيوت والأشجار أمامي حجزت الرؤية.

لا أدري متى بدأ الصوت بالضبط، هل بمجرد أن سقطت كرات النار الصامتة، أم بعد وصولها إلى الأرض.

كان صوتاً هائلاً، لا علاقة له بالنار. صوتٌ مجسم شق حجب الترقب والحذر.. لا أعرف كيف أصفه، لكن كنت واثقاً أنه صادرٌ من بطن الطائرة، من محركها ـ على الأرجح..

كان يشبه صوت محرك لشاحنة ضخمة وقد حشر في زاوية ضيقة عجز عن الخروج منها.. تبادر إلى ذهني أن الطائرة تواجه عطباً ما، وأن كرات النار تلك كانت صادرة عن المحرك المعطوب..

لكن الطائرة استقامت بعدها، واستمرت تحوم على نفس الارتفاع المنخفض..

ومرّة أخرى، كرات النار تتهادى ببطء، كما لو كانت تسير في جنازة، ومرّة أخرى أحس بلسع النار وهي تندلع في مكان ما لا أستطيع تمييزه.. ومرّة أخرى يأتي الصوت ذاته..

خيل لي، هذه المرّة، أن التنين يتجشأ، أو يتثاءَب، أو أنه يعبر عن مشاعر ما، غيظ أو غضب ـ أو فرح لأنه استطاع أن يقصفنا ـ.

ثوان أخرى، اقترب الوحش أكثر وأكثر، خيل لي أنه سيقطع أسلاك الكهرباء والهاتف ـ المعطلين بكل الأحوال ـ بدا أنه مقبلاً باتجاهي بالذات.. جمد الدم في عروقي.. لا أظن أي شيء، أي عضلة في جسدي كانت تعمل باستثناء لساني، كان

لايزال يعمل، لا يزال يلهج طالباً للرحمة من الله تعالى القادر على كل شيء..

هبطت كرات النار بهدوءها المستفز، واحدة تلو الأخرى، والتنين مستمر في **اتجاهه** نحوي، وكرات النار تتهادى، واحدة تلو الأخرى، ونملة عند السطح تنتظر الضربة القادمة.. تنتظر حتفها بلا حول ولا قوة.

عندما عبرني التنين محلقاً فوقي، بينما النيران تتساقط في مكان آخر ـ فوق بيت آخر، أو سيارة أخرى، أو نملة أخرى.. صدر عنه الصوت نفسه مرّة أخرى..

وهذه المرة فهمته..

فهمت الصوت.. و وعيت معناه..

لقد كان هذا التنين يهزأ بي، يسخر مني، يصدر هذا الصوت متحدياً، هازئاً، ساخراً منا جميعاً ـ نحن المرتجفين ذلاً وقهراً ورعباً ـ المتوقعين منه أن يقتلنا ويشردنا ويهدم بيوتنا فوق رؤوسنا.

بدلاً عن ذلك، إنه يطلق نيرانه، ثم يصدر هذا الصوت البذيء، الذي يصدره عادة الساقطون والرعاع في أركان الشوارع الخلفية وزواياها المظلمة، الفتوات و (البلطجية) على أبواب الملاهي الليلية.

أنهم يسخرون من خوفنا، يعلمون أنا نراقبهم بذعر، ولذلك يرسلون قنابل النار تلك، ثم يرسلون تلك الأصوات بعدها موجهة للذين نجوا، ليقولوا لهم : ربما سنحرقكم في المرّة القادمة، أو أنكم لا تستحقون حتى القتل.

لا تستحقون سوى هذا الصوت..

بدا الأمر كما لو أن هذا التنين يريد أن يهيننا، يطلق علينا صوته، كما لو يبصق علينا في سخرية ـ يتبول علينا ـ في إهانة.

حركت الإهانة الدم في عروقي، كنت أظنه قد تجمد لكن الصوت أوقظها.

وجدت أطرافي أخيراً، و وجدتها تتراكض قبلي على السلالم هبوطاً من السطح إلى شقتي، سمعت صوتي واستغربته عندما وجدته يأمر الجميع بالهبوط إلى الطابق الأرضي.. وجدتني أصرخ بابني، وأهزُّه لأوقظه من نومه هزاً شديداً، وأحمل ابنتي بيد والعالم كله بيد أخرى.. وأهبط على السلم كل درجتين بقفزة..

على الوجوه كان الرعب سيد الموقف، لم يكونوا قد رأوا التنين، كما رأيته لكنهم أحسوا أنفاسه الكريهة وسمعوا ذلك الصوت الذي سمَرهم في أماكنهم..

قلت لهم، وأنا أركض لا أزال : إنهم فوق، فوق.. كانت تلك عبارة لا معنى لها.. فقد كانوا دوماً فوق، بطريقة أو بأخرى ـ على الأقل في نظرتنا إليهم، وكنا دوماً (تحت) ـ بطريقة أو بأخرى، على الأقل في نظرتنا لأنفسنا، وربما كان هذا الفوق والتحت هو الذي أوصلنا لما وصلنا إليه.

وضعت ابنتي التي لا تزال نائمة على الأريكة في غرفة المكتب حيث كانت والدتي تنام، وحيث كانت الجدران تروي تاريخ العراق، بينما كان التنين في الخارج يرسم صورته في المستقبل.

تجّمع الكل في غرفة المكتبة التي لم تكن ملجأً مثالياً على الإطلاق، أن لم تكن الأسوأ من بين كل غرف البيت، بالسقف الثانوي المعرض للسقوط بسهولة، بالواجهة الزجاجية الملونة على طريقة البيوت البغدادية التي ستتحول الى شظايا قاتلة، برفوف المكتبة الضخمة التي لو سقطت علينا لقضت علينا، كما قضت على الجاحظ..

لكن الخطط كلها، عندما يحين أوان تطبيقها، كانت تكشف عن ثغرة مميتة تقلبها رأساً على عقب.. وأهم ثغرة، أنَّ أيَّ مكان آخر لم يكن يصلح لأي تجمع ـ ما دام لا يمكن نقل والدي المشلول من سريره الطبي، في غرفة ملحقة بالمكتبة، إلى أي مكان آخر..

بدأت بفتح الباب. بدت لي التحصينات الأمنية في غرفة المكتبة ، بالباب الخشبي بمزاليجه وأقفاله، ومن ثم الباب الحديدي وأقفاله المزدوجة، غير ذات جدوى إن لم تكن معيقة للعملية الأهم والتي يجب أن تتم بسرعة : فتح الباب، والخروج بسرعة إذا حدث شيء.

خرجت إلى الحديقة، لا يزال التنين ـ لا أراه ولكن أحس بأنفاسه، أسمع صوته يحوم في الجوار.

فجأة يظهر وهو يحلق منخفضاً وقد حجبه الجدار العالي للمبنى المجاور، أراه الآن من منظور الفريسة في لحظاتها الأخيرة، وهي تغمض عينيها قبل أن ينقضَّ الطير الكاسر عليها.. ويفترسها..

أجزاء من الثانية فقط، لا أكثر، أمامي لأحل المعضلة الكبرى التي أواجهها. أجزاء من الثانية ـ لأعطي جواباً مصيرياً لسؤال قد يحدد مصيري..

السؤال، الذي لا أملك سوى أجزاء من الثانية لأجيب عنه، هو، هل عليَّ أن أبقى ـ وأهلي وأطفالي في البيت ـ أم عليَّ أن أصدر لهم أمراً سريعاً بالاخلاء، والخروج إلى الحديقة ؟

السؤال ـ بصيغة أخرى ـ ولا أملك سوى أجزاء من الثانية لأجيب عنه، هل أفضل أن أموت ـ وأبي ـ وأطفالي وأدفن تحت أنقاض البيت ؟

أم أفضل أن نحترق ونتمزق بالشظايا.. في خارج البيت..

بأجزاء من الثانية، أقرر أن فرص النجاة في الخروج أكبر..

أدخل البيت وأنا أصرخ ـ اخرجوا ، اخرجوا، ابني وابنتي نائمان على الأريكة وأبي، هناك ، على سريره الطبي الضخم الأكثر عرضاً من كل الأبواب التي تفصلني عنه..

أجزاء من الثانية، وصوت التنين وهو يزأر، أتخيله يفتح فمه لينفث غيظه وحقده كرات ملتهبة من النار، أتصور الطير الكاسر وهو يصوب بؤرة عينيه صوب بيتي.. أجزاء من الثانية فقط، أجزاء من الثانية..

أمامي ابني وابنتي نائمان على الأريكة، وأبي هناك، لا يملك فرصة .. اغفر لي يا رب... سامحني يا أبي..

أجزاء من الثانية لأقرر، لأجيب عن سؤال آخر، سؤال مصيري تبدو أمامه كل الأسئلة الكبرى التي واجهتها الإنسانية، في متاهاتها المتعددة ساذجة وسخيفة وغير ضرورية..

كل تلك الأسئلة التي تقلبت على أجوبتها البشرية ومفكروها وملهموها بين شك ويقين

ـ بين إيمان وإلحاد ـ أسئلة الخلق والوجود والعدم والموت وما بعده وما قبله، كلها كلها كانت ساذجة ولا معنى لها أمام ذلك السؤال الذي واجهني ذلك الصباح، بعد تلك الليلة التي كانت هادئة..

كانت هادئة... كانت هادئة .

كان السؤال ـ آه ، السؤال ـ هو، أيّاً من أولادي سأترك ، (أيهما سأترك!) وأي واحد منهما سآخذ .. وأنا لا أملك سوى ذراعين وسوى أجزاء من الثانية.. وهما أجزاء من كبدي.. من رئتي.. من شراييني..

الولد.. البنت.. نائمان على الأريكة أجول ببصري بينهما.. أجزاء من الثانية.. وأقرر..

وأخذت البنت، نهبتها نهباً وركضت بها إلى الخارج . سأعيش عمري وأنا لن أنسى تلك اللحظة التي أخذت فيها هذا القرار، ليس «لن أنسى» فقط.. وأنما «لن أفهم» .. «لن أعرف كيف» «لن أستطيع أن أفسر».. ذلك القرار الذي أخذته في أجزاء من الثانية..

لماذا أخذتها هي ؟ ربما لأنها الأصغر.. وربما؛ لأنها ـ كأنثى ـ الأضعف وربما؛ لأنها تخاف أكثر..

لا أدري، ولو أخذت الولد لما دريت أيضاً لماذا أخذته، ولسألت نفس الأسئلة.. ولما وجدت أجوبة..

لا أدري، وربما لن أدري قط.. ولن أغفر أيضاً، لا لنفسي ولا لأي أحد في هذا العالم ـ أنني اخترت ـ أنني استطعت أن أختار واحداً منهما ـ أيّاً كان ـ لأهرب به إلى ما أتصور أنه أكثر أماناً، وأترك الآخر ـ أيّاً كان ـ ليقضي موؤوداً تحت الأنقاض.

كل ما أعرفه، أني أخذت البنت، وهربت بها خارجاً، وأنا أصرخ باسم الولد ..

.. ثم كان الزلزال..



عندما انتهى الزلزال، انتبهت إلى أني كنت جاثياً على ركبتي، أحتضن ابنتي بين ذراعي، كنت هادئاً كجثة، لكنني كنت واثقاً أني لا أزال على قيد الحياة، كانت ابنتي ترتجف ذعراً على ما أظن، أما أنا فقد كنت ساكناً.

احتضنتها بشدة، على خدي سالت دمعة، أظنها هبطت من عيني، وربما كانت من عين ابنتي لم تكن دمعة خوف أو حزن أو شيء من هذا القبيل، كانت دمعة ذل على ما أظن، لم يسبق لي أن أذللت إلى هذهِ الدرجة من قبل... كان الذل موجعاً بشراسة، ولم يكن هناك ما أفعله سوى أن أذرف تلك الدمعة اليائسة.

احتضنتها بشدة أكبر، تذكرت أني سميتها آمنة، رغم أنها ولدت في ظروف استثنائية من عدم الأمان . (ثعلب الصحراء)[١] حرب صغيرة و عابرة، حسب مقاييسنا الحالية، قصف لمدة ثلاثة أيام ولدت آمنة في يومه الرابع، قبل موعدها المتوقع بحوالي شهر.. استنكر بعض الأصدقاء الاسم..عن أي أمان أتحدث ؟ لو يعلمون.. لو أني كنت أعلم ـ ما سنراه بعدها.. وما ستراه هي ، آمنة، قبل أن تكمل أعوامها الأربعة.

تساءلت، مستدركاً لا التسمية، بل الأمر برمته، أعني الإنجاب بحد ذاته، تساءلت عن الحكمة في الإتيان المزيد من أطفال سوف ننجبهم إلى عالم سوف يستمر بظلمنا وإذلالنا.

تمنيت لحظتها لو أني لم أنجب آمنة، لو أني لم أولد قط ..**فهمت معنى أن يتمنى المرء لو أنه لم يكن.. لو أنه كان تراباً.. لو أنه كان نسياً منسياً..**

لم يستمر الأمر طويلاً.. لقد كنت! وانتهى الأمر ـ وعلي أن أواجه هذا العالم القاسي الذي تبدو أمامه الأساطير المرعبة قصصاً مسلية.

مسحت الغبار عن وجهي، وعن وجه آمنة، **كلما وجدت نفسك حياً، مرّة بعد أخرى، غارة تلو غارة، تحدس أن الله تركك حياً لحكمة ما عليك أن تنجزها.**

صوبت عيني نحو وجه ابنتي التي أعشق، ومسحت عنها الغبار والرعب، لكن الكاميرات ووسائل الإعلام ستصوب نحو وجه طفلة أخرى، أصغر حتى من ابنتي ـ من هي ؟ اسمها **فاطمة طارق**.. وعمرها حوالي السنة.. وتسكن عمان.. ما قصتها ؟ لا قصة مميزة غير أنها **مجرد طفلة أخرى بريئة في عالم غير بريء، اختطف منها أباها الذي كان على السطح، يؤدي عمله، عندما فاجأه التنين..**

من هو ؟ أوه.. لقد سمعتم باسمه كثيراً وقتها.. ولعلكم نسيتموه الآن..، كما تنسى كل الأشياء ..**اسمه طارق أيوب**.. وكان يعمل كمراسل لإحدى القنوات الإخبارية .. الجزيرة بالذات..

وكانت تلك هي الغارة التي قتلته تحديداً..



(١) **عملية ثعلب الصحراء ـ ديسمبر ١٩٩٨ قامت بهاالقوات الأمريكية بعملية قصف و تدمير سريعة.**

ما أن تكتشف أنك نجوت، حتى تتبدل أولوياتك.. تريد أن تعرف من الذي لم ينجُ؟ تريد أن تعرف ماذا يحدث خارج نافذتك، حديقة منزلك وباحة دارك.

أسرعت لتشغيل المولد الكهربائي، ملأت الخزان إلى آخره بالبنزين، الذي كنا قد اضطررنا إلى دفنه في أوعية خاصة في ركن بعيد في الحديقة، كان علينا أن نقتصد في الوقود الشحيح أساساً بسبب الحرب، والذي يتوقع أن ينقطع تماماً في الأيام القادمة، لكن هذا الأمر لم يمنعني عن ملء الخزان حتى آخره، ولو كان هناك نقطة واحدة من البنزين، لكنت وضعتها في المولد .. لأعلم ماذا حدث.. وأين كان تبادل إطلاق النار، ذلك الحوار الذي دار بين الحضارات والذي تلصصت عليه من شرفتي..

شغلت المولد، عادت الكهرباء تسري في عروق الأجهزة والأدوات ، عادت الصورة إلى التلفاز..

ليتها لم تعد

ليتني لم أكن أملك المولد .. ولا الصحن اللاقط..

ولا حتى قطرة بنزين .



قليلون هم العراقيون الذين رأوا تلك الصورة عندما بثت بشكل مباشر..

قليلون أصلاً كانوا يمتلكون الصحن اللاقط.. والقلة التي امتلكت الصحن اللاقط.. كان يجب أن تمتلك مولداً كهربائياً ـ و وقوداً ! ـ

الملايين ـ في خارج العراق ـ رأوا تلك الصورة ـ لكن قليلين فهموا ـ قليلين وعوا..

والذين رأوا، وفهموا، ووعوا.. هزهم ولابد الألم لتلك الصورة.. وتمنوا لو أنهم لم يمتلكوا صحناً لاقطاً.. ولا مولداً كهربائياً.. لكي لا يروا.. هذه الصورة التي رأوها..

كانت صورة ملتقطة من جانب الرصافة الذي أسكن فيه، لكنها مصوبة الى الجانب الآخر ـ الكرخ ـ بالضبط إلى بداية الجسر ـ إلى جانب الجسر الأقرب إلى الكرخ..

كان جسراً تعوّد البغداديون عليه، تعودوا المرور عليه وتعودوا رؤيته.. تعودوا أن يشاهدوه هناك ـ كما تعودوا على دجلة، وعلى شط دجلة ـ وعلى الشط المقابل..

كانت الصورة لجسر الجمهورية.. وكانت مؤلمة جداً؛ إذ إن فيها إضافة هجينة لم نتصور أننا قط سنراها هناك..

فعلى ذلك الجسر، كانت هناك دبابة..

دبابة أمريكية ..

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

من بين كل الجسور التي تربط بين جانبي بغداد الكرخ والرصافة، والتي يبلغ عددها سبعة أو ثمانية أو حتى أكثر ـ لا أدري ـ ولست في مزاج الآن لتعدادها ـ من بين كل الجسور ـ يتمتع جسر الجمهورية بتلك المكانة المميزة في نفوس البغداديين.

لا أدري لماذا بالضبط، وأزيد أني لست متأكداً بالضبط من ذلك، لكني أعرف أنه كان شيئاً مميزاً بالنسبة لي على الأقل، ربما لأنه شهدني منذ طفولتي وأنا أعبره يومياً برفقة أبي ـ قبل أن يقعده المرض تماماً، ثم شهدني وأنا أعبره يومياً ـ ذهاباً وعودة ـ إلى حيث عيادتي في الكرخ.

لست متأكداً إنْ كان الكل يشعرون كما أشعر، لكن كلمة «الجسر» بإطلاقها، كانت تعني بالنسبة لي، جسر الجمهورية لا غير، كان يوصل بين ضفتي بغداد بطريقة شديدة التناسق، هناك عند طرفه الذي في الرصافة كانت المدرسة التي تخرجت منها والدتي، والتي ظلت عبر العقود تمد الكليات العليا في الجامعة بأجمل وأذكى الفتيات ممن كُنَّ يصرن فتيات أحلام كل الشباب في مراحلهن، وأمام الجسر كانت «ساحة التحرير» الذي سيتحول ليصير احتلالاً ـ وأمامهم جميعاً كان نصب الحرية[1] منصوباً ـ كسراب لوَهْمٍ لا يتحقق أبداً، يستغله المتعاقبون واحداً تلوَ الآخر لينصبوا علينا فرداً فرداً.

وعلى الضفة الأخرى، كان هناك حي كرادة مريم العريق، ومبنى الإذاعة والتلفزيون الذي بثت فيه أول محطة تلفازية في الشرق الأوسط، وفندق المنصور الذي طالما اجتمعت فيه بالأصحاب وثرثرتم وتحدثتم عن الوجود والفن وكل الأشياء الأخرى قبل أن تفرقكم الظروف في الأصقاع والمنافي.

ذلك الجسر لم يكن جسراً فقط بنظر البغداديين، سواء وعوا ذلك أم لم يعوه، لقد كان صورةً عنهم، حتى وإن لم يفهموها، كان انعكاساً لرحيلهم المكوكي الدائم نحو الضفة الأخرى، والحلم الآخر، والسراب الآخر.

---

(١) نصب الحرية لجواد سليم المشرف على ساحة التحرير ـ مركز بغداد.

كان مثلهم جميعاً يتوق للخلاص.. كل صباح.

وكان مثلهم جميعاً، يعود محبطاً كل مساء.

ومثلهم جميعاً، دمروه ـ وحطموه ـ مرّة بعد مرّة.. ـ ومثلهم جميعاً ـ كان يقوم كل مرّة .. (كان سيقوم في هذه المرّة أيضاً.. كما سيقومون أيضاً..)..

تلك الدبابة على الجسر، لم تكن تمتطي الجسر وحده. كانت تمتطينا أيضاً.

ولقد نقلوا ذلك بالبث المباشر.



تلك الصور التي نقلت مشهد الدبابة على الجسر، كانت مؤلمة أكثر حتى من الصور التي نقلت لحظات تدميره في حرب الخليج (الثانية ؟) قبل اثنتي عشر سنة من الآن.

كانت تلك الصورة، تنقل المشهد من الطائرة التي قصفته تحديداً، كانت تلك الصورة بخلفية مخضرة، كما كل الصور التي تلتقط من الطائرات أثناء الغارات الليلية، كانت تشبه إلى حد بعيد صور ألعاب الفيديو والأتاري الرائجة، شكل هندسي بعيد لجسر سيقولون لك: إنه جسر الجمهورية دون أن تتمكن من فحص بصماتك عليه وتاريخك معه، يربط بين ضفتين أكدوا لك أنها كرخ أجدادك ورصافة أحلامك، وجسم سريع يركض على الجسر، سيقولون عنه: إنه سيارة يقودها **الرجل الأكثر حظاً في العالم** ؛ لأن الطيار قد انتظر أن يكمل مروره قبل أن يقصف الجسر، كذابون طبعاً، رغم أننا صدقناهم وقتها كما فعل الكثيرون ـ لكننا نعلم الآن من خبرتنا في الحروب أن عصفاً كالذي نتج عن عملية تدمير جسر لا يمكن إلا أن يكون قد محا السيارة وصاحبها..

تلك الصور ـ التي تدمر فيها الجسر تماماً أمامنا كانت مؤلمة طبعاً.. ـ ولكن أبداً أبداً ـ ليس كتلك الصورة الآخرى..

.. وفيها دبابةٌ ... على الجسر..



فجأة، دبابة على الجسر..

ستنظر وأنت غير مصدق، تتمنى لو أن تكون المدينة مدينة أخرى، والشط شطاً

آخر، والجسر جسراً آخر، والسماء أخرى ... والدبابة أخرى..

لكن لا ، إنها بغداد ـ **إنها بغدادك!** ـ ، وهذا دجلة، والشط شط الكرخ، والجسر جسر الجمهورية.. وهذه هي الدبابة الأمريكية، فجأة على الجسر.

وسوف تتمنى أن لا تكون أنت أنت، حتى لا يكون هذا الذي تشاهده حقيقة، لكنك أنت أنت.. والدبابة على الجسر..

سوف تلتفت، وأنت لا تزال غير مصدق، وتقول لنفسك لا ، لاريب إن هناك خطأً ما،.. لا ريب إنَّ في الأمر خديعة ما..

نفسك ـ بنفسها ـ سوف تجيبك، تصفعك. لا خطأ. ولا خديعة .**إنها الدبابة على الجسر..**

سوف يطير قلبك من مكانه، ويهدر دائراً بين القباب والمآذن على الشط.. متفقداً أحجارها.. وأركانها.. وبصمات الزمن عليها..، سوف يتفقد أعشاش الطيور عليها.. وسيجدها مهجورة جميعاً..

(طار اللقلق .. طرنا وياه..)..

لا ، للأسف لا . لقد طار اللقلق، ولكننا لم نطر معه.. بقينا حيث نحن.. وياليتنا كنا طرنا معه، أو مع أي كان.. حتى لا نرى ما نرى.. وحده اللقلق نجا ، والذين طاروا معه ـ من مشاهدة المشهد (أم أنهم رأوه في الصحن اللاقط.. ؟).

سيطوف قلبك على الشط.. إنه يعرفك وأنت تعرفه.. فالشط وفيّ ولا ينسى أصحابه. وسوف تسمع صدى صوتك يتردد في جنباته، أنت الذي كنت تقف على شطه في سكون الليل، وتجمع كل نزقك وفضولك وطفولتك وتهتف بأعلى صوتك، بأقوى مما تحتمله حبال حنجرتك، هاتفاً بالشط، موقظاً إياه من نومه : **«يا شط يا شط، تأكل سمك لو بط ؟»** . وكان الشط يجيبك، متقمصاً صدى صوتك، قائلاً بإصرار .. بط .. بط..

آه، يا شط. لو كنت تعلم يا شط. ولو كان يعلم السمك. ولو كان يعلم البط.. لو كنا نعلم نحن ـ الذين وقفنا على شطك ـ ما سيدور على شطك.. ما كنا تركناك قط.. (أو ربما ما كنا وقفنا هناك قط..) .

.. وآه .. يا شواطي دجلة، يا ذلك الصوت المبحوح.. يغني **«على شواطئ دجلة مر.. يا منيتي.. وقت الفجر»**[1] .

---

(١) أغنية بغدادية قديمة.

آه، يا شواطي دجلة، يا أنا، يا أنتم، يا فجر ـ لو تعرفون، لو تعرفين يا شواطي دجلة أي شيطان سيمر، وقت الفجر، لو تعرفين، أي شيء سيحصل عند الفجر.. على الجسر ..**لو تعرفين أنه فجأة ستظهر دبابة .. على الجسر..**

سيروح قلبك ليتفقد صيادي السمك ومراكبهم الخشبية وشباكهم المهترئة ، ولا واحد هناك. ولا واحد هنا : **تريد أن تطلب منه «بُنَّية»[١]؟ أم تراك تفضل الشبوط ؟**

آه، يا صياد السمك لو تعلم أن كل السمك، سيغادر ذات يوم، البنية والشبوط وكل شيء، لو تعلم ..**أننا كلنا سنصير سردينا تافهاً بلا ملامح في بطن حوت هائل..**

ستمسك الدربين[٢]؟ هل تريد أن تنظر حبك؟ ـ لن تنظر سوى خيبتك. سوى إحباطك. سوى هزيمتك.. وتلك الدبابة على الجسر...

سيفتش قلبك عن النذور التي تتركها النساء على الشط، ويهدينها للشط، يشعلن الشموع ويضعنها في طبقات البيض الفارغة، أربعة وعشرين شمعة من أجل غائب لا يعود، أو طفل مريض، أو جرح لا يطيب .. يأخذها دجلة ليوصلها ـ كما يتصورن، لشيخ الشط أو للخضر..؟

ـ لا أدري ـ لكني أدري أن كل تلك الشموع لم تكن لتفيد، لم تكن لتفيد في تلك الظلمة،.. وأنها كلها لو اجتمعت اليوم لما أفاد النذر، مادامت الدبابة على الجسر..

وستسأل عن زارع «البزرالقوش»[٣] ـ ولن تطلب منه أن يزرع «حنة» فالعطار لن يصلح ما أفسدته الدبابة على الجسر، ولكن ستطلب منه أن يزرع لك ترياقاً، أو مخدراً يجعلك لا ترى.. ولا تسمع.. ولا تتذكر..

آه، الدبابة على الجسر ـ وقلبك ـ بدلا أن يكون على ولدك[٤] ـ يكون على الجسر ـ **رغم أن الجسر من حجر..**

---

(١) البنية و الشبوط: نوعان من أنواع السمك المزدهرة في دجلة.

(٢) الدربين: الناظور باللهجة البغدادية. والأغنية التراثية تقول (يا يمه انطيني الدربين تانظر حبي واشوفه) .

(٣) بزر القوش: بذر القوش. بذر معين تطلب الأغنية البغدادية من زارعه أن يزرع الحنة، الحناء، ـ بدلاً عنه ـ «يا زارع البزر القوش .. ازرع لنا حنه» .

(٤) تقول الأغنية التراثية: قلبي على قلب ولدي و قلب ولدي من حجر .

سيحلق قلبك نحو النخيل على الشط، سيبحث عمن هو **فوق النخل**[1] **أهو خد العاشق الولهان .. أم هو القمر ؟**

لا شيء فوق النخل. لا شيء فوق، غير الخيبة وطلع غير ملقح.. لا «خدك» ـ ولا حتى القمر..

وكيف لا .. وهذه الدبابة على الجسر..

ستظل لا تصدق.. ستصرخ.. ستسأل اللقلق الذي علاّ وطار، وستسأل تلك الطائرة الورقية التي لا تعرف أين ينتهي خيطها.. ستسأل السكارى الذين هم سكارى فعلاً، ستسأل البلاّمين والعشاق الحيارى، والمصلين السهارى.. ، ستسأل النسوة ونذورهن وستسأل الشط وشيخه، والجرف وأعشابه.. والسمك وصياديه.. والخضر و مريديه.. ستسأل الفجر، وتسأل النخل، وتسأل القمر.. و تسأل عيون المها ـ هناك ـ بين الرصافة و الجسر ـ وسوف تطرح السؤال على نفسك أيضاً ـ سوف تصرخ بقوة، وأنت تشير بأصبعك إلى ذلك الشيء ـ على الجسر..

كيف وصلت هذه الدبابة هنا، على الجسر ؟



سوف يرتد سؤالك إليك ـ خاسئاً وهو حسير..

سوف تجد شيئاً مثل الجواب في أعماقك، سيكون جوابك أنت على سؤالك أنت.

ستقول لك نفسك: إن هذه الدبابة كانت موجودة دوماً، لم تدخل فجأة ولم تصل إلى هنا على غفلة من الزمن.

ستقول لك نفسك : إن الدبابة كانت موجودة دوماً، أنت فقط لم تنتبه لذلك.

ستستنكر ذلك، لقد كنت دوماً منتبهاً للجسر «وما حواليه».. لايمكنك أن يفوتك شيء مثل ذلك.

ستقول لك نفسك: إن الدبابة كانت مختبئة، عشرات، بل مئات من الدبابات والمدرعات كانت مختبئة في كل مكان..

---

(١) الأغنية البغدادية الشهيرة: «فوق النخل فوق النخل فوق يابه فوق النخل فوق، ما أدري لمع خدك مادري القمر فوق» .

ستسأل :أين ؟ وأي مكان يمكن أن يخبئ ذلك كله ؟

ستجيبك نفسك : داخل «حصان طروادة» ـ الموجود في كل مكان.

حصان طروادة ؟ ستستغرب! ما المقصود بالضبط؟

ستقول لك: بل كل خيول طروادة، ليس حصان واحد فقط ـ بل مئات من خيول طروادة.. في كل مكان ـ وفي داخل كل منها دبابة أو مدرعة أو مجزرة.. ترى أكان واحداً فقط : على الجسر.. ستلح. ما المقصود بالضبط من هذا كله..؟

ستجيبك نفسك: خيول طروادة هي تماثيل الطاغية الموجودة في كل مكان، إنها صورة وأنصابه المنتشرة في الساحات والشوارع، وبين كل صورة وصورة توجد صورة أخرى بالتأكيد، إنها تماثيله القبيحة التي طالما مررت قربها وأشحتَ بوجهك عنها، وأنت تلعن وتسب في سرك ـ ربما لهذا بالذات، لأنك لا تنظر إليها ـ لم تنتبه أن خلف كل تمثال وكل نُصُبٍ وكل صورة، يوجد دبابة أمريكية مختبئة ..

ستقول لنفسك : نظرية المؤامرة مجدداً ؟ لا يصدقها إلا من كان من مخلفات العصور الوسطى.

ستجيبك نفسك بحدة : لا. ليس نظرية المؤامرة.. بل نظرية الحقيقة.. الحقيقة المطلقة والواحدة ولا شيء سواها.

ليست نظرية المؤامرة، بل قانون نيوتن ونظرية أرخميدس، بديهة حقيقية من أولى بديهيات الحياة، «لكل فعل رد فعل مساوي له في القيمة ومعاكس في الاتجاه..».

تلك هي الثغرة التي تدفق منها العدو، لا ، ربما كلمة "تدفق" ليست دقيقة.. ربما "تسلل" كلمة أفضل. بالتدريج تسلل العدو، بالتدريج اختبئ خلف كل تمثال كل صورة ـ كل نُصُب للزعيم الأوحد، و«القائد الضرورة»..

ليست نظرية مؤامرة.. بل قانون الافعال وردود الافعال. ذلك الظلم كله، والاستبداد كله، والطغيان كله، والتمييز كله، أدى إلى هذا كله.. أدى إلى هذه الدبابة ـ على هذا الجسر ـ ..

نعم. حصان طروادة في كل ساحة من الساحات.. وخلف الحصان، داخل النصب، عبر الجدار.. كانت هناك الدبابة رابضة ـ تنتظر الفرصة المناسبة.. لتتسلل ـ لتزحف ببطء والنيران تتقدمها.. نحو الجسر .. نحو كل جسر.. كل فجر..

نعم، كانت الدبابة دوماً هناك، ما دام هناك ظلم وإبادة وطغيان كان هناك ـ وإن لم ننتبه لها، وإن غضضنا البصر ـ وإن تظاهرنا بأن الأمر ليس كذلك..

لم تأت فجأة، هذه الدبابة على الجسر، لم تأت فقط كجزء من العمليات العسكرية ولم تأت كقدر لا دافع له مكتوب في لوح محفوظ لا راد له، لقد كنا شركاء أيضاً، نحن العبيد الأرقاء، نحن المكممين الصامتين، نحن المغلوبين المجهضين، نحن كنا شركاء في الجريمة.. بسكوتنا، بذلنا، بصمتنا المهين، بإشاحتنا لوجهنا عن الجريمة، باعتبارنا الأمر لا يخصنا.

كنا شركاء .. في نصب حصان طروادة.. في تعبيد الطريق لتلك الدبابة.. إلى أن وصلت.. هذا الفجر، على هذا الجسر..

ليس (فجأة)

أبداً، **بل بالتدريج..**

رويداً رويداً، إلى أن وصلت، دبابة على الجسر..



قيل لنا، بعد تلك الصور: إن معركة ما تقع على جانب الكرخ من الجسر، بالضبط عند كرادة مريم، حيث تقع بعض المراكز السيادية ـ كما يسمونها ـ المهمة.. مبنى الإذاعة والتلفزيون.. وزارة الخارجية.. وزارة الإعلام.. وأيضاً، واحد مما لا يعد ولا يحصى من القصور الرئاسية..

وكان هناك أيضاً، على شاطئ النهر، غير بعد عن هذا كله، مكتبان لقناتين فضائيتين .. هما الجزيرة، وأبو ظبي..

كان مكتب الجزيرة قد قصف فعلاً منذ أولى ساعات الصباح. أما مكتب قناة أبو ظبي، المجاور، فقد حوصر، لقد وقع بين طرفي حوار متبادل، كذلك الذي دوّى في المدينة.. ثم ما لبث أن تعرض للقصف أيضاً.. و انقطع البث منه..

قبل أن ينقطع البث، نقلت قناة أبو ظبي ذلك الخبر الذي عجزت الجزيرة عن بثه..

طارق أيوب ، مراسل الجزيرة، مات، حتى قبل أن يصل المستشفى..

❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂

ما حدث بعدها كان استثنائياً إلى درجة تحيرني حتى الآن، بعد أشهر من انقضاء كل شيء..

فالذي حدث، أننا نحن الذين نسكن مدينة هي على شفا حفرة من السقوط في الهاوية، انشغلنا بمقتل الصحفي ـ شهيداً.. شهيداً.. شهيداً ـ وبأسرته وزوجته وطفلته..

نحن الذين كنا ننتظر دورنا في المحرقة، نحن الذين وقفنا طابوراً طويلاً من أجل أن يتم ذبحنا، نحن الذي أسندنا أعناقنا إلى الدكة الخشبية وأغمضنا أعيننا وتشاهدنا في انتظار أن تهوي المقصلة.. ـ انشغلنا بطارق أيوب.. وبكينا عليه.. وعلى أسرته..

كان ذلك غريباً جداً.. لكنه حدث.. حدث لدرجة أني لا أذكر شيئاً آخر بعد تلك الدبابة على الجسر ـ غير طارق أيوب..

قد تقولون: إنه الإعلام وتأثيره وقدرته على غسل أدمغة البشر وجعل قطيع الغنم المعد للذبح يبكي على شاة ذبحت للتو، لا على بقية أفراد القطيع..

ربما، لست أدري، لكني أعلم جيداً أن شيئاً آخر لم يعلق في ذاكرتي عن ذلك اليوم بعد تلك الدبابة التي صدمتني على الجسر غير طارق أيوب..

نبشت طويلاً ـ في أدراج ذاكرتي ـ بحثت عن شيء أذكره من ذلك اليوم بعد ـ الدبابة على الجسر ـ فلم أجد ،عدا طارق أيوب، غير بعض التفاصيل المشوشة عن سيدة من الجيران ظنت أنها تعاني المخاض ـ بعد عقم طويل ـ وكان ضغطها مرتفعاً، وذهبت زوجتي لقياس ضغطها.. لكن لا شيء بعد هذا محدد و واضح في ذاكرتي..

هذا مايفعله المحبطون، اليائسون، إنهم ينسون، إنهم يحاولون النسيان من أجل أن يخففوا آلامهم ـ أن يخرجوا من إحباطهم..

ربما لهذا، وربما لأن مشهد الدبابة على الجسر كان قد حل في مخيلتي، كما لو أنه مشهد النهاية ـ أسدل دماغي الستار ـ واعتبر بلا وعي، أن تلك كانت النهاية.. وأن السقوط قد حل لا محالة ولم يبق سوى بعض التفاصيل، لم يبق سوى أن يأتي من يهيل التراب علينا لتنتهي المسألة.

لاشيء في ذلك اليوم وتلك الليلة، غير طارق أيوب، رغم أنها كانت ليلة فاصلة. لم نكن نعرف ذلك طبعاً وقتها، لكنها كانت ستكون فيما بعد تلك الليلة الليلاء التي لن تنسى قط..

كانت ستكون، ليلة سقوط بغداد..

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

هل كان يمكن إلا أن نحبَّهم، ونتعلق لهم، أولئك المراسلون الذين كانوا يدخلون إلى جحورنا، ويقتحمون علينا مخابئنا وملاجئنا، ويتغلغلون في مخاوفنا وهمومنا، هل كان يمكن إلا أن نحبهم، ونتعلق بهم ـ نحن الذين ألفنا زيارتهم، وتعودنا مجيئهم، وأدمنا حديثهم بلساننا، ونقلهم لنبضاتنا،..

هل كان يمكن إلا أن نتعلق بهم ـ وبوجوههم ـ هم الذين صاروا من أهل البيت يزوروننا فلا تحتجب نساؤنا، ونسارع بالترحيب بهم..

لم نكن نعتبرهم ضيوفنا ـ هم الذين كانوا يعرفون أخبارنا أكثر مما كنا نعرفها نحن، وكانوا يدركون أسرارنا ـ ولا يكتمونها ! ـ بالضبط كما كنا لا نكتمها نحن.

كانوا يكذبون أحياناً، مثلنا، وكانوا يضطرون للكذب من أجل أن يواصلوا زيارتنا. وكنا نغفر لهم ذلك، هل كان يمكن إلا أن نغفر لهم، نحن الذين كنا نغفر لأنفسنا أننا نكذب كما يفعلون، نحن الذين كنا نعرف أن بديل الكذب أحياناً هو الموت والرمي في الزنازين، وكنا نكذب، لكي نعيش، كلما تواجهنا مع السلطة وقمعها..

نعم، كانوا أحياناً يكذبون ـ على الهواء ـ من أجل أن يمرروا الصدق في بعض الأحيان الأخرى، من أجل الاستمرار في الظهور.. والاستمرار في زيارتنا.

ولأننا كنا نحتاجهم، فقد كنا نغفر لهم كذبهم وتزويرهم في بعض الأحيان. كنا نعيش نفس الواقع الذي يضطرهم للكذب، ويضطرنا أحياناً للكذب.. وللسكوت.. وكان لايمكن إلا أن نعذرهم.. ونغفر لهم..

لكن كان هناك آخرون يعيشون في رفاهية ملاجئهم، ويتمتعون بمزايا تغربهم، لم يعذروا ولم يغفروا قط ـ كانوا ـ كما الجميع، يريدون أن يقول هؤلاء ما كان أولئك يودون لو أنهم سمعوا.. (كما كنا نريد بالضبط)..

لم يغفروا أنهم لم يقولوا الشعارات التي كانوا يريدون أن يسمعوا، رغم أننا غفرنا لهم شعارات كنا نتمنى أن لا نسمع..

لقد تعودنا عليهم، وتآلفنا مع طلتهم علينا، كنا نفتقدهم إذا غابوا، ونقلق عليهم إذا

أطالوا الغياب.. كنا نسميهم بأسمائهم الأولى، كما نسمي أصدقائنا وأقاربنا دون الحاجة إلى ذكر أسماء آبائهم أو ألقابهم لقد كانوا هناك، على الشاشة، بيننا وأمامنا، ماجد، تيسير، ماهر، عبد الحق، عمرو، وضاح، جابر.. وآخرون..

ثم أخيراً، في الأسبوع الأخير فقط : طارق..

كان طارق يشبه طفلٌ تقمص دور رجل جاد، بطريقة ما.. كان في وجهه لمحة طفولية لاتنسى، وفي الوقت نفسه كانت هناك جدية وانهماك فيها.

في تقريره الأخير، الذي بث قبل يوم واحد من موته، أتذكر أنه ذهب ليقابل الفقراء في قاع المدينة. بائع جرائد عجوز بلغ من العمر عتياً، وبقال في مرآب للسيارات، لم يكف عن فتح بقالته طيلة أيام الحرب.. سألهم وأجابوه، وكذبوا قليلاً كالعادة. نقل كذبهم ـ ومن يستطيع لومه ـ كان متحمساً ومتعاطفاً كأي طفل جاد.. وكنا قد لمسنا ذلك التعاطف، وشعرنا به وهو يخرج من الشاشة ليغمرنا بحنانه ويدثرنا بدفئه..

لكن ذلك لم يدم طويلاً.

فقد كنا قد دخلنا في الوقت الضائع.

وفجأة، عندما ، عندما اندلع ذلك الحوار الحضاري ـ وجاء التنين ليوزع أنفاسه وغيظه وكرات ناره ـ كان طارق على سطح مبنى الجزيرة ـ كما كنت أنا على السطح ـ لم يخطر بباله أن الأمر سيصل لهذا الحد؛ أن يقصفوا مبنى قناة فضائية لإسكاتها أو إجبارها على السكوت.

لكن الأمر كان قد وصل، وفي لحظة ما، كان على طارق أن يدفع حياته ثمناً ؛ لأنه صدق أن ـ في لحظة، كما كثيرين جداً ـ أن أمريكا وتنينها ومدرعاتها ومجزراتها سيسمحون بحرية الكلام، وحرية الرأي ـ حرية نقل ما يدور..

شاهدنا ما حدث بعدها، من مكتب قناة أبو ظبي، العمال و الموظفون في الجزيرة يحملون طارق في بطانية أو ما شابه، تيسير يسير بقربه ويحاول أن يكلمه، من الواضح أنه لا يحصل على جواب، يتخلف تيسير عن الركب، على وجهه تعبير سنفهمه لاحقاً ـ عندما نعرف أن طارق مات فوراً وقبل أن ينقل إلى المستشفى..

ثم شاهدنا ما حدث مع قناة أبو ظبي.. سقطت الكاميرا ـ ورأيناها بالذات وهي تسقط ـ وانقطع البث وحوصر الموظفون هناك ـ بينما فرَّ موظفو الجزيرة وقد تركوا

معداتهم وأجهزتهم (و سنعرف لاحقاً : حتى ملابسهم..)

تابعنا ما حدث بالتفصيل ونحن لا نكاد نصدق أن الأمور وصلت إلى هذا الحد.. لكن هاهي وقد وصلت لهذا الحد فعلاً، وهاهم هؤلاء الذين جاؤوا لينقلوا آهاتنا وأوجاعنا همومنا وأيضاً أكاذيبنا، يتعرضون لما يفترض أن نتعرض نحن له.

وقفت الصورة هنا.

ركزنا عليها ونحن لانكاد نصدق، إذا كانوا قد فعلوا ذلك بهم، فماذا سيفعلون بنا ياترى ؟

وقفت الصورة هنا..

وبقيت واقفة..



نشرة الأخبار في الجزيرة

اتصال هاتفي بأرملة طارق أيوب السيدة ديمة طهبوب. الصوت المتهدج يضم وراءه حزناً لا حدود له.. ولا حدود لوقاره في الوقت نفسه..

والكلمات المتماسكة تكشف عن شخصية متماسكة، لزوجة وأم قد فقدت للتو، منذ بضع ساعات فقط زوجها ووالد طفلتها الوحيدة..

لا شيء في الدنيا يهز مثل الحزن المتماسك، لا شيء مثل دموع ترفض أن تهبط. لاشيء مثل حزن يتكبر عن النواح واللطم..

الحزن المنفعل قد تنفعل معه، تبكي معه، لكن الحزن المتماسك يمسكك من تلابيبك ويهزك بعنف، يلطمك ثم يحكي لك، يقول لك قبل أن تقول له..

لاشيء أبداً مثل الحزن الوقور، المتماسك، المتكبر، إنه يجبرك أن تصير أقوى.. أن تصير أكبر..

نشرة الأخبار التالية..

الجزيرة تذهب إلى منزل طارق أيوب.. عزاء السيدات. لا شيء من مظاهر العزاء التقليدية في أحوال كهذه . الرجل مات ـ وبطريقة مفجعة ـ للتو. مع ذلك لا نواح، لا

لطم. لا ملابس حداد.. فقط حزن وقور ومتكبر.. حزن قوي ومتمرس..

تركز الكاميرا أولاً على وجه تلك الطفلة : فتكسب قلبك فوراً، تلاحظ بذعر أنها تشبه أطفالك عندما كانوا في مثل سنها.. تلاحظ أن ذلك ينطبق أيضاً على معظم الأطفال الذين تعرفهم، من أبناء أصدقائك وأقاربك.. لن تستغرب ذلك فكل الأطفال يتشابهون بعد كل شيء.. ستلاحظ أيضاً أنها غير واعية لما يدور.

بل إنها تبدو سعيدة بالكم الهائل من الضيوف الذي غزا البيت فجأة..

لا مشكلة في ذلك، ستفهم لاحقاً.. (لديها عمرها بأكمله ، لتفهم لاحقاً..)

ستنقل الكاميرا صورة والدته، الصبورة كسنديانة.. الحزينة كشمعة، ستتوقع منها أن تنوح أو تلطم أو تبكي على الأقل، كما يحدث عندنا على الأغلب..

لكن بدلاً من ذلك ستقول لك كلمة ستجعل تلافيف دماغك تقشعر في مكانها..

ستقول ببساطة، كما لو كانت تلقي إليك بقنبلة يدوية :

الحمد لله !

الحمد لله. هكذا ببساطة. الحمد لله.. تلك الكلمة التي نقولها نحن دون أن نقصد شيئاً

ـ حقاً ـ فقط نكرر ما تعودنا أن نقولها..

لكنها قالتها، بطريقة مختلفة.. قالتها وهي تحمده حقاً : **الحمد لله** .

تلك السيدة صدتني بتلك الكلمة البسيطة. ابنها لم يصارع السرطان منذ سنين، ليموت فيبكيه الجميع بينما يتنفسون الصعداء من أجله وأجلهم، لقد كان للتو هناك على الشاشة، مراسلكم في بغداد، في نشرة إخبارة السادسة، ينقل أخبار القصف والدمار.. والموت.. فاذا به يصير خبراً كذلك، في نشرة أخبار العاشرة..

«**الحمد لله**» من تلك الأم الثكلى صدمتني أحسست أني لم أفهم الكلمة ولم أقلها قط في حياتي ـ كنت أتمتم بها وأستعملها كفاتحة في كل صلاة ـ كما الجميع.. لكن بدا لي أني لم أعنيها قط.. ولم أستوعبها قط.

«**الحمد لله**» نقولها بعد أن تنتهي الغارة ولا نموت، نقولها عندما نفتح الصنبور فنجد فيها ماء، نقولها عندما تعود إلى البيت فتجده قائماً في مكانه.. وتجد والدك لا يزال يتنفس..

لكن أن تحمد تلك السيدة الله، بتلك اللهجة المتماسكة، على أن ابنها قد توفي للتو

ـ وابنته ابنة السنتين ـ في حضنها.. بدا أمراً غريباً.. هزني بعنف..

بدا «الحمد» سلاحاً تدربت عليه تلك السيدة عمرها كله ـ من أجل تلك اللحظة ..

بدت كل تلك التسبيحات والتحميدات التي تعودنا على قولها بما يبدو أنه لا مناسبة، تدريباً طويل الأمد من أجل لحظة حاسمة كهذهِ ـ بدت كلمة «الحمد لله» .. **امتحاناً في غير الموضع الذي تعودناه فيه، كاشفاً عن خلل كبير .. في حياتي، في أسلوب حياتنا جميعاً، في الأسس التي قامت علينا معيشتنا والتي تأسست عليها رؤيتنا للأمور..**

بدوت ـ أمام تلك السيدة الثكلى تواً ـ في ورطة. نعم، أنا بل ـ نحن جميعاً ـ كنا في ورطة مقارنة بتماسك تلك السيدة التي فقدت ابناً للتو ـ وشاهدت ذلك حدثاً حدثاً بالأقمار الصناعية..

قالت بعدها شيئاً عن الذين «حرموها ابنها» ـ «أن يحرمهم الله نور أعينهم»..

كلمة (آمين) التي رددتها السيدات حول الأم، بدت كما لو أنها صادرة من عمق الحرم المكي المزدحم بعدة ملايين في صلاة التراويح ليلة القدر من رمضان.

كن بضع سيدات، عشرة أو اثني عشر، لا أكثر.. لكن «آمين» بدت كما لو أنها صادرة من عمق أجيال بأكملها ـ جيل الأم ـ وجيل الزوجة ـ وجيل الطفلة.

بدت تلك الـ (آمين) كما لو أنها صادرة من عمق القهر، من عنق القهر، من عرق الذل، وعمق الذل وذاكرة الذل... !!

بدت تلك الـ (آمين) سلاحاً تستخدمه تلك الأجيال بوجه ذلك التنين الذي اغتصبها وقهرها وأثكل الأمهات ورمل النساء.. ويتّم الأطفال..

آمين، سمعتها للمرة الأولى أيضاً.. بدت مختلفة، ومغايرة.. بدت كما لو أنها تستخدم قوتها من ذلك التجمع من المقهورين، المذلولين، العبيد الأرقاء، الذين لن يعودوا كذلك لو تجمعوا.. لو اتحدوا..

آمين .. بدت صرخة بوجه الظلم، تعويذة ضد القهر، ترنيمة ضد الذل، وترتيلاً ضد القصف.

ومرّة أخرى وجدت نفسي وأنا أمام كلمة استعملتها طيلة حياتي ـ لكن دون أن أستعملها حقاً، دون أن أعرف استعمالها الحقيقي.

مرّة أخرى، ذلك اليوم الذي ابتدأ بالتنين على السطح، وبالدبابة على الجسر ـ وجدت نفسي أن ما ينقصنا جميعاً كانت أسساً ثابتة، لتلك الخيمة في مهب الريح، التي كنا فيها.

بدت تلك الأسرة متماسكة أكثر مني ـ ومن أسرتي.

بدا ذلك أكثر أوضح عندما تكلمت زوجة طارق أيوب، أرملة للتو، كانت تشبه زوجتي جداً، وقد لاحظت ذلك، كما لاحظت خالاتي وأمي ذلك، خلق ذلك نوعاً من الارتباط الفوري معها، حتى قبل أن تتحدث شعرنا أننا نعرفها منذ زمن، وأننا ألفناها منذ فترة.

تحدثت السيدة ديمة، وقالت عن زوجها: إنه عندما حج في موسم الحج الأخير كانت تسمعه وهو في الحرم المكي لا يدعو إلا للمسلمين أجميعن، فقالت له: يا طارق ادع لنا ـ ادع لنفسك فأجابها: إن شاء الله يستجيب لنا بمعية المسلمين..

ثم قالت شيئاً آخر، حفر في أعماقي بسرعة، وطعنني في الأعماق.. قالت شيئاً أذهلني. كنت أعرفه لكن الأمر عندما يخرج من سيدة فقدت زوجها للتو يكون مختلفاً..

قالت «**قد تنسوه أنتم، وقد تنساه الجزيرة، وقد ينساه الجميع، لكنه الآن عند من لاينسى أحداً** ».

وقفت الصورة هناك..

في تلك الظلمة، كانت هناك نقطة من الضوء، ولقد رأيتها بنفسي.



في خضم هذا حدثت أمور أخرى، تتعلق أيضاً، بطريقة أو بأخرى بطارق أيوب.

فقد فرَّ كل المراسلين لمعظم القنوات ـ ومن ضمنها الجزيرة ـ إلى المركز الإعلامي الرئيسي في فندق فلسطين مريديان ـ على بعد لا يتجاوز الكيلو متر والنصف من منزلي حيث أقيم.

كان ماهر[1] ، يقف أمام الفندق، وهو يروي ما حصل مع طارق بالتفصيل، لم يلحق أن يروي الكثير، فقبل أن يكمل جملته الأولى، والتي أذكر تحديداً أنها كانت عن

(١) السيد ماهر عبد الله ، موفد الجزيرة الى بغداد إبان الحرب.

سؤاله لطارق عن موعد صلاة الفجر، قطع كلام ماهر انفجار هائل هزَّ البيت و النوافذ.

أما ماهر فقد تناثر عليه الزجاج..

وعندما نظر إلى الأعلى، وجد الدخان متصاعداً من أعلى الفندق.. . قتل مصور لوكالة رويترز، وآخر لوكالة أنباء إسبانية، وجرح آخرون وأخريات في الحادث..

و وقفت الصورة هناك، و وقفت أنفاسنا عليها. لم يعد ممكناً اعتبار ماحدث مع طارق أيوب خطأً، ومصادفة..

(الجزيرة.. أبو ظبي.. رويترز.. وكالة أنباء أخرى ـ تليثنكو ؟ ـ) ..

فكرنا : أنهم يستهدفون طرد الصحافيين والإعلاميين، أنهم يجبرونهم على المغادرة بطريقة أو أخرى.

إنهم يريدونهم كتلك القردة الهندية : لا ترى .. لا تسمع.. لا تتكلم..

فكرنا : لابد أن شيئاً ما سيحدث، ويريد هؤلاء أن يبعدوا الصحفيين عنه.. أو عن الكلام عنه..

فكرنا : كان ذلك الشيء، على الأكثر، سيحدث لنا .. وبنا..

كنا ذلك «المفعول به» الذي توقعنا أنهم يريدون أن يبعدوا الصحفيين عنه.. حتى لا يرى أحد «الفعلة».. ولا يسمع أحد الصراخ أثناء الفعلة.. ولا يتكلم أحد..

كنا مخطئين..

لقد أرادوا أن يجمعوا الإعلاميين حيث تجمعوا.. لم نفهم ذلك وقتها لكن نفهم الآن..

لقد أرادوا أن يركز الجميع، عدساتهم ومايكروفوناتهم وأقلامهم وتعليقاتهم، على تلك المساحة بالذات، التي تجمعوا فيها..

لقد حادوا ركب الإعلاميين إلى هناك..

استدرجوهم إلى هناك..

وهناك، سيصوب العالم أنظاره نحو تلك المساحة التي لا تتجاوز **بضعة مئات من الأمتار..**

مقابل فندق فلسطين .. ساحة الفردوس..

يبدو أنني لم أكن وحدي قد رأيت نقطة ضوء في أسرة طارق أيوب..

ولكن عمرو خالد رآها كذلك..

و كان الحدث كله قد وقع يوم الثلاثاء، موعد بث برنامجه الأسبوعي ـ عدا عن برنامجه اليومي الذي كان قد بدأه بسبب الحرب، مع بدء الحرب، عن الحرب..

لكن الثلاثاء، كان موعد برنامجه الأسبوعي، الثابت منذ أكثر من سنتين..

في منفاه البيروتي ـ رأى عمرو خالد الضوء من بعيد ـ من تلك الأسرة في عمّان، التي فقدت حبيباً في بغداد..

وقرر أن يستحضر هذا الضوء.. في برنامجه..



كان عنوان برنامجه.. ونلقى الأحبة

وكان عمرو خالد ما انفك يكرر السبب الذي من أجله سمي برنامجه بهذا الاسم ـ إنها أبيات من الشعر قالها بلال ـ مؤذن الرسول ﷺ ـ عند احتضاره .. قال: غداً ألقى الأحبة، محمداً وصحبه..

وعن هؤلاء الأحبة، ومواقفهم وأخلاقهم، كان عمرو خالد ينقل مشاهديه ـ في ساعة واحدة ـ هي مدة البرنامج ـ عبر آلة الزمن، إلى جو آخر، وزمان آخر، وبعد آخر..

كان ينقل مشاهديه إلى جو من الصفاء والإيمان والأخلاق مما لا وجود له في العصر الحالي.

ورغم الدموع التي كان يذرفها المشاهدون، ورغم تأثرهم بما ينقله لهم عمرو خالد، فقد كانوا يعلمون، في قرارة أنفسهم ـ ربما هو كان يعلم أيضاً، أن الأمر كله ـ رغم كونه جذاباً ومريحاً ـ إلا أنه صعب التنفيذ في عصرنا الحالي، وسط أعباء الواقع المعاصر وإرهاصاته وإشكالاته..

كان عمرو يقدم نماذجَ من زمن جميل، زمن قديم، زمن كان يمكن أن تحدث فيه

الأشياء التي يقول عنها.

أما عصرنا هذا، فهو مختلف، كان الناس يمسحون دموعهم بعد انتهاء الحلقة، وينتهي الأمر ـ على الأغلب مع نهايتها..

كان عمرو خالد يعرف ذلك، ويعاني من ذلك.

وعندما شاهد نقطة ضوء ـ في تلك الأسرة ـ في نشرة الأخبار على قناة الجزيرة، تشبث بها، وقرر أن يستضيفها.



كان عمرو منهاراً.

كان قد رأى ما رأيناه، وفهم ما فهمناه من أن قتل الصحفيين سيكون مقدمة «**لمجزرة شديدة سيتعرض لها إخواننا في العراق**» ـ على حد تعبيره..

أخذ عمرو يستعرض التواريخ والأرقام، أظنه تصفح في كتبه ومجلداته، وربما في حاسوبه الشخصي.

توقف عمرو عند تشابه في التواريخ.

١٦ المحرم كان هو تاريخ سقوط بغداد الأول ـ بيد التتار..

و١٦ المحرم كان هو تاريخ بدء الحرب هذه المرّة..

التشابه بين التاريخيين كان أكبر من مجرد مصادفة. كان يربط بينهما تاريخ طويل من السقطات المتتالية، من الظلم، من القصف من العذاب.

بغداد ـ التتار، وبغداد ـ الأمريكان، ماذا يربط بينهما، غير تاريخ محرم الحرام، تاريخ الكرب والبلاء، تاريخ السقوط.. في هاوية لا قرار لها.

استرسل عمرو خالد في الاستذكار، كان يعذب نفسه بذاكرة التفاصيل التاريخية المؤلمة للسقوط الأول.. بيد التتار .

مازوشية عمرو خالد، كانت بالنسبة لنا سادية لا تصدق.

كان يذكر كل تلك التفاصيل المهولة المروعة للسقوط، باعتبارها ما سيحدث غداً ـ أو بعد غد..

كانت هناك تلك التفاصيل التي وقفت أعصابنا متأهبة لسماعها : مليون قتيل، أو مليونان؛ ألف ألف أو ألفا ألف.. الهروب إلى المساجد.. القتل في المساجد.. الهروب إلى السطوح.. القتل في السطوح..

والمزاريب تجري بالدم.. بالدم..

كان عمرو خالد ينكأ جروحه، ولم يكن يدري أي رعب يلحق بنا ـ لا أظنه كان يتصور أن هناك أي أحد من العراق، من بغداد، يشاهده تلك الليلة الليلاء.

كان محقاً في ظنه هذا، لكننا كنا نشاهده، ونتابعه، حرفاً حرفاً، دمعة دمعة، شهقة شهقة.

قال شيئاً مروعاً آخَر عن الناس يقفون في صف طويل ينتظرون دورهم في أن يقتلوا، مستسلمين تماماً لانتظار الموت، دون أدنى محاولة للمقاومة، دون أدنى محاولة ـ حتى بالدعاء لله ـ ربما.

هل هذا لا يصدق ؟. بلى إنه يصدق. لقد كنا واقفين في الطابور هناك، ننتظر دورنا. نكاد نرى وجوهنا في الصف، لقد كنا هناك، وضعنا أعناقنا على الدكة في انتظار الساطور.

قال شيئاً عن الاختباء في قنوات المجاري، والمزابل.. وعن الأب لا يعرف ابنه والابن لا يعرف أباه.

قال شيئاً عن أكوام الجثث المتفسخة، المتروكة في الطرقات والرائحة الخارجة عنها. والريح تنقل الوباء إلى الشام.

وقال شيئاً أدمانا، قال: إن بغداد ظلت أربعين يوماً بلا أذان.

كنا نسمع ما يقول باعتباره ما سيحدث لنا غداً أو بعد غد، لست أدري إن كان واعياً بالألم الذي كانت تحدثه كلماته في البغداديين أينما كانوا.

خصوصاً البغداديين ، البغداديين، أعني أولئك الذين لم يتركوا بغداد..

الذين كانوا ينتظرون المقصلة.. الذبح..

ثم السلخ..

❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂

لكن عمرو مع ذلك كان قد وجد نقطة ضوء، كما أسلفت.

وبالرغم من تلك الظلمة كلها، بالرغم من ذلك السقوط الواقع لا محالة، بالرغم من كل تلك التفاصيل المرعبة.

كانت هناك نقطة ضوء.

ربما ليس بالرغم من. ربما بسبب كل تلك الظلمة، كان لابد من نقطة ضوء.



للعولمة أيضاً فوائدها، عليَّ أن أعترف !

فلولا منتجاتها ووسائلها ما كان لعمرو خالد أن يلمح الضوء المنبعث من ذلك البيت في عمّان.

وما كان له أن يحاول التقاطه، والتشبث به، تركيز بؤرة العدسة عليه.. ونقله إلى كل مكان.

نعم، للعولمة أيضاً فوائدها. لابد أن أعترف.



من الممكن جداً أن يعتبر أحدهم أن عمرو خالد قد حصل على سبق صحفي، خبطة إعلامية، أو ما شابه، من أجل الترويج لنفسه، ولبرنامجه، الناجحون يدفعون ضرائب إضافية من هذا النوع ـ وقد كان عمرو مستعداً دوماً لدفع الضرائب ـ في الحقيقة إن هذا كان تخصصه الأصلي !.. لكني، كنت أعلم أن عمرو كان يطمح بشيء أكبر، كان يريد حلقة معاصرة من برنامجه «.. ونلقى الأحبة». كان يريد أن يقول لنا، ولنفسه أيضاً : إن الأمر ليس ماضياً حدث وانتهى وأصبح في خبر كان، لكنه أيضاً واقع يمكن أن يكون، ومستقبل يمكن أن يصير.

لقد أراد أن نلتقي بأحبة معاصرين ـ من لحم ودم ـ أشخاص حقيقيين، يعيشون ويتنفسون كما نفعل، ولكنهم يقدمون مواقفاً كما مواقفاً تنتمي للزمن الجميل : إيمان وصبر وقوى ورضا بقسمة الله.. حتى لا نفكر أن نفعل.. كل ماسبق من حلقات رائجة ـ تألق فيها عمرو بحق ـ كانت تدريباً نظرياً، في النهاية كانت محض كلام، ودموع تمسح وكفى الله المؤمنين المعاصرين شر تجربة أي شيء..

هذه الحلقة كانت مختلفة ،كانت المحك.. كانت التطبيق العلمي لكل ذلك الكلام النظري المؤثر.

تلك الحلقة كانت تقول: إن ذلك الكلام ـ كله ـ قابل لأن يتكرر. لأن يعاد.

تلك الحلقة كانت تقول لنا : إن النظرية قابلة للتطبيق، وإن الشعارات يمكن أن تتنزل على الواقع بل وأن تعيد تشكيله.

تلك الحلقة كانت نقطة الضوء وهي تتحول إلى شعاع يتحدى الظلمة.

تلك الحلقة كانت، بطريقة ما، الرد العملي، على السقوط. على الدبابة على الجسر.



عبر الأقمار الصناعية، استضاف عمرو خالد نقطتي ضوء ذلك الثلاثاء الرهيب.

إنها أسرة طارق أيوب، لم يكن له بهم معرفة سابقة، شاهدهم فقط كما شاهدناهم في نشرة الأخبار.

شاهد في لمحة واحدة، ما شاهدت من نقطة ضوء تتحدى الظلمة.

أسرة طارق أيوب : هذه المرّة والده.. ومرّة أخرى : زوجته..

ستتوقف الصورة هناك..

وستكون فيها تفاصيل كثيرة، كل واحدة تحتاج أن تتوقف عندها.



للوهلة الأولى، سيبدو والد طارق أيوب كما لو كان شخصاً عادياً، قد يشبه والدك أو والد أي شخص آخر، بسيط التعليم، إن كان قد تلقى أساساً أي قسط منه.

للوهلة الأولى سيبدو كذلك.

لكن الأمر لن يكون سواء عندما سيتكلم ذلك الأب الذي فقد ابنه منذ ساعات فقط، أبداً، ليس سواء.

سيتمخض ذلك الشخص العادي عن جبل آخر، لا تهزه ريح.

سيقول لك ذلك الشخص الذي يبدو عادياً وغير متعلمٍ ما يعجز عن قوله

الأكاديميون.. والأيديولوجيون والمنظرون..

سيقول لك ما لاتملك إلا أن تصدقه، ولو قاله أكاديمي قابع في برجه العاجي لما كنت تملك إلا أن تكذبه.

سيقول: إنه ربّاه على الصلاة، سيقول بطريقة شبه عابرة، إنه يكثر من دعاء نبي الله إبراهيم في صلاة الوتر كل ليلة: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

سيقول: إنه عندما كبر، كان طارق يستحلفه بالله عند خروجه من المنزل لعمله ـ أن لايدخل لقمة حرام إلى البيت.

سيقول أن سجادته لم تكن لتفارقه، أينما ذهب.

وسيقول أشياء أخرى، كتلك التي يقولها كل والد يوم وفاة ولده، لكنك ستصدقه أكثر، وستتأثر به أكثر، سيهزك تماسكه وقوته، سيشدك منطقه وتوازنه.

ستُكبر فيه صبره على جرحه، ستتأمل ذلك كما لو كان أسطورة، لكن لا، إنه ليس أسطورة، إنه ليسَ شخصية هلامية قادمة من الكتب والمجلدات، إنه ليس نمراً من ورق.. إنه شخصية حقيقية .. أمامك، على شاشة مسطحة، إنما بأبعاد لا متناهية، مجسمة أمامك ومزروعة في الواقع..

ستسأل نفسك عن السر في هذا الرجل ـ الذي يبدو عادياً جداً ـ لكن لا سر في الموضوع، إنه يقول كل شيء، أوراقه واضحة ومكشوفة ككتاب مفتوح، إنه متدين، ولا شيء آخر..

متدين ؟ إنك تعرف متدينين كثيرين ـ لكنك لم تصادف شيئاً كهذا، نعم. هذا هو الفرق بينه وبينهم : **أنه متدين حقاً ـ متدين من الداخل.. تدينه منحه صلابة وقوة ـ لا سفسطة ولا رياء.. تدينه الحقيقي جعله ذلك الجبل الذي لا تهزه ريح..**

أراهن معكم أنه لم يقرأ كتب العقيدة الطحاوية ـ ولا التدمرية ـ وأنه لم يقتني مجلدات الفتاوي المذهبة.. بل لعله لم يحفظ من القرآن غير بعض قصار السور.. وأراهن أنه لم يسمع عن صدام الحضارات. ولا عن نهاية التاريخ. ولا هنتنغتون ولا فوكوياما.. وأنه لم يحضر محاضرة من تلك التي يتمنطق فيها المتأدلجون والمنظرون.

لكنه متدين حقاً، كل تلك الاشياء غير مهمة عندما يكون التدين حقيقياً، يكون في

الداخل، من الداخل، عندما يكون عموداً فقرياً.. نخاعاً.. جذعاً صلداً لنخلة صامدة.

شعرت بالخجل من نفسي. لو كنتم مكاني، لخجلتم ايضاً.. لو كنتم مكاني، أنا القابع في بيتي في مدينة على وشك السقوط. أنا المنهار المذعور المستسلم على دكة المقصلة ـ وهذا الرجل قد فقد ابنه، فقد الذي كان يفتخر به، الذي كان "يطلع على التلفزيون ـ ومع ذلك تراه متماسكاً.. قوياً ..

إنه متدين حقاً..

شعرت بأن كل ما عرفته من تدين في حياتي، لم يكن حقيقياً. لم يكن مهماً ـ مادام لم **يدخل في نخاعي، ويجعل عمودي الفقري صلباً وقوياً ومتماسكاً**..

شعرت أني لم أعرف شيئاً حقاً.

ذلك الضوء، على الشاشة، جعلني أعي مدى الظلمة التي كنا فيها حتى أكثر مما حدث عندما انقطع التيار الكهربائي عن بغداد بأسرها.



في كل مرّة كنت أواجه سؤال المسابقات المتكرر كثيراً إياه، عن أعلى قمة جبل في العالم، كنت أتردد بين اختيارين، وغالباً ما كنت أحسم ترددي بالاختيار الخاطئ.

إذا واجهني هذا السؤال مرّة أخرى، لن أتردد.

سأقول : أعلى قمة جبل في العالم، هي ديمة طهبوب، زوجة طارق أيوب.

نعم، أعلى قمة هي تلك المرأة الثكلى، المؤمنة، الصابرة، القوية دونما تكلف، المتماسكة دونما تصنع، الحزينة دونما تشنج.

كانت تبكي ؟ بالتأكيد كانت تبكي، لا مشكلة في ذلك، لكن لم تكن تبكي فقط، كانت تحكي أيضاً ـ وكانت حكايتها تفصح عن ذلك الصبر القوي وقمته العالية.

كان هناك شعارات ؟ نعم ، أيضاً. كانت هناك شعارات ورغم أنك سئمت الشعارات وكرهت مطلقيها وأسأت الظن بمروجيها ـ إلا أنك ستتوقف عن ذلك كله الآن، كنت تكرههم وتسيء الظن بهم، لأنهم كانوا يفرون عند أول مواجهة، ويسقطون عند أول امتحان.. هذه السيدة على أعلى قمة جبل ستوقفك عند حدك. لقد فقدت زوجها اليوم، ولديها طفلة تيتمت اليوم، ولديهما معاً، هي وابنتها التي لم تتجاوز العامين..

عمراً كاملاً ليقضياه بمفردهما، أو هكذا ستظن للوهلة الأولى.

هناك أيديولوجيا ؟ نعم، هناك أيدلوجيا. لكنها أيدلوجيا لم تفقد معتنقها إنسانيته **أو** حيويته، بل اختلطت أيديولوجيته ـ بطبقاته بأعماقه .. ومساماته..

اعتذرت ديمة أولاً من كل زوجات الشهداء في فلسطين والعراق. لماذا ؟ ستقول لأنها كانت تتعاطف كثيراً معهن لكنها الآن تكتشف أن مشاعرها السابقة لم تكن كافية.

كان ذلك يعني، في الوجهة الأخرى، كلاماً موجهاً لنا، للآخرين، مفاده : **مهما تعاطفتم، مهما بكيتم، مهما شعرتم.. فإن الأمر مختلف .. الأمر مختلف..**

ولن تفهموا حقاً، إلا عندما يأتي دوركم .

كانت متحدثة بارعة، أستاذة جامعية أو شيء من هذا القبيل، سحبت البساط من مضيفها عمرو خالد نفسه ببساطتها وتلقائية كلماتها، وعمق ما تشعر به..

استسلم هو لهذا. كان منهاراً كما أسلفت، جلس يبكي في زاوية من زوايا الكاميرا غير آبه بشيء من تعليمات المخرج، واضعاً يده على جبينه مرّة ربما ليخفي دموعه، ساحباً منديلاً ورقياً ومتمخطاً بشدة وبصوت عال مرّة أخرى .

تحدثت ديمة عن زوجها. عن حرصه على الصلاة وخروجه إلى المسجد حتى في الثلوج الشديدة في عمّان. تحدثت عن صيامه وعن بره بوالديه، دموعها ستذكرنا بين الحين والآخر عندما تكاد نشرف على النسيان أن هذا الذي تتحدث عنه ليس قادماً من زمن الأحبة ـ الصحابة ـ بل هو شخص من حياتنا المعاصرة. كان حياً حتى هذا اليوم، ثم وقف على السطح، كما فعلت، وواجهه التنين، كما فعل معي.. ثم مات.

بينما تتحدث ديمة، ستلاحظ شيئاً يذهلك، إنها تستطيع أن تتحدث عن زوجها بصيغة الماضي، لقد كان للتو حاضراً، والحديث عنه ومعه يكون بصيغتي الحاضر والمستقبل.

سوف تذهلك قدرتها على ذلك، سوف تفكر كيف استطاعت تقبل الأمر بهذهِ السرعة.. سوف تفكر أن تركيبتها مختلفة عنك، وعني وعن الآخرين الذين لو وضعوا **في** مكانها لانهاروا نحيباً وبكاء وضجيجاً وهذياناً.

نعم. سوف تهز رأسك ، تركيبتها مختلفة.

ستقول ديمة. ستقول: إنها تتمنى لو أن موت زوجها سيوقظ الأمة.

سيضربك الصداع في رأسك، من أين تأتي بهذهِ القدرة ؟. كيف تستطيع أن تقول كلاماً كهذا، كيف تستطيع أن تفكر هكذا، كيف تأتي على بالها هذه المفردة ـ الكلمة ـ المصطلح : «الأمة» ـ وزوجها لم يدفن بعد ـ في الحقيقة، كان حتى لم يغسل بعد..

كيف تستطيع أن تكون بهذا التوازن. والتماسك.. والحزن الجليل الوقور..

ستجيبك، كما لو كانت تعرف فيم تفكر، ستقول لك بلا مواربة بلا لف ولا دوران..

ستقول شيئاً خطيراً، سراً عظيماً، خبراً عاجلاً، سيهزك ويهز أركانك.. ستبوح لك بالكلمة ـ المفتاح ـ ، بالشفرة السرية وراء تلك القوة وذلك التماسك..

ستقول : **من وجد الله فلم يفقد شيئاً، ومن فقد الله .. فما وجد شيئاً..**

انتهى!



يا الله..

كنت قد سمعت هذا القول مراراً. وقرأته تكراراً، سمعته على المنابر، في الخطب، في المواعظ، على الأشرطة المهترئة.. والأقراص الممغنطة.

من أولئك الخطباء، الذين الله أعلم بحالهم، قرأته في الكتب الصقيلة والمجلدات المذهبة والكتيبات الملونة..

سمعته وقرأته ـ مراراً وتكراراً ـ لكن لم يبق في بالي ولا مرة، ولا حتى مرّة واحدة.

لا أقول: إني لم أصدق، لكن أقول: إن الأمر لم يتعد كونه قولاً مأثوراً.

وعاظ وخطباء ـ شيوخ ومعممين ـ للأسف لا شيء يتخلف في أعماقك منهم.

لكن عندما تقول تلك المرأة ذلك، تلك المرأة التي هي أعلى قمة في أعلى جبل في العالم.. عندما تقول ذلك، تلك الثكلى التي لم يدفن زوجها بعد، تلك الصابرة التي لديها العمر القادم بأكمله لتصبر. تلك المؤمنة التي إيمانها ليس ترفاً إضافياً أو إكسسواراً زائداً ـ عندما تقول، فإن الكلمة ستنفجر في وجهك كقنبلة..

«من وجد الله لم يفقد شيئاً .. ومن فقد الله فما وجد شيئاً».

للمرة الأولى اصطدم بقول مأثور ينفجر عليَّ كلغم. كعبوة ناسفة تطيح بذلك التناقض

بين القول والعمل الذي طالما عطل أي تفاعل مع كل كلمة تقال على المنابر أو عبر تلك المجلدات..

للمرة الأولى، تجسر تلك الهوة الهائلة الواقعة بين النظرية و التطبيق.

للمرة الأولى، أرى على الشاشة، إنساناً حقيقياً، إنساناً ـ إنساناً، إنساناً يمكن أن يصير أعلى قمة في الجبل.

للمرة الأولى، أحس أن الشعارات لم تعد مضحكة، لم تعد غبية، صارت قابلة لأن تكون حقيقة.. لأن تكون واقعاً.

للمرة الأولى، اكتشف أن هناك حلقة مفقودة في داخلنا، لو وصلنا إليها ـ لو سلكناها، لأكملنا ذلك الطريق نحو إنسانيتنا.

على الشاشة قالت تلك المرأة ذلك الشيء الذي فسرَّ كل الأشياء: **«من وجد الله لم يفقد شيئاً.. ومن فقد الله لم يجد شيئاً..»** .

كنت مخطئاً إذن، لن تكون وحيدة في هذا العمر الذي ستمضينه..

سيكون معها ما وجدته ـ والذي معه، لم تفقد شيئاً..

..الله..



على الشاشة رأيت الضوء..

تلك الليلة المظلمة، حالكة السواد. وبغداد تلفها الظلمة، والكهرباء منقطعة منذ حوالي أسبوع، والتنين هناك، وهم هناك، والدبابة على الجسر، ونحن عبيد أرقاء، ننتظر دورنا في الذبح.

تلك الليلة، برق الضوء، رأيته هناك. رغم كل تلك الظلمة، بل ربما الأجدر أن أقول: إني رأيته بسبب كل تلك الظلمة.

عندما تنشد الضوء، تكون الظلمة هي المكان الأنسب للرؤية، ولا أستطيع تخيل ظلمة أحلك من تلك التي كانت تلك الليلة ـ ولا ضوء أشد إنارةً.. أشد لمعاناً.. من ذلك الذي كان..

في لحظة واحدة فهمت !

لم يكن الضوء قد كشف السر في قوة تلك السيدة على قمة الجبل فقط.

لكنه كشف عن الضعف في الآخرين، الضعف فيَّ. في أسرتي. فينا نحن، ذلك القطيع المستسلم بلا قيد ولا شرط، نحن المنتظرون لدورنا في القتل من عهد التتار إلى اليوم.

نعم. الضوء الذي كشف عن قوة ديمة طهبوب، هو ذاته الذي كشف عن الضعف فينا.. وعن سبب كل ما حدث.

تلك الجملة التي ربما بدت للبعض عابرةً وغير مهمة، كانت هي الجملة الأهم في كل ما حدث ـ ورغم كل ما قيل.. فإن تلك الجملة تظل هي الأهم.. هي الأكثر اختزالاً ـ ورغم ذلك الاكثر دقة في وصف كل ما حدث.

تلك الجملة، تلك الليلة، قالتها تلك السيدة في ليلة اليوم الذي شهد مقتل زوجها، ستفسر كل ما حدث، وكل ما سيحدث، في اليوم التالي تماماً لكل ذلك..

تلك الجملة، ستكون الجواب عن ذلك السؤال المؤلم ـ المفجع الذي سيسألني إياه ابني فيما بعد، حينما سيقول "لماذا حدث ذلك يا بابا... لماذا سقطت بغداد ..؟

سأحاول معه على طريقة الكلمات المتقاطعة..

جدها في جواب ديمة.. معكوسة..

لقد فقدناه.

فما وجدنا بعده شيئاً..

هذا هو..



نعم، لقد فقدناه

فقدنا الله. فما وجدنا بعد الله شيئاً، يحمينا، يسندنا، ينقذنا من تلك العاصفة، من ذلك التنين، من الروم، ـ والروم قد وصلوا ! ـ من الدبابة على الجسر.. من الذبح، ومن انتظار الذبح.

من أنفسنا.. من أنفسنا .. من أنفسنا.

ومن ذلك السقوط.

نعم، لقد فقدناه، فما وجدنا بعده شيئاً، جعلنا ذلك نهوي في القعر ـ ربما كان السقوط بطيئاً، أو الهاوية سحيقة، المهم أننا سقطنا، حاولنا أن نتمسك بشيء، أن نتشبث بشيء لكننا ما وجدنا شيئاً نمسكه أو نتمسك به ـ تعلمون ذلك، لقد فقدنا الله.. فما وجدنا بعده شيئاً..

نعم. على صعوبة ذلك، وعلى صعوبة الاعتراف بذلك، علي أن أقولها بالفم الملآن، الملآن بالأشواك والحسرات والصرخات المكبوتة، علي أن أصرخها في نفسي ـ في وجهي.. فيكم وفي وجوهكم..

لعلكم تقولون إني خادعت وسرحت بكم طيلة هذه المدّة حتى أصل بكم إلى هذا الشعار المكرر، والنتيجة الببغائية : **إن كل ما حدث كان بسبب بعدنا عن الله، وأن العودة إلى ديننا هي الحل..**

لعلكم تقولون إني أقول هذا الآن، وبأثر رجعي، بعد أن انتهى كل شيء، وما كنت لأقوله في البداية..

ربما..

وربما لأن الظلمة التي غرقنا فيها هي التي جعلتنا نرى ذلك الضوء، وقبل أن يبدء كل شيء.

وربما يكون ما أقوله مكرراً. لكن، أليس التاريخ كله، محض حوادث تتكرر، ودروس تعاد .. (ولا يستفيد منها أحد..؟)..

لا أعرف. لست متأكداً من شيء إلا هذا الذي أقول، هذا الذي أعرف.. لقد فقدناه، فقدنا الحبل، فقدنا طوق النجاة.. وعندما سقطنا.. ولم نستطع أن نتشبث بشيء، لم تنتبهوا أنتم أن سقوطنا هو العلامة الأولى على السقوط القادم الشامل لا محالة، وأن الدوي الهائل الذي ترددت أصداءه عندكم، كان محض محصلة نهائية للسقوط الذي مررنا به بصمت.

استغرق الأمر مدة، اعترف، هل السقوط كان بطيئاً ؟. أو أن الهاوية كانت عميقة ؟ لا أدري، لكني أعلم أن الصوت الهائل الذي شق عنان السماء عندنا وعندكم وفي كل مكان.

ـ لم يكن سوى التحصيل الحاصل لما مرّ بنا، ومررنا به.

نعم. سقطنا نحن، قبل أن تسقط بغداد، ولولا سقوطنا لما سقطت بغداد.

كان سقوطنا هو المقدمة الأولى لتلك النتيجة الحتمية.

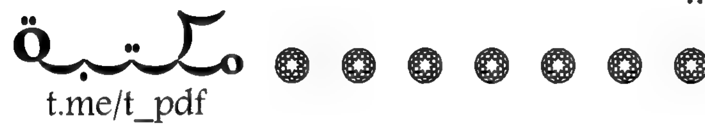
سقوط بغداد..

«.. ومن فقد الله، فما وجد شيئاً..» .

كالقنبلة تلك الكلمة انفجرت في وجهي، كالعبوة الناسفة المرزوعة في أوتاد خيمة في العاصفة كالخنجر .. يغوص في أحشائي..

قالتها تلك السيدة ـ أبداً ليست وحيدة، وإن بدت كذلك، على أعلى قمة في أعلى جبل..

في ليلة سقوط بغداد...



ستشيحون بوجوهكم عما أقول، بتقزز..

«هؤلاء الإسلاميون وطروحاتهم المكررة، إنهم لاينفكون يعيدون ويستعيدون ما قالوه منذ قرون. كلما صادفنا واحداً منهم واعتقدنا أنه مختلف، عاد بنا إلى نفس النقطة..»

إنهم لايزالون مهووسين بإرجاع كل شيء إلى العلة الأولى والسبب الأول..

سأسمح لكم بأن تقولوا ما تعتقدون.. وسأتقبل ذلك حتى وإن لم أوافق على ما تقولونه ربما كان علينا أن نفعل ذلك، على الأقل بعدما حصل ما حصل، علينا أن نكف عن سماع صوتنا فقط والتوهم بأنه الصوت الوحيد، فلقد كان حوار الطرشان هذا ـ الذي لم نتقن غيره منذ قرون ـ سبباً أساسياً في السقوط.. الذي شق دويه الهائل آذاننا الصماء.

لكن مقابل ذلك، عليكم ايضاً أن تسمعوا ما أقول..، .. لا يكفي أبداً أن أكون إسلامياً لكي تلغوني من أسماعكم.

إنكم لا تكفون عن اتهامي بمحاولة إلغائكم.

لكن في الوقت نفسه ـ لا تكفون عن محاولتكم إلغائي.

كفوا عن ذلك، ولو قليلاً .

و اسمعوني.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

لم أقصد عندما قلت: إننا فقدناه، أن يكون نموذج تلك المرأة، ديمة طهبوب، **هو** المقياس الذي أريد تعميمه حتى نكون «وجدناه»..

لا . لم أقصد ذلك.

فلا يمكن تخيل أن يكون كل منا تلك القمة العالية.. قصدت ما هو أبسط من ذلك، وأقل من ذلك.. وأسهل..

قصدت أن ديمة، حتى ديمة، هي ـ بعد كل شيء ـ نتاج بيئة معينة تمكنت فيها أن تزدهر قدراتها الذاتية وترقي من إمكانياتها، وصولاً إلى تلك القمة العالية.

لكن البيئة كانت موجودة.

بيئة التدين العريقة.



و «بيئة التدين العريقة».. كانت هي ما فقدناه .. ـ وشببنا فلم نجده وبعدها لم نجد شيئاً.

وأقصد ببيئة التدين، ذلك الحرص البسيط والعميق على مظاهر التدين الأولية : الحرص على الصلاة، وعلى أدائها، الصوم، حفظ القرآن واحترام الشعائر وعلى الأخلاقيات والسلوكيات الملتزمة عموماً.

هذا ما قصدته ببيئة التدين العريقة، إنها البيئة التي يمكن أن تزدهر ـ فيما بعد ـ الايديولوجية الدينية فيها، والتي يمكن، لأفراد فيها، أن يعبروا تلك الهوة بين الفكر والسلوك، وصولاً إلى تلك القمة على الجبل.

بيئة التدين التي قصدتها هي أن يكبر الطفل ليجد أمه وأباه وأخواله وأعمامه وجيرانه وأقاربه، كلهم كلهم يصلون، أن يجد العالم من حوله في حالة «صلة» بالله ـ قد تكون صلة مشوبة ببعض المشاكل، ربما هي حالة تقليدية أكثر منها تدين حقيقي، لكن ما أشدد عليه هو أهمية أن يفتح الطفل عينيه على عالم في حالة صلة بالله.

أن يكون هذا هو الوضع الطبيعي، وكل شيء عداه هو الشاذ والذي يستحق الانتقاد.

نعم. هذه هي بيئة التدين، التي يمكن للناس فيها أن يعبروا الهوة ويحلقوا عالياً نحو تلك القمة.

بالتأكيد، هناك أشخاص، بين الحين والآخر، يمكن لهم أن يعبروا دون وجود تلك البيئة في خلفيتهم الاجتماعية.

لكن عندما نتحدث، عن جيل، عن مجتمع، عن ظاهرة لابد أن نجد تلك البيئة في خلفيتها، في عمقها.

وهذا لم يكن موجوداً عندنا .

أعرف أن ما سأكتبه الآن سيكون صعباً على التصديق، لكنه صعب أيضاً عليَّ الاعتراف به، صعب عليَّ أن أكتبه أو أن أروج له، لكن الآن، وبعد كل ما حدث، أعتقد أننا علينا مواجهة كل ما نتهرب من مواجهته.

نعم. ليس التدين، كظاهرة، منتشراً أو عريقاً في العراق.

عليَّ أن أقر بذلك، رغم صعوبته.

نعم، ليس الأمر كما هو في دول كثيرة التدين فيها ليس أكثر انتشاراً فحسب، ولكن أكثر عراقة، أكثر قِدَماً، بحيث أن الطفل ينشأ في بيئة تكون الصلاة جزءاً من مفرداتها، لم يكن الأمر كذلك معنا.. للأسف.



عندما كنت طفلاً، لم يكن هناك في عائلتي من يصلي. أعني في بيتنا.

لا أمي.. لا أبي.. لاشيء غير ذكرى غير واضحة ومبهمة لسجادة جدتي لأبي، في الحقيقة حتى هذه السجادة لا أذكرها، فقط قالوا: إنهم وجدوها ميتة على السجادة.

لكن قطعاً لا أحد يصلي.

لن أضجركم الآن بتلاوة قصة عن بدئي بالصلاة، لكني أود أن أؤكد أن تلك ليست قصتي وحدي، بل قصة الكثيرين من أقراني وأصدقائي ممن هم يصلون الآن، وملتزمون الآن.

وعندما تعلم جيلي الصلاة، كان في الحقيقة يكتشفها، يستكشفها، يغوص في أعماق محيط متحسساً تلك القارة الصلبة الغاطسة التي يمكن أن تصير كوناً رحباً له وللآخرين.

ورغم أن جيلي أخذ بيد الكثيرين من أفراد الجيل الذي قبله ـ نحو الصلاة، أي أن الكثيرين من أقراني صلوا وأباؤهم وأمهاتهم في نفس الفترة ـ وهو أمر يستحق الفخر،

بلا شك ـ إلا أن الأمر ليس سيان ـ أبداً، ليس سيان أن تنشأ في بيئة تحترم التدين وتجله وتوفر مظاهره، وبين بيئة تسخر من المصلين وتستصغرهم وتهزء من عقلياتهم.

حتى لو اكتشفت الصلاة بنفسك، فإن الأمرعندما يكون كذلك سيكون شخصياً، فردياً، وليس نتاجاً لظاهرة اجتماعية، لمجتمع ينشد الخلاص.

تقولون إن تلك ظاهرة عامة في العالم أجمع، وحتى ليس في البلدان الإسلامية وحدها، ظاهرة عودة التدين ؟

في الحقيقة ربما، لكن بفارق أنها كانت في العراق، ظاهرة اكتشاف للتدين، كان التدين بلا جذور تقريباً، أو بجذور شبه ميتة، شبه مقطوعة، عندما أعاد جيلي اكتشافه.. في فترة ما ـ من العقود الثلاثة المنصرمة.

❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂

كيف حدث ذلك ؟

كيف حدث أن أي من أجدادي ـ من جهة أمي ومن جهة أبي ـ لم يكونَا يصليان، لم يكونا يصومان، بل إنهما أيضاً ـ وعلى الأكثر ـ كانا يشربان.

كيف حدث ذلك ؟ ومتى بدأ ذلك بالضبط ؟ قبلهما، قبل جيلهما، أم معهما ـ مع ذلك العصر الذي شهد انهيار زمن وقيام زمن آخر..؟

كيف حدث أن انقطعت تلك الصلة، التي كانت يوماً ما جوهر الحضارة وقوام مجتمع، كيف انقطعت تلك الصلة التي كانت عموداً فقرياً لتماسك المجتمع وتوازن أطرافه ؟

كيف حدث أن المجتمع صار (غير مستقيم على القبلة..) ؟

وكيف يمكن أن لايكون ذلك مرتبطاً بكل ما حدث بعد ذلك، خطوة خطوة حتى درب السقوط..

كيف يمكن أن لايكون ذلك مرتبطاً بأن «أكبر بيت في بغداد» صار قاعاً صفصفاً ؟ كيف لايمكن أن يكون ذلك مرتبطاً بهذا الذي يحدث ؟ بالدوي الهائل الذي سيشق عنان السماء ويمزق طبلات آذانكم ؟

لايمكن إلا أن يكون هذا السقوط مرتبطاً بسقوط آخر بدأ منذ فترة طويلة جداً.

❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂

شيء ما حدث، في فترة ما معقدة، بدأت ذلك كله ـ وجاء جيلنا ـ بعد عدة أجيال متعاقبة ـ ليدفع الثمن كله.

شيء ما حدث، وشيء أدى إلى آخر، في ذلك التفاعل المتسلسل من الأحداث ـ وسط ظروف صعبة ومعقدة ـ منتهياً بذلك السقوط الذي شاهدتموه جميعاً عبر الأقمار الصناعية..

هل هو ذلك الإرث القبيح من الصراع الطويل المتبادل بين الإمبراطوريتين الصفوية والعثمانية، والتي تداولت السلطة والسيطرة، بطريقة لا أستطيع أن أقول غير أنها غير لطيفة ـ وبرر كل طرف كل مجزرة ارتكبها بمبررات دينية ومذهبية بغيضة وضيقة. في حق الطرف الآخر.

وعندما ولت الأمبراطورة الصفوية ـ وتلتها العثمانية، ظل في نفوس السكان ـ شيء من ذلك كله، شيء من الربط اللاواعي بين شعارات التدين المرفوعة وحقيقة المذابح المروعة، وأدى ذلك إلى الانكفاء عن الدين والتدين، الذي كان يمكن أن يكون في حال أخرى، حلاً لذلك التناقض كله.

هل هو ذلك التردد بين البداوة والريف، الموجود في عمق المدينة العراقية، في عمق الشخصية العراقية ـ والمزدهر أساساً بسبب الاستبداد ومظاهره المتجددة.

هل هو الاستبداد، المستند دوماً على تبريرات دينية، والذي وجد دوماً في وعاظ السلاطين والشيوخ التافهين المتهافتين دعامة لاستمرار المظالم والاستبداد.. جعل الناس يربطون، يفكرون، يصدقون، أن الدين الذي اتخذ كمطية وكشمّاعة له علاقة فعلاً بأولئك الذين تسلطوا عليه.

وعندما مات الرجل المريض، ودخل البريطانيون محررين لا فاتحين، كالعادة! وجدوا مزيجاً من الأعراق والطوائف والمذاهب، وجدوا تعدداً يمكن أن يكون سبباً للتنافس والإبداع، كما يمكن أن يكون سبباً للتناقض والاقتتال، ولسبب أو لآخر، بنوا لبنة الدولة التي بنوها بشكل يعزز الاحتمال الثاني ـ التناقض والاقتتال ـ بدلاً من الاحتمال الأول: التنافس والإبداع. جعلوا في لبنة الدولة أساساً لإقصاء طرف وتقريب طرف، واستعداء طرف لحساب طرف، واستجداء طرف على حساب طرف. في انتظار اقتتال الطرفين.

ورسموا للدولة التي بنوها حدوداً تورث النزاعات وجعلوا ضمنها أقليات وشتات، وكل منهم يريد، وكل منهم ينظر إلى ما وراء الحدود.

وضعوا الفتيل وأشعلوا خيطه الأول، ثم ولوا مسرعين قبل أن ينفجر بوجوههم أظنهم تركوا بطاقة كتبوا عليها : لن نقول وداعاً.. بل سنقول إلى اللقاء.. ولو بعد حين ...

وعندما جاءت النخب غير المنتخبة جاءت معها مشاريعها التغريبية التي وضعت الدين في أسفل القائمة، لا. للأسف، أخطأت، لم تضعه أساساً لا في أسفل القائمة ولا في أي مكان.

إنها سايكولوجية الهزيمة، إنها طبيعة الأشياء، فجأة ارتبط الدين بذلك الرجل المريض الذي قضى نحبه، والذي لايزال يجد من يتباكى عليه، وارتبطت الهزيمة بالدين. والتخلف بالدين، والاستبداد بالدين، وارتبطت كل أمراض ومثالب ذلك الرجل المريض بالدين.

وبشكل أو بآخر، تصور ـ حتى المخلصين ـ أن التدين سيعمق من هوة الخلاف بين الفرقاء، فاندفعوا بعيداً عن الدين ومظاهره، متجاهلين صيغة أخرى تلم ولاتفرق، وتجمع ولا تمزق.

وجاء الشيوعيون وحبالهم، والحزبيون ومشانقهم وأساليبهم المبتكرة في الاضطهاد والترهيب والتعذيب، والمساجد فارغة، فارغة تماماً إلا من إمام وخطيب وهو في حقيقته مجرد موظف، وخادم ومؤذن للمسجد هو في حقيقته مخبر، وفي زاوية المسجد، هناك، يجلس بضعة عجائز ومتقاعدين.

وكان هناك ـ أيضاً ـ بعض الإسلاميين وسلوكياتهم، وطروحاتهم، وتمسكهم بخرافات سخيفة ـ أبعدت العقلاء من الناس عنهم، وعن الفكر الذي ادعوا أنهم يحملون رايته.

كل ذلك، وأكثر، مع الاستبداد الذي كشر عن أنيابه وأخذ ينهش في البقية الباقية من الظاهرة، لقد أتى حين من الدهر، كانت الصلاة ـ الصلاة فقط ! ـ مجرد أدائها ولو بشكل منفرد ـ يمكن أن يؤدي إلى تحقيق، واستجواب، وحتى الإعدام.

كل ذلك .. وأكثر.. أدى إلى أن تكون ظاهرة التدين منكمشة .. ومنكفئة.. ومحددة.

وعندما اكتشف جيلي الصلاة ـ كما لو كانت بمعجزة، اكتشف الأيديولوجيا أكثر مما اكتشف التدين. اكتشف المناظرة والجدل أكثر مما اكتشف رعشة القلوب عند الصلاة.. اكتشف كتب العقيدة والمجلدات المذهبة أكثر مما اكتشف العقيدة نفسها،

عقيدة الخبز اليومي، وعقيدة العمود الفقري، عقيدة الوتد بمواجهة العاصفة، وعقيدة الصبر ورباطة الجأش.

لكننا برعنا في الأيديولوجيا، في النقاش، في الجدال، في التمذهب البغيض، في صدام الحضارات.

وعندما حصل فعلاً ـ صدام الحضارات ـ ، اكتشفنا أن الأيديولوجية لا تسمن ولا تغني من جوع، وأن عقيدة «العجائز في نيسابور» تفيد أكثر بمواجهة القصف. بمواجهة الموت .. بواجهة الغزاة، و(الغزاة قد وصلوا)، بمواجهة الدبابة على الجسر.

«فقدنا الله.. فما وجدنا بعده شيئاً..»

نعم. ليلة السقوط.. بدت تلك الكلمات كما لو كانت ضوءاً في منارة بعيدة، تلتمع من بعيد، تدلنا على الطريق في ذلك الخلاء الأجرد الموحش الذي كنا فيه.

لم نكن نعرف هل لاتزال لدينا فرصة في اللحاق بالضوء، بالإمساك بما فقدناه، أم أن الوقت قد أدركنا، وأننا سنظل نضرب في ذلك الخلاء الأجرد المروع حتى الموت.

لا أدري.

لا أحد يدري بالضبط.

لم يكن هناك سوى تلك الكلمات، قالتها تلك السيدة.

ثم الظلام.



أستطيع الآن أن أقف هنا، وأقول : كفى !

هذا ما حصل، وهذا الذي جرى في ليلة سقوط بغداد .

وتعرفون كلكم أحداث اليوم التالي، أراهن أنكم تحلقتم حول شاشات التلفاز، عندما عرض ذلك الشيء الذي حصل في ساحة الفردوس، أراهن أنكم علقتم على ما حصل، وعلينا، أراهن أن بعضكم سبّنا بأقذع الشتائم، وأن بعضكم بصق علينا، أراهن أنكم حاكمتمونا وحكمتم علينا ـ وأصدرتم حكمكم علينا بناءً على ما شاهدتم هناك.

أستطيع أن أقول هنا، كفى، انتهى الأمر. كانت هذه هي ليلة سقوط بغداد، والدبابة

على الجسر، والروم قد وصلوا، وأضع نقطة نهاية السطر.

أستطيع أن أردَّ على تساؤلاتكم، ليس من شيء آخر، ليلة سقوط بغداد، تفرجنا على عمرو خالد وبكينا على طارق أيوب.

هل توقعتم وثائق ومشاهدات حية عن مؤامرة ما، دبرت بليل، في تلك الليلة.. ليلة سقوط بغداد.

حسناً.. ليس الآن على الأقل. وأرجو أن لا يلقى كل شيء على كاهل المؤامرات والخيانات، صحيح أنها كانت هناك بلا شك، لكن السقوط كان قادماً لامحالة.. لقد فقدناه.. فما وجدنا بعده شيئاً، كما تعلمون.. ربما الخيانة سهلت الأمر.. سرعت الأمر.. (وهناك من سيقول، إنها حقنت الدماء..)..

ربما الخيانة سهلت من تقديم الأمر بالشكل السينمائي الذي قدم فيه.

لكن لا وثائق عندي، لا شيء غير ذلك السر الذي قالته ديمة طهبوب بشكل عابر. إنه السر وراء كل شيء، وراء كل ماحدث من سقوط.

أما المؤامرات والخيانات، تلك التي دبرت بليل، تلك التي ستكشف عنها الوثائق تلك التي تريدون أن تسمعوها، فلم تكن سوى تفاصيل في ذلك السر.



قلت: إني يمكن أن أقف هنا، و أسدل الستار على الموضوع، وأوفر على نفسي، وعلى ناسي، ألماً جماً، وإحراجاً كبيراً.

أستطيع أن أقول : انتهى، كما سيفعل كثيرون، ويدفنون رؤوسهم في الرمال.. لكن لا هروب منكم، ما دمتم قد رأيتم.

وما دمتم قد علمتم، وما دمنا قد فضحنا ـ وانهتك سترنا بما قد رأيتم ـ ..

فلا بد أن نخوض في الأمر، لا لكي نبرر.. ولكن لكي نفسر..

وأيضاً لكي نخلص من الأمر، لكي نخرجه من جوفنا، من أعماقنا، كان يمكن أن أقول (انتهى) ـ وأسدل الستار.

لكني أحتاج إلى أن أكمل، أحتاج إلى أن أقول، أحتاج إلى أن أزيح هذا الحجر الذي يثقل صدري وكاهلي.

الجرح الملتهب في أعماقي لم يلتئم بعد، لم يشفى بعد، وهو يحتاج إلى الشمس. يحتاج إلى الهواء.

رئتي تحتاج إلى أن يخرج القيح المحبوس في داخلها، تحتاج إلى الهواء النقي ليدخلها. ليطهرها.

أريد أن أخوض في الأمر، في ما حصل ذلك اليوم بالتحديد، وما حدث بعدها، أريد أن لا أتجاهل شيئاً ولا أداري شيئاً.

نعم. محملاً بعاري وبخجلي أقول ذلك.

لكني أريد أن اتخلص من هذا الإحساس ـ الإحساس بالعار ـ أريد أن أقضي على هذا الشعور بالخجل.

أريد أن أرفع رأسي من الورقة، الآن، وأنظر إليكم، في وسط أعينكم، دون أن أغرق في عرقي، أو أموت من خجلي.

نعم. هذا ما حدث.. نهار السقوط..



المشهد الرابع

السقوط، حقاً

«الجزيرة هذا الصباح»[١]

ماهر، واقفاً أمام فندق فلسطين، مرتدياً نفس القميص البسيط الذي كان يرتديه بالأمس، وهو يتكلم عن ليلة هادئة قضتها بغداد.

ستقول في نفسك إنها كانت هادئة فعلاً، لكنك تستدرك على نفسك أن الليلة التي سبقتها كانت هادئة أيضاً، ثم طلع الفجر على ما طلع عليه من يوم مرعب ومهول.

يفاجئك ماهر بأنه يقول الشيء ذاته الذي نفكر فيه، يفاجئك بأن يده امتدت عبر الشاشة وخطفت من قلبك مخاوفه ونشرته على الملايين.

حكيم روحاني حضرتك ؟.. تبتسم في سرك و قد كنت تهم بالبكاء.. وترد : لا ، حكيم أخبار، وتتذكر أن هذا الشخص يمر بما تمر به، ويشعر بما تشعر به، وأنه تعرض للموت أمس مرتين، وخطف الموت زميلاً له كان ينام معه في نفس الغرفة.

تشعر بالتعاطف مع هذا الشخص الغريب على الشاشة، بالذات تشعر بالقرب منه ـ تمتلئ روحك بود مجاني ونقي لا ينتظر مقابلاً ولا شكوراً، فجأة تهب رياح وتؤثر على الصوت. عدنان الشريف[٢]، في أستوديو الأخبار في الدوحة، يطلب من ماهر أن يعدل من وضعية الحاكية في القميص.. يرد ماهر، بشكل عابر تماماً، سأحاول ذلك، مع العلم أنه «القميص الوحيد المتبقي»..

كانوا قد تركوا كل حاجياتهم، في المكتب الذي قصف وحوصر يوم أمس.

لا أدري كيف، ولكن أدري لماذا، وجدت نفسي وقد امتلأت تصميماً على أن أهديه قميصاً، إنها فرصة نادرة، لكي يتجسد هذا الود الذي قلت عنه بشكل مادي، محسوس.

في دولابي، بين أكداس الملابس، أبحث عن قميص جديد استلمته كهدية قبل

(١) نشرة الأخبار الصباحية الرئيسية على قناة الجزيرة، في الخامسة بتوقيت غرينتش..

(٢) مذيع الأخبار في قناة الجزيرة.

فترة، ولم تتسن لي فرصة ارتدائه، قميص إيطالي بعلامة تجارية عالمية، شيء يليق بالجزيرة وبماهر وبحجم التعاطف الذي أكنه لهما.

كنت أعلم أن كل شيء انتهى، وأن السقوط قد حل عملياً، وأنهم عما قليل سيحزمون حقائبهم ويرحلون، وكانت هذه الهدية بمثابة لمسة حنان قبل السقوط، لمسة حنان قبل السفر.

هل كنت أود أن أترك أثراً طيباً عن العراقيين ؟ هل كنت أود أن أحسن صورتهم؟

بالتأكيد لا. لم يخطر ذلك ببالي، لقد كانت صورتهم حتى الآن معقولة، لم أكن أدري أي شيء سيحدث بها خلال ثلاث ساعات فقط، لم أكن أعلم بأي صورة مشوهة وبشعة سيظهر العراقيون خلال ثلاث ساعات فقط، على شاشات العالم أجمع.

لو علمت، لربما دفنت رأسي خجلاً وما خرجت..

لم يكن هناك أي أيديولوجية أو نية مسبقة فيما فعلت، فقط ود، فقط حنان، فقط لمسة منهما قبل السقوط، قبل السفر.

قبل أن تنتهي نشرة الأخبار ـ وتبدأ أخرى، كنت قد ارتديت ثيابي وكتبت شيئاً عابراً، ومتعاطفاً على غلاف القميص.

وعندما قلت بصوت عال، وأنا أهم بالخروج: إنني ذاهب للجزيرة، لم يصدقني أحد ـ باستثناء زوجتي، التي كنت قد أخبرتها سلفاً ـ واعتبرني الجميع أنني أمزح بلا شك.

كعراقيين، عشنا أعمارنا جميعاً تحت ظل أنظمة قمعية احترفت تدجيننا وقولبتنا، لم يكن هناك أي مجال لأن يصدق أحد ما قلته ويأخذه على محمل الجد.

طيلة عقود ـ هي كل حياتي وأكثر ـ كان الاتصال بأي أجنبي يمكن أن يتحول إلى تهمة ممكن أن تتحول إلى عقوبة.

وأعني هنا بالاتصال، الاتصال المحض ـ لا شيء أكثر

وعندما يكون هذا الأجنبي صحفياً، فإن الأمر يصبح أخطر، والتهمة تصبح أكثر تأكيداً.

وعندما يعمل هذا الصحفي في قناة فضائية، طرد واحد من مراسليها أثناء الحرب، وأوقف آخر، فإن التهم ستتساقط عليك من السماء.

سيكون أولها، وأبسطها، أنك تملك صحناً لاقطاً في سطح بيتك.

والبقية تأتي.

كعراقي، لم يكن ممكناً أن تخرج من بيتك وتقول: أنك ذاهب إلى مكتب قناة فضائية إلا إذا كنت تمزح أو كنت قد فقدت صوابك.

لم أكن أمزح، ولم أكن قد فقدت صوابي، لكن صوابي قال لي: إنهم الآن مشغولون ولابد بأشياء أهم من صحن لاقط على سطح بيتي.

كنت مخطئاً.

وعندما قدت سيارتي ـ لبضعة دقائق فقط ـ إلى فندق فلسطين حيث يتجمع الصحفيون، أمام ساحة الفردوس، كنت أملك تصوراً أني سأضطر إلى إيقاف سيارتي في مكان بعيد، وأكمل رحلتي سيراً على الأقدام.

كنت أتصور أن الطريق المؤدي إلى الفندق لابد أن يكون مقطوعاً بالمتاريس أو بما شابه. لقد تعرض المكان للقصف أمس. ولابد من حماية الصحفيين..

أو هكذا ظننت..

كنت مخطئاً مرّة أخرى.

لا متاريس، لا أكياس رمل، لا مسلحين في الشارع، لا شيء، أكثر من هذا كله وجدت مكاناً فارغاً أمام مدخل الفندق بالضبط؛ أوقفت سيارتي فيه. لبالغ دهشتي، لم يمنعني أحد، لم ينهرني أحد، ولم يصرخ في وجهي أحد.

وعندما ترجلت عن السيارة ـ وبيدي القميص المغلف ـ لم يسارع أحد لاعتقالي أو لاستجوابي ـ أو على الأقل ـ لأخذ هويتي.

لم يكن هناك أي من هؤلاء الذين تعودنا أن يقوموا بمهمات كهذه.

لا أحد.

دخلت إلى الحديقة من حيث يوجد باب صغير للاستعلامات، لم يكن في الاستعلامات أحد ليستجوبني، تلفتت يميناً ويساراً، في داخل الحديقة كان هناك عشرات من المراسلين وأجهزتهم وعرباتهم وصحونهم اللاقطة.

اقتربت من اثنين كان واضحاً عليهما أنهما عراقيان، وتصورت أن عليهما استجوابي

أو أن علي إخبارهما، إن لم أجد أحداً لاستجوابي، وقفت أمامهما بتردد وذكرت اسم قريب لي يعمل في مكتب الجزيرة وأنا واثق تماماً من عدم وجوده لأني كنت أعلم أنه(عالقٌ) في منزله.

بدت على وجهيهما الدهشة لأنهما فهما أني أطلب الإذن منهما، وأشارا إلى حيث يقف العاملون في الجزيرة، سألت عن ماهر بتحفظ. كانت لدي نظرة وتصور أن جميع المراسلين لديهم نظرة وتصور عمن يتحدث معهم أن عينه على هاتف الثريا الذي يحملون، من أجل إجراء مكالمة مع قريب له في الخارج، وذلك بعد أن قصفت جميع البدالات العاملة، وانقطعت كل وسائل الاتصال مع العالم، باستثناء هواتف الثريا التي يحملها المراسلون حصرياً حيث لا يحق لأي عراقي اقتناء هاتف ثريا.. وإلا .. أعدم..

وكنت أعلم أن المراسلين ـ لهذا السبب ـ يتعرضون لغير قليل من التطفل من أجل السماح باستخدام الهاتف، كنت أنا نفسي أكاد أموت من أجل مكالمتين خارجيتين : واحدة مع شقيقتي لأبلغها أننا لانزال أحياء. وأخرى مع صديقي لأرى إن كان لايزال حياً !! ـ لكني فكرت أن ذلك سيساء تفسيره، وستعتبر لمسة الحنان التي أحملها معي بمثابة رشوة من أجل الهاتف..

وحرصاً على صورة العراقي كنت مصراً على استبعاد ذلك ـ لم أكن أدري ماذا سيحل بالعراقي ولا بصورته، بعد ساعات من الآن، على بعد أمتار من هنا.

لذلك، عندما ردَّ تيسير علّوني على سلامي بترحاب و ود بالغين، رددت عليه بتقطيبة وجفاء مفادهما (إياك أن تتصور أني أريد هاتفك). وسألت عن ماهر كما لو كنت أنوي اغتياله حالاً.

أجابني أنه في الطابق الثاني..

كان من الواضح أن يقصد أن أذهب إليه هناك، وكان من الواضح أني لن أفعل ذلك. لن أتجاوز الخطوط الحمراء إلى هذه الدرجة.. ليسَ إلى درجة الدخول إلى الفندق..!

نعم، كان الأمر عميقاً فيَّ، فينا، إلى هذه الدرجة. أبواب الفندق مشرعة، لا رجال أمن (واضحون) للعيان. لكن الحاجز كان في داخلي أنا.. لن أدخل.. سأنتظر في الخارج..

في الخارج كان هناك بعض المراسلين (لوكالات أجنبية على الأغلب)، وهم يتهيؤون للمغادرة خوفاً من تكرار استهداف الصحفيين الذي حصل يوم أمس. سيخسرون

مشهداً سينمائياً قليل التكرار، سيدور بعد ساعات قلائل.

لم يطل انتظاري. بعد أقل من نصف ساعة، هبط ماهر، كان مألوفاً جداً بالنسبة لي إلى درجة أني استغربت أنه لم يعرفني ويتجه إليَّ فوراً. بدلاً من ذلك اتجهت أنا إليه، بادرته بالسلام، وقلت له شيئاً عن «القميص الوحيد المتبقي لديه».. كان لطيفاً و ودوداً وسريع البديهة، قال على الفور «فاتني أن أقول أنه البنطلون الوحيد المتبقي أيضاً»..

بعد ساعات قلائل، سيرى ويسمع الملايين في العالم ـ ربما عشرات الملايين، سرعة بديهة ماهر ودقته في انتقاء المفردات على ما سيحدث على بعد أمتار من هذا كله ـ في مشهد سينمائي نادر الحدوث والتكرار على مر الأزمنة.

وعندما درت بسيارتي حول ساحة الفردوس عائداً إلى البيت لم أكن أدري أن أنظار العالم أجمع كلها ستدور حول تلك الساحة، اليوم، بعد ساعات فقط، ولم أكن أدري، أن كاميرات كل الصحفيين، وشاشات كل الفضائيات، وأنظار كل المشاهدين، ستصوب على تلك الساحة ـ التي ستستحيل فجأة كما لو كانت مركزاً جديداً للكون، لم أكن أدري، أن ذلك الشيء المنصوب في الطرف الجنوبي من الساحة، والذي تعودت أن أتحاشى النظر إليه حتى لا تفيض مشاعر الكراهية من صدري إلى وجهي ويلاحظ أحد ذلك، لم أكن أدري أن ذلك الوثن، التمثال، سيكون له دور البطولة، في ذلك المشهد السينمائي الحاذق الذي سيضحكون فيه على أذقاننا.



كنت قد اعتبرت محظوظاً لأني لم أُعتقل أو حتى لم أُستجوب أثناء أدائي لتلك المهمة الخطيرة التي قمت بها.. لكن شيئاً ما كان يلح في ذهني.. أين ذهبوا ؟



عندما عدت إلى البيت لاحظت بقلق أن حراس المبنى المجاور والذي تحتله شركة أجنبية قد تركوا المكان.

وتذكرت ما حدث في صلاة الفجر في نفس اليوم خارج باب الحرم .

كان أبو داود ـ المؤذن ـ واقفاً مع مجموعة من الشباب لم أستطع تبيُّنهم بسبب الظلام الدامس، بعد قليل جاء وقال كالمعتذر عن تأخره في إقامة الصلاة : إنهم

مجموعة من الموقوفين في مبنى وزارة الداخلية، لقد تركها الجميع وجاء أحد رجال الأمن ليفتح لهم الأبواب عند منتصف الليل. قال لهم: لم يبق أحد فاذهبوا أنتم أيضاً.

لم يكونوا من بغداد، ولم يعرفوا أين هم بالضبط ولا أين يذهبون سمعوا صوت الأذان فعلموا أن هناك حياة، ودخلوا ليسألوا عن الطريق، كان الأمر كله مقلقاً جداً.. ومشوشاً جداً.

لم يطل الأمر، ساعات فقط، وسينجلي المزيج المتراكم من الظلم والاستبداد والفقر والإحباط والتمييز والقهر ـ ليكون باروداً متفجراً يطيح بكل المؤسسات المدنية المقامة على أسس هشة، ساعات فقط، وتسقط الأقنعة، وتنكشف الكذبة، وتزاح مساحيق التجميل والتمدن.

ساعات فقط، وسنكتشف أننا قد عدنا إلى عصر الجاهلية الأولى، والناس بدو رحل أغاروا على قافلة في الطريق، سلبوا بضائعها وانتهبوا ركابها، سبوا نساءها وأطفالها.

ساعات فقط، وسنكتشف أن في الأعماق لايزال رجل الكهوف قابعاً متربصاً، يترصد الفرصة المناسبة ليثبت أن هراوته أقوى من كل النظريات، وأن كهفه أمتن من كل البيوت الفارهة.

ساعات فقط، ويستيقظ مارد الجاهلية النائم، بلا قيم . بلا حلال. بلا حرام..

ساعات فقط، ونرى ذلك في الشوارع : مذهولين. مدهوشين. مرعوبين. أين كنا إذن؟. كيف لم نلاحظ ذلك المارد القابع؟. كيف لم نلاحظ ذلك المزيج الموشك على الانفجار؟. كيف لم ننتبه أن كل شيء يوشك على الانهيار ؟

ساعات فقط. ونرى ذلك. وترون ذلك. ويرى العالم أجمع ذلك.

أبكي في سري، عندما أذكر أني حرصت على أن أبدو متحفظاً أمام طاقم الجزيرة حتى لايتملكهم التصور أني أود إجراء مكالمة هاتفية.. (حرصاً على صورة العراقي..).

آه يا صورة العراقي.

فخلال ساعات فقط، ستلتقط أبشع صورة، أسوأ صورة، وأخشى أن أقول أنها ليست أكذب صورة. عن ذلك الشخص الذي سيروج على أنه «العراقي» ـ بالإطلاق المعتاد..

ساعات فقط ـ تفصلنا عن كل ما كان.

● ● ● ● ● ● ●

لم يكن في دخول قوات الغزو، من ذلك الحي الشرقي الفقير المكتظ بالسكان في بغداد ـ فائدة عسكرية مباشرة على ما أظن..

لكن كان هناك تكتيكاً وراء ذلك، كان هناك تخطيطاً واضح المعالم.

كان ذلك الحي، الذي يسكنه ربما مليونان ، يتكدسون بالعشرات في بيوت صغيرة الحجم، بالكاد تكفي لربع العدد من السكان، وخالية من أبسط الشروط الصحية ـ كان لديهم حس بالاضطهاد غذته ونمته ظروف اضطهاد حقيقية مروا بها وعانوا منها.

لم يكن هناك وعي؟ بالتأكيد. لم يكن هناك من يهتم بتوعيتهم، أو تربيتهم أو ترقية أوضاعهم.

كانوا قنبلة موقوتة ومعرضة للانفجار في أي وقت، ولم تكن هناك أي خطة لإبطالها، كانت الحلول دوماً تتراوح بين القمع والمزيد من القمع إلى الإبادة.

لم تكن هناك أي محاولة لتعميق الشعور بالمواطنة عندهم، لقد كان الوطن بالنسبة لهم تلك المفرمة التي سحقت مئات الألوف منهم في حروب حمقاء ولا معنى لها ، كان الوطن هو أداة التمييز التي طالما غصوا بها وخنقتهم : كان الوطن هو بيوتهم المظلمة وشوارعهم غير المبلطة والمليئة بالمياه الآسنة ـ مقابل بيوت فارهة في أحياء أخرى نظيفة وصحية و واسعة.

لم يكن هناك هدف عسكري مباشر واضح، استدعى أن تقتحم قوات الغزو ذلك الحي وتجول في أنحائه وشوارعه.

لكن، كان هناك تكتيك، خطة، ستؤدي إلى دمار يوازي إن لم يكن يفوق ذلك الدمار الذي أحدثه قصف الطائرات والصواريخ عابرة القارات.

قامت الدبابات بتدمير بعض رموز السلطة وأوثانها : صور وتماثيل وأنصاب، لذلك الذي استولى على الوطن وعلى كل شيء فيه، ـ تعرفون أن في كل تمثال، داخل كل تمثال توجد دبابة أمريكية مختبئة .

رأى الناس تلك الرموز وهي تدمر وهم غير مصدقين. كانت جاثمة على صدورهم وأذهانهم وبصائرهم وأبصارهم منذ ما يعتقدون أنه الأزل..

كانت تلك الرموز دعامة من دعامات انضباطهم ـ أساساً من أساسات حياتهم.. لم يكن هناك فهم للقانون إلا عبر العقوبة ـ وأقصى العقوبة..

ولم يكن هناك من تذكير بالعقوبة ـ بأقصى العقوبة ـ **إلا بصورة ذلك الرمز الجاثم على الأذهان والصدور.. تمثاله.. أو وثنه..**

وعندما رأوا الرمز وهو يدمر من قبل الدبابات الأمريكية، **تهاوى كل شيء في داخلهم..**

وانطلق ذلك الغول، استيقظ ذلك المارد الجاهلي : **السلاب النَّهاب ..، عاد ذلك البدوي قاطع الطريق، القادم من الجاهلية الأولى ـ من حيث لا حلال ولا حرام ـ تبادل سكان الكهوف صرخاتهم عبر الجبال، هاتوا هراواتكم واتبعونا..**

وانتشر ذلك بأسرع مما تتصور حتى واضعو تلك الخطة، انطلقت تلك الفئران التي حرموها من آدميتها لتصير وحوشاً كاسرة تعبث فساداً في كل مبنى أو مؤسسة حكومية، أمنية أو خدمية أو إدارية، لا فرق في ذلك بين مستشفى أو معتقل، بين وزارة أو مدرسة، بين قصر رئاسي فاره، أو متحف أومحض مركز للشركة.

انطلق كل أولئك المحرومين ـ محرومي الوعي والعقل والصواب والمواطنة قبل أن يكونوا محرومي الغذاء والكساء ـ انطلقوا ليدمروا ويسرقوا ويحرقوا.

لقد تحولوا ـ في محض ساعات ـ من سردين بشري مذعور ومحاصر داخل الجحور، إلى جرذان مفترسة تنافس غيلان الأساطير.

سيقول علماء الاجتماع أن الجرذ المفترس كان دوماً هناك، متجاهلين أنه إنما ينمو بالظلم.. بالقهر.. بالاستبداد.. بالإبادة.. ستقولون أنها محاولة بائسة لتبرير ما فعله هؤلاء؟ ستقولون أن لاشيء، مهما كان، يبرر ما فعله هؤلاء بوطنهم..؟

أقول لكن، عندما يعم البؤس والظلم ـ تصير الشعارات بائسة، ولا معنى لها.

إنني أقول هذا وأنا لا أؤمن به شخصياً، لكني لم أعش حياتي كما فعل هؤلاء في جحر مفرغ من الهواء والوعي، ولم أمر بتراكم الظلم والاضطهاد الذي مروا به.

من يدري ؟ ربما لو كنت نشأت هناك، ربما لو كنتم أنتم نشأتم هناك ـ حيث الفقر والجوع والعوز والجهل وغياب الوعي ـ لكنا عدنا إلى تلك الجاهلية الأولى، ـ كما فعل أولئك ـ حيث لا حلال ولا حرام.

أقول ذلك، كي أستطيع أن أرفع رأسي وأنظر في وسط أعينكم، دون أن أموت من خجلي..

❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂

هذا ما حدث!

بدأ الأمر من هناك، بذلك التكتيك الذي دغدغ الجاهلية الأولى المكبوتة، المتراكمة، التي انفجرت بلا وازع ولا ضابط.

انتشر أيضاً في كل مكان احتوى ذلك التناقض الصارخ، في كل مكان كان هناك مسحوقون ومحرومون ـ من الوعي كما من الغذاء.

انتشرت الجرذان المفترسة من كل مكان، في كل مكان.. لم يقتصر الأمر على طائفة، أو عرق، أو عشيرة، أو منطقة جغرافية محددة.

أبداً، يكذب من يقصُر ما حدث على أناس من منطقة محددة أو فئة محددة.

ويكذب أيضاً من يعمِّم، فيقول أن الكل فعلوا، والكل سرقوا، وسلبوا ونهبوا..

ويكذب ثالثاً من يقول: إن من قاد عمليات السلب والنهب جاء من خارج الحدود. (لم أرَ ذلك شخصياً، ولم أر أي شخص رأى ذلك..)

إنه الظلم أيها السادة، الاستبداد، والحرمان، والقهر.. والتمييز.. والفقر.. سيحدث ذلك في كل مكان من عواصمكم التي تتخيلونها آمنة، ومحافظة على تقاليدها وأخلاقياتها..

ولو كانت هناك عاصمة من عواصمكم، من مدنكم، خالية من تلك الطبقة المختبئة الكامنة التي تعاني من الضغط والقهر والاستبداد والتمييز.. فارموا بغداد بحجر .. والقموني بآخر.



رغم ذلك. أعترف، أن الأمر أكثر وأسوأ في بغداد منها في أي عاصمة أخرى.

الضغط أكبر في بغداد، القهر أكثر، الاستبداد أشد.

وأيضاً، لاأزال مصراً، **ولا أزال أعني ما أقول : التدين.. في بغداد أقل .. لأسباب مرّ ذكرها .**

بغداد هي الأسوأ حظاً، بين شقيقاتها العواصم الاخرى.

ولأنها الأسوأ حظاً، فقد بدت صورتها أسوأ، ذلك اليوم، والأيام التالية.

لكن، في كل مدينة من مدنكم، هناك شيء من بغداد.

فلا تتسرعوا بالحكم.

أنظر إليكم في وسط أعينكم وأحذركم من أن تتسرعوا بالحكم.



وكان هناك أيضاً اللصوص المحترفون ـ وقد أطلقهم النظام من سجونهم قبل الحرب بعدة أشهر في مبادرة عفو تقع في منطقة ما بين الغباء منقطع النظير والمؤامرة شديدة الذكاء.

وجد هؤلاء أنفسهم في مدينة هجرتها سلطاتها وشرطتها وقضاتها.. لديهم كل الخبرات. لديهم كل الدوافع..

ولا توجد ـ أبداً ـ أي روادع..

واختلط المحترفون بالهواة، والمجرمون والمنفلتون بالمكبوتين.. اختلطوا جميعاً وامتزجوا في ذلك المشهد المروع الذي شاهدتموه : العشرات وهم يدخلون مباني المؤسسات ويسلبون أثاثها ومحتوياتها، حتى البسيط التافه الذي لا قيمة له منها.

رأينا ذلك على الشاشات، غرقنا في عرق الخجل ..**أهؤلاء هم أبناء وطني؟ أهؤلاء هم العراقيون** ؟

أعترف : **عار الخجل كان حتى أشد وطأة من عارالاحتلال..**

شاهدتم ذلك كما شاهدناه نحن، لكن لم تشاهدونا عندما كنا نشاهد. لم تشاهدوا وجوهنا عندما ذللت، لم تشاهدونا نغرق في الخجل، ونتخبط في الخجل، ونموت اختناقاً في الخجل..

ولقد سمعنا تعليقاتكم ـ لن تصدقوا ذلك طبعاً ـ لكننا سمعناها، نقلت إلينا ليس عبر الأقمار الصناعية، ولكن بقوى أخرى، غير مرئية وغير معروفة، وسمعناها وهي تصرخ في آذاننا، تخرق أغشية طبلات آذاننا ـ تلك التعليقات الجارحة، تلك التعليقات الحارقة..

تذكرونها طبعاً.

ولن ننساها نحن.

حوالي الساعة الحادية عشر، من ذلك اليوم الذي بدا كما لو أنه لن ينتهي، بدأت القنوات الفضائية تنقل، بما أتصور أنه بثٌّ مباشرٌ، صور السلب والنهب والفوضى التي عمت في جانب الرصافة من بغداد ـ الجانب الذي أسكن فيه.

لا أدري أي قناة كانت السبَّاقة في ذلك، بالنسبة لي بدأ الأمر مع البي بي سي. لكن الجميع تسابقوا في نقل تلك الصور، لا غضاضة في ذلك، لا اشعر بأي رغبة في اتهام أحد، أو سب أحد، أو التعريض بأحد..

لقد حدث فعلاً، فكيف يحق لنا أن نؤاخذهم أنهم نقلوا ما حدث فعلاً، بل كيف يحق لهم أن لا ينقلوا ويصوروا ما حدث .

دعونا لا نهرب من مواجهة شيء، لم يعد ينفع. الهرب لم يعد ينفع. الرمل ـ ورؤوسنا فيه ـ لم يعد ينفع.

لقد حدث ذلك فعلاً، وليس من واجب هؤلاء الإعلاميين أن يفسروا أو يبرروا أو يحاولوا التخفيف علينا.

ليس من واجبهم أن يتركوا الحدث الساخن النادر الحصول، حيث العامة والدهماء تسلب وتنهب ولا تستتر ولاتبالي بأن صورها تظهر على الشاشات في كل مكان.

ليس من واجبهم أن يتركوا المهرجان هناك، ويأتوا إلى بيوتنا ليصورونا قائلين **«انظروا إلى هؤلاء إنهم عراقيون أيضاً، لكنهم جالسون في بيوتهم، لا يجرؤون حتى على الخروج، إنهم لا يسرقون ويستنكرون ما يحدث. بل إنهم خجلون مما يحدث. انظروا إليهم، هؤلاء هم العراقيون الحقيقيون».**

هراء ، ما كان ذلك ليحدث، ولو حدث لكان مجاملة لا أكثر.

لقد حدث فعلاً هذا الذي شاهدتموه، رغم أن الأغلبية المكممة، كانت قد قفلت على نفسها في البيوت وهي لا تكاد تصدق ما يدور.

لكنه دار حقاً..

❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂

ثلاث صور ـ مبكرة جداً من صور السلب والنهب التي اجتاحت بغداد ـ لا أظنني سأنساها أبداً.

التقطت كلها في مبنى اللجنة الأولمبية ـ غير بعيد عن منزلي ـ أو ربما وزارة الداخلية المجاورة للمبنى الأول.

كانت الصورة الأولى لشخص شديد القبح، شديد الدمامة، أقول ذلك رغم أنه ـ ربما ـ لا يعني شيئاً محدداً.

لكنه كان قبيحاً جداً، شخص ممتلئ، شديد السمرة، كان يسرق سيارة من السيارات الحكومية المركونة في المرآب. لم يحاول أن يوقف التصوير، أو يخفي وجهه، أو يضع يده على عدسة الكاميرا، أبداً، لم يحاول ذلك، لم يكن ذلك في باله أبداً، وبدلاً من أن يهرب من الكاميرا ويحاول إخفاء هويته، بدا أكثر قبحاً ووقاحة عندما واجه الشاشة ليعلن ـ على طريقته ترحيبه بالغزاة.. أنه يسرق سيارات الحكومة.. كان يصرخ، ويكرر، ويحرك يديه بحماسة : نحن U.S.A ، نحن U.S.A ، نحن . U.S.A

لا أشك لحظة واحدة أنه من أولئك المحترفين، أولئك الذين أطلقهم النظام إما بغباء منقطع النظير أو بمؤامرة شديدة الخبث.

ولا أشك لحظة واحدة ايضاً، أنه كان محقاً فيما قال، عن كونه U.S.A، نعم، هو وأمثاله، المجرمون المحترفون، أصحاب السوابق واللواحق، ينتمون إلى الـ U.S.A، وإن لم يعلموا، وإن لم يعلنوا، وإن لم يشاهدوها أو يطؤوا بأقدامهم أراضيها.

إنه محق، إنه U.S.A في الجوهر ..**لأن جوهر تلك الحضارة كان مبنياً على سلب ونهب ما للغير، وإبادتهم.. تكرر ذلك كله بصور مختلفة ـ عبر تاريخها كله..**

نعم. إنه محق جداً. إنه U.S.A .

حتى لو كان شديد القبح. بعيداً تماماً عن الشقرة الأمريكية

إنه U.S.A !



في المرآب نفسه، صورة ثانية ـ **مبكرة أيضاً** ـ حوالي الساعة الحادية عشر.

شخص ما، تافه المظهر، تافه المنظر، وأراهن أنه تافه المضمون، في المرآب حيث **تقف** تلك السيارات الحكومية التي تتعرض للسرقة، لا تشك لحظة واحدة في أنه هنا لا ليحميها ولا ليتفرج عليها ـ **ولكن ليأخذ ما يعتقد أنه «حقه» منها..**

مع ذلك، وجد ذلك الشخص الهزيل الوقت ليلتفت إلى الكاميرا التي تصوره وهو يسرق، ويقول بالإنكليزية، ربما الكلمة الوحيدة التي يتقنها NO ـ **ويتبعها باسم الطاغية..**

ويكرر ذلك.

يكرر ذلك ـ **سوف يتحول تكراره هذا إلى فاصل في «الجزيرة»** .

سوف نتأمله.. ونتأمل تلك الـ NO التي يكررها.

إنه واحد من المصفقين دوماً، إنه واحد من المهللين دوماً. إنه من الألوف الذين **كانوا يهتفون ويقفزون للطاغية عندما كان في قوته.**

«لاءه» التي يكررها الآن ليست **«لا»** حقيقية ـ **إنها وجهها الآخر دائماً** ـ إنها **«نعم»** للمنتصر أياً كان **«نعم»** للغالب مهما كان.

إنها **«نعم»** الجاهزة على الدوام، الكامنة على الدوام ـ **الثابتة على الدوام** ـ الذي يتغير فقط هو الكلمة التي تليها.. تستبدل دوماً حسب نتائج الصراع، حسب نتائج المعركة.

وتلك الـ **«نعم»** توجه دوماً للمنتصر.



الصورة الثالثة، لم تكن في مرآب اللجنة الأولمبية، بل أمام بابها الخارجي المطل على شارع فلسطين.

كانت الصورة لرجل متقدم في السن، سيعرف لاحقاً أنه **«أبو تحسين»** .. كان يحمل في يده صورة كبيرة للطاغية. لا أدري من أين أتى بها، في يده الأخرى كان يحمل حذاءه.. ويهوي به على الصورة بحرقة. بمرارة. بحقد دفين لاحدود له، وآن له، الآن فقط، وعبر الحذاء أن ينفس عن نفسه.

«لو تعلمون ماذا فعل بنا هذا يا ناس» «لو تعلمون ماذا فعل بأولادنا» .

«لو تعلمون ماذا فعل بالعراق..» .

ليس سوى الحذاء، يا أبا تحسين، ليس سوى الحذاء في يدك، تهوي به على صورة الطاغية.

سيظل أبو تحسين واقفاً هناك، لن يدخل، لن يسرق، لن يسلب أو ينهب، سيمر به السلاّبون والنهابون، سيدخلون ويخرجون، في أيديهم المسروقات، وفي يد أبي تحسين الحذاء يظل يهوي به على الصورة.

تتأمل، وتفكر من ؟ من يا أبا تحسين ؟ هل أعدم تحسين ؟ أم لعله عم تحسين ؟ أو لعله خال تحسين.

ستهز رأسك بتفهم. نعم. لابد أنه واحد منهم. أو ربما كلهم أجمعون..

لست في سلة واحدة، يا أبا تحسين، مع أولئك السَّراق، حتى لو بدوت معهم في صورة واحدة. لكنك لست منهم.

ظل أبو تحسين مكانه، كل القنوات صورته، وظهر على كافة الشاشات هو وحذاؤه يهوي به على الصورة. كان مصراً على ذلك، حاول أحد السّراق العابرين أن يمزق الصورة ـ لكنه انتفض وسحبها.. **كان يريدها كاملة. كان يريد الصورة الكاملة**؛ ليمعن بها ضرباً وإهانة.

صوته غطى الشاشات .«**لو تعلمون.. لو تعلمون ماذا فعل بنا..**» في صوته كان الصدق ولاشيء غيره. كان يختزن في حنجرته ذاكرة شعب كامل عانى من الظلم والقهر والاستعباد والاستبداد.

«**لو تعلمون..**» ظل يصيح !

لو تعلم أنت، يا أبا تحسين، أن معظم العراقيين كانوا يودون أن يفعلوا ما فعلت.. لكنهم أحجموا عن ذلك ـ **رغم أن عمق الجرح في داخلهم مساو لعمق الجرح في داخلك** ـ ربما لم يفعلوا ذلك لأنهم وجدوا أنفسهم محرجين أن يفعلوا ذلك تحت ذات المظلة التي سلطت الطاغية عليهم ودفعته لأن يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم.

لا ملامة، يا أبا تحسين، لا ملامة، لست أنت منهم ـ **رغم أنك بدوت في الصورة معهم.**



في ذات الوقت تقريباً، سمعت صوت كثيف لنيران متبادلة، فيما بدا أنه مكان قريب جداً.

هل هو صوت مقاومة يا ترى ؟ هل حاول الغزاة اقتحام مكان ما، وفاجأهم كمين ما؟

سألت . وصدمني الجواب.

لا ، ليس الغزاة، لكنها مقاومة أيضاً ، بطريقة ما.

إنهم الموظفون والحراس في وزارتَي التربية والتعليم المجاورتين، يقاومون اللصوص ، يطلقون النار عليهم وقد تدفقوا من كل مكان.

بعد قليل، ربع ساعة لا أكثر ، ستخبو النيران، لن تسمع صوتها ، لأول مرّة سيبدو صوت النيران أكثر إشعاراً للآمان من الصمت الذي تلاها.. الصمت سيقول لك : **انتهى.. لقد قضي الأمر .**

تذكرت المركز الذي أعمل فيه، كنت قد أُجبرت على عدم الذهاب منذ ثلاثة أيام ـ منذ وصل الغزاة إلى السيدية..

تذكرت الأجهزة الحديثة غالية الثمن، وتذكرت الملفات والسجلات التي أرهقت نفسي و وقتي ومالي في إعدادها ـ **تذكرت كتبي الخاصة، الملقاة هناك..**

تذكرت، كما تذكر ربما كل موظف في الدولة العراقية، أن المؤسسات والدوائر الحكومية التي نعمل فيها، هي بيوتنا أيضاً ـ **بطريقة أو بأخرى، وكما معظمهم ـ تذكرت ذلك** ـ دون أن أفعل شيئاً.

نعم، لقد ذهبت لأنام؛ هل تصدقون ذلك ؟

ليس النوم ترفاً، إنه في أحيان كثيرة، هروب، دفن آخر لرأس آخر، في نفس الرمال..

لقد هربت من الصمت، من العار، هربت من تلك الصور المتلاحقة، هربت من شعوري بالخجل.

هربت ؟ لقد لذت بالفرار .

⊛ ⊛ ⊛ ⊛ ⊛ ⊛ ⊛

عندما استيقظت، حوالي الرابعة عصراً، هرولت لأشغل المولد الكهربائي، لأعرف ماذا يدور.

عندما فتحت التلفاز، على الجزيرة طبعاً، كان هناك على الشاشة ذلك المشهد الذي أُعدت أدواته بدقة وحذق، لقد قصف الغزاة مكاتب الصحفيين المتفرقة أمس من أجل

هذا المشهد، من أجل أن يأتوا جميعاً إلى هنا، بالذات، وليس مهماً من يموت من يموت، وأن يتيتَّم من يتيتم، ليس مهماً إن سالت دماء، أو دموع.. المهم فقط أن يتم المشهد بإرشادات المخرج الأمريكي.

ساحة الفردوس أمام فندق فلسطين، بالضبط حيث كنت صباحاً ..**من أجل القميص !**

في المشهد كان هناك الجنود الأمريكان ودباباتهم وقد انتشروا في محيط الفندق والساحة، وكانوا يتصرفون كما لو أنهم قد فتحوا عكا ـ رغم عدم وجود أي قطعات عسكرية، أي متاريس، أي أكياس رمل حتى.

ورغم أن المسافة بين المكان الذي «**فتحوه**» ـ **والمكان الذي كانوا فيه أمس** ـ عند جسر الجمهورية، هي مسافة بسيطة جداً، وأستطيع اجتيازها ركضاً ـ **رغم كرشي ـ في عشر دقائق.**

كانت المسافة قصيرة، وخالية من أي مظاهر عسكرية، مع ذلك انتظر الغزاة يوماً كاملاً قبل أن يقتحموا المكان.

كانوا يريدون أن يتجمع الصحفيون والمراسلون كلهم هنا، في هذا المكان، كانوا يريدون من كل الشاشات ـ **في العالم** ـ أن تتوحد لتنقل صورة واحدة موحدة.

كنتم أنتم الهدف في ذلك كله. أكثر مما كنا نحن . كانوا يريدونكم أنتم ـ **كانوا يقصدون إذلالكم أنتم، لقد أسرونا وأذلونا وانتهى الأمر** ـ لكن هذا المشهد كان يستهدف إذلالكم أنتم ـ **طيلة الأسابيع الثلاثة الماضية كانت عيونكم مصوبة نحونا، كانت قلوبكم مصوبة نحونا، كانت دعواتكم، وآمالكم وأحلامكم تنصب علينا** ـ لم تكونوا تتوقعون النصر المطلق طبعاً ـ **لكنكم، مثلنا تماماً، كنتم** ـ على الأقل تودون رؤية الوحش الكاسر وقد كُسر صلفُه، وتحطم أنفه.

كنتم قد حلقتم عالياً عندما رأيتم المقاومة، وكبرتم عندما سقطت طائرة، وهلَّلتم عندما طلب الغزاة المزيد من الإمدادات، وبدا عليهم الترنح والتخبط لعدة مرّات.

كان لديكم أمل بأنه ثمة أمل.

وحتى ذلك كان كثيراً على ما يبدو. ويجب ـ **حسب الخطة** ـ أن لا يكون لديكم أي شيء منه.

لقد خفقت قلوبكم عندما رأيتم نقطة ـ **مجرد نقطة على الحدود** ـ تصمد لمدة **أسبوعين**، وانتشيتم عندما رأيتم البصرة تقاوم، **والناصرية تضمد جراحها وتظل تحارب .**

صار لديكم **خلال الثلاثة أسابيع الماضية أحلامٌ**، وآمالٌ ، وتوقعات.. وصلتم **إلى قمة** عالية،.. وحبستم أنفاسكم ترقباً، عندما وصل الغزاة إلى بغداد ـ **وصلتم أنتم إلى أعلى نقطة من الترقب** : لقد صمدت نقطة الحدود ولقنت الغزاة درساً، لابد أن بغداد ـ **بغداد !** ـ ستقاوم أكثر، وستلقى الغزاة درساً أكبر..

وحبستم أنفاسكم..

حسناً .**إليكم الآن هذا المشهد. وكلما كانت القمة التي وصلتم إليها مرتفعة أكثر، كلما كان ارتطامكم أشد إيلاماً.. وأكثر إيذاءً..**

إليكم هذا المشهد. سيحبطكم مئة عام أو أكثر.

إليكم هذا المشهد. إنه معد بإتقان من أجلكم وأجل آمالكم .

جمعوا الصحفيين والمراسلين هنا، وجمعوكم أنتم حول الشاشات، وانتظروا حتى الساعة الرابعة عصراً ـ **الواحدة بتوقيت غرينتش** ـ حيث عدتم جميعاً من أماكن عملكم وكلياتكم ومدارسكم، إلى بيوتكم، ولم تخرجوا بعد منها.

نعم.. جمعوكم من أجل هذا المشهد، فراقبوه جيداً.

افتحوا عيونكم جيداً، واستسلموا للمشهد، ولحقائق المشهد. هل قلتم أن لديكم أمل ؟ هل قلتم أن لديكم حلم ؟

هذا المشهد سيتكفل بكم : مرّة واحدة وإلى الأبد.

انظُروا ما ستفعله بغداد الآن. بغدادكم. بغداد عاصمة خلافتكم، بغداد الرشيد والمأمون.

انظروا إليها جيداً. الحقيقة هي ماترون لا ما تسمعون، وما سترون هو هذا المشهد الذي يغطي كل الشاشات، كل القنوات.

انظروا إلى ما سيفعله العراقيون، هؤلاء هم. هؤلاء هم الذين وضعتم آمالكم عليهم. فانظروا إليهم جيداً.

وموتوا بعدها لألف عام .

كان هناك في الساحة بعض العراقيين، ظهروا فجأة لا أدري من أين.

أود كثيراً لو أصدق أنهم ليسوا عراقيين؛ أود لو أصدق أنهم مجرد كومبارس مأجورين من أجل متطلبات المشهد، مثل أولئك الأطفال المغاربة الذين أُجّروا من قبل البريطانيين من أجل أن يقوموا بدور أطفال عراقيين وهم يلوحون بأيديهم للمحررين.

أود لو أصدق أنهم جاؤوا أصلاً مع قوات الغزو ـ عراقيون أو غير عراقيون ـ كما هو شائع ومتداول كمسكن للألم يتناوله الذين يؤلمهم ما حصل.

أتمنى لو أستطيع تناوله أنا أيضاً، أصدق و أنهي الأمر.. ..

أصدق أنهم عراقيون، وأسجل تحفظي فقط على تجمعهم هناك، المنطقة ليست سكنية أصلاً، والكثافة السكانية فيها ـ مساءاً ـ قليلة أصلاً حتى في الأوقات العادية. فكيف والوقت حرب ؟ وكيف وقد كانت المنطقة خالية صباحاً ؟

من أين جاء هؤلاء ؟ كيف علموا بما يدور وجاؤوا ؟ لا أدري.. المهم أنهم جاؤوا، ههنا إلى ساحة الفردوس في قلب بغداد.

في طرف الساحة نصب، تمثال، قلت لكم أني طالما تحاشيت النظر إليه.. وأقول لكم الآن أني قبل شهر واحد فقط ـ شهر واحد بالضبط ـ ـ ٣/٩ ـ وقفت أنا وبعض الأصدقاء والتقطنا الصور هناك في الساحة، كنا حريصين تماماً على أن لايظهر التمثال في الصور. لم يكن يمثل بالنسبة لنا إلا كل ما نكره، كل ما نريد أن نتحاشى، كل ما نريد أن نزيل، ونحطم..

لكن أبداً أبداً ليس تحت مظلة الغزاة .

وعندما ظهرت الصور، بدت ساحة الفردوس بلا ذلك التمثال، بلا ذلك الوثن، كما هي عقولنا، كما هي قلوبنا.

كانت الحرب على وشك البدء ـ بدأت بعدها بعشرة أيام وكل ذلك الضغط النفسي الذي مارسته الحرب الإعلامية كان هدفه أن ننزلق جميعاً ـ وقد انزلق البعض فعلاً ـ إلى واحد من خيارين : إما إلى جانب التمثال، الوثن، صنم الطاغية المنصوب في كل مكان. وإما إلى جانب الغزاة..

نعم، كانوا هم، يروجون لخيار كهذا، من أجل أن ينتصر خيار الغزاة على الخيار الآخر..

وكان هو، أيضاً، الطاغية وتمثاله، يروج لخيار مماثل، **يختلط فيه الوثن بالوطن،** والتمثال بالعراق، من أجل أن ينتصر خيار الوطن ـ **المشوش بالصنم** ـ على خيار الغزاة.. كانا معا يسيران بخط واحد ـ **باتجاه واحد**، اتجاه يشغلنا عن خيار ثالث ـ **خيار آخر .**

لا غزاة ولا طغاة.

خيار يتجه نحو الوطن.

للأسف، كثيرون وقعوا في المطب وتصوروا الخيار محصوراً بين ذلك التمثال القبيح ـ **وبين أولئك الغزاة القبيحين..**

وكثيرون تحرجوا من الاختيار عندما رأوه كذلك، وفضلوا الانتظار السلبي، على الاختيار المر.

البعض انجر إلى الدفاع عن الوثن ـ **متصوراً أنه يدافع عن الوطن.**

والبعض سقط إلى جانب الغزاة مهاجماً الوثن ـ **جاهلاً، أو متجاهلاً أو لا مبالياً ـ أنه** سيخسر الوطن.

هذه هي حقيقة المشهد.. يوم السقوط..

أغلبية صامتة، مكممة، سالبة، تفضل الانتظار على الاختيار.. متجنبة عبء الاختبار؛ **لأنها تعرف أن خيارها الأصلي والحقيقي غير مطروح..**

وأقلية جاهلة ـ **خلطت بين الوطن والوثن تماماً، واندفعت تدافع عن التمثال ـ الصنم.**

وأقلية جاهلة أخرى، أقر أنها أكبر عدداً من سابقتها، كانت قد اختارت أولئك الذين نصبوا الوثن وسلطوه، واختاروا الآن لسبب أو لآخر أن يزيحوه، أو يستبدلوه..

على هذه الأقلية، التي أشدد أني لا أدري كيف علم بعض أفرادها وجاؤوا إلى ساحة الفردوس على هؤلاء ستركز العدسات وتصوب الأنظار.. يوم السقوط، وسيقولون لكم، معممين : **هؤلاء العراقيون .**

❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂

كان من المفترض، حسب السيناريو المرسوم بدقة، أن الصورة ستغني عن التعليق..

وكان من المفترض أن يكون السيناريو صامتاً. **فقط بعض الهتافات التشجيعية من**

الكومبارس ـ الأجير أو المتطوع ـ .. (لا فرق كبير في النهاية..).

وإذا كان لابد من تعليق، فلابد أن يكون على نمط التعليق على مباريات البيسبول الأمريكية، مجرد تشجيع..

لكن، كان لابد للجزيرة، أن تشاغب.. كعادتها..



يقال أن الصحفيين ساديون بالفطرة.

أقول، خصوصاً إذا كانوا من «الجزيرة».

وعلى تفاصيل ذلك المشهد، انطلق ماهر ليعلق، بسادية مفرطة الحنان، مفرطة الفهم، مفرطة الهدوء.

انطلق ماهر، وصوته يعمل كمعول هدم، لا، بل كحفَّار يغوص في أعماقك، ينكأ الجروح، ينكش الوساوس.. ويعرضها عليك في عمق عينيك ـ **في عين الشمس** ـ **في قلب** العراء.

كان ذلك المشهد سريالياً جداً، غريباً جداً، مليئاً بالرموز والدلالات.. وكان ماهر يعمل كمرشد سياحي، يفسر، ويؤرخ، وينظر.

كان سادياً بالفطرة.

وسادياً بالخبرة.



في تفاصيل السيناريو، يقوم أفراد من الكومبارس (**الأجير أو المتطوع، قلنا لا فرق**) بتسلق ذلك التمثال، لغرض تحطيمه، أو لغرض آخر غير معروف بعد.

الهدف من هذا التفصيل هنا، هو أن تعلموا أنتم، كم هم أغبياء العراقيون.

إنهم يحاولون تسلق التمثال الشاهق الارتفاع ـ **الذي من الواضح تماماً أنهم لن يستطيعوا تسلقه .**

ـ لكن سيأتي الحل من الغزاة.. بالصدفة ! ـ

كان عندهم بالصدفة طبعاً - **ولاشيء غير الصدفة** - سلماً عالياً ليتسلق عليه أولئك العراقيون الذين لايعرفون ماذا يفعلون .

- ماذا كانوا سيفعلون لولا أمريكا ؟ - وحده الله يعلم - لكن ماذا يفعل هذا السلم عند الأفراد الأوائل من قوات الغزو ؟

أوه ! لعلهم فكروا أنهم سيحتاجونه في هذا العمل أو ذاك، ربما فكروا أنهم سيبدؤوا بإصلاح أعمدة النور المعطوبة فور دخولهم إلى بغداد، **أو ربما تصوروا أنهم سيجدون قطاً، أو كلباً أو طفلاً - في أسوء الحالات** - عالقاً في الطابق الثالث من عمارة ما، وسيساعدهم السلم هذا على إنقاذه.

نعم، هذه هي الأغراض التي من أجلها يوجد سلَّم مع تلك الكتيبة التي اقتحمت وسط بغداد.

ربما لهم فيه مآرب أخرى ؟

نعم، ربما، لكن لا تسرحوا بعيداً في خيالاتكم التآمرية، التقليدية. تفرجوا فقط وكونوا مهذبين وتستطيعون أن تخفضوا الصوت إذا كان ماهر يشوش عليكم بتعليقاته.

السلَّم إذن، من تلك الدبابة التي ستبدوا فجأة مثل قبعة الساحر فيها كل ما يحتاجه المرء عندما يكون في قلب مشهد سينمائي كهذا .

يتسلق على السلم اثنان من العراقيين، ثم يكملان تسلقهما - **بالصعود واحد فوق الآخر - وصولاً إلى القمة** - إلى الهاوية، إلى أدنى درجة في أدنى درك في الهاوية.

رأس الطاغية ... !

ستحبسون أنفاسكم ترقباً، كما لو كنتم تشاهدون فلماً من أفلام السيرك، في اللحظة الحاسمة. عندما يتعلق اللاعبان ببعضهما البعض - **عند ذلك الحبل الرفيع** - والأُسُود تحت قد فتحت أفواهها.

لكن، لماذا نترقب ؟ ماذا عساه أن يحدث ؟ وماذا سيفعل هؤلاء وأيديهم عزلاء.

سيقول هذا ماهر ما لن تنساه، رغم قسوته، ستصادق على قوله، ستهز برأسك موافقاً.

سيقول، بطريقة أقسى ما فيها برودها، بسادية أذكى ما فيها هدوءها، بطريقة عادية تماماً.. عن هؤلاء المتعلقين بعنق الصنم، إنهما **الآن وحالاً لو مرَّ الطاغية بشحمه ولحمه** أمامهما، أمام الحشود، لهتفا له ونا ديا بحياته، وأكدا، عبر الهتافات والأهازيج، أنهما سيفديانه.. بالروح .. وبالدم .

كان ذلك صحيحاً إلى حد بعيد جداً، إنها النفسية التي نعرفها جيداً، والتي خبرناها جيداً، إنها نفسية التصفيق لكل منتصر، ونفسية الهتاف لكل غالب، نفسية النعيق مع كل ناعق.

لكن الطاغية لم يمر، لا بشحمه ولا بلحمه، ولا بظله، **لم يكن ذلك جزءاً من خطة السيناريو المرسوم بدقة .**

لكن السيناريو كان يتجه باتجاه آخر.

ففي اللحظة الحاسمة، عندما وصل واحد من المتسلقين إلى رأس التمثال، وحبسَ المشاهدون من أمثالكم أنفاسهم ترقباً لما سيحدث، ستمتد يد من أيدي الجنود الغزاة، وهي تحمل العلم الأمريكي، هناك قريباً من رأس الطاغية.

و وضعها على رأس التمثال... !

سيذهلك المشهد، قد يبهرك، قد يجرحك، قد يصدمك، وقد يسيل دموعك..!

لكن، عندما يلتف رأس الطاغية، بذلك العلم الأمريكي، ويقف الصنم مشدوداً قائماً وقد غطى العلم الأمريكي ملامح وجهه، ستفهم للمرَّة الأولى، الحقيقة في كل ما جرى.

ستفهم ـ ربما ـ للمرَّة الأولى، أن كل تلك الوجوه التي ارتداها الطاغية لم تكن سوى أقنعة، وأنه للمرة الأولى يستعيد وجهه الحقيقي الذي لم تظن قط أنك ستراه بهذه الصراحة. بهذا الوضوح.

كان الأمر دوماً مجرد تحليل، مجرد استنتاج، مجرد خبر متسلل من وثيقة استخباراتية هنا أو هناك.

أما الآن، فالأمر صريح وواضح، وها هو الطاغية يرتدي هويته الأصلية، ويظهر بوجهه الحقيقي ـ **بعيداً عن كل الأقنعة.. بعيداً عن كل الشعارات..** ستكون لحظات دهرية خاصة، لحظات تكشف الحجب الحقائق والأسرار.

ستتذكر، أن تقاليد الغزاة في مراسيم دفن قتلاهم وشهدائهم تقضي بأن يلتفوا بالعلم الأمريكي.

وستحاول أن تذكر، هل رأيت مرَّة أخرى، أحداً آخراً، يلتف بالعلم الأمريكي، **ما** لم يكن عسكرياً أمريكياً قضى حياته في خدمة ذلك العلم ؟

أبداً، إنها طريقتهم في التعامل باحترام وتوقير وتبجيل مع موتاهم، مع شهدائهم..

لماذا العلم يلف تمثال الطاغية إذن ؟

لا غرابة، **إنه شهيدهم أيضاً بطريقة ما، ولم يحدث قط أن خدم هذا العلم جنرال، كما فعل هذا الطاغية.. لقد أوصلهم إلى هنا، إلى قلب بغداد، إلى عاصمة الخلافة، حيث تنظرون، حيث كنتم تنتظرون.**

لكنه لم يمت بعد، لماذا يعاملونه كشهيد ؟

نعم، إنه شهيد أيضاً بطريقة ما **.لقد انتهى دوره بعدما وصلوا إلى هنا. من الصعب جداً أن يجدوا له دوراً آخر في السيناريو.**

لقد انتهى ، احترق، وريثما يجدون له تصريفاً مناسباً، سيعاملونه ـ **أمامكم، أمام أعينكم، واثقين من غبائكم** ـ كشهيد.

لكن لحظات فقط.

بعدها ، ستمتد يد لتزيل العلم الأمريكي، إنهم يعرفون حساسيتكم المفرطة من الأعلام، يعرفون أهميتها بالنسبة لكم، إنكم مولعون بإحراقها في التظاهرات ومن ثم تقومون بسحقها بأقدامكم كما لو كنتم تصدقون أنكم سحقتم الدول التي تمثلها.

نعم، الأعلام مهمة بالنسبة لكم؛ ولا داعي لرفع العلم الأمريكي الآن، لقد جاؤوا محررين لا محتلين كما تعلمون ـ **وهذا العلم المرفوع قد يشوه ويشوش على هذه المعلومة، فلا داعي له.**

سيقولون عن رفع العلم الأمريكي فوق التمثال، إنه خطأ غير مقصود ـ **كما قالوا سابقاً عندما صرحوا أنها «حرب صليبية»** ـ أنهم واثقون أنكم طيبون وستصدقون تفسيراتهم بأنها مجرد زلة لسان، بأنه مجرد خطأ غير مقصود، في الحقيقة إنهم واثقون أكثر بأنكم لا تقرؤون ولا تفهمون ولا تعلمون أن زلات اللسان ـ **والأخطاء غير المقصودة ـ هي في حقيقتها** دلالات نفسية داخلية شديدة العمق، شديدة العمد، وشديدة الصراحة.

إنه خطأ غير مقصود، لكن لا بأس أن تفهموا، إن فهمتم، وأن تعوا، إن وعيتم، إنه العصر الجديد وقد جاء إليكم ـ !وأن عصر الطغاة المستبدين ربما يكون قد انتهى، ولكن عصراً آخر، **هو عصر الاستبداد الأمريكي قد جاء**، وهذا ـ **للحظات** ـ صنمه.. ورمزه.. وتمثاله..

للحظات سيبدو التمثال ـ بوجهه الجديد ـ الحقيقي، وهو يتحدث إليكم، يقول لكم، **أنا أمريكا، أنا ربكم الأعلى..**

للحظات فقط. تكفيكم أن تفهموا ، إذا كنتم ستفهمون.



وإذا لم تفهموا وقتها، فلديكم متسع من الوقت لتفهموا

(أعماركم كلها..)

أزيل العلم الأمريكي إذن..

وأنت غارقٌ في الدهشة، سيخرج واحد من المتسلقين العراقيين علماً عراقياً، من جيبه، وسط التصفيق والتهليل الجماهيري.

حسناً ! ستتفهم أن يحمل الغزاة علمهم عندما يقتحمون عاصمة ما، لقد حملوه معهم حتى عندما وصلوا القمر، وعملوا على أداء بعض الخدع من أجل أن يبدو كما لو كان يرفرف هناك ـ **مع العلم أن لا هواء في القمر كان سيجعله يرفرف** ـ لكن ضرورات جماهيرية سينمائية جعلت العلم الأمريكي يرفرف بشدة على القمر.

نفهم ذلك.

لكن ماذا يفعل العلم العراقي، بنسخته القديمة، في جيب هذا المواطن العراقي، الذي يفترض أنه جاء بطريقة عفوية إلى هنا ؟

علم بلادك قد يكون في قلبك، في عقلك، قد يكون في ضميرك وفي دفاتر أولادك. لكن أن يكون في جيبك ؟ وبنسخته القديمة التي مضى عليها أكثر من عشر سنوات ؟

إنه أمر لم يحدث معي، ولا معكم، على ما أظن.

لكن دعونا نصدق أنه قد حدث. وأن هناك هذا المواطن وقد خرج ليتمشى من منزله، ربما بعدما شرب الشاي، عصر ذلك اليوم، وفي تلك الحالة شديدة الحرج من الناحية الأمنية، وقبل أن يخرج، تذكر أن يضع ذلك العلم ـ **بنسخته القديمة** ـ في جيبه ..**لعله ينفع..**

هل تصدق ذلك ؟ ولـم لا؟ مصادفات كهذهِ تحدث في الحياة. كما تحدث في الأفلام الهندية، والأفلام العربية، وأيضاً في الأفلام الأمريكية، **وحياتنا اليوم فيلم أمريكي. فلم لا نصدق؟**

هل تشمون رائحة مؤامرة ما؟ أوه، بالتأكيد .**المشكلة في أنوفكم**. أنها تشم المؤامرة في كل شيء، تشم المؤامرة خلف كل حدث، وماذا لو كان هذا المواطن لديه بالصدفة علم في جيبه، وبالصدفة كان هذا العلم بالنسخة القديمة ـ **دونما تلك الإضافة التي أضافها الطاغية قبل أكثر من عشر سنوات**.. لا تصدقون ذلك. تلك مشكلتكم وسواء صدقتم، أو لا ، فهذا ما يحدث.

ماذا ؟هل تقولون أن وسائل الإعلام نقلت صورة واحد من هؤلاء المتسلقين ـ و هو يقف كحارس شخصي لواحد من زعماء المعارضة الذين وصلوا العراق قبل يومين فقط..؟

أنتم متطرفون و تتابعون وسائل إعلام متطرفة.

تقولون إنها السي. إن. إن و ليست الجزيرة؟

السي إن إن متطرفة أيضاً. وأنتم لا فائدة منكم. شاهدوا و أنتم ساكتون.

ها هو العلم العراقي، بنسخته القديمة، يعلو تمثال الطاغية

لا. ليس يعلو بالضبط. لسبب ما، لن يغطي العلم وجه الطاغية، **فقط يلتف حول عنقه، بارتخاء.**

سيعلق ماهر عن كون العلم يبدو كما لو كان ربطة عنق !

سيبدو الأمر هزلياً. الشهيد الأمريكي وقد ارتدى العراق، كربطةٍ في عنقه..

بعدها سيحاول المتسلقون، أن يربطوا ذراع التمثال، وجزء من جذعه بحبال ـ **لا تدري أي صدفة جلبتها لهم** ـ وسيحاولون جادين.. سحب التمثال..

سيستغرق ذلك وقتاً غير قصير. سيتكالبون ، عراقيون على الأغلب، على السحب والربط.. دون جدوى..

سيأتي صوت ماهر ليعلق على نواحي الركاكة والضعف في محاولات الإسقاط اليائسة..

ستنقل الشاشات ذلك بكل تفاصيله، انظروا إلى العراقيين، إنهم غير واقعيين. غير ملمين بالحقائق. إنهم خياليون. غير مدركين لحجم إمكانياتهم ولا لحجم العوائق التي تواجههم.

إنهم جاهلون، يتصورون أن بإمكانهم إزاحة ذلك التمثال الضخم ـ **هائل الحجم** ـ المثبت على منصة عملاقة، بمحض أيديهم.. بمحض حبال مهترئة ـ **لابد من مساعدتهم. لابد من القيام عنهم بأعمالهم بدلاً منهم..**

ستشاهدون ذلك. وستشهدون على ذلك.

العراقيون لايمكنهم فعل شيء. لابد لأحد أن يساعدهم.

وستأتي تلك الرافعة العملاقة ـ **الأمريكية طبعاً** ـ خارجة من نفس الدبابة القادرة على أداء كل الحيل السينمائية، لتقوم بما فشل به أولئك الفاشلون ..

هل تشككون بتلك الدبابة و بطريقة مجيئها ؟ ـ أي صدفة جلبتها في تلك الساعة، مع تلك الكتيبة التي يفترض أنها كانت ستواجه بمقاومة عسكرية ضارية ؟

لا تزالون ترون المؤامرة في كل مكان ؟! ابقوا كما أنتم ! ابقوا بهذهِ العقلية ! أنتم أيضاً فاشلون، أنتم أيضاً أغبياء، لا أمل فيكم ـ لا جدوى منكم، كفوا عن التساؤل والتفكير وتفرجوا على ما تشاهدون ولا تفسدوا هذا المشهد نادر الحدوث والسيناريو المرسوم بدقة.

سيقول هنا ماهر، شيئاً دامياً، شيئاً سادياً مروعاً، سيقول، والرافعة الأمريكية تكاد تنجز في لحظات، ما عجز عنه العراقيون في عقود .

«يبدو أن العراقيين لم يفشلوا في إسقاط الطاغية وحسب. ولكنهم فشلوا حتى في إسقاط تمثاله، واحتاجوا إلى الأمريكين حتى في إزاحة تمثاله».. صحيح يا ماهر. صحيح. ما قلته، رغم ساديته، رغم صلفه، رغم ما يبدو أنه وقاحة، لكنه صحيح.

ولكن، آه يا ماهر لو تعلم. آه، لو تعلم ـ **وربما كنت تعلم** ـ كيف حصل هذا الفشل، وكم جرَّ هذا الفشل، وكم دفع العراقيون ثمناً لهذا الفشل.. آه، يا ماهر **..لعلك كنت تعلم**.. أو لعلك لا تعلم.. لكن ذلك الفشل في إزاحة الطاغية كان دوماً ـ **بطريقة أو بأخرى** ـ لأنهم هم أنفسهم، الذين يزيلونه الآن، **قاموا بحمايته..**

آه يا ماهر، هل ستصدق ؟ هم الذين زرعوه، وقووه وأسندوه.. هذا الصنم هم الذين

نصبوه - وراقبوه من بعيد وهو يدمر البلاد و يستعبد العباد..

ثم، لسبب أو لآخر، قرروا أن يزيحوه، فأزاحوه، ودمروا البلاد واستعبدوا **العباد** في خضم ذلك.

لكنك محق يا ماهر، أنت محق، لقد فشلنا في الإزاحة. الطاغية كذلك.. وتمثاله..

وها نحن مقبلون على دفع ثمن باهظ لهذا الفشل.

في لحظات، كانت تلك الرافعة تنجز العمل.

لن يسقط التمثال. بل سينكسر قرب ساقيه. وسيبدو مجوفاً من الداخل. لن يدهشك ذلك أبداً. لقد كنت تعلم دوماً أنه فارغ من الداخل وأنه هش رغم صلابته المظهرية.

وبينما ستسحب الرافعة جثة التمثال، والجماهير ستنفس عن مشاعرها عبره.

سينبهك ماهر إلى شيء ربما لم تنتبه له بقية الكاميرات.

سينتبه إلى الساقين الغاطستين في المنصة، وسيقول شيئاً سادياً - **كالعادة** - سيقول، ربما **ستكون جذور الطاغية عميقة في الإسمنت العراقي**...!

إنه ماهر فعلاً، هذا الماهر، ماهر في انتقاء الكلمات، في نكش الجروح، في تعرية السيناريو المرسوم بدقة، كما في الأفلام.

إنه ماهر حتى في انتقائه للصمت، عندما يكون الصمت كلام.

لن يجاري مهارته في الكلام. إلا مهارته. . **في الصمت** ...!



لكنك مع ذلك مخطئ، يا ماهر.

جذور الطاغية لن تكون عميقة في الإسمنت العراقي - **كما تتصور**، إنها في الحقيقة، عميقة فيما هو أعمق بكثير من مجرد الإسمنت.

جذور الطاغية - **هي جذور أي طاغية سابق ولاحق** - هي جذور الطغيان والاستبداد العميقة عبر العصور، العريقة عبر القرون.

جذور الطاغية يا ماهر، هي نفسها دوماً، جوهرها على الأقل **ثابت دوماً، تتغير التفاصيل تتجدد** الأساليب، لكن الطغيان يبقى محتفظاً بثوابته.. **بجوهره.**

تستطيع أن تسأل بغداد عن ذلك يا ماهر، إنها خبيرة في ذلك، تاريخها كله يحكي ذلك، لا تصدق أبداً أنه كان هناك عهد بلا طغيان. لا. فقط كانت هناك عهود ..**تبدو بالمقارنة مع سابقاتها أو لاحقاتها أقل طغياناً..**

ولعلك لاتعرف، يا ماهر، أننا نحن الذين نصنع من طغاتنا ما هم عليه من طغيان.

إنهم يبدؤون عادة طغاة صغار، لن أنكر أنهم مؤهلون لذلك. لكن طغيانهم يكبر عندما يواجهون خنوعنا، خضوعنا، استسلامنا وسلبيتنا.

نعم. ليس الطغيان قصة استفراد الطغاة بشعوبهم فقط ـ **لكنه أيضاً قصة استسلام الشعوب لذلك.**

تلك هي المعادلة يا ماهر.

وتلك هي القصة التي تكررت على مر العصور في تاريخنا، إياك أن تتصورها حكراً على بغداد، إياك أن تتصورها حكراً على اسم الطاغية.

إنها ثابت شديد التكرار. إنها عامل مشترك أكبر.

وبغداد ـ عاصمة الخلافة ـ كانت مجرد رمز لكل وكل ذلك ـ **تمر به كل المدن، من المحيط إلى الخليج** ـ من الجرح إلى الجرح.. من الوريد إلى الوريد..

ليس الإسمنت العراقي فحسب، ولكن إسمنت التاريخ الذي ورثناه، إسمنت المفاهيم المتراكمة البالية التي أوصلتنا إلى ما وصلنا إليه:

إسمنت الإرث العريض من السلاطين ووعاظهم وفتاويهم ومنابرهم وجرائمهم المبررة طبعاً بفتاوي الاستبداد.

إسمنت الكرب والبلاء.

إسمنت طاعة أولي الأمر مهما كانوا، إسمنت الدعاء لأولي الأمر. مهما كانوا. إسمنت الدعاء للسلطان الغالب. والدعاء على السلطان المغلوب.

إسمنت التصفيق للمنتصر. والسحل للمهزوم.

إسمنت الألقاب الرنانة : **من ظل الله على الارض، إلى الحاكم بأمره، إلى الملك المفدى، إلى الزعيم الأوحد، إلى القائد الضرورة..**

إنه الإسمنت القابع في نفسياتنا جميعاً، إنه موجود فيك، كما هو موجود في، كما

موجود في المشاهدين ـ **أولئك الذين صدقوا الوثن وآمنوا به، و أولئك الذين آمنوا أن لن يزيحه إلا الغزاة..**

الجذور فينا جميعاً يا ماهر ..**عميقة فينا، عريقة فينا، وهو أمر لن يغيره إلا شيء في داخلنا. شيء ينبع من أعماقنا. شيء يفهم تاريخنا ويفقه تعقيدات تضاريسنا...!**

إنه شيء، لن تستطيع دبابة ـ **حتى لو كانت أمريكية** ـ أن تفعله، هذا إذا افترضنا جدلاً أنها تستطيع أن تفعله..

إنه شيء علينا أن نواجهه بأنفسنا.. ونتحمل نتائجه بأنفسنا..

ولا شيء غير هذا..



سقط التمثال ؟

فإلى الجحيم إذن، إلى أسفل درك في غياهب الجحيم، مصحوباً بلعناتنا، مصحوباً بأسوء دعواتنا.

كل ما فعلته من سوء، ياسيدي الطاغية، ـ **وكل أفعالك سيئة بالمناسبة** ـ كان في كفة، لكن ما فعلته الآن، عندما سلمتنا، كان في كفة أخرى.

الناس، ياسيدي الطاغية، في بلدك ـ **أقصد البلد الذي تحكمت بمصائر ناسه واستعبدتهم لعقود** ـ ناس طيبون، لقد تعودوا المغفرة، تعودوا النسيان، تعودوا التعود على الطغيان.

أكثر من ذلك، وقد تعتبر جنابك أن تلك بلاهة ما بعدها بلاهة، أنهم تعودوا أن يترحموا على طغاة ليست في قلوبهم قطرة رحمة، وأنهم تعودوا أن يبكوا على طغاة طالما أبكوهم.

ناسك ياسيدي الطاغية، وأنت لم تتسنى لك أي فرصة لتعرفهم ـ **كانوا مستعدين دوماً لأن يغفروا لك** ـ ولسواك من الطغاة، لقد تعودوا على ذلك، تقولبوا على ذلك، جُبلوا على ذلك.

كان يمكن لرعاياك أن يغفروا ثراءك الفاحش، رغم فقرهم المدقع، **كانوا سيقولون إنها هيبة الدولة**، وهيبة مسؤولي الدولة.

وكان يمكن لرعاياك أن يغضوا النظر ولو بصعوبة عن قوافل المعدومين .. **المظلومين.**

أولئك الذين اختطفتهم زبانيتك وأودعوهم قاعات التعذيب ومن ثم ساحات الإعدام. أحياناً، من أجل لا شيء، فقط من أجل أنهم ـ **ربما** ـ ضحكوا على نكتة تمس قداستك.

نعم، رعاياك كان يمكن أن يغضوا البصر ـ **ولو بصعوبة** ـ عن ذلك، كان هناك من سيغص .. ويتجرع العلقم.. ويقول .. إنها سياسة دولة..

رعاياك كان يمكن أن يتظاهروا أنهم نسوا تلك المقابر الجماعية ـ **وحروب الإبادة التي مارستها ضدهم** ـ كانوا سيفضلون الستر، كانوا سيجزون على أسنانهم ويختارون الستر.

نعم، كان يمكن لرعاياك أن يبرروا كل فظائعك وأخطائك، كل حماقاتك.. حتى حروبك الحمقاء التي دفع الملايين حياتهم ثمناً لها، ستجد من رعاياك، بالذات من المكتوين بنارها ـ من يقول إنها ظروف دولية جرتك إلى ما فعلت، وأنه فخ نصبوه لك.. إلخ .. إلخ..

كل شيء. كان رعاياك مستعدين لتبرير كل شيء.

لكن الشيء الذي فعلته، هو أنك أوغلت في كل شيء، إلى أن أوصلت شعبك إلى ما وصلوا إليه.

الشيء الذي لن تنساه الرعية، ولن تغفره الرعية ـ **أبداً** ـ أنك أوصلتها، أوصلت بعضها على الأقل إلى الترحيب بالغزاة.

الشيء الذي لن ينساه الشعب، أبداً، أنك ـ **أنت** ـ أنت وليس غيرك.. من أوصل الغزاة إلى هنا ..**قلب بغداد**.. ساحة الفردوس.

كل شيء في كفة.

وهذا في كفة أخرى .

ولا توازن .

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

بالمناسبة، قل لي ياسيدي الطاغية، بكم، ياترى، بعتنا ؟ بكم يا ترى بعت الرعية ؟

بعتنا بنجاتك ؟ بعتنا بحياتك ؟ بقصر في مشتى سويسري فاره. أم بجزيرة غامضة استوائية الملامح ؟

بكم بعت شعبك الطيب المسكين، شعبك الذي أوصلته إلى ما وصل إليه، شعبك الذي أبدت واستعبدت وأذللت ـ أظنك ستشتاق إليه ـ بكم بعته ؟

بأرصدةٍ سرية ما، في بنك ما ـ في دولةٍ ما ؟

أم بكل تلك الوثائق، والسكوت عما فيها ؟

لا أدري....!

ولا أظنك إلا قد بعتنا بثمن ما .(**بثمن بخس. دراهم معدودة**) .

ولا أدري كيف أمِنت لهم ؟

أعني كيف أمنت من غدرهم، وأنت سيد العارفين، وأنت سيد الغادرين، هل غدر بك ذكاؤك وتصورت أنهم سيتركون دليلاً ما على جريمتهم ؟

أبداً، في تفصيل من تفاصيل الخطة، سيغدرون بك، وسيتخلصون منك ـ **دون أن يجعلوك شهيداً**، لن يمنحوك هذا الشرف، إنهم يعلمون أن رعيتك الطيبة الساذجة تقدس الشهداء، لذلك لن يمنحوك هذا الشرف..

بطريقة ما سيتخلصون منك.

ريثما يحدث هذا، أقول لك : **تباً لك..، و لتمثالك.**

ولكن أيضاً، **تباً لنا..، لأننا خضعنا لأمثالك.**



عندما سقط التمثال، وانتشر خبر سقوطه في المدينة، سقطت معه كل هيبة لسلطة أو قانون أو حتى عُرْف..

كان هناك ذلك الترابط المتعاقب الذي رسخ لعقود سابقة في نفوس الجماهير، القانون هو العقوبة ـ والعقوبة هي ذلك الرجل الذي حكم بالحديد والنار ـ وتمثاله رمز لسلطته الجاثمة على الصدور والأذهان..

وما أن سقط التمثال، حتى انهارت معه توابعه.. لا عقوبة.. إذن لا قانون..

سقط التمثال، وسقطت معه المدينة في وحل السلب والنهب، تفتقت الجدران والشقوق والأنفاق عن ألوف الجرذان وهي تفترس كل شيء في المدينة ـ **كل شيء..**

انطلقت الجرذان الآدمية لتنهب وتسلب وتحرق كل ما تصل إليه، لم يبق حجر على حجر في مبنى أو مؤسسة أو منشأة حكومية ـ **لا فرق ذلك بين مستشفى أو مدرسة أو وزارة..** لا فرق في الأشياء المسلوبة بين ما خف حمله وغلا ثمنه وبين ما ثقل حمله ولم يكن له أي ثمن أو قيمة.

ساعات تلو ساعات، ابتداء من ذلك اليوم، والمباني تتعرى من أثاثها، من أجهزتها الكهربائية، من سجادها، ثم من سقوفها الثانوية، من الزجاج، من النوافذ، من الأسلاك الكهربائية، من مواسير المياه، حتى من الحديد في الأساس.

هل تتصورون أني بالغت عندما قلت لم يبق حجر على حجر ؟. أبداً. بعض المباني سرق حتى الحجر؛ حتى البلاط؛ حتى حديد الأساس، بعض المباني تمر أمامها ولا تعرفها، تقف وتحاول أن تتذكر، ماذا كان هناك، عبثاً، ليس سوى ذلك الهيكل المتداعي وقد تعرى من جدرانه وأثاثه ونوافذه.

وبعض المباني، التي نجت من القصف والتدمير، حرقت مراراً وتكراراً حتى انهارت تماماً كما لو كانت قد قصفت بأشد أنواع الصواريخ تدميراً.

ولقد فتح الغزاة أفواههم فاغرين من الدهشة. لم يتوقعوا ذلك. أو أنهم توقعوه ولكن ليسَ إلى هذهِ الدرجة. كانوا يريدون مشاهد سينمائية تسوق نصرهم وتروج ذلنا ـ **وتحبطكم بالمرة** ـ لكننا أعطيناهم ما أرادوا وأكثر بكثير، لم يصدقوا أننا نفعل ما نفعل، وقفوا مصدومين، مصعوقين..، هل يحدث هذا حقاً ؟.. هل نعطيهم هذه المشاهد ليسوقوها، ويروجوها ويذلوكم ويحبطوكم بها.. هؤلاء هم العراقيون إذن، هؤلاء هم المسلمون إذن، فليأت الكل ليتفرج، فليأت الكل ليتقزز، هل هناك من أحد لايزال عنده **أمل**، هل هناك من أحد لا يزال لم يرفع الراية البيضاء، إنهم لم يهزموا فقط، ولم **يرحبوا فقط**، ولكن انظروا إلى ما يفعلون.

وستطيب لهم الهدية التي منحناهم إياها، وسيعلمون إذن على تكريسها وتطويرها. **ربما** لم يكن السلب والنهب في خطتهم الأساسية، لكنهم قاموا بتعديلها، وصار السلب والنهب أساساً في الخطة، صاروا يقومون ـ **بمدرعاتهم** ـ **بتحطيم** أبواب **المؤسسات التي**

لم تطالها أيدي السلب والنهب ويتركونها مفتوحة لتدخل الجرذان الآدمية وتقرض **كل** شيء فيها.

وقال من قال منهم ـ **من كبار مسؤوليهم** ـ إن العراقيين إنما يعبرون عن فرحتهم بسقوط الطاغية ـ **وكانوا يريدون أن يكرسوا تلك الصورة التي روجت عنا : إنما العراقيون يعبرون عن أنفسهم ـ عن حقيقتهم** ـ عن بعدهم عن أي تحضُّر، أي تخلق، أي تدين.

و وقفنا نحن أيضاً، فاغري الأفواه، مدهوشين، ونحن لا نكاد نصدق ما يدور، لا أقول إننا لم نكن قد توقعنا ما حدث، لكن أبداً أبداً ليس إلى هذا المدى من الانحطاط.

سنغرق مرة بعد مرة في خجلنا، لن نعرف بأي شيء نداريه، بأي تراب ندفن أنفسنا، سنغلق على أنفسنا الأبواب، واحدة تلو الأخرى، وسنغلق النوافذ، ونسدل الستائر، لا نريد أن نرى أحداً، لا نريد لأحد أن يرانا، لا نريد أن نسمع ما يدور في الخارج، ولا نريد أن نرى ما يدور، نريد أن تسدل أجفاننا على عيوننا ـ **ولا نفتح أبداً، أبداً.**

نشك بالجميع، وربما الجميع يشك بنا أيضاً، كل شيء ينقلب رأساً على عقب، عدة مرات، لا مقياس واضح في رؤية الأمور. بعض أفقر الفقراء ينأون بأنفسهم عن أخذ أتفه الأشياء، وبعض أغنى الأغنياء يصدمونك بأنهم لايستترون من سرقة أتفه الأشياء ـ **جهاراً ونهاراً** ـ أمام عينيك.. أمام أعين الجميع ..**أمام الله.**

لا تفهم لماذا، لاتفهم كيف، لا تفهم لماذا وصلنا إلى هذا الدرك، و لن يفيد الفهم بكل الأحوال. لن تنجح نظريات علم الاجتماع ولا فلسفات علم النفس التي ستفسح لتفسير الظاهرة، **في التخفيف عن كاهلك** في التخفيف من خجلك.

وعندما ستسمع للمرة الأولى شخصاً يقولها ـ **صراحة** ـ إنه يخجل لأنه عراقي، ستؤلمك جرأته وصراحته، ستؤلمك الكلمة كسكين في خاصرتك. كموس جارح عالق في قصباتك.

سيؤلمك أكثر أنك تشعر بهذا الذي يشعر به، لكن يؤلمك أن تقوله.

وعندما ستسمع ثانياً وثالثاً من يقولها ستصاب بردة فعل عكسية من هذا الخجل

ـ **لماذا نخجل** ـ إذا كنا لم نسرق، وإذا كان كل أقربائنا وأصدقائنا وكل الذين نعرفهم ـ **لم يسرقوا**.. فلماذا الخجل ؟

ستسأل نفسك، **إذا كانت أنت نفسك قد سقطت في التعميم**، وشعرت بالخجل من

كونك عراقي، فماذا عن الآخرين، في الخارج، أولئك الذين تكون عقولهم تلك الشاشات.. وعلى تلك الشاشات صور أبناء شعبك، وهم يفرغون المؤسسات من كراسيها، من بلاطها، من كل متاع فيها، على الشاشة صور حتى النسوة، من المحجبات وباللباس التقليدي، وهن يحملن ما سرقنه من أجهزة.

إذا كنت قد سقطت في هذا الفخ الذي نصبته الشاشات، وشعرت بالخجل، فماذا يشعر به الآخرون نحوك غير الاحتقار ؟



صباح الاحتلال الأول : تجربة لا أتمنى لأحد أن يمر بها.

صباح الاحتلال الأول، تفتح عينيك على ما تتمنى أن يكون كابوساً وانتهى، تفتح عينيك وأنت تتذكر حوادث الأمس و تتمنى أنها كلها لم تحدث، كلها كانت مجرد كابوس وانتهى بمجرد أن تفتح عينيك، أو تتمنى لو أنها حدثت و لكن بطريقة أخرى. للأسف لا ، ستنتظر أن يصحح دماغك ما تشعر به، ويقول لك : لقد كان مجرد كابوس.

أبداً، لاأحد يصحح لك شيئاً، إنه حقاً صباح الاحتلال الأول، ماذا ستفعل ؟ هل ستقول : صباح الخير أيها الاحتلال ؟

ربما ستغلق عينيك من جديد، ترغب في النوم مرّة أخرى ـ ترغب في الهروب وتعطي فرصة لأن يكون كل شيء قد تغير عندما تفتح عينيك مجدداً. قد تنجح في النوم ـ **لكن ستفشل في الهروب : وعندما تفتح عينيك، ستجد الاحتلال لايزال جاثماً**، ستجده لايزال قائماً، ولم يستفد من تلك الفرصة التي منحته إياها.

نعم. إنه الاحتلال . وبلدك بلدٌ محتل . وأنت تنتمي لشعب محتل .

وهذا هو يومك الأول فيه، تستطيع أن تعد الأيام إن شئت.

ولعل العد سيطول .

ستقول لنفسك لا ، لعله لن يطول، لعلهم لن يطيلوا البقاء، ويخرجون، وينتهي هذا الكابوس.

ستهمس نفسك لنفسك، لعل سكان القدس قالوا لأنفسهم شيئاً كهذا ـ **في صباح الاحتلال الأول** ـ الذي مرّوا به ـ **ثم انظر إليهم، لايزالون يعدُّون الأيام حتى اليوم.**

سيؤلمك هذا الربط بين بغداد والقدس، سيجعلك تشعر بأنه ليس من أمل، ليس من جدوى، سيزيد من إحباطك إحباطاً ويأساً.

« وأيضاً ستشعر بالخجل من طرف خفي.. لم يتصرف أبداً سكان القدس كما تصرف بعض سكان» .

ستحاول النهوض. سيدهشك كم هو صعب الأمر، سيدهشك كم تحتاج من جهد، هل زاد وزنك؟ أبداً. لقد خف، لقد أصبحت بلا وزن ولا قيمة، إنما الثقل من تلك الأغلال والسلاسل التي تقيدك من قدميك، من ساقيك، كفيك، من أذنيك.. حتى من عينيك..

ستكون محبطاً ولن تقوى حتى على سماع الأخبار، ستشعر أن الأمر انتهى، انتهى. وأن سماعك الأخبار لن ينفع ـ **فضلاً عن أن تجد خبراً يهمك أو يثير حماستك أو أي نبض من حياة في عروقك.**

لن تتوقع ـ أبداً ـ أن يظهر على الشاشة المذيع ليعتذر عن الخطأ الذي حدث أمس، **«ولقد اتضح أن بغداد لم تسقط بعد»** ..

بل سقطت .. سقطت .. سقطت..

يقولون لي، أن أشغل المولد الكهربائي، من أجل مشاهدة الأخبار، أتساءل: أي أخبار ؟ أي خبر سيكون مهماً بعد سقوط بغداد .؟

يردون عليَّ بأن الأعظمية لم تسقط بعد، وماذا عساها أن تفعل الأعظمية يا ترى ؟ وماذا عساها أن تفعل غير بعض الإطلاقات هنا أو هناك، يُرد عليها بأحسن منها.. ثم ينتهي الأمر.

لقد انتهى الأمر.

إنه الاحتلال، وهذا هو صباحه الأول.

صباح اليأس أيها الاحتلال، صباح الإحباط، صباح الغثيان أيها الاحتلال المرير.



أشغل المولد الكهربائي، يدهشني أنني أحتاج إلى مولد يبث الكهرباء في داخلي أكثر بكثير مما تحتاج الأسلاك الميتة، أحتاج إلى الطاقة، إلى الوقود، أحتاج إلى شيء يبعث الروح في داخلي.

أتساءل مع نفسي إذا كنت قد مت ولم ينتبه أحد للأمر، أتساءل إذا كنا قد متنا جميعاً ـ **دون أن ننتبه جميعاً للأمر.**

لاشيء في الأخبار، لا شيء غير التكرار والإعادة والصقل، لاشيء يقول شيئاً جديداً. أو حتى شيئاً غير جديد.

بلى . هناك شيء جديد.

كانت معظم القنوات التي خصصت مساحات أوقاتها لمتابعة أخبار الحرب، تضع، على طرف شاشاتها ما يشبه المفكرة الصغيرة، تستبدل رقماً كل يوم، يزيد طبعاً، مع مسير الأيام.

اليوم، صباح أول يوم من الاحتلال ـ **اختفت هذه المفكرات، من طرف تلك الشاشات، في دلالة رمزية،** على أن كل شيء انتهى. انتهى.

نعم. لا مفكرة بعد اليوم على طرف الشاشات التي تتابع..

لكن هناك مفكرة أخرى، ستنتصب على طرف حياتك، سترتسم على جانب روحك.. ستزيد أرقامها يوماً بعد آخر..

ستؤرخ للاحتلال، وهذا هو صباحه الأول.

❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂

كانت بعض القنوات، المصرية خصوصاً، تبث أغانٍ وطنية، بعضها قديمة ومألوفة ونحبها منذ عهود طفولتنا الغابرة، بعضها رافقتنا في رحلة الحلم والكابوس والأمل واليأس والصعود والانهيار والانتصار والانكسار.

رافقتنا تلك الأناشيد في رحلاتنا المدرسية. وفي صفوفنا، **في مقاعدنا المدرسية، في دفاترنا، وفي أقلامنا الملونة** ، وفي الساحة عندما يرتفع العلم. (آه .. العلم ..) .

رافقتنا تلك الأغاني في تكويننا، بل ساهمت في تشكيلنا، في خلق جزء من وعينا، **من ذهننا**، من ذلك الشيء المعقد الغامض المركب الذي يسمونه : **حب الوطن..**

تواجهك تلك الأغاني في صباح الاحتلال الأول، تصدمك، أمس لم تقدر على البكاء. كنت لاتزال غير مصدق، والذي لايصدق لا يقدر على البكاء.

ومن ثم كنت محبطاً وميتاً ـ **والموتى لايقوون على البكاء .**

تتقدم تلك الأغاني بوخزة صغيرة، تفجر في داخلك كل المخزون من البكاء، من الإجهاش بالبكاء.. من النحيب.

ترى طفلاً صغيراً يجوب في تلك الأغاني، تتأمله بدهشة : **إنه أنت.** نعم، هذا أنت في طفولتك : غضاً بريئاً لم تثقل كاهله الهموم بعد. لم يُشل والده بعد. لم يتلوث بعد.

ولم يعرف بعد، لم يعرف بعد.

تحاول أن تمسكه، تحاول أن تلحقه وهو يتراكض داخل طرقات المدرسة وباحاتها مع أقرانه، تحاول أن تتكلم معه، ماذا ستقول له يا ترى ؟ هل ستخبره عما حدث أمس؟ هل ستخبره أنه يومك الأول في الاحتلال ؟ هل ستحذره ؟ هل ستنصحه ؟ هل ستقول له أن لا يحفظ تلك الأغاني جيداً، **ولا يحبها، ولا يتعلق بها**، حتى لا تفعل به ما فعلته بي عندما اكتسحتني في الصباح الأول للاحتلال.

هل ستخبره أن لا يصّدق، حتى يكون الألم ـ **على الأقل** ـ أقل..، هل ستخبره أن لا يحلق عالياً، حتى يكون ارتطامه بالأرض ـ **عندما يسقط** ـ أقل إيذاءاً.. هل ستنصحه أن يبحث له عن بلد آخر و جواز سفر آخر و تراب آخر يدس نفسه فيه **وينسى ..و ينسى ..ينسى**

لكن لا. لا أعتقد أنك ستقول له أي شيء من هذا . لن تقدر لن تقدر على الكلام. ربما، إذا أمسكته، ستحتضنه، ستحاول الاختباء داخله.. ستحاول الاختفاء داخل براءته وصفائه ونقاء سريرته.. وستجهش بالبكاء..

كما أفعل أنا ، الآن..

❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂

من بين الأغاني، ذلك الصباح الأول للاحتلال، كانت هناك أغنية واحدة أمعنت في تعذيبنا، أمعنت في نكش جروحنا، في إيقاظ دموعنا، من بين كل تلك الأغاني، هناك واحدة أمسكت بتلابيبنا، ألقت القبض علينا، تلبستنا وألبستنا القيود.

من بين كل تلك الأغاني هناك واحدة مرغتنا في الوحل، مرغتنا في البكاء، واجهتنا بكل الحقائق المرَّة التي كنا نهرب منها، واجهتنا بحقيقة ما انتهينا إليه، ما ألنا إليه.

واجهتنا بالحقيقة التي نحن عليها، منذ أشرقت الشمس على صباح أول يوم للاحتلال : **مجرد سبايا، مجرد عبيد رخيص وبائر، مجرد رقيق سيتناقله النخاسون في الأسواق، ويقلبه**

المشترون دونما اهتمام، دونما احترام، دونما أدنى رغبة في الشراء، فقط للفرجة.

تلك الأغنية، لا أظن مؤلفها ـ تصور يوم كتبها ـ ربما في الأربعينات أو قبل ـ أن الأمور ستؤول إلى ما آلت إليه، وأننا سننتهي إلى هذا البكاء المرير، على تلك الأغنية بالذات، بعد حوالي ستين أو سبعين عاماً من تأليفها.



حاولت أن أغني مع الأغنية، لكني فشلت، فشلت في إخراج صوتي من حنجرتي، فشلت حتى في إيجاد حنجرتي ..لم يكن في داخلي غير الدموع، .. ولم يكن عندي سوى يدي أخفي بهما دموعي، حفاظاً ـ أمام أولادي ـ على بقايا كرامة لأب مهزوم، لوطن مهزوم، لأمة مهزومة.

كان النشيج خافتاً، ولم يكن من الممكن خفضه أكثر أو التحكم به. كان لا إرادياً، عميقاً، جماعياً..

كان النشيج متناغماً ـ إلى حد عجيب ـ مع ذلك النشيد، كان صوت البكاء يعمل على خلفية ذلك النشيد.. على نفس إيقاعاته.

وجدت صوتاً في داخلي يغني بكلمات الأغنية، لم أكن متأكداً أنه صوتي، ربما نعم وربما لا، ربما كان صوتي القديم وأنا طفل أو صوتي المستقبلي وأنا كهل، المهم أنه كان صوتاً أسمعه بوضوح، وكان يقول، ببطء، تلك الكلمات الموجعة المؤلمة التي تؤلف نسيج الأغنية..

موطني.. موطني..

الجلال والجمال والسناء والبهاء في رباك..

والحياة والنجاة والهناء والرجاء في هواك

هل أراك ؟.. في علاك.. سالماً منعماً وغانماً مكرماً..

هل أراك في علاك : تبلغ السماك.. تبلغ السماك

هل أراك ؟.

موطني ...موطني

الشباب لن يكل.. همه أن يستقلَّ أو يبيد..

أو يبيد أو يبيد

نستقي من الردى ولن نكون للعدا

كالعبيـد ..

كالعبيـد ..

موطني ... موطني .. ..

لا نريد، لا نريد .. ذلنا المؤبدا و عيشنا المنكدا ..

لا نريد .. بل نعيـد ..

مجدنا التليد ، مجدنا التليد، موطني . .

موطني ... موطني..

الذي حصل شيء لن تتصوروه، ولن تفهموه، الغرفة تغطس في سحابة من النشيج والنحيب. ونحن لا نملك، لهذا الذي نبكي من أجله ـ **موطني** ـ غير هذا النشيج. هذا الإجهاش بالبكاء.

لن تفهموا هذا الذي أحسسنا به، والذي مررنا به، إلا إذا اجتزتم ما اجتزناه.

إلا إذا سمعتم تلك الأغنية، موطني، صباح اليوم الأول لاحتلال موطنكم.



لن أنسى منظر خالتي، تلك الساعة.

كانت قد جست على أرض ـ **أمر لم تكن تفعله كثيراً**.. ـ كانت غارقة في النحيب ـ **مثلنا جميعاً** ـ لم أرها أبداً على هذهِ الحالة، لا عندما مات والدها ولا في أي مناسبة حزينة أخرى.

«**بالتأكيد لم أرها، في حالة مشابهة ـ فهذا هو أول يوم في الاحتلال**» .

كان حجمها كله قد تقلص، انكمش فجأة، زادت التجاعيد في وجهها السبعيني، تساءلت مع نفسي إن كان الأمر نفسه قد حدث لي، وإن كنت سأذهب للمرآة لأشاهد كهلاً في السبعين من عمره.

كانت خالتي جالسة على الأرض، وقد أسندت ظهرها إلى الحائط، كقروية ذبحوا

ابنها للتو، أمام عينيها.. كمحكوم بالإعدام، أسندوه إلى الحائط، وأعدموا كل زملائه.. وتركوه ينتظر دوره إمعاناً في تعذيبه.

كانت خالتي تقول دوماً إنها لاتخاف الموت، كانت تقول ذلك منذ عرفتها **(وقد عرفتها منذ فترة طويلة، فهي خالتي..)**، كانت مولعة بذكر عمرها ـ **للدلالة على الخبرة التي خاضتها، أو للتذكير بأنها اكتفت من كل شيء** ـ بل إنها كانت تذكر عمرها اعتماداً على ميلادها بالتقويم الهجري، والذي يمنحها ثلاث سنوات إضافية، بسبب الفرق بين التقويمين.

ذلك الصباح، بدت خالتي أنها لم تكتف، بدت أنها تريد شيئاً واحداً، بين دموعها، بين نحيبها، سمعتها تقول بحسرة، إنها **لا تعتقد أن في عمرها متسعاً لتراهم وهم يخرجون.**



سأكون كاذباً كبيراً لو قلت: إن الكل تعاملوا مع الاحتلال كما تعاملنا، سأكتفي هنا بالقول، إن قطاعاً كبيراً، شعر بمرارة لا حدود لها، عندما استيقظ ليجد وطنه قد احتل.

ما أدهشني أن التعامل مع هذه الحقيقة المزدوجة : الاحتلال ومرارته، كان مختلفاً ومحتوياً على طرق متعددة. لقد راقبت الاحتلال، **وهو ينعكس في نفوس الناس، ليورث اختلالاً في موازينهم، ومقاييسهم، وآلياتهم في التفكير. حتى لا أقول اختلالاً في عقلياتهم.**

نعم، كانت الصدمة الأولى للاحتلال قوية على معظم الناس، وأورثت اختلالاً في نفسياتهم ـ **اختلالاً تصوروا من خلاله أنه سيمكنهم من التكيف مع الوضع الجديد الذي سقطوا أسارى له.**

كان الحل ـ **عبر هذا الاختلال** ـ هو الهروب، الهروب من الحقيقة عبر أساليب متنوعة.

هروب، تهرب، دفن للرؤوس في الرمال، من أجل أن لا تشعر بتلك المرارة التي تغص بها.

مرارة الاحتلال !



أول شيء سيفعله البعض، ليتغلبوا على تلك المرارة وذلك الذل، هو الانسياق وراء

قول لا يصدق، سيجبرون أنفسهم على تصديقه، ربما سيصدقونه فعلاً، ليتمكنوا من المواصلة بلا ألم.

سيقولون : **احتلال ؟**. لا طبعاً. لايوجد احتلال، هناك تحرير فقط، ستفتح عينيك ولن تصدق أنهم يقولون ما يقولون فعلاً، ربما هم أنفسهم لم يصدقوا أنفسهم عندما قالوها للمرة الأولى «**تحرير**». ربما اضطروا إلى الوقوف أمام المرآة وتكرار تلك الكلمة «**تحرير**» «**تحرير**» لمئة أو ألف مرّة. من أجل أن يقتنعوا بها.

وهل سيقتنعون بها ؟. وكيف، والغزاة أنفسهم قد نفوا تهمة التحرير وتبرؤوا منها، وأصدروا قراراً دولياً أممياً ينصبهم ويرسمهم كقوة احتلال.

ربما، لكن ليس بالنسبة لهؤلاء الذين تؤذيهم الكلمة.

مع الاحتلال الهواء أقل أوكسجيناً، والماء أكثر مرارة و الاستمرار أصعب.. فلنسم الأشياء بأسماء أخرى، ألطف، أكثر إنعاشاً، حتى لو كنا لا نصدقها، حتى لو كانت غبية ومزيفة مثل «**الاحتلال**»..

سيكون ذلك بمثابة مرض نفسي، **لم يصل لدرجة الوباء، لكنه سينتشر خصوصاً في أوساط المثقفين، سيكون محاولة شبه مرضية للتكيف النفسي عبر خلق، ينزلق المريض إلى التصديق به.**

يذكرني ذلك بشكل غامض، بالنسوة نصف المتعلمات اللواتي لايجرؤون على ذكر كلمة «**سرطان**» كي لا يستجلبن شره، ويستعضن عن ذلك ـ **عند الضرورة** ـ بكلمات أخرى، مفهومة تماماً، مثل «**ذاك المرض**» ، أو ما شابه.

يذكرني ذلك أيضاً، بأن تغيير اسم السرطان، لا يخفف من نسبة الإصابة به.

وأن استبدال اسم الاحتلال، لن يلطف من حقيقته.

رغم ذلك، فهم يصرون، ويعيدون ويكررون: **تحرير .. تحرير..**

ستتفهم ذلك، لن ترفع الشعارات وتوزع الاتهامات بالعمالة والخيانة، كما تعودنا لعقود.

إنهم، إنما يمارسون آلية الدفاع عن النفس ضد الإصابة بالكآبة، إنهم يمارسون **هذا الإنكار** حتى لا يقعوا فريسة هذا الواقع.

نعم، ليس كلهم عملاء، ليس كلهم خونة، معظمهم طيبون، مصدومون، وقد هربوا من هذا الواقع الذي سقطوا في حبائله بخلق وهم لابد أنهم سيستيقظون منه.

امنحهم وقتاً : ستة أشهر فقط. أو سنة .. للحالات المستعصية !



آخرون سيقولون بصراحة أكبر، وشجاعة أكثر : احتلال . نعم. احتلال.

ولكن ألم يكن النظام السابق، نظام احتلال أيضاً ؟

ماذا يريد الاحتلال ؟ سيسألون.

منابع النفط ! سيردون على أنفسهم. (واهمين ..) .

ماذا حصلنا من النفط وقت النظام السابق ؟. لاشيء. كان يذهب كله للطاغية وقصوره وملذاته وملذات أولاده وحروبه الحمقاء الغبية.

ولو أعطانا الاحتلال، نسبة عشرة بالمئة من واردات النفط، لكان ذلك خيراً وبركة.

هروب أيضاً، إنكار أيضاً، محاولة للتكيف مع الواقع بخلق وهم آخر.

لقد افترضوا، واهمين، عامدين، واعين أو غير واعين، أن الاحتلال قد جاء ـ حصراً ـ من أجل منابع النفط..

وافترضوا، أنهم سيمنحونا تلك النسبة التي قالوا عنها، و قارنوا مع من لا منافس له في السوء مع نظام الطاغية، ثم قالوا : خير وبركة.

إنه الوهم المبني على فرضيات متهاوية.. إنه الإنكار المبني على حقائق مغلوطة.

إنه محاولة للتكيف مع الواقع البغيض بابتكار أوهام جميلة (نسبياً)..

امنحهم الوقت، بعض الوقت فقط، لتتبين لهم نوايا الاحتلال..

وأهدافه .. الأبعد بكثير، والأعمق بكثير، من مجرد منابع النفط.



سيقول آخرون، إنه لايوجد استقلال تام للدول في عصر العولمة الذي نعيشه، وبالتالي، لايوجد احتلال ـ **إنها العولمة التي تسيطر على العالم أجمع.. فهل العالم كله محتل؟**

يبلع الوهم المثقفين منهم ـ ويمضغونه ببطء، متلذذين به، إنه يخفف مرارة الشعور بالاحتلال..

سيشير آخرون إلى دول مجاورة، تملك قواعد لقوات أمريكية، ولا يبدو على أهل تلك البلدان أنهم يشعرون بالمرارة.

سيقولون: ما الفرق ـ بين وجود قواعد ـ ووجود القوات ؟

كله احتلال. حالنا حالهم. والاستياء لايبدو عليهم.. فلماذا يبدو علينا ؟



سيقولون آخرون : بغداد أصلاً لم تسقط. الذي سقط هو النظام.

أما بغداد، فهي أعلى ، وأجل، وأقوى.. من أن تسقط.

بغداد لم تسقط. الذي سقط هو الطاغية، وتمثاله.. وأزلامه.

لكن بغداد لم تسقط..

كيف تسمي كتابك بهذا الاسم ؟ **«ليلة سقوط بغداد»** .. وبغداد أصلا لم تسقط ؟



آخرون : لم ننهزم. صدقونا لم ننهزم. إننا أصلاً لم نحارب. ولهذا لم ننهزم، الذي حارب هو النظام وزبانيته، والذي انهزم هو النظام.

أما نحن.. فلا.. إننا لم نحارب. ولذلك لم ننهزم.

لو أننا كنا حاربنا، لكنتم رأيتم شيئاً آخراً غير الذي رأيتموه. لكانت أمريكا رأت شيئاً آخر .

إننا فقط فضلنا أن لا نحاربها الآن.

نحن لم ننهزم!



فذلكات، ألفاظ، مصطلحات، كلها تلف وتدور من أجل تلك الأوهام الجميلة التي ينزلق إليها الناس من أجل أن يهربوا من واقعهم المرير المؤلم الذي سقطوا في براثنه.

إنهم ليسوا سذجاً أو أغبياء كما قد يبدو للوهلة الأولى.

إنهم يمارسون ـ **بلا وعي** ـ هروباً جماعياً من واقع الاحتلال، إنكاراً جماعياً لحقيقة الدبابة الأمريكية الجاثمة أمامهم، ـ **على ناصية الشارع**.. ليسوا خونة. ولا عملاء، إنهم وطنيون على طريقتهم.

امنحوهم الوقت، وسيستيقظون على الإنكار وهو لايجدي نفعاً بمواجهة المرارة التي يشعرون بها..

امنحوهم الوقت: ليستوعبوا الصدمة، ليعبروا الاختلال الذي أورثه إياهم الاحتلال.

فقط بعض الوقت، وبعده ترون.



لقد خيبنا آمالكم، أعترف.

كنتم تتخيلون أي شيء، غير هذا الذي حدث منا.

كنتم تتخيلوننا **«مشاريع استشهاد دائمة»** ـ ستنفجر في وجوه الغزاة وأجسادهم ومدرعاتهم فور دخولهم بغداد..

(.. كنا نتخيل ذلك أيضاً، لقد خيبنا آمالنا بأنفسنا)

كنتم تتخيلون أننا لن ننام على الموضوع، لن نستطيع أن نغلق الأبواب على أنفسنا والغزاة يدنسون الشوارع.

لم نتصور نحن ذلك أيضاً قبل حدوثه، وعندما حدث لم نكن نصدقه.

لقد خيبنا آمالكم .

كنتم تتوقعون أي شيء، إلا أن نواجه الأمر بهذا الذي واجهه البعض به.

بالإنكار، بالهروب، بالتكيفات النفسية، بردود أفعال نفسية تكاد تكون جزءاً من مرض نفسي.

نعم. خيبنا آمالكم..

كنتم تريدون أن نحدثكم عن بغداد أخرى، بغداد مقاومة، بغداد صامدة، بغداد مقاتلة، بغداد التي ترفع رؤوسكم، وبغداد التي تحقق شعاراتكم.

نحن أيضاً كنا نريد ذلك، أن نرفع رؤوسكم، ونحقق بعضاً ـ **على الأقل ـ من** شعاراتكم.

كنا نريد أن تظهر بغداد بصورة أخرى، غير التي ظهرت بها غداة السقوط، غير صورة السلب والنهب، وذلك الترحيب المذل الذي أظهره البعض للغزاة.

كنا نريد لبغداد أن تدخل التاريخ في سجل الصمود، في سجل المدن التي تدافع عن نفسها كما تدافع القطة عن أولادها ـ **بأظافرها.. بأظافرها.**

لكن ما المدن، في النهاية، غير أبنائها؟. ما المدن، في البداية والنهاية، سوى ناسها؟. وماذا تفعل المدينة ـ **أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، غير ما يفعله أبناؤها.**

كنتم تريدون أن أحدثكم عن بغداد ترضى طواويسكم، وتنفخ غروركم، وتجعلكم تشعرون بالاطمئنان إلى أن حصونكم منيعة، وأن دوركم في الغزو لايزال بعيداً.

كنتم تريدون أن تحارب بغداد بالنيابة عنكم. وأن يموت الأطفال فيها، بدلاً أن يموتوا عندكم، و أن تهدم بيوتنا علينا، بدلاً من أن تهدم عليكم..

(حدث هذا كله طبعاً. ولكن ليس للدرجة التي كنتم ترغبون بها).

كنتم تريدون أن أحدثكم عن بغداد تفديكم، وتعيد بناء عزكم، وأساطير مجدكم، كنتم تريدون بغداد، أن تداوي جروحكم، وتعيد بث الأمل في نفوسكم.

للأسف، وسط كل الملابسات التي سقطنا فيها: لم يكن ثمة أمل في أن تفعل بغداد **ذلك.**

بدلاً من بغداد التي تريدون، وبغداد التي نريد، هناك بغداد أخرى، هي بغداد الناس الحقيقيين، لا بغداد **الشعارات والعقائد.**

بغداد الأخرى، بغداد الناس الذين يمشون في الشوارع ويأكلون في الأسواق، هي بغداد التي لامفر من مواجهتها والتعامل معها، وفهمها والتفاهم معها، بغداد الأخرى، هي التي يمكن، فيما بعد، أن تدهشكم فيما ستفعله، أن ترفع رأسكم حقاً، أن تكون لكم مثلاً، وتكون بيوتها سوراً حصيناً لبيوتكم، ويكون ناسها **أولئك الذين احتقرتموهم وقلتم عنهم ما قلتم** قدوة لكم.

بغداد الأخرى، بغداد الناس الحقيقيين، هي المحك الحقيقي، **هي التي الرهان عليها، هي التي العين عليها.**

بغداد الأخرى، هي التي ستضع النقط على الحروف، وتملأ الفراغات بما يناسبها. وتحل أحجية الكلمات المتقاطعة.

وتضع نقطة، نهاية السطر.

بغداد ـ الناس الحقيقين ـ سأحدثكم عنها

۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞

ربما سأحدثكم عن جار لي ، لم أتصور قط يوماً ما، أني سأذكره فضلاً عن أن أكتب عنه.

اسمه أحمد، وكان لم يبلغ العشرين عندما وضع حداً لحياته قبل الحرب بشهر أو أكثر.

كان لطيفاً ودائم الابتسام، لكن اتضح أن تلك الابتسامة لم تكن سوى قناع يخفي وجهاً كثير الدموع.

هل تقولون إن المراهقين ينتحرون في كل مكان في العالم ؟

نعم، وبنسب أكبر، لكن أحمد كان مثالاً لذلك الجيل المحبط الذي تدخلت السياسة ومؤامراتها في حياته بشكل شخصي.

كان عمره خمسة سنوات، أو ستة؟، عندما اندلعت حرب الخليج الثانية **.مات أبوه في يومها الأول. أذكر جيداً أنهم لم يتمكنوا من إقامة مجلس عزاء له، وأذكر أن والدته أنجبت بنتاً بعد عدة أشهر، وأن ذلك الطفل الجميل فقد قدرته على النطق بشكل صحيح، وظل يتعثر في الكلام لمدة طويلة، كبر ذلك الطفل مع السنين.**

أذكر أني كلما عدت من صلاة العيد، كنت أجد أمه وقد اتشحت بسوادها الذي لم تغيره قط، ومعها أولادها الثلاثة ـ **وهو أوسطهم** ـ كانوا يذهبون صباح كل عيد للمقبرة، من أجل والدهم.

بقوا في البيت ولم يتركوه، وظل عمهم يرعاهم، لكن، تعرفون كيف هي الطبيعة البشرية، الحرارة التي جعلته يتعهد بالتكفل بأبناء أخيه الشهيد، خفتت مع الوقت، هو أيضاً لديه أعباءه وأولاده، ولابد أن التذمر بدأ يظهر عليه.

اضطرت الأم لجعل أولادها يتركون المدارس مبكراً ـ ويعملون من أجل كسب

رزقهم. كنت أراهما سوية، هو وشقيقه الذي يكبره بسنة أو اثنتين، وقد خرجا مبكراً لعملهما وهما يحملان معهما طعاماً أعدته أمهما لهما، **أكل البيت أنظف وأكثر أماناً ،** كلي ثقة أن أمه كانت تقول ، لهما، لنفسها، ولزوجة عمه أيضاً .

لكن أكل البيت أرخص أيضاً، دون أن تقول.

كانا يعملان معاً في منطقة صناعية لتصليح السيارات، في وسط كان من الصعب عليه تقبل ذلك المراهق كثير التأتأة.

لم أكن أدري أي وجه يخفي قناع الابتسام ـ **لم نكن ندري أي قروح، أي دموع، أي دمامل كانت على وشك الانفجار.**

ولم ندرِ إلا بعد فوات الأوان، عندما احترق القناع، ولكن احترق معه الوجه، والرأس، احترق أيضاً حتى العظم، حتى النخاع.

كنت قد عدت يوماً متأخراً من عيادتي، وانتبهت إلى وجود رائحة حرق خاصة، ظننت أن أحدهم قد أحرق بعض النفايات.. ولم أعر الأمر اهتماماً كبيراً.

لم أعرف أن الرائحة كانت رائحة أحمد، وقد تفحم تماماً، عندما اختار أمسية ذلك اليوم ـ **قبل الحرب بشهر أو أكثر** ـ أن ينهي حياته بتلك الطريقة.

لم نعرف أي وجه كان يخفي القناع إلا تلك الليلة.

لقد أحب **ككل المراهقين**، وصُدم، ربما أيضاً ككل المراهقين.

لكن، ليس ككل المراهقين، أيقظته صدمته على حقيقة حياته.

على حقيقة مستقبله، على انعدام فرصه.

كان قد خسر الدنيا منذ فترة طويلة، ذلك المساء، اختار أن يخسر الآخرة أيضاً.



ارتعبت ابنتي الصغيرة مما حدث، كانت قد شاهدت أحمد وقد تحول إلى شيء متفحم ومحترق، كانت مشوشة بسبب حالة ترقب الحرب التي كنا نعيشها ونتحدث عنها طوال الوقت، ظلت تسأل بإلحاح: **هل ابتدأت الحرب ؟ هل هذه هي الحرب ؟**

نعم. كانت هذهِ هي الحرب، الحرب التي ابتدأت قبل أكثر من عشر سنوات. الحرب

التي لم تنته رغم وقف إطلاق النار. الحرب التي لا تضع أوزارها قط، بل تستمر الأوزار، ويحملها الأولاد، وهم يكبرون، ويخسرون، ويحيطون، ويهزمون.

نعم. إنها الحرب، وهذا هو جيلها الذي يختار أحياناً أن يخسر الآخرة..

بعد ما خسر الدنيا.

❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂ ❂

ربما سأحدثكم عن أم سجى، امرأة على مشارف عقدها السادس، عملت كمساعدة تمريض في عيادة عملت بها، قضت عمرها في الركض وراء الرزق منذ أن كانت في الثالثة عشر، لتعيل ثمانية من أخواتها الصغار، كلهم ذكور.. وكانت تتصور أنهم سيكونون سنداً لها. تعرفون كيف هي العادات، وكيف تكون الدنيا زاهية عندما نكون صغاراً ونحلم : كانت تقول، بسخرية مريرة، كنت أتفاخر بين صديقاتي : عندي ثمانية إخوة !

لم تكن تدري، أنها ستكون هي المعيل الوحيد لكوم من الأيتام، هم أيتام أربعة من إخوتها ـ عدا عن أيتامها الشخصيين، الخاصين بها..

خمسة من إخوتها الثمانية سيموتون مبكراً، تقول عنهم أنهم الخمسة الأفضل، لم يبق إلا العاطلين عن العمل. تقولون إنها نسبة مرتفعة ؟ ربما. واحد منهم فقط سيموت في حادث سير، الأربعة الباقون سيموتون في تلك الحروب الغبية. ثلاثة منهم ـ لحسن حظ أم سجى ـ سيكونون متزوجين، ولديهم أطفال، بمعدل ثلاثة لكل واحد، وستجد أم سجى نفسها في خضم ذلك الماراثون اليومي من أجل لقمة ودواء وكساء، أما والد بناتها الثلاثة فسيموت ـ ويا للعجب ـ بسكتة قلبية اعتيادية.

لن تصدقوا كم هي طيبة النفس ونقية السريرة. وكريمة اليد أيضاً ولا تجلس أبداً. أين هي ؟ إنها هنا، إنها هناك، تعمل في الصباح في مستشفى، وبعد الظهر في عيادة، وبين هذا وذاك، وبعد هذا وذاك تركض هنا أو هناك. تزرق إبرة، تبدل ضماد، تحصل على نزر يسير من كل مكان. لكنها تقول إن القليل يجمع، والقليل الذي تجمعه لاتبخل به على أولئك الأيتام الذين في البيت ـ وهم كثيرون..

إنها بغداد ـ الأخرى، بغداد الحقيقية، لم تسرق ولم تشارك في النهب والسلب، ولكن أغلقت على نفسها وطلبت الستر لها ولبناتها، إنها الوجه الآخر الذي لم تروه، إنها الصبر والتعلق بسيارات النقل الرخيصة المتعبة من أجل الركض وراء لقمة الرزق.

لن تروها في الفضائيات، إنها مجرد وجه عادي، لن يقابلها أحد. لن يستجوبها أحد. ليست سيدة صالون، وليست متحدثة لبقة، ولا تحمل شهادة الدكتوراه **في أي** اختصاص. ستنزلق الكاميرا عليها دون اهتمام.. لكنها هي ..**بغداد التي ستدهشكم فيما بعد.. ولو بعد حين.**

أم سجى، واسمها الأصلي جوهرة، ودوماً يخطئ المراجعون فيستبدلون اسمها بأسماء مقاربة : جواهر . ياقوتة..

أسماها والدها بُهذا الاسم لأنه كان في عربة الحنطور عندما أخبروه بولادتها وأمامه كانت هناك لوحة إعلانية لفيلم قديم اسمه جوهرة ـ بطولة مطربة كانت معروفة في الأربعينات والآن بالكاد يذكرها أحد، نور الهدى ـ **مصادفة ؟ لكن خير من ألف ميعاد ـ .**

وسيتفتق هذا الاسم ـ **الذي اختير بما يبدو أنه مصادفة** ـ عن جوهر حقيقة هذه المرأة. عن جوهرة نادرة، **موجودة هناك، خبيئة في الأعماق..**

إنها بغداد الحقيقية، خلف كل الأقنعة، تحت كل الوجوه، توجد جوهرة شديدة الندرة، عظيمة القيمة في الأعماق..

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

وربما أحدثكم عن أبي عامر، بقال لا أعرف كم عمره بالضبط. يبدو في الستين، ولكن الحياة التي عشناها علمتنا أن المظاهر خدَّاعة، قد يكون في الأربعين، لكن الحياة التي عاشها تضيف إليه ما يجعله يبدو أنه في الستين.

أبو عامر، بالكاد يفك الخط، لكنه يتقن العمليات الحسابية البسيطة التي يستوجبها عمله، لا يحتاج إلى ورقة ولا قلم ولا حاسبة، بل يحسبها بدماغه، إنه بقال ممتاز بالمناسبة. وبضائعه طازجة دوماً. والناس تأتي إليه قاصدة من كل مكان.

ذهبت إليه امرأة من معارفنا بعد انتهاء الحرب، كيف حالك يا «أبو عامر» ؟ أجابها بشرود : **الحمد لله** .

كان لديه أولاد كثيرون، بعضهم ، في الجيش، كما تذكر تلك المرأة، سألته مرة أخرى، وقد لاحظت شروده : هل كلكم بخير ؟ **هل** كل أولادك بحال جيدة ؟ **هل حصل شيء لأحد منهم؟**

قال أبو عامر، **نعم. لقد حصل.**

قالت تلك المرأة بلهفة الأمهات اللواتي يخشين على أولاد الغير كما يخشين على أولادهن : **من ؟ من يا أبو عامر؟**

أطرق بصمت، بدا عليه أنه يريد أن يستجمع شجاعته وقوته ليقول «**من**». بدا عليه أنه قد ينفجر فجأة بالبكاء. جرَّ نفساً من الهواء، قبل أن يختنق .. في عينه اليسرى، في طرفها بالذات، التمعت دمعة حزينة، عندما استطاع أن يقول ..«**بغداد**».



وربما أحدثكم عن سيدة أخرى، لا أعرفها، ولكن سمعت عن هذا الذي فعلته..

جاءت منظمة نسوية عالمية لاستطلاع أحوال النسوة في العراق، تعرفون كيف أن أحوال المرأة تشكل موضوعاً ساخناً.

كانت المنظمة تنتقل بين الأحياء، تريد أجوبة مثيرة، لأسئلة من نوع : **ما هي مشاكلكن ؟**

كانت المنظمة تريد قضايا من نوع الضرب و الاغتصاب و الزواج القسري والتعذيب والإهانة والمنع من الدراسة والعمل، لم تحصل على الكثير، أكثر النسوة شكين من الوضع الأمني السيئ الذي أحدثه الاحتلال. بعض تكلمن أيضاً عن الوضع الاقتصادي..

قامت واحدة من النسوة، قالت بهدوء شديد، أن لديها مشكلة واحدة، لا تتعلق بالوضع الأمني والاقتصادي. ولا بأي شيء من هذا القبيل، قالت أن لديها مشكلة واحدة تنغص عليها عيشها **وجود دبابة أمريكية وجنود أمريكان عند ناصية الشارع الذي تسكن فيه.**

قالت إن ذلك هو أكبر همومها، وأعظم مشاكلها. وأن ذلك يجعلها عملياً حبيسة منزلها، لأنها تتجنب الخروج من المنزل حتى لا تشاهد الأمريكان.

قالت ذلك بهدوء، بلا شعارات، ولا تشنج، ولا صراخ.

قالته لأنه كان حقيقة، ولأن وجود تلك الدبابة على ناحية الشارع كان فعلاً قد نغص عليها حياتها..



ولكن أيضاً سأحدثكم عن غيث، طبيب أسنان شاب أشرفت على تدريبه سابقاً، مؤدب ولطيف ودائم الابتسام، ويختم كلامه دوماً بابتسامة شديدة الود، كما يفعل المذيعون..

بعد انتهاء الحرب بفترة وجيزة، شاهدت غيث و أوصلته بسيارتي إلى مكان ما، وعندما مرَّت من أمامنا دورية أمريكية، فاجأني غيث بما فعله، لقد لوح بيديه لهم..

حبطني ذلك وصحت به عما يفعله، قال لي، بمرارة، يا دكتور، **لقد أرجعوا لنا بيتنا.**

كانت الحكومة السابقة، بواحد من قراراتها الطائشة، قد صادرت بيتهم، **وأسكنت فيه واحداً من زبانيتها، وجعلتهم يضطرون للعيش في شقة مؤجرة في منطقة في أطراف بغداد، وقد كان بيتهم المصادر في زيونة، واحدة من أرقى مناطق بغداد..**

وعندما سقط التمثال، عرف ذلك الذي احتل البيت أنه لم يعد له مكان، **فحزم** أغراضه ورحل دون ضجيج، واتصل الجيران بغيث وأهله : **أن عودوا، فقد رحل الدخيل.**

هل كان يمكن لغيث إلا أن يلوح للغزاة الذين أرجعوا له بيته.؟

سكتُّ بمرارة، كل ما كنت سأقوله كان سيبدو موعظة بليدة وفي غير موضعها، لقد أرجعوا له بيته، لو كنت قلت له : إنهم أرجعوا بيتاً وأخذوا بلداً بكامله ـ لو كنت قلت له : إن كل أوراق الطابو ومستندات الملكية التي بحوزتنا لم تعد لها قيمة ما دام البلد قد احتل ـ **فماذا كان سيكون رد فعله ؟ غير اللامبالاة ؟**

لقد أرجعوا له بيته !

سكتُّ.

وعندما هبط من السيارة قلت له : ستة أشهر ونتحدث بالأمر. ستة أشهر فقط.

لكن الأمر لم يستغرق ستة أشهر. بل أقل. خلال ثلاثة أشهر رأيته على التلفاز. لم يبدو عليه الامتنان، لأنهم أرجعوا البيت وأخذوا البلد ـ **وهو يسير في مظاهرة ضد الاحتلال..**

لكن ابتسامته كانت لاتزال شديدة الود.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

وهل أحدثكم عن نفسي، أم أن ذلك سيكون منحازاً ومخالفاً لقواعد التأثير، هل أحدثكم عن نفسي، أنا الذي لا يزال قلبي يغوص عميقاً كلما رأيت دبابة أو مدرعة أمريكية في الشارع. أنا الذي لا أزال أنظر إلى الإسفلت الذي تدوس عليه المجنزرات الأمريكية كما لو كنت أنظر إلى أشلاء أولادي وقد مزقتها عجلات الدبابات.

أنا الذي لم أعتدْ بعد، ولايبدو عليَّ أني سأعتاد في أي وقت، أنا الذي لا أزال أتحاشى النظر، وأتجنب أن يقع بصري على أي من جنود الغزو، أو دباباتهم، أو عرباتهم، أو حتى أحذيتهم، لو فتحنا هذا الملف، لما انتهينا أبداً.

لكني سأحدثكم عني، **في موقف واحد، أجهشت فيه بالبكاء علناً كما لايليق بي من كل النواحي**.

تلك الأمسية، كانت تقام فيه حفلة تخرج لابني من الروضة، أصرت زوجتي ـ **والتي هي مديرة الروضة** ـ أن يقام الحفل **رغم كل الظروف** كنت معها في ذلك، بعد كل شيء، استمرارية الحياة هي أشد أنواع المقاومة قوة، كنت متأخراً بسبب ارتباطي بعملي في العيادة. أخذت سيارة أجرة وطلبت من سائقها أن يتخذ أقصر الطرق، **وعندما مررنا بمنطقة شبه مهجورة**، وقد كانت في وقتها ما كانت، وقد هدمت مبانيها بعدما مرت بمراحل القصف والسلب والنهب والحرق والتدمير حتى الأرض، حتى الأرض.

بينما كنا هناك، حدث إطلاق كثيف للنار من مكان قريب، أو ربما أننا أحسسنا أنه قريب جداً لأن الصدى كان عالياً في مكان مهجور كالذي كنا بالقرب منه.

ضغط السائق على مدوس البنزين، كان يريد الإفلات مما تصور أنه ممكن أن يتحول إلى حادثة سلب أو قتل مجاني ـ **كما يحدث في كل مكان** ـ أفلتت من فمه شتيمة. قال، بالحرف، بغداد «**الغبرة**».

نعم، لقد قال: بغداد الغبرة !.

إذن أصبحت «**غبرة**» يا بغداد..

إذن أصبح سكانك يضيقون ذرعاً لك، ويعدونك غبرة، ويعدونك مكاناً غير آمنٍ..

آه، **يا حلوة، يا بغداد** ـ ماذا فعلوا بك ؟ بل ماذا فعلنا نحن بك؟ كيف نافسناهم في **تدميرك** ؟ في ذبحك ؟ في جعلك غبرة ؟

آه ، **يا بغداد، يا أمي ـ يا أصيلة** ، **يا حنونة**، كيف سمحنا لهم ولأنفسنا ـ **أن يفعلوا**

هذا الذي فعلوه بك، هذا الذي شاركناهم فعله..

«دمبلة»[١] وانفجرت!.

أجهشت بالبكاء، لم ألقِ بالاً لأي شيء، لم أحاول الاستتار، **فقط** دموع صامتة تهبط من عيني وتغرق عدسات نظارتي، تشوش مجال الرؤية.

أردت أن أقول، بل قلت فعلاً، بين دموعي ، بل بغداد الحلوة، بغداد الحلوة.

كان ذلك غير موضوعي وقتها، ولكن، هل يكون وجه الأم إلا جميلاً، **إلا حنوناً** ، حتى لو هدمته الهموم، والمشاكل، حتى لو هزمه الزمان، حتى لو أكل جلده السرطان؟

هل يمكن أن يكون وجه أمك ـ **أغبراً** ـ حتى لو كان عليه غبار ؟

وقال ذلك السائق، ذلك المساء الذي سيتخرج ابني من روضته : بغداد الغبرة !

وعندما وصلت، كنت قد استنفدت كل طاقة على الفرح أو الحزن أو أي شيء .

لكن عندما سلَّم ابني راية الروضة ـ **لطفل آخر يصغره بسنة** ـ سيخلفه في الصف المنتهي، امتلأت بروحي بذاك الشيء الغامض الذي لا اسم له و الذي يجعل الموتى (**نظرياً**) يواصلون الحياة.

امتلأت روحي، كل ذرة منها ـ **إذا كانت الروح تقسم إلى ذرات** ـ بتلك الرغبة السماوية التي تجعل من الطين إنساناً.

امتلأت بإرادة غامضة، لعلها ما يسمونه إرادة الحياة ـ **بأن يكبر ابني من أجل بغداد أخرى..**

بغداد حلوة .



لكني كنت أحسن حظاً من قريب لي، لم تمتلئ روحه بإرادة الحياة..

لم يكن في بغداد، عندما قامت الحرب، وعندما انتهت أيضاً.

كان قد ذهب و أهله الى الموصل..

---

(١) الدمبلة: كيس القيح المخزون ـ باللهجة البغدادية .

وعندما عاد ـ كان قد سمع بالخراب والدمار الذي لحق بها. لكن أن تسمع غير أن ترى.

خاصة عندما تكون في السبعين من العمر، وتكون مريضاً بالقلب ..(.. **وتكون تحب بغداد)** .

دخل بغداد فوجد الخراب وقد فاق كل ما سمع به كل ما تخيله، **وجد الدمار وقد تسرب إلى ذكرياته وذاكرته** ، وجد كل حياته وأحلامه وهمومه وقد صارت ركاماً لاسبيل لإعادة إعماره، بكل مليارات الدنيا..

لم يصل إلى بيته أبداً، لم يصل حتى إلى جانب الرصافة حيث يقيم، قبل أن يصل إلى جسر الجمهورية، **نفس الجسر الذي وقفت عليه تلك الدبابة يوم كان ما كان ..**

وضع يده على قلبه، كما لو كان يريد أن يقلب الصفحة، كما لو كان يريد أن يسدل الستار.

مات، قبل أن يصل المستشفى.

كان إنساناً حقيقياً، قريبي هذا، لم أسمع عنه قط أن يتداول الشعارات، أو يعتنق النظريات والعقائد..

كان إنساناً بسيطاً، أحب مدينته ووطنه، وهو أمر على بساطته، يصعب التعبير عنه.

ولم تكن بغداد مسقط رأسه، فقد ولد وشب في الموصل، وجاء إلى بغداد وهو شاب، لكن بغداد لديها تلك الخاصية، أنها تظل تتبنى من يأتي إليها، وتحتضنهم وتظل تقول هل من مزيد ؟

وفجأة، يجد أولئك الذين أتوا إليها، أنها صارت مدينتهم هم، **بغدادهم**، يجدون أنها صارت أمهم، وقد خلفوا مدينة أخرى، كانوا يظنونها مدينتهم الأم.

وضع يده على قلبه، وأغلق عينيه، لم يكن يريد أن يرى أكثر ما حلَّ بأمه.. ببغداد.



وهل أحدثكم عن أحمد مثنى، زميل لابني في روضته، تخلف عن الحضور في حفل التخرج، لم يتخرج، وأستطيع أن أقول أنه لن يتخرج قط..

لن أقول أنه كان أجمل طفل في صفه، فكل الأطفال في سنه جميلون، لكن زوجتي

تقول أنه أذكاهم بالتأكيد. وأكثرهم نباهة. تستطيعون أن تثقوا بما تقول زوجتي، فابنها في نفس صف أحمد مثنى، ولو كان هناك مجال للمقاربة، لفضلت ابنها ـ بالتأكيد.

لكن زوجتي تقول أن أحمد مثنى هو الأذكى.

لكنه الأجمل أيضاً بالنسبة لوالديه، لأمه وأبيه، الذي عندما عاد من حفر الباطن، في حرب الخليج الثانية، فرح الجميع لعودته سالماً. أو هكذا تصوروا.

لم يعلم أحد، أنه لم يعد سالماً بالضبط، وأنه التقط شيئاً من ذلك اليورانيوم الذي استخدمه الغزاة المتحضرون، وأن الأمر لن يظهر إلا فيما بعد، في ابنه الذي سيولد بعد ذلك بفترة طويلة، والذي سيكون أذكى طفل في صف ابني.

فجأة سيتخلف أحمد مثنى عن الحضور. إنه محموم. إنه مزكوم. إنه يسعل اليوم.

سيتكرر غيابه، وسيطول، كيف وهو الحريص على الحضور ؟

ستذهب زوجتي لتستطلع الأمر، لن يفيد الهاتف المعتاد، تفتح جدته الباب لها. أين أحمد؟ أين أمه ؟ إنهما في المستشفى ؟ ما الأمر ؟ ستجهش الجدة بالبكاء..

إنه السرطان.!

لن يستسلم أهله، سيحاولون مع العلاج باهظ التكاليف، سيبيع والده السيارة، وهو على استعداد لبيع المنزل أيضاً، لكنه يتساءل، مع نفسه، ماذا عن إخوته الآخرين ؟

سيذهب أطفال الصف إلى أحمد في المستشفى، لايزال أذكاهم، يحير الأطباء بأسئلته الذكية، يتهجى أسماءهم وأسماء آبائهم وألقابهم كما مكتوبة على «**الباجات**» المعلقة فوق صدورهم، يسأل الأطباء عن عمره، يسكتون، يقارنون بأبنائهم، وأبناء إخوتهم، ثم يعلقون آسفين: إنه ذكي جداً، هذا الولد.

تعود زوجتي وعيناها متورمتان من البكاء، وتقضي يومين آخرين في البكاء والاتصال بالمعارف من أجل أن يحصل أحمد مثنى، على مساعدة من بعض المنظمات الإنسانية، لكن كل المنظمات على وشك الانسحاب، إنها الحرب على الأبواب.

بعد أن تنتهي الحرب، تسأل زوجتي عنه. يقال لها باقتضاب: لقد تدهورت حالته أثناء الحرب، ولم يستطع أحد أن يفعل شيئاً، كانت المستشفيات في حالة فوضى.. حاول الجميع بأقصى ما يستطيعون، لكّن السرطان هزم أذكى طفل في صف ابني.

آه يا أحمد مثنى، وآه يا أم «أحمد مثنى» ويا أباه المكلوم المهزوم، ربما سينسى الأطفال في الصف ابنكم، محظوظون هم إذا نسوا، لكن من يدري أن حظهم سيكون دوماً أفضل.؟ من يدري أي مستقبل ينتظرون، والغزاة الذين حكموا على أحمد مثنى بالإعدام سلفاً قبل أن يولد، قد جاؤوا الآن إلى باب روضتهم ؟

آه يا أهل أحمد مثنى، هل ستأتون لاستلام تلك الشهادة المتروكة في درج مكتب زوجتي أم أنكم ستهربون من تلك الصورة الملصوقة عليها..؟

صورة أحمد مثنى وهو يبتسم للكاميرا، قبل أن يظهر السرطان..؟

أقول لكم : جربوا النسيان، حاولوه، لن تفلحوا، إذا فشلتم حاولوا التذكر بدلاً عنه، أمعنوا فيه. وتذكروا بالذات أنه قد صار طيراً بين طيور الجنة..

وأراهن أنه سيكون، كعادته، الأذكى، بين تلك الطيور.



إنني أبكي الآن. ربما أنتم أيضاً .

لكن البكاء ليس كل ما أملكه.

وأحمد مثنى قد مات، نعم، لكن في الصف أيضاً أطفال آخرون، أذكياء أيضاً، لايزالون على قيد الحياة.

وبغداد قد سقطت، نعم، لقد سقطت، لكن هذا لا يعني أنها لن تنهض بعد.

إنني محبط، نعم، ومهزوم، نعم. ومحاصر، نعم. لكني لم أرفع الراية البيضاء بعد. لم أستسلم بعد.

إنني أنزف. جسدي مثخن بالجراح. وروحي مثخنة أكثر بالطعنات و الإصابات. لكنني لا أزال حياً. لم أمت بعد.

قد تتصورون أنني أُحتضر، ربما أتصور أنا ذلك أحياناً..

لكن لا. لم أحتضر. لم أمت..

على الأقل : ليس بعد..

خاتمة أو بداية
(كما تشاؤون)

NO!

في كل مرَّة تهاجم أمريكا دولة ما، أو حكومة ما، يقوم الحكام الصغار، والذين يكونون عادة عملاء سابقين لأمريكا تنقلب اللعبة عليهم لسبب أو لآخر، وتقرر أمريكا التخلص منهم واحتلال بلادهم، في كل مرّة، يقوم هؤلاء الحكام بالتهويش والتشويش والوعيد والتهديد، ويذكرون أمريكا بعقدتها الأساسية، عقدة فيتنام.

«ستكون بلادنا مقبرة لهم، كما كانت فيتنام»..

«ستكون فيتنام نزهة مقارنة لما سيرونه عندنا»..

قالوها كثيراً، في كل مرَّة تحاول أمريكا بسط هيمنتها وفرض قوتها، تطبيق شعار أنا ربكم الأعلى على أرض الواقع، كان يجري تهديدها بالحرش الفيتنامي الذي جرت إليه، يالوحل الفيتنامي الذي تمرغت فيه.

وفي كل مرَّة، كان الكذابون يهربون، **وكانت أمريكا تواجه المصاعب، تواجه المتاعب، تواجه حتى الهزائم. لكن ليس فيتنام.**

لماذا ؟

ربما لأن الحكومات الأمريكية تعلمت من الدرس جيداً، وصارت تضيق على وسائل الإعلام، وصارت تقلل من إعلان خسائرها حتى تقلل من ردود أفعال شعبها، وبالتالي تتفادى حدوث عقدة جديدة، أو تجدد العقدة القديمة.

وربما لأن ظروف الحرب الباردة، كانت في صالح فيتنام، من النواحي الإعلامية والعسكرية والسياسية، وهو الأمر الذي لم يتوفر في التجارب الأخرى، حيث يهيمن الدب القطبي على العالم أجمع، ويصيح، ويزمجر، **أنا ربكم الأعلى، أنا ربكم الأعلى** - ويهدد ويتوعد، لا أي دولة فحسب، ولكن أي قناة إعلامية، أي جريدة أو أي جهاز إعلامي يسرب خبراً مضاداً لما تريد أمريكا أن تسمعه.

وربما لأن الطبيعة الجغرافية التي توفرت في فيتنام، لم يتكرر توفرها في مكان آخر،

تلك الأحراش والغابات التي شكلت الغطاء والأرضية للعقدة الأمريكية في فيتنام ـ **لم تكن موجودة في مكان آخر..**، حيث هدد أولئك التافهون : ستكون فيتنام أخرى، ستكون فيتنام أخرى..

نعم، كل تلك الأسباب، وربما أخرى، أيضاً، جعلت هناك مصاعب، ومتاعب بوجه أمريكا.. ولكن ليس فيتنام..

ماذا كان أي أحد يتوقع ؟

الحكام والمسؤولون يهددون ويتوعدون (**فيتنام** ، **فيتنام**) لكنهم عادة سرعان ما يولون أدبارهم ويهربون.

أما الناس، الناس الحقيقيون، فإنهم لا يصرحون بأشياء كهذا، إنهم لا يقولون ـ **أبداً** ـ فيتنام أخرى، لأنهم يعرفون أن لا غابات عندهم توفر لهم فيتناماً أخرى.

رغم ذلك، فإنهم هم، من يجرون الغزاة إلى **المطب**، وهم من يدفع الثمن. وهم من ينتصر في النهاية.

نعم، لا حرشَ في بغداد، لا فيتنامَ فيها.

ولكن هناك شيء آخر، قد يكون أخطر حتى من الحرش الفيتنامي، وأشد لُزُوجة من الوحل الفيتنامي.

لم يهدد الحكام به لأنه لم يعرفوه ـ **هذا المطب** ـ لم يفهموه، لم يسمعوا به.

لا يعرفه، إلا من يعيش داخله، لا يفهمه إلا من يكون جزءاً من تضاريسه.

لقد دخلوه ـ **الغزاة دخلوه** ـ ولم يدروا أي مطب يقتحمون، وأي فخ يدخلون.

إنه مخادع جداً هذا الفخ. لن تكتشف حقيقته المراوغة إلا بعد فترة طويلة، لن يكتشف من دخله أنه قد سقط في فخ إلا بعد أن يكون قد سقط تماماً.

سيبدو سلساً في البداية، سهل المنال.

وبعد فترة سيتكشف الفخ عن أنياب وبراثن، **وأسلاك شائكة، وجسور مقطوعة..**

بعد فترة سيتكشف الفخ عن حقيقة زئبقية شديدة المراوغة والخداع، وسيكون من الصعب جداً الخروج، **كما سيكون من الصعب جداً البقاء..**

نعم، لا حرش في بغداد، لا فيتنام فيها.

ولكن هناك شيء آخر، قد يكون أخطر من الحرش.

هناك شيء آخر، ليس بالضرورة جغرافياً.. ولكنه جزءٌ من التضاريس النفسية والذهنية التي تشكل هذا الفخ، الذي دخل الغزاة إليه وهم يتوهمون أنهم سيقضون إجازة نهاية الأسبوع.

شيء آخر في بغداد، غير الحرش، سيفصح عن نفسه بالتدريج.

ما هو ؟ ما هو هذا الفخ ؟

إنه **«الدربونة»** ![1]

۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞ ۞

أردت مرّة أن أختصر الطريق إلى مركز عملي، كان الوضع الأمني سيئاً بعد الحرب، وكان الطريق الذي تعودت أن أمر عليه مهجوراً ومقفراً وموحشاً ـ كنت أسير على قدمي لأسباب تتعلق بالاقتصاد في الوقود، وكان الطريق المختصر ـ المفترض ـ يمر بالفضل، تلك المنطقة الشعبية القديمة التي تقع خلف المركز الصحي الذي كنت أعمل فيه.

لم أكن قد دخلت المنطقة من قبل، لكن الخارطة التي رسمتها لها في ذهني كانت تفترض أني سأدخل المنطقة بشكل مائل، لأصل بسرعة إلى نقطة ما عند الشارع العام، قريبة من مركز عملي، وكان ذلك من المفترض أن يوصلني بأسرع مما هو الطريق الاعتيادي.

ربما الأمر كذلك في نظرية فيثاغورس، ربما في البديهيات الرياضية «الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين» ربما في الخرائط المسطحة ذات البعدين..

لكن ليس في الفضل.

دخلت الزقاق وأنا لا أعرف بالضبط ما الذي سقت قدماي إليه، في نهاية الزقاق كان هناك ما بدا أنه الشارع العام، وتصورت أن خطتي ناجحة جداً، وأن الأمر سيكون أسرع مما توقعت..

---

(١) **الدربونة**: الزقاق البغدادي الضيق. وهي تصغير لكلمة (درب) بالعامية البغدادية.

وصلت إلى هناك. واكتشفت أنه شارع عام آخر ـ غير الذي كنت أريد الوصول إليه.

راجعت الخريطة التي في ذهني ـ ذات البعدين ـ لم أجد هذا الشارع. أين كان ؟ لا أدري.

عدت أدراجي، دلفت إلى زقاق جانبي معتمداً على إضافة قمت بها على الخريطة، وتصورت أني سأصل إلى الطريق العام المنشود.

لم يؤد الزقاق إلا إلا آخر، وآخر، وآخر..

بعد ربع ساعة، أدركت أني قد تأخرت..

.. وكان لا يزال عندي أمل..

بعد نصف ساعة كنت قد تأخرت فعلاً، ولم يكن عندي أي أمل.

لقد أدركت أني دخلت في حلقة مفرغة من الأزقة المتداخلة ـ والمتقاطعة فيما بينها. أدركت أني دخلت في متاهة من الدهاليز التي تنتهي بعضها بنهايات مسدودة، وتفتح بعضها على نفس بداياتها..

أسوء ما في الأمر كان جهلي بما يتصوره الناس، المتداخلين فيما بينهم، الذين يعرف بعضهم بعضاً تماماً ـ عن هذا الدخيل الذي يدور في أزقتهم الشعبية المحافظة ـ منذ نصف ساعة.

ولم أكن أدري ردود الأفعال التي ستصوب نحوي لو سألت أحداً أن يدلني الطريق، كان الأمر يتراوح بين اللطف والود والـ «عيني» والـ «آغاتي»[1] ـ والضرب وأقذع السباب والشتائم..

عندما استطعت الخروج، رجوعاً إلى نفس النقطة التي دخلت منها. كنت ألهث تقريباً..

وكانت خطتي قد فشلت تماماً، لقد دخلت من أجل اختصار الطريق، لكني تأخرت عن عملي أضعاف ما كنت سأتاخره لو سلكت الطريق الأصلي.. إنه الفخ، إنها الدربونة !



(١) عيني و آغاتي: كلمتا تحبب بغداديتان شائعتان جداً. عيني يقولها لك البغدادي ليفهمك أنك غال عليه كعينيه. و آغاتي من الآغا ـ السيد بالتركية.

ستقولون أن المناطق الشعبية التي تضم دربونة كهذهِ، قلَّت في بغداد.

وأن بغداد الحديثة، تضم شوارعاً وطرقاً منظمة وفق أحدث الخطط المدنية، وكما يجب أن تكون أي مدينة معاصرة، هذا صحيح.

بغداد الحديثة، ستبدو، للوهلة الأولى، مدينة معاصرة، مفتوحة.. لا مشكلة في اقتحامها.. لا مشكلة في فتحها.

مدينة منبسطة. مدينة بلا عوائق.. بلا حواجز .

لكن الفخ ليس بالضرورة واقعاً جغرافياً..

المشكلة التي ستواجه الغزاة، ليست دربونة المباني والأحياء السكنية التي واجهتني ـ والتي قلت وأشرفت على الانقراض..

لكن مشكلتهم، فخهم، سيكون مع تلك الدربونة الأخرى، المزروعة في النفوس.

المشكلة هي في تلك الدربونة المستعصية على الاستئصال الدربونة المقاومة للانقراض.

إنها الدربونة التي في الأذهان، والعقول، والأفكار.

لن أنسى صديقاً لي، عاش طيلة حياته متنقلاً بين أرقى أحياء الكرخ، بين اليرموك والمنصور تحديداً، ولم يعش ولا حتى يوم واحد في أي منطقة شعبية.

صديقي هذا، الأرستقراطي المظهر الحريص دوما على أناقته المميزة، كان يتمتم، كلما وضع في موقف معين ـ **يحرجه** ـ قائلاً «**هذا لن يرضي دربونة الجنابات**» حيث ينتمي بأصله البعيد جداً.

اليرموك أو المنصور أو الجادرية أو أي منطقة أخرى، ستضم «درابين» مختلفة، ما دامت تضم سكاناً تسكن الدربونة في داخلهم ـ **حتى لو كانوا يجهلون ذلك** ـ ..

الدربونة ستظل هناك.. ستظل هناك..

إنها مجموعة التقاطعات ، من التعرجات، مجموعة من التناقضات وعدد لا ينتهي من التداخلات.

إنها منتهى الود، ولكن، فجأة ، منتهى العنف، منتهى اللطف، ولكن أيضاً، **منتهى الفضاضة**.

قد يضيفونك ، لكن أيضاً قد يقتلونك.

وقد يكرمونك، وربما أيضاً يسرقونك.

اليد التي ستلوح وستصفق هي نفسها التي قد ترمي بالحجر، قد تكتب الشعارات المضادة، في ظرف آخر.

إنها منتهى الرعاية. ولكن أيضاً **«قصر النهاية»** .

إنها نفسية الخمسين درجة مئوية صيفاً، والصفر المئوي شتاءً..

إنها الفصول الأربعة، تتعاقب كلها في يوم واحد، في شخص واحد.

إنها المزاج العام يتقلب عدة مرَّات ـ **دون نسق واضح** ـ دون قانون خاص.

إنها أعراف الدربونة، جذورها عميقة وأساسها ثابت.

ستقولون، هل تقصد **«الشقاق والنفاق» التوأمين السياميين** ، المرتبطين تاريخياً بمعارك الفتن التي وجدت في العراق أرضاً خصباً لها.

الشقاق والنفاق ؟ ربما، إنهما موجودان في الجانب السلبي من حقيقة الدربونة، قبل نشوء الدربونة.

ولكن في الجانب الإيجابي، هناك تلك الصفات الأخرى، جمع من المتناقضات مرصوصة داخل ذلك النسيج الذي قد يبدو متنافراً وقد يبدو منسجماً في نفس اللحظة.

إنها الدربونة، التي دخلوها..، إنه الفخ الذي سقطوه فيه دون أن يعرفوا، دون أن يدركوا..

لا حرشَ فيتنامياً في بغداد..

ولكن هناك الدربونة..



عدت مبكراً محبطاً إلى بيتي ذات مساء.

كان الأمر بعد مضي شهر أو أكثر بقليل ـ **من سقوط بغداد** ـ وكان إحباطي سببه ما شاهدته عندما كنت أخرج من عيادتي، مروراً بذلك السوق التجاري الواقع تحتها.

على ناحية السلم، قرب بائع الإكسسوارات كانت تقف مجندتان أمريكيتان شقراوتان

ـ **أي أنهما جميلتان حسب المقاييس العراقية** ـ وكان يتحدث معهما ـ **بلطف بالغ وتملق شديد** ـ شاب عراقي.

كانتا تبدوان شديدتي السعادة بذلك..

كنت أعرف هذا الشاب، فقد كان دائم الحضور إلى السوق، أعتقد أنه صديق لواحد من أصحاب المحلات الشباب.

كان وسيم الشكل، مميز المظهر، يبدو عليه الثراء والترف الشديدين.

كان، حسب هذه المقاييس، أفضل من أي شاب ستتعرف عليه أي مجندة أمريكية وتخرج معه في مدينتها في الولايات المتحدة ـ لا أظن أي واحدة منهما ستحلم بشاب في ثرائه وترفه لو كان أمريكياً.

كانتا بعد كل شيء، مجرد فتاتين جاءتا من أقصى الدنيا معرضتين حياتهما للخطر، من أجل الحصول على مزيد من النقود، ربما لتسديد نفقات دراسة جامعية، أو إعالة طفل بلا أب.

لم يكن لديهما أي فرصة، للحصول على شاب مترف وثري مثله، حتى بالمقاييس الأمريكية.

لكن هناك، عند ناحية السلم، قرب بائع الإكسسوارات ـ **لم يكن الشاب يبدو أنه صاحب اليد العليا في الموضوع.** كان يتكلم بمبالغة في اللطف، بمبالغة في التملق.

نعم، كان هذا الشاب ينتمي لبلد محتل. وكانت المجندتان تنتميان لقوة الاحتلال.

كان هذا الشاب ينتمي لوطن مهزوم، وكانت هاتان المجندتان تنتميان للقوة التي هزمته.

وكان ذلك يقلب الموازين، ينفي أي مواصفات جذابة كان الشاب يمتلكها، وكان يمكن أن يستغلها ليحصل على الفتيات.

كان يبدو مجرد كلب ذليل، وقد وضع ذيله بين ساقيه بتزلف لسيده ـ **المحتل** ـ ..

(أراهن أنه بمواصفاته هذه كان قبلها يبدو نمراً في مواقف مشابهة..) .

لكن الآن : مبالغة في إظهار التملق، دون أن يجرؤ حتى على التصور أنه قد يحصل على مبتغاه.

مبالغة في إظهار التملق، فقط ليحصل على كلمة ود، أو ابتسامة، أو كلمة مجاملة، أراهن أنه سيكون سعيداً جداً بها ـ **كما لو كان قد نال مبتغاه من نساء العالم جميعاً.**

إنه الاستلاب، إنه الاحتلال في أبشع صوره، أن يدخل الاحتلال داخلك، فلا تتصور **عزةً ورفعةً لك، إلا بالتذلل له والتملق له، وأن تكون حثالتهم مقياساً لنخبتك، وأن يكون رضاهم أقصى غاياتك، وأعز أمانيك.**

كان الشباب في السوق ينظرون بوجوم، فكرت بحزن، كم واحدٌ منهم يحسده، ويتمنى أن يكون مكانه، وكم واحد منهم يحتقره، وكم واحد منهم يفهمه حقاً ـ ويفهم أنها ليست نوازع الحيوان الذكوري هي التي تحركه، ولكنها سلوكيات المهزوم وسايكولوجياته.

أحبطني ذلك.

لو كان عدد الشباب الذي يحسدونه أكثر من أي صنف آخر، لكان ذلك يعني أنهم تمكنوا منا، وأنهم دخلوا إلينا فعلاً، احتلونا فعلاً.

أحبطني ذلك بلا حدود، بلا حدود.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁ ❁

وذكرني هذا الشاب المترف العابث، بشاب آخر، صورته معلقة على باب المسجد، إنه ذاك الشاب المفقود، فراس عبد الجبار، الذي خرج ولم يعد ليلة سقوط بغداد، والذي لاتزال والدته تهرع إلى الباب كلما طرقه طارق.

تذكرت الشابين معاً، كلاهما مفقود بطريقة، كلاهما **«خرج ولم يعد»** بطريقة ما.

ربما أم الشاب الثاني أحق من الشاب الآخر بالبكاء والعويل عليه، لكنهما معاً، رمزٌ لذلك الجيل الذي تآمرت عليه الدنيا كلها، وانتهى بأن فقد.

واحد بأن خرج من بيته ولم يعد ليلة سقوط بغداد. و واحد بأن خرج من تاريخه، من أمته، من وعيه، ومن دينه ومن كل تفاصيل واقعه، بعد سقوط بغداد.

ذلك الشاب، وصورته في ذهني، وهو يتملق لتلك المجندة، وشباب السوق في

وجوم - في ذهول - في قلق.

كم واحد منهم مفقود، كم واحد منهم سيخرج ولن يعود - من بيته أو من تاريخه..

هذا هو السؤال.

وجوابه هو القضية بأكملها، القصة بكامل تفاصيلها..!



عدت الى البيت وأنامحبط.

لم أتعشَّ، أكلت همومي فقط، وكانت كثيرة.

ولم أتكلم، لم أخبر زوجتي بما رأيت في السوق.

لو أني كنت تكلمت، لصرخت.

لكني سكت، ونمت.

وعند الفجر لم أحتمل، وحكيت لها ما رأيت، أُحبطت أيضاً، كنت سعيداً بأني أشركت أحداً في إحباطي وكآبتي، هذا هو ابن آدم، إنه يفرح في إيذاء الآخرين عندما يكون متألماً.



ظهراً، عادت زوجتي من روضتها، لم يكن يبدو عليها الإحباط، أبداً.

أما أنا فكنت لا أزال.

قالت لي : لا تزال محبطاً ؟

اسمع ماذا فعل ابنك اليوم !

وحكت لي.

جاء جنود الغزو إلى الروضة، ومعهم عضوة منظمة تبحث عن موقع لروضة معينة

سبق أن قدمت شكوى الى ما يسمى بالإدارة المدنية لقوات الاحتلال.

لم يجدوا الروضة المعنية بالموضوع، وقرروا أن يسألوا روضة أخرى عن المكان الذي يبحثون عنه.

ودقوا الباب على روضة زوجتي.

على روضة ابني .



كان الجندي الأمريكي واقفاً بالباب.

وأمامه كان ابني يتأمل الرشاش والطلقات والخوذة وبقية تفاصيل العدة التي يحبها الأطفال في سنه.

وربما كان الجندي ينفذ التعليمات الصادرة إليه بإظهار اللطف والمودة لكسب عقول وقلوب العراقيين.

وربما كان لطيفاً هو بشكل شخصي..

المهم أنه مدَّ يده، لابني، وقال بلطف: Hello

لكن ابني، سحب يده ووضعها خلف ظهره.

وقال : NO !

وقعت الكلمة كالصاعقة على ذلك الجندي، ردد باستغراب، بتساؤل: NO ؟

أخفى ابني يده خلف ظهره أكثر ـ بتصميم أكبر.

ونفخ صدره.

وقال بصوت أعلى، بوضوح : NO !



إنه نفق مظلم، الداخل فيه مفقود.

لكن الخارج منه مولود.

وبين أن تكون مفقوداً وتكون مولوداً، خيط رفيع فاصل، قد يكون صعباً.

لكن فلنأمل أن لا يكون مستحيلاً.

وتلك الكلمة التي قالها ابني ، NO ، أشعلت شمعة لتنير ذلك النفق، الذي الخروج منه ولادة.



ليلتها، ذهبت إليه وهو نائم، احتضنته بشدة، أحسست أني بحاجة لأن أحتمي به هو، أكثر مما هو بحاجة إلي الاحتماء بي تأملت رأسه الغالي، وتمسكت به.

تذكرت، لو كانوا قد جاؤوا من أجل النفط، فهذا أعلم أني قد لا أستطيع مقاومتهم فيه الآن.

لكن، لو كانوا جاؤوا من أجل هذا الرأس، فهذا ما لن يساومني أحد عليه، فهذا ما سأدافع عنه كما تدافع قطة عن صغارها، بأظافري.

لو كانوا جاؤوا من أجل هذا الرأس، من أجل تغييره، من أجل إعادة تكوينه وتركيبه، فهذا ما سأقاوم عليه، وسأصمم عليه.

نعم، إني أريده أن يتغير، بل إني مصمم على التغيير، لكن ليس التغيير الذي يريدون.

لا أريده أن يكون مثلي، مثل جيلي، جيل الرجال الذين جلسوا يبكون بينما مدينتهم تسقط.. وتحتل.

ولا أريده أن يكون مثل جيل أجداده الذين احترفوا السكوت، احترفوا إظهار الطاعة، من فرعون إلى الخليفة، ومن الملك إلى القائد الضرورة.

وصولاً إلى التحصيل الحاصل: الغزاة..

لا أريـد

لا أريد تلك الـ «نعم» الذليلة الخائبة التي أوصلتنا إلى ما أوصلتنا إليه.

بل أريده أن يقول «لا» .

ولقد قالها.

نعم. لقد قالها ..!

NO!

أغمض عيني وأنا أحتضنه..

و أحلم ببغداد أخرى، بغداد وهي تنهض من كبوِتها، وتتحرر من محتلها، من مستبدها، من أي إمكانية لوجود مستبد آخر يوصلنا لمحتل آخر.

أغمض وأنا احلم بهما معاً. هو وهي، هو، والأطفال من أقرانه جيل يولد بدلاً أن يفقد ـ **وهي بغداد** ـ تحتضنهم وهم يكبرون، وهم يولدون، تستحقهم ويستحقونها.

بغداد ـ الأخرى، **وبغداد** ـ الجيل الآخر، تحتاج إلى شاهد آخر ليروي حكايتها، أما أنا فكنت شاهد السقوط فحسب **(حتى الآن، على الأقل)**..

لكنكم كلكم تستطيعون أن تكونوا شهوداً بمعنى ما.

راقبوا الأخبار، اقرؤوا ما بين السطور، تابعوا ما سيتمخض عن الأمور.

واشهدوا إرهاصات ذلك الجيل القادم لا محالة. جيل الولادة.

وتذكروا ما أقول.



عندما روينا ما فعل ابني لخالتي، كان رد فعلها المتوقع هو ما تعودت أن تقوله لنا كلما فعل شيئاً مميزاً ..**(لا تخبروا أحداً)** إنها تخاف عليه من الحسد.

إنني لاأكتفي بإخباركم، ولكن أقول لكم أيضاً : **أخبروا الجميع.**

و أدعو الفرد الصمد، الواحد الأحد، أن يحميه وينجيه.

إنه أملكم . هذا الطفل وجيله، إنه طوق نجاتكم.

إنه هو الذي سيقدم لكم الترياق (.. من يدري؟ فقد يأتيكم الترياق من العراق..؟)

أقول لكم : راقبوا... وصلوا .. وادعوا..

وقولوا معه .. NO

وقولوا معي : آمين.

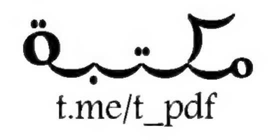
انتهت؟

بغداد المحتلة

ليلة النصف من شعبان ١٤٢٤

الموافق ١١/ ١٠/ ٢٠٠٣





فهرس الموضوعات





ليلة سقوط بغداد

الصمود هو أن تبقى، أن تحسم أنت أمرك،

بينما يحزم الآخرون حقائبهم.

الصمود هو أن تبقى من أجل أولادك

بينما يغادر الآخرون -حسب قولهم- من

أجل أولادهم.

وتحت القصف، وفي عز القصف،

وعنف القصف، تقف تحت السقف

الذي -ربما- يهتز، دون أن تشك لحظة

في صواب قرارك، وتصمد.

ورغم القصف: يبقى الأمل.

ليلة سقوط بغداد ...



ISBN 9953-32-100-0